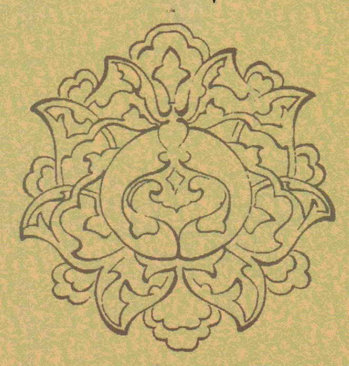


حُرقة الفؤاد
في مصائب
الإمام الجواد عليه السلام



عادل عبدالرحمن البدريّ

بسم الله الرحمن الرحيم

حُرقة الفؤاد

في مصائب

الإمام الجواد عليه السلام

عادل عبدالرحمن البدري

بدري، عادل عبدالرحمن، ١٩٥٦ ـ م .
حرقة الفؤاد في مصائب الإمام الجواد عليه السلام / تأليف عادل عبد الرحمن البدري . ـ مشهد: مجمع البحوث الإسلاميّة، ١٤٣٥ ق ـ ١٣٩٣ش .
٣٣٠ ص. ISBN 978-964-971-834-7
فيپا.
١. محمد بن علي عليه السلام، امام نهم، ١٩٥ ـ ٢٢٠ ق. ٢. امامت ـ احاديث ٣. خلافت ـ تاريخ.
٤. ائمه اثنا عشر ـ سياست و حكومت. الف. بنياد پژوهشهاي اسلامي. ب. عنوان.
BP ٢٢٣ / ٤ ب ٤ ح ٤١١٣٩٣ ٢٩٧ / ٤٥
كتابخانه ملي جمهوري اسلامي ايران ٣٦٠٥٧٦٣





حرقة الفؤاد في مصائب

الإمام الجواد عليه السلام

عادل عبد الرحمن البدري

مراجعة : ناصر النجفي

الطبعة الأولى ١٤٣٦ ق./ ١٣٩٣ ش./ ١٥٠٠ نسخة ، وزيري
الثمن : ١٢٨٠٠٠ ريال ايراني
المطبعة: دقت
مجمع البحوث الإسلاميّة، ص.ب ٣٦٦-٩١٧٣٥
هاتف و فاكس وحدة المبيعات في مجمع البحوث الإسلاميّة: ٣٢٢٣٠٨٠٣
معارض بيع كتب مجمع البحوث الإسلاميّة، (مشهد) ٣٢٢٣٣٩٢٣، (قم) ٣٧٧٣٣٠٢٩
www.islamic-rf.ir info@islamic-rf.ir

المقدّمة

الحمـد لله ربّ السـماوات والأرضـين وربّ المشـارق والمغـارب، والصـلاة والسلام على النبيّ المصطفى المختار محمّد الهاشميّ العربيّ القرشيّ الأبطحيّ الذي بعثه الله هدى ورحمة للعالمين، وعلى آله الميامين الأكارم الذين اصطفاهم وطهّرهم، وعلى أصحابه الأخيار المنتجبين الذين تمسّكوا به وبآله الطاهرين المعصومين، ولم يتبدّلوا أو يبدّلوا القول من بعده، صلاة تامّة دائمة ما قام الليل والنهار.

لايمكن أن يعدّ التاريخ البشريّ الذي عاش فيه الإنسان قبل عصر النبوّات من عصور المدنيّة والحضارة البشرية، وربّما يُعزى ذلك إلى فقدان التقدّم النوعيّ، وتوقّف الرقيّ البشريّ الذي أراده الله للإنسان، فالصورة المحصّلة من إنسان ما قبل عصر النبوّات هو الركود والانغلاق الذي زوى الإنسان به نفسه، فلم يتجاوز دائرته الضيّقة التي حصر نفسه فيها، ولعلّ الخمود والركود البشريّ يتجلّى في انعدام المسؤولية، وانعدام العقل المبدع، وجهل الإنسان بأسرار العالم وما وراءه من قوّة جبّارة مدبّرة، وغياب القانون الذي يعلّم الإنسان احترام الحدود والموانع الموضوعة في شرائع وأنظمة، والتي يعدّها ويقرّرها الله تعالى، فيوحيها إلى الأنبياء والرسل، فتصل في رسائلهم ودعواتهم المبلّغة إلى العباد، لتهيئتهم لقبول الانضباط الأخلاقيّ والاجتماعيّ الذي يكبح به الإنسان نوازع الغرائز السلبية ويسيطر عليها،

ويصدّه عن دوافع الشرّ والعدوان، ويغرز بدلها قيم الخير والمحبّة والإخاء والبناء.

كما و إنّ ضعف الإدراك العقليّ في هذه المرحلة الغابرة في مجمل حياة الإنسان المظلمة ـ والتي كانت مرحلة أدنى من مرحلة السذاجة، حيث لم يستطع الإنسان فيها أن ينظّم علاقاته مع نفسه وغيره من جنسه البشريّ، في جملة من الأعراف والاعتبارات التي أقرّتها الشرائع فيما بعد، والتي جاءت بها الأديان في عصر النبوّات ـ تعدّ من عوامل تهافت الإنسان وانحداره، فهام الإنسان القديم في عصور مظلمة خلت في فوضى عارمة، وعاش في صراع مرير واستلاب واحتراب مع أخيه الإنسان، بل يمكن عدّه بأنّه إنسان العصور المبهمة المدلهمّة بظلمتها وجاهليتها، والتي اتّصفت بالهمجيّة والتوحّش التي شهدتها الأرض فيما غبر من التاريخ القديم[1]، لأنّ الإنسان آنذاك كان غير آبه بالقيم والأعراف الإنسانية، و إنّما

١- ربّما يستنتج الباحث بأنّ قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾(البقرة: ٣٠). يؤكّد أو يوحي بأنّ جهل الإنسان ونزعته الفطريّة نحو الشرّ والحرب والدمار كانت شبه متأصّلة فيه، لأنّها تتكرر في تجارب كثيرة سابقة لحظتها الملائكة. ولكنّ التأمّل في قول الخالق، والذي جاء جواباً لهذا الاستنتاج والقياس الذي قاست به الملائكة على ما كان من سابق عهد الأرض القديم: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ يوحي أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لهذه النزعة الشرّيرة ـ والتي لمستها الملائكة في مشاهد مكرّرة في الأرض ـ معادلاً ومضاداً اتّضح بالنبوّات وما اتّصل بها من وصيّة تتصل بعصور النبوّات وما تلاها، والتي أريد بها تهذيب النفوس وتطهيرها وكبح نوازع الشرّ والعدوان التي كانت تشهدها الملائكة في عصور التاريخ البشريّ الغابرة، أو تاريخ المخلوقات الأخرى التي تناسختها الأرض. ولعلّ من يعتقد القراءة الأخرى للآية، وهي خليقة بالقاف، بدل الفاء كما جاء في **كشّاف** الزمخشريّ ١:١٢٤ ـ في قراءة غريبةٍ شاذّة يذهب إلى فساد الأرض بقوى أخرى ليست من جنس البشر، و إن

كان سعيه وهمّه منصبّاً في إشباع نزواته وشهواته الطبعية، بأيّ طريق يراه سهلاً وسريعاً للوصول إلى غاياته، رغم بساطتها وضآلتها.

وإذا اعتبرنا أنّ تاريخ الإنسان قبل عصر النبوّات يدخل ضمن عصور ما قبل التاريخ، لم نكن مغالين في ذلك، لأنّ مسار حركة الرقيّ للإنسان قد بدأت ـ ولو بشكل محدود ومتواضع نسبيّاً ـ مع فجر عصر النبوّات؛ قال تعالى ﴿**فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ**﴾[1]، وهم هنا عدّة عاشت فجر النبوّات و الهداية والصلاح، والذين كانوا ـ على مايبدو من منطوق الآية ـ ممثّلين بعدّة من البشر الصلحاء يؤسّسون بدء الحضارة والتمدّن، وظلّت بقاياهم من عباد الله الصالحين الذين ارتضت السماء بهم كرسل إلى الناس، تدب في الأرض لتكمل هذا المسار الإصلاحيّ؛ قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ**﴾[2]. وفي هذه الآية دلالة على حصول تأثير واضح في الأرض في حياة الإنسان، وتنظيم شؤون حياته، وكبح نوازع الشرّ والفساد الذي كان طاغياً في مرحلة عصر الجهل و رفض هداية الأنبياء والمرسلين، والذي امتدّ إلى ما بعد ذلك من عصور، لأنّ الإنسان بطبيعته قد يميل إلى الحرب والتدمير، وهو لا يستطيع بنفسه الوصول إلى معرفة الخير أو تحقيق وجود اجتماعي منظّم، فلابدّ له من سلطة دينية وقانونية لفرض القانون وفرز الحقوق وتحديدها.

قلنا بهذا الرأي، أو صحّت هذه القراءة وقبلت، فاليأس من صلاح الإنسان هنا قد يكون مرفوضاً، لأنّ احتجاج الملائكة وقياسهم ليس في محلّه.

١- هود: ١١٦.

٢- المائدة: ٣٢.

وقد شهد التاريخ البشريّ تاريخاً ربّما كان طويلاً لحدّ ما من الحكّام والملوك[١] الذين فرضوا موانع وروادع لِلَجم الشرّ وتقييده، إلّا أنّ هذه الحركة كانت ناقصة ومحدودة، فافتقرت إلى الوحي والتشريع الإلهيّ الذي ينظّم حياة الإنسان ويقلع جذور الشرّ والفساد من الأرض، فجاءت خلافة العبد الصالح الأمين على البلاد والعباد في الأرض؛ قال تعالى: ﴿**إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾[٢]، إلّا أنّ الأُمنيّة التي كان يتمنّاها الأنبياء في تحقيق الموادعة والسلم والأمن البشريّ لم تكن مُرضيّةً في هذه الأعصر، ومع ذلك فهي أفضل نسبيّاً من المراحل السابقة، وربّما عدّها بعضهم تقدّماً بشريّاً ولو بنحو محدود، مستنبطاً من وحي النصّ القرآنيّ في قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ**

١- شهد تاريخ العراق القديم، وهو الألف الرابع ما قبل ميلاد السيّد المسيح عليه السلام ظهور ملك بابليّ اسمه حمورابي، كان مقنّناً لمجمل حياة البابليين، فاشتهر بمسلّته المعروفة بمسلّة حمورابي أو شريعة حمورابي، وهي مسلّة لها أهمّيتها في تاريخ الفكر القانونيّ، لأنّها تعدّ أوّل شريعة مدنية، هذه الشريعة التي وضعت قوانين ربّما كانت شاملة لذلك العصر، وحتّى لحفظ حياة النباتات والأشجار، ومنها النخلة، وهذه الشجرة العظيمة التي حظيت باهتمام المشرّع البابلي كانت أساس الاقتصاد البابليّ القديم، فقد وردت مادّة قانونية بفرض غرامة على من يقطع نخلة دون موافقة صاحب البستان، وأجبرت مادّة قانونية أخرى البستانيّ الذي يترك البستان دون تلقيح على أن يدفع لصاحبها قدر إنتاج بستان جاره. ينظر: سامي سعيد الأحمد، **حضارة العراق** ٢: ١٦٧ ـ ١٦٨

٢- البقرة: ٣٠.

﴿بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١]، أو بأنّ ما حصل قد يكون هو نوعاً من التحوّل الكبير آنذاك، وبالضرورة التاريخية للتطوّر البشريّ.

فالباحث حين يحكم يكون حكمه وفقاً لمعايير ذلك الزمن، يقول الشيخ محمّد مهدي شمس الدين: وقد حقّق الإنسان بإشراق عهد النبوّات قفزة نوعيّة عظيمة وحاسمة في تطوّره نحو الأعلى وتكامله، فقد خرج المجتمع البشريّ بالنبوّات عن كونه تكويناً حيوانياً بيولوجيّاً إلى كونه ظاهرةً عقلية روحية، لقد عَقلَنَت النبوّات المجتمعَ الإنسانيّ ورَوحَنَته، وحقّقت النبوّات للإنسان مشروع وحدة أرقى من وحدته الدموية البيولوجية التي كانت سائدة قبل عهد الخلافات والانقسامات والصراع، وهي الوحدة القائمة على أساس المعتقد، وبذلك تطوّرت العلاقات الإنسانية مرتفعة من علاقات المادّة إلى علاقات المعاني[٢]. و إذا كانت هذه المرحلة وفقاً لسنن التاريخ ضروريّة ومتسوّرة نحو العلوّ والسموّ البشريّ، فإنّ استكمال هذه المرحلة وتتميمها لابدّ أن يكون ضرورياً بضرورة لايمكن الاستغناء عنها، لئلّا تحصل عمليّة انتكاسٍ وارتداد للإ نسان الذي يتربّص به عدوّه إبليس الذي فتن الآباء، فتُنهي هذه الردّة الشيطانية آمال الأنبياء، وقد تضيّعها في متاهات من الجهل والسقوط السياسيّ والأخلاقيّ، فكانت إرادة السماء للإنسان أن يواصل هداه وسيره بعنوان مكمّل لمسيرة الأنبياء؛ يتعرّف بمسير آخر يقال له: الخلافة أو الوصيّة أو نحوها، وقد يجوز لنا تسميتها بعصور الإمامة، ولا يخفى أنّ هذه المرحلة من العصور لها امتداداتها الحاضرة إلى أزمنتنا المعاصرة، ولها تشعّبات تمتدّ إلى أجيال قادمة، لاندركها ولانعلم ما تؤول إليه ثقافاتهم

١- البقرة: ٢١٣.

٢- **حركة التاريخ عند الإمام عليّ** عليه السلام : ٦٧.

واعتقاداتهم.

ولعلّ من المناسب لهذا الكلام هنا أن نقول: عُرِف هذا العنوان أو تسمّى بالخلافة أو الوصيّة في مجمل معتقدات المسلمين والشيعة منهم أيضاً، و إذا كانت الفرق الإسلامية تعرّف هذه المرحلة باسم قد يتغاير مع اسم الإمامة أو الولاية التي تطلقها مقالات وكتب الشيعة، فإنّها بالضرورة تلتقي مع معتقدات الشيعة في المنطلقات والأسس الابتدائيّة والأوّليّة، ولكنّها تختلف معها في تحديد الأسماء والأعداد لهذه الوصيّة والخلافة التي لابدّ منها. وربّما كانت هناك أجيال متّصلة بعصور الأنبياء الماضين تعرف هذا العنوان، إلّا أنّ التسمية ربّما جاءت متطابقة، أو كانت مغايرة تغايراً نسبيّاً لعناوين الشيعة.

ومجمل القول في هذا الموضوع هنا: كان وما يزال للشيعة في هذا المجال احتجاج قويّ، مُستندِين إلى أدلّة عقليّة ونقليّة، يقول ببعضها أهل السنّة والجماعة، تؤول و تنتهي إلى نتيجة منطقيّة مفادها أنّ الأرض لم تكن خلت مِن قبلُ مِن وصيّ، أو وليّ، أو رسول أو نبيّ، أو قطب، أو وَتَد، أو حجّة، وما إلى ذلك من الأسماء والمصطلحات، يُصلِح به الخالق جلّ وعلا البلاد والعباد في المرحلة الأولى من عصور الهداية والتبليغ، أو عصور النبوّات، أو عصور الأديان، أو غيرها من التسميات.

كما ويعتقد الشيعة أنّ الأرض في كلّ مراحلها ـ سواءً كانت في مرحلتها الأولى أو الثانية أو ما بعدها ـ لم تكن خالية من حجّة على مرّ الأعصار والأزمان، وقد رُوي عن الإمام الصادق أو الإمام الباقرعليهما السلام: «أنّ الله لم يَدَعِ الأرض بغير عالِم، ولولا ذلك لم يُعرَف الحقّ من الباطل»[1].

١- يراجع: **الكافي** ١/ ١٦٨ ـ باب الاضطرار إلى الحجّة.

كما وإنّ ديمومة هذه الأرض مرهونة بهذا العبد الصالح، وقد سأل الوشّاء[1] أبا الحسن الرضاعليه السلام: «هل تبقى الأرض بغيرإمام؟ قال: لا، قلت: إنّا نروي أنّها لاتبقى إلّا أن يسخط الله عزّوجلّ على العباد، قال: لا تبقى إذاً لساخت»[2]. وقد روي عن أبي جعفرالباقرعليه السلام أنّه قال: «إنّ الحجّة لا تقوم لله على خَلقه إلّا بإمامٍ حيٍّ يُعرَف»[3]. يُعرَف»[3]. وكذلك رُوي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الأرض لا تكون إلّا وفيها حجّة، إنّه لا يُصلح الناسَ إلّا ذلك، ولا يصلح الأرض إلّا ذلك»[4]. وجاء في خبرعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لو كان الناس رجلَينِ لكان أحدهما الإمام»، وقال عليه السلام: «إنّ آخرمن يموت الإمام، لئلّا يحتجّ أحدٌ على الله عزّوجلّ أنّه تركه بغيرحجّة لله عليه»[5]. وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «واللهِ ما تركَ اللهُ الأرض منذ قبض آدم عليه السلام إلّا وفيها إمام يُهتدى به إلى الله، وهو حجّة الله على العباد، مَن تركه هلك، ومن لزمه نجا، حقّاً على الله تعالى»[6]. وجاء في خبررواه

١- الوشّاء: هوالحسن بن عليّ بن زياد الوشّاء البجليّ الكوفيّ، من أصحاب الإمام الرضاعليه السلام، وكان وجهاً من وجوه الطائفة، وعيناً من عيونهم. والوشّاء لقب جاء له، لأنّه كان يبيع الثوب الموشّى، أي المرقوم، من قولهم: وشّيت الثوب ووشيته. بالتخفيف. إذا رقمته، وكلّ نقش رقم، والثوب موشّى والرجل وشّاء.. ينظر: **فهرست الشيخ الطوسيّ**: ١٩٥ / الرقم ١٩٧، **فائق المقال في الحديث والرجال**: ١٠١ /الرقم ٢٧١، **ترتيب جمهرة اللغة** ٣: ٥٩١ (وشى).

٢- **الكافي** ١: ١٧٩ كتاب الحجّة / ح ١٣، باب أنّ الأرض لاتخلو من حُجّة.

٣- **الاختصاص** للشيخ المفيد: ٢٦٨.

٤- **المحاسن** للبرقيّ :٢٣٤ / ح ١٩٣.

٥- **الكافي** ١: ١٨٠ / ح ٣.

٦- **الإمامة والتبصرة من الحيرة** : ٣١ /ح ١٥.

الصدوق عن أحمد بن عمر الحلّال[١]، قال: «قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: إنّا روينا عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: إنّ الأرض لاتبقى بغير إمام، أوَ تبقى ولا إمام فيها؟ فقال: مَعاذَ الله! لاتبقى ساعةً إذاً لساخت!» وروى عن إبراهيم بن أبي محمود[٢]، قال: قال الرضا عليه السلام: «نحن حجج الله في خلقه، وخلفاؤه في عباده، وأمناؤه على سرّه، ونحن كلمة التقوى، والعروة الوثقى، ونحن شهداء الله وأعلامه في بريّته، بنا يُمسك اللهُ السماواتِ والأرضَ أن تزولا، وبنا يُنزّل الغيث وينشر الرحمة، ولاتخلو الأرض من قائمٍ منّا ظاهر أو خافٍ، ولو خلت يوماً بغير حجّة لماجت بأهلها كما يموج البحر بأهله»[٣].

وذكروا أنّ الهدف الاجتماعيّ من الإمامة ـ بالإضافة إلى ما أخبرتنا عنه النصوص من أنّ الأرض لايمكنها تكويناً أن تخلو منها باعتبارها الحجّة على الخلق وإلّا لساخت بأهلها ـ هو القيام بأمرين أساسيين في المسيرة الحضارية للبشرية: الأوّل: الحاجة القصوى إلى وجود موجِّه للمسيرة البشرية يعمل لإكمال نقص المجتمع، بمنحه تعليمات الإسلام النقيّة، ودفعه نحو تطبيق تشريعاته تطبيقاً دقيقاً حيّاً، وهذا الموجّه يجب أن يكون في مستوى هذا التوجيه، حاملاً لكلّ المؤهّلات اللازمة لذلك.

١- قال ابن داود: أحمد بن عمر الخلّال ـ بالخاء المعجمة ـ كان يبيع الخلّ، وفي نسخة: بالمهملة: كان يبيع الحلّ، أي الشيرج. **كتاب الرجال** القسم الأوّل: ٣٥ / الرقم ١٠٤. والحلّ، بفتح الحاء: دهن السمسم. ويقال له أيضاً: الشيرج. لسان العرب، مادّة (حلل).

٢- إبراهيم بن أبي محمود الخراساني: ثقة مولى، روى عن الإمام الرضا عليه السلام، ولقيَ أبا جعفر الثاني عليه السلام، عدّه الشيخ الطوسيّ من أصحاب الإمام الكاظم والرضا عليهما السلام. ينظر: **فائق الرجال**: ٧٨ / الرقم ١٥، **رجال الشيخ الطوسيّ**: ٣٤٣ و ٣٦٧، **رجال الكشّيّ**: ٥٦٧.

٣- **كمال الدين وإتمام النعمة**، للصدوق: ٢٠٢ ـ الباب ٢١ / ح ٦.

الثاني: أنّ المجتمع يحتاج إلى المثال الأعلى للتعامل، ليعيش معه حسّاً ويمارس أمامه حسّاً واجبات الشريعة، وينخرط حسّاً معه في عداد من يحملون هذه الرسالة، وهكذا بالنسبة إلى مختلف المرافق الحيوية الإنسانية. فوجود المَثَل السامي قد يفوق تأثيرات أيّ توجيه فكري خالص[١]. وهذا التجسيد الاجتماعي للقائد والقدوة عبّر عنه الشيعة بقولهم بضرورة الإمام المعصوم و الوليّ الحجّة الضرورة للحياة البشرية.

ويقول الكاتب سعيد يعقوب: الواجب أو الضروريّ ـ بمعنى الحتميّ ـ أن يكون الإمام هو الجامع والرابط بين الناس، الجاذب لهم والموطّد لأواصر التقارب والتلاحم فيما بينهم، هذا هو الأمر الطبيعيّ والسليم الذي يرسل الله تعالى الأنبياء عادة ويزوّدهم بالأوصياء من أجله. أمّا مخالفته فإنّها تدخل في باب مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها، الأمر الذي يلزم عنه بالضرورة شعور الإنسان بالضنك وقسوة العيش، لأنّ الإعراض عن الفطرة الإلهيّة والإعراض عن سبيل الله هو الذي يورث المشقّة، وهو الذي يجعل الإنسان يتخبّط على غير هدى. وليس المقصود بضنك العيش هنا: الاحتياج والفقر، أو الشعور بالظلم وما شابه ذلك، إنّما المقصود هو اغتراب النفس وابتعادها عن راحتها وطمأنينتها بالدرجة الأولى، فكم من موسر، وكم من جبّار، وكم وكم من أولئك الذين يتصوّر الناس أنّهم بلغوا رتبة السعادة في الحياة الدنيا، تجدهم في حقيقة أمرهم يعانون من آلام القلق والاضطراب، وعدم الاستقرار والسكينة.

ويجد المتابع للمنهج القرآني أنّ ذروة الدعوة لديه منصبّة في إخراج هذا الكائن البشريّ من مثل هكذا ضنك والدفع به نحو مدارج السعادة، لكنّ هذا

١- محمّد عليّ التسخيريّ، **من حياة أهل البيت** عليهم السلام، :٣١.

لايتحقق بحسب الطرح الديني على أساس حلّ المشكلات الحياتية اليومية، كما يتصوّر بعضهم، وإن كانت الراحة شيئاً حاسماً في هذه الحلول، وإنّما يتحقّق على أساس فكّ رموز الوجود، والتعرّف على معناه، الأمر الذي يوطّد معرفة الغاية من ورائه، وعند هذه المعرفة بالذات تستوي اللذائذ الدنيوية مع الآلام، لتشكّلا بالنسبة إلى العارف بهذه الحقيقة بُعداً مادياً ليس هو المقصود من وجوده، فيتألّق في السير نحو بعده الحقيقيّ الذي هو جوهر ذاته. وهنا عند هذه النقطة تكمن أهمّية معرفة الإمام، بحسب ما جاء عن الإمام الرضا عليه السلام في معرض وصفه للإمام أنّه معدن القدس والطهارة[1].

وهذه القداسة والطهارة لابدّ لها من رمز يتحرّك على الأرض، يُستدام حضوره فيها، ومن هذا الأساس جاءت فكرة المهدوية المكمّلة للإمامة أو الخلافة، أو الصفحة الأخيرة منها، أو الرمز الأخير. وهذا الرمز هو الإمام الكامل المسدَّد المعصوم، و الذي تتحدّث به الأخبار وتَعنيه، انطلاقاً من مفهوم الخلافة أو الإمامة التي يعطيها الشيعة دوراً أكثر وأكبر ممّا يعطيها أهل السنّة والجماعة، باعتبارها الخلافة الإلهية في الأرض.

ومهمّة الإمام الأساسيّة استخلاف النبي صلى الله عليه وآله في وظائفه من هداية البشر، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة. ومن هذا الاعتبار فالإمام هو الذي يفسّر لهم القرآن، ويبيّن لهم المعارف والأحكام، ويشرح لهم مقاصد الشريعة، ويصون الدين من التحريف والدسّ، وله الولاية العامّة على الناس في تدبير شؤونهم ومصالحهم، وإقامة العدل بينهم وصيانتهم من التفرقة

١- **معراج الهداية**، دراسة حول الإمام عليّ عليه السلام ومنهج الإمامة : ٢٣.

والاختلاف [١].

وبذلك تواترت أخبار كثيرة وتقاربت في هذا المضمار، ومن هذه الأخبار قول النبي صلى الله عليه وآله: «إنّي لكم فرط، وإنّكم واردون عَليّ الحوض، فانظروا كيف تُخلفوني في الثقلين» [٢]، قيل: يا رسول الله، وما الثقلان؟ قال: الأكبر كتاب الله، سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم، فتمسّكوا به، لن تُزالوا ولاتُضلّوا، والأصغر عترتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض، وسألت لهما ذاك ربّي. فلا تَقَدَّمُوهما لتهلكوا، ولاتعلّموهما فإنّهما أعلم منكم» [٣]. ونحوه قوله صلى الله عليه وآله أيضاً: «أيّها الناس، إنّي تارك

١- ينظر: **أزمة الخلافة والإمامة** لأسعد القاسم: ٣٤.

٢- قال ابن الأثير في علّة تسميتهما بالثقلين: لأنّ الأخذ والعمل بهما ثقيل، ويقال لكلّ خطير نفيس: ثقيل، فسمّاهما ثِقَلين إعظاماً لقدرهما وتفخيماً لشأنهما. **النهاية** ١: ٢١٦.

٣- وعترة الرجل: نسله. وربّما جعلوا أسرته عترته. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٤٩٤ (عتر). وقيل: عترته هم رهطه وعشيرته الأدنون، من مضى منهم ومن غبر، ومنه قول أبي بكر: نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله التي خرج منها وبيضته التي تفقّأت عنه. **لسان العرب** (عتر). وقد سئل عليّ أمير المؤمنين عليه السلام عن معنى قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إنّي مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي، مَن العترة؟ فقال: أنا والحسن والحسين والأئمّة التسعة من ولد الحسين عليه السلام، تاسعهم مهديّهم وقائمهم، لايفارقون كتاب الله ولايفارقهم حتّى يردا على رسول الله صلى الله عليه وآله حوضه». وذكر الشيخ الصدوق معنى العترة نقلاً عن أهل اللغة فقال: والعترة: وُلد الرجل وذرّيته من صلبه، فلذلك سُمّيت ذرّية محمّد صلى الله عليه وآله من عليّ وفاطمة عليهما السلام عترة، قال ثعلب: فقلت لابن الأعرابيّ: فما معنى قول أبي بكر في السقيفة: نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أراد بلدته وبيضته. وعترة محمّد صلى الله عليه وآله لامحالة وُلد فاطمة عليها السلام، والدليل على ذلك ردّ أبي بكر وإنفاذ عليّ عليه السلام بسورة براءة، وقوله صلى الله عليه وآله: «أُمِرت أن لايبلّغها عنّي إلّا أنا أو رجل منّي». فأخذها منه ودفعها إلى من كان منه دونه. فلو كان أبو بكر من العترة نسباً ـ دون تفسير ابن الأعرابي أنّه أراد البلدة ـ لكان محالاً أخذ سورة براءة منه ودفعها إلى علي عليه السلام. ينظر: **معاني الأخبار** للصدوق: ٩٠ ـ ٩١ / ح ١ ـ ٥.

فيكم ما أن أخذتم به لن تضلّوا بعدي؛ أمرين أحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبلٌ ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتي أهل بيتي، وأنّهما لن يفترقا حتى يَرِدا علَيّ الحوض»[١].

وبهذا المعنى أوصى الإمام عليّ عليه السلام كميل بن زياد قائلاً: «يا كميل، نحن الثقل الأصغر، والقرآن الثقل الأكبر، وقد أسمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد جمعهم فنادى: الصلاةَ جامعة، يوم كذا وكذا، فلم يتخلّف أحد، فصعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه وقال: معاشر الناس، إنّي مؤدٍّ عن ربّي عزّوجلّ، و لا مخبر عن نفسي، فمن صدّقني فقد صدّق الله، ومن صدّق الله أثابه الجنان، ومن كذّبني كذّب الله عزّوجلّ، و من كذّبه أعقبه النيران. ثمّ ناداني فصَعِدتُ فأقامني دونه ورأسي إلى صدره والحسن و الحسين عليهما السلام عن يمينه و شماله، ثمّ قال: معاشر الناس، أمرني جبرئيل عن الله عزّوجلّ ربّي وربّكم أن أعلمكم أنّ القرآن هو الثقل الأكبر، وأنّ وصيّي هذا وابناي ومن خلفهم من أصلابهم هم الثقل الأصغر، يشهد الثقل الأكبر للثقل الأصغر، و يشهد الثقل الأصغر للثقل الأكبر، كلّ واحد منهما ملازم لصاحبه غير مفارق له حتّى يردا على الله فيحكم بينهما و بين العباد»[٢].

وهناك أخبار كثيرة على نحو هذه المضامين، منها ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ الحسن بن صالح وعليّ بن صالح بن حيّ سألاه عن قول الله عزّوجلّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[٣]، مَن أولو

١- **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور** للسيوطيّ الشافعيّ ٢: ٦٠. وانظر: **سنن الترمذيّ** ٥: ٦٦٢/ح ٣٧٨٦ و٣٧٨٨ ـ باب مناقب أهل البيت عليهم السلام.

٢- **بشارة المصطفى لشيعة المرتضى**: ٣٠.

٣- النساء: ٥٩.

الأمر؟ فقال عليه السلام: «العلماء»، فلمّا خرجا من عنده قال عليّ بن صالح: ما صنعنا شيئاً! ألا كنّا سألناه مَن هؤلاء العلماء؟ فرجعا إليه فسألاه، فقال: «الأئمّة من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله»[١]. فلا يمكن أن تُترَكَ الأرض بدون ولاية وعهد ومرجع يحتجّ الله به على عباده، ومن هذا الاعتبار واللحاظ يبدو وكأنّ الأرض ترفض أن تحيا بدون وليّ ووصيّ يمارس دوره عليها، فهي تربو وتزدهر بأنفاس العبد الصالح الذي اختاره الله أنّه صفوة العباد، ليكون سفيره إلى خلقه في سفارة معهودة، وحلقة وصل بين الخالق والمخلوق، وبين السماء والأرض، وكأنّ هذه السفارة يتعاهدها أفراد منتخَبون لايزيدون ولاينقصون.

وقد أشار الإمام الرضا عليه السلام إلى هذه السفارة والأمانة التي حملها الأئمّة المعصومون في كتاب كتبه إلى عبد الله بن جُندب[٢]، جاء فيه: «أمّا بعد، فإنّ محمّداً صلى الله عليه وآله كان أمينَ الله في خلقه، فلمّا قُبض صلى الله عليه وآله كنّا أهل البيت ورثته، فنحن أمناء الله في أرضه؛ عندنا علم البلايا والمنايا، وأنساب العرب، ومولد الإسلام، و إنّا لنعرف الرجل إذا رأيناه بحقيقة الإيمان وحقيقة النفاق، و إنّ شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء آبائهم، أخذ الله علينا وعليهم الميثاق، يَرِدون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملّة الإسلام غيرنا وغيرهم. نحن النجباء النُّجاة، ونحن أفراط الأنبياء، ونحن أبناء الأوصياء، ونحن المخصوصون في كتاب الله عزّوجلّ، ونحن أَولى الناس بكتاب الله، ونحن أَولى الناس برسول الله صلى الله عليه وآله، ونحن الذين شرع الله لنا

١- **عيون الأخبار وفنون الآثار** ـ السبع الرابع: ٢٥٤.

٢- عبد الله بن جندب البجليّ، بضمّ الجيم وسكون النون وفتح الدال: عربيّ كوفيّ، كان جليل القدر، عليّ المنزلة، وكان من الوكلاء أيضاً، من أصحاب الإمام الرضا والكاظم عليهما السلام. **رجال البرقيّ**: ٥٣، **فائق المقال** للبصريّ: ١٢٤.

دينه، فقال في كتابه: ﴿**شَرَعَ لَكُم**﴾ يا آل محمّد، ﴿**مِنَ الدِّين ما وَصّى بِهِ نُوحاً**﴾، قد وصّانا بما وصّى به نوحاً، ﴿**وَالَّذِي أَوحَينا إِلَيك**﴾ يا محمّد، ﴿**و ما وَصَّينا بِهِ إبراهِيمَ وَموسى وعِيسى**﴾، فقد علّمَنا وبلّغَنا علم ما علَّمَنا، واستودَعَنا علمهم، نحن ورثة أُولي العزم من الرسل، ﴿**أن أَقِيمُوا الدِّينَ**﴾ يا آل محمّد، ﴿**ولا تَتَفرَّقُوا فِيه**﴾، وكونوا على جماعة، ﴿**كَبُرَ عَلَى المُشرِكِينَ**﴾ من أشرك بولاية عليّ ﴿**ما تَدعُوهُم إليه**﴾ من ولاية عليّ، إنّ الله يا محمّد ﴿**يَهدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ**﴾[1] من يُجيبك إلى ولاية عليّعليه السلام[2] .

ومن هذه النصوص وغيرها عُدّت ولاية عليّعليه السلام سفارة قائمة، عرّفها أبو عبد الله الصادق عليه السلام لأبي بصير[3]، حين سأله عن قوله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾[4] فقال عليه السلام: «نزلت في عليّ بن أبي طالب والحسن والحسين عليهم السلام»، قال أبو بصير: فقلت له: إنّ الناس يقولون: فما له لم يسمّ عليّاً وأهل

١- الشورى: ١٣.

٢- **الكافي** ١: ٢٢٣ ـ ٢٢٤ / ح ١ ـ باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبيّ و جميع الأنبياء و الأوصياء الذين مِن قبلهم.

٣- أبو بصير: هو يحيى بن القاسم، وقيل: يحيى بن أبي القاسم الأسديّ، وقيل في كنيته أيضاً: أبو محمّد، وهو من موالي الكوفة، ومن التابعين، أكثرت مصادر الشيعة في نقل مروياته –واختلف أيضاً في اسم أبيه، ففي **رجال البرقيّ** ص١١: اسم أبي القاسم يحيى بن القاسم، وفي **رجال الكشّيّ** ص٤٧٤: يحيى بن القاسم الحذّاء ـ كان من أصحاب أبي جعفر الباقر والصادق عليهما السلام، ومن المعتمدين لديهما، وكان موضع ثقتهما عليهما السلام، عُدّ من الفقهاء الأوّلين الذين أوصى الصادق عليه السلام بالرجوع إليهم، وروى عن أبي الحسن الكاظم عليه السلام أيضاً. تُوفّي في سنة ١٥٠. ينظر: **رجال النجاشي**: ٤٤١، **رجال الشيخ الطوسيّ**: ٣٣٣، **تنقيح المقال** ٣: ٣٠٨ ـ ط الحجرية.

٤- النساء: ٥٩.

بيته عليهم السلام في كتاب الله عزّوجلّ؟ قال: فقال عليه السلام: «قولوا لهم: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً، حتّى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمِّ لهم من كلّ أربعين درهماً درهم، حتّى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزل الحجّ فلم يقل لهم: طوفوا أسبوعاً، حتّى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت: ﴿ **أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِى الأَمْرِمِنْكُمْ** ﴾[1] ونزلت في عليّ والحسن والحسين عليهم السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله في عليّ: مَن كنت مولاه فعليّ مولاه، وقال صلى الله عليه وآله: أُوصيكم بكتاب الله وأهل بيتي، فإنّي سألتُ الله عزّوجلّ أن لايفرّق بينهما حتّى يوردهما علَيّ الحوض، فأعطاني ذلك. وقال: لاتعلّموهم فهم أعلم منكم، وقال صلى الله عليه وآله: إنّهم لن يُخرجوكم من باب هدى، ولن يُدخلوكم في باب ضلالة. فلوسكت رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يبيّن مَن أهل بيته، لادّعاها آل فلان وآل فلان، لكنّ الله عزّوجلّ أنزله في كتابه تصديقاً لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾[2]، فكان عليّ والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وآله تحت الكساء[3] في بيت أُمّ سلمة، ثمّ قال: اللّهمّ إنّ لكلّ نبيّ أهلاً وثقلاً، وهؤلاء أهل بيتي وثقلي. فقالت أمّ سلمة: ألستُ من أهلك؟ فقال: إنّكِ إلى خير، ولكنّ هؤلاء أهلي وثقلي. فلمّا قُبض رسول الله صلى الله عليه وآله كان عليّ أَولى الناس بالناس، لكثرة ما بلّغ فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وإقامته للناس وأخذِه بيده، فلمّا مضى عليّ عليه السلام لم يكن يستطيع عليّ عليه السلام، ولم يكن ليفعل، أن

١- النساء: ٥٩.

٢- الأحزاب: ٣٣.

٣- ينظر: تفصيلات حديث الكساء في **بحار الأنوار** ج ١٧: ٢٦١ و٢١: ٣٥٤ و٢٦: ٣٤٣.

يُدخل محمّدَ بن عليٍّ[1] ولا العبّاس بن عليٍّ عليه السلام، ولا واحداً من ولده، إذاً لقال الحسن والحسين عليهما السلام: إنّ الله تبارك وتعالى أنزل فينا كما أنزل فيك، فأمر بطاعتنا كما أمر بطاعتك، وبلّغ فينا رسول الله صلى الله عليه وآله كما بلّغ فيك، وأذهب عنّا الرجس كما

١- محمّد بن عليّ: هو محمّد ابن الحنفيّة، يُروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال فيه لعليّ عليه السلام: «سيولد لك ولد، وقد نحلته اسمي وكنيتي». ولفظ الحنفية الذي غلب على اسمه هو لقب أمّه، واسمها خولة بنت جعفر بن قيس بن سلمة بن ثعلبة، وهي من سَبي اليمامة الذين سُبوا في حربهم مع أبي بكر، وأرادوا بيعها فتزوّجها الإمام عليّ عليه السلام. وقال قوم: إنّها سبيّة من سبايا الردّة، قوتل أهلها على يد خالد بن الوليد لمّا منع كثير من العرب الزكاة عن أبي بكر، وارتدّت بنو حنيفة وادّعت نبوّة مسيلمة، وقالوا بأنّ أبا بكر دفعها إلى الإمام عليّ عليه السلام من سهمه في المغنم. وقال آخرون: هي سبيّة من أيّام الرسول صلى الله عليه وآله، بعث رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً إلى اليمن، فأصاب خولة في بني زبيد وقد ارتدّوا مع عمرو بن مَعدِيكرب، وكانت زبيد سبَتها من بني حنيفة في غارة لهم عليهم، فصارت في سهم الإمام عليّ عليه السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن ولدت منك غلاماً فسمِّه باسمي وكنّه بكنيتي»، فولدت له بعد شهادة فاطمة عليها السلام محمّداً فكنّاه أبا القاسم. وقال قوم: إنّ بني أسد أغارت على بني حنيفة في حكومة أبي بكر، فسبوا خولة بنت جعفر وقدموا بها المدينة، فباعوها من عليّ عليه السلام، وبلغ قومها خبرها، فقدموا المدينة على عليّ عليه السلام فعرفوها وأخبروه بموضعها منهم، فأعتقها ومهرها وتزوّجها. ينظر: **بحار الأنوار** ٤٢: ٩٩. والمحصّل من هذه الأخبار أنّ سبيها كان غدراً. ورُوي عنها لمّا أُدخلت فيمن أُدخل من السبي رنّت وبكت تشكو ذلّ الأسر، فذهب إليها طلحة وخالد يرميان في التزويج إليها ثوبين، فقالت: لست بعريانة فتكسوني! فقيل لها: يريدان أن يتزايدا عليك، فأيّهما زاد على صاحبه أخذك من السبي، فقالت: لايملكني ولايكون لي بعلاً إلّا مَن يخبرني بالكلام الذي جرى في حال الولادة.. وجلست ناحية من القوم حتّى دخل الإمام عليّ عليه السلام فأخبر بما مضى من قصّة الكلام، فوهبها له أبو بكر، فبعث بها الإمام عليّ عليه السلام إلى بيت أسماء بنت عُمَيس، فلم تزل خولة عندها إلى أن قَدِم أخوها فتزوّجها الإمام عليّ عليه السلام كامرأة حرّة، وليست كأَمَة تكريماً لها. ينظر: **الخرائج والجرائح** لقطب الدين الراونديّ ٢: ٥٩٠ / ح ١، **بحار الأنوار** ١٨: ١١٢ و ٣٨: ٣٠٤ و٤٢: ٩٩.

أذهبه عنك. فلمّا مضى عليّ عليه السلام كان الحسن عليه السلام أولى بها لكِبَره، فلمّا تُوفّي لم يستطع أن يُدخل ولده، ولم يكن ليفعل ذلك، والله عزّوجلّ يقول: ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾[١]، فيجعلها في ولده، إذاً لقال الحسين عليه السلام: أمَرَ الله بطاعتي كما أمر بطاعتك وطاعة أبيك، وبلّغ فيّ رسول الله صلى الله عليه وآله كما بلّغ فيك وفي أبيك، وأذهب الله عنّي الرجس كما أذهب عنك وعن أبيك. فلمّا صارت إلى الحسين عليه السلام لم يكن أحد من أهل بيته يستطيع أن يدّعيَ عليه كما كان هو يدّعي على أخيه وعلى أبيه، لو أرادا أن يصرفا الأمر عنه، ولم يكونا ليفعلا، ثمّ صارت حين أفضَت إلى الحسين عليه السلام، فجرى تأويل هذه الآية ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾، ثمّ صارت مِن بعد الحسين لعليّ بن الحسين عليه السلام. ثمّ صارت من بعد عليّ بن الحسين إلى محمّد بن عليّ عليهما السلام.[٢]

ومن هذا النسق من الأخبار يظهر بأنّ الخلفاء مشخّصون. ولن تُهمل النصوص ذكرهم، إلّا أنّ رواية مثل هذه النصوص ربّما صَعُب على نقلة الأخبار، أو لم يرد بعض روايتها، نظراً إلى عدم تيسّر الظرف المساعد لنشر ونقل مثل هذه النصوص. ومع هذا تُنوقلت أخبار تشخيصية. وهناك من يعتقد أنّ قضية التشخيص في أهل البيت عليهم السلام ليست مجرّد عملية تكريم وتشريف وفضل و نعمة أنعم بها الله تعالى على أنبيائه، بل إنّ وراء ذلك أموراً أخرى، يمكن أن نلاحظها عندما نريد أن ندرس هذه الظاهرة، وهي أمور ذات أبعاد غيبية و تاريخية و رسالية و إنسانية. وهذه الأبعاد التي يمكن أن نلاحظها من خلال دراستنا للقرآن الكريم و مراجعتنا و مطالعتنا للرسالة الإسلامية قد تُفسَّر في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ**

١- الأنفال: ٧٥.

٢- **الكافي** ١: ٢٨٦ـ٢٨٨ / ح ١، باب ما نصّ الله عزّوجلّ ورسوله على الأئمّة عليهم السلام واحداً فواحداً.

اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١].

فيتحدّث عن ظاهرة الاصطفاء كظاهرة غيبية، وقضيّة من القضايا الإلهية الغيبية التي لا تخضع للتغيرات المادّية، وهي سارية أيضاً في حركة التاريخ، اصطفى الله تعالى آدم اصطفاءً خاصّاً، واصطفى نوحاً، ثمّ اصطفى إبراهيم وآل إبراهيم، ثمّ اصطفى عمران و آل عمران .

وكذلك أكّد القرآن الكريم أنَّ هذا الاصطفاء ليس أمراً واقفاً على هذه الأسماء وهذه الجماعات، و إنّما هو قضيّة ذات امتداد في الذرّية، ذرّية بعضها من بعض، يعني حركة تاريخية تتحرّك في التاريخ الإنسانيّ، يمكن أن نسمّيها حركة الاصطفاء، وكذلك قد تكون حركة في الأسرة أو في الجماعة والأمّة[٢]. ومن هذا الاعتبار يمكن لنا تسميتها بالسفارة السماوية في الأرض أرادها الله و اعتمدها.

والمشاهَد والمحكي عن هذه السفارة، وربّما صار من المعروف في تاريخ الأديان السماوية، أنّ مثل هذه السفارة قد مثّلها وقام بها حجج مسمَّون، أشارت إلى بعضهم الكتب السماوية المنزلة. ولكنّ العقل البشريّ الذي أودعه الله لعباده لم يكن يقبل ـ وما يزال ـ هذه الحجّة بسهولة وبدون بحثٍ ومناقشة، لذا قامت براهين ومناقشات واستدلالات تؤكّد ضرورة قيام هذه الحجّة في الوجود البشريّ على الأرض.

وقد تساءل عدد من الناس المرتابين عن هؤلاء الحجج، فكانت إجابات الأئمّة عليهم السلام لهم كافية شافية، ومن هؤلاء المتسائلين زنديق سأل الإمام الصادق عليه السلام

١- آل‌عمران: ٣٣ ـ ٣٤ .

٢- السيد محمّد باقر الحكيم، **الإمامة و أهل البيت ـ النظرية والاستدلال: ٥٠ ـ ٥٤.**

قائلاً له: مِن أين أثبتَّ الأنبياء والرسل؟ فقال عليه السلام: «إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً، لم يُجِز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أنّ له سفراء في خلقه، يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه والمعبّرون عنه جلّ وعزّ، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدَّبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشارِكين للناس ـ على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ـ في شيء من أحوالهم، مؤيَّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثمّ ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان ممّا أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكي لا تخلوَ أرض الله من حجّة يكون معه علم يدلّ على صدق مقالته وجواز عدالته»[١].

ولكنّ الواقع المحكيّ والمدوّن في تاريخ المسيرة البشرية أنّ كلّ من اختاره الله من الأنبياء والأوصياء ومن ناب عنهم، من آدم عليه السلام إلى أزمنتنا هذه، رأى صنوفاً من الإيذاء خلال تأدية هذا الدور العظيم، وجاء في خبر رواه الشيخ الصدوق أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «ما زلتُ أنا ومَن كان قبلي من النبيّين والمؤمنين مُبتلَين بمن يؤذينا، ولو كان المؤمن على رأس جبل لقيّض الله عزّوجلّ له من يؤذيه ليأجره على ذلك»[٢]، ورُوي عن الصادق عليه السلام: «أنّ في كتاب عليّ عليه السلام: إنّ أشدّ الناس بلاءً النبيّون ثمّ الوصيّون، ثمّ الأمثل فالأمثل، وإنّما يُبتلى المؤمن على قَدر أعماله الحسنة، فمن صحّ دينه وصحّ عمله اشتدّ بلاؤه، وذلك أنّ الله عزّوجلّ لم يجعل الدنيا ثواباً

١- **الكافي** ١: ١٦٨ / ح ١ ـ كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة.

٢- **علل الشرائع**: ٤٥ / ح ٣ ـ الباب ٤٠.

لمؤمن ولاعقوبةً لكافر، ومن سخف دينه وضعف عمله قلّ بلاؤه، والبلاء أسرَعُ إلى المؤمن المتّقي من المطر إلى قرار الأرض»[١]. وجاء في خبرعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: «إنّما المؤمن بمنزلة كفّة الميزان، كلّما زِيدَ في إيمانه زيد في بلائه»[٢]. ونحو هذه الأخبار روى الترمذيّ بإسناده عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر»[٣].

فبلاء المؤمن ومصائبه وأحزانه رهينة بإيمانه، فهؤلاء الأنبياء والأوصياء، ومن كان يسير في ركبهم، أو من كان من خواصّ مُواليهم، وعلى الأعمّ الأغلب، عاشوا في بؤس وشقاء، وكانوا بين معاناة الدفاع عن الرسالة وشؤونها، وبين مكابدة وجهاد أهل الباطل لإيصال الحقيقة إلى العباد، فتحمّلوا الكثير في مجمل مسار حياتهم ومعيشتهم، لأنّ هناك حفنة من الطواغيت والجبابرة كانت تعيش في أزمنة هؤلاء الأنبياء والأوصياء ، ومن الطبيعي والموافق لقوانين الخليقة أن لا تنسجم رغبات وأهواء الجبابرة والطغاة مع هؤلاء الصالحين المصلحين من العباد، فكما أنّ الأرض لا تخلو من حجة صالح يخطو بالعباد نحو الحقّ والصلاح، فلن تخلو الأرض أيضاً من مارد ظالم متجبّر يقابل صوت هذا الحجّة ويضادّه، فيرى المتجبّر العاتي أنّ نزواته وشهواته ومنافعه ومصالحه فوق كلّ قيمة واعتبار، فلا يمكن لصاحب الرسالة والمبادئ أن يدع هذا الكافر الظالم يبسط يده بقوّة نحو الشرّ والفساد، أو على الأقلّ لا يمكن أن يكون هذا العبد الصالح ـ والذي هو حجّة الله على العباد، والمكلّف برسالة ودور مرسوم ـ أداة طيّعة بيد مثل هذا العفريت المارد

١- نفسه : ٤٤ / ح ١ – الباب ٤٠.

٢- **الكافي** ٢: ٢٥٤ / ١٠ ـ باب شدّة ابتلاء المؤمن.

٣- **سنن الترمذيّ** ٤: ٥٦٢ / ح ٢٣٢٤.

المتجبّر الذي يضع كلّ شيء تحت سيطرته ورهن إرادته، وإن لم يوافقه أمر، أو واجهه شيء مهما كان، سحقه بأقدامه؛ قال تعالى واصفاً هذا التقابل بين متجبّر مارد، وهو فرعون مصر، وبين عبد صالح مهتدٍ وهو موسى بن عمران: ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ** ﴾[1]. والأكثر من هذا فقد ابتُلي الأنبياء والأولياء والأوصياء ومن معهم بما لا يطاق من النصب والعداء والعذاب.

فُيروى أنّ نمرود بابل حين أخبره المنجّمون أنّ مولوداً سيولد في أرضه يكون هلاكه على يده، حجب الرجال عن النساء[2]. فبمجرّد الإخبار عن مولود لم يولد بعد، كان هذا القرار الجائر الذي اتّخذه نمرود في مدينة بابل، فكيف يكون مصير من حاول تحطيم مملكة الشرك؟! وفي هذا يروي قطب الدين الراونديّ عن ابن عبّاس قائلاً: «بعث الله تعالى جرجيس عليه السلام إلى ملك بالشام يعبد صنماً، فقال له: أيّها الملك، اقبل نصيحتي، لاينبغي للخلق أن يعبدوا غير الله تعالى، ولايرغبوا إلّا إليه، فقال له الملك: من أيّ أرض أنت؟ قال: من الروم قاطنين بفلسطين. فأمر بحبسه، ثمّ مشّط جسده بأمشاط من حديد حتّى تساقط لحمه وفضخ جسده، ولمّا لم يقتل أمر بأوتاد من حديد فضربها في فَخِذيه وركبتيه وتحت قدميه، فلمّا رأى أنّ ذلك لم يقتله أمر بأوتاد طوال من حديد فوُتّدت في رأسه فسال منها دِماغه، وأمر بالرصاص فأُذيب وصُبّ على أثر ذلك، ثمّ أمر بسارية من حجارة كانت في السجن لم ينقلها إلّا ثمانية عشر رجلاً، فوُضعت على بطنه»[3].

١- يونس: ٨٣.

٢- ينظر: **قصص الأنبياء** للراونديّ ١: ٢٩٣.

٣- **قصص الأنبياء** ٢: ٩٧.

وكذلك يقال ويروى حول العذاب الذي يحصل لبقيّة العباد ممّن آمن بالرسل أو اعتقد بهم، أو سار في مسارهم؛ قال تعالى مشيراً إلى طائفة من هؤلاء المؤمنين بما جاءت به رسل السماء: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[١].

و قد جاء في تفسير قصّة هؤلاء المعبَّر عنهم بأصحاب الأخدود، كما رُوي عن أبي جعفر الباقرعليه السلام قال: «بعث الله نبيّاً حبشيّاً إلى قومه فقاتلهم، فقُتل أصحابه وأُسروا، وخدّوا لهم أخدوداً من نار، ثمّ نادَوا: مَن كان من أهل ملّتنا فليعتزل، ومَن كان على دين هذا النبيّ فليقتحم النار. فجعلوا يقتحمون النار، وأقبلت امرأة معها صبيّ لها فهابت النار، فقال لها صبيُّها: اقتحمي! فاقتحمت النار، وهم أصحاب الأخدود»[٢].

فمثلَ هذا العذاب كان أتباع الأنبياء والأولياء يلاقون، وربّما كان هناك من العذاب ما هو أشدّ وأعتى، ومهما كان الأتباع وكانت درجتهم فهم يلاقون من الطغاة نصيبهم المقسوم من القهر والظلم والعذاب. وأمّا من فرّ منهم، فتمكّن من أن لايقع تحت طائلة نظرهم، أو ابتعد عن المشاهدة المباشرة القريبة لهم، فلم يسلم من عيون وجواسيس الجلّادين الذين بثّهم الطغاة هنا وهناك، فكانوا يرصدون من فرّ ونأى، فطُورد العبد الصالح على مرّ الأزمان والعصور التي كانت بيد الطغاة والمستبدّين، فتراه يؤخذ على التهمة والظنّة، رغم ابتعاده عن بلاط الفراعنة، ومعاقل المترفين، وسواء تاركهم أم لم يتاركهم فهو شخص غير مرغوب فيه عندهم، وكأنّ شيئاً لايجدي مع رجال الحكم الظالمين العاتين، حتّى لو نأى وغضّ طرفه

١- البروج: ٤- ٩.

٢- **المحاسن**: ٢٤٩ / ح٢٦٢.

عن قصور الباغين المنيفة والمشيّدة بالأموال الحرام والغامرة باللهو والمجون.

وكم كانت مصيبة هؤلاء وبليّتهم مع الكفّار القساة الظلمة! حتّى غيابهم عن وسط بيئتهم، وانشغالهم بعالمهم الخاصّ، أو حتّى بانصرافهم عن هذه الحياة بكلّ تفاصيلها والانقطاع عنها بالعبادة، أو الاتّصال بعالم علويّ رفيع سامٍ، لم يكن لهم خلاصٌ منهم ومن شرّهم. ولكنّهم هوّنوا معاناتهم حين اتّجهوا بكلّ قواهم إلى عالم الملكوت العلوي، عالم الخلاص و الغوث والرحمة، والمعبّر عنه بعالم الغيب، هذا العالم الغائب عن عيون الطواغيت والجبابرة، فاعتصم الأولياء والصالحون بالتحنّف و بالتسبيح والدعاء والصبر والصلاة، حتّى صار الخوف من ظلم الحكّام شعارهم ودثارهم، فمرضت أجسادهم دون نفوسهم وعقولهم، واعتلّت أعضاؤهم، ومن هذا المعنى يقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إنّ الأنبياء وأولاد الأنبياء وأتباع الأنبياء خُصّوا بثلاث خصال: السقم في الأبدان، وخوف السلطان، والفقر»[1]، وكأنّ قدرهم المقدور هذا قد كتب على ناصيتهم يوم ولدوا، فلا ينفكّ عن عالمهم المحيط بهم.

وعلى ما ينقل لنا التاريخ الأبعد والأدنى، فقد اتّخذ نفر من الأنبياء والأولياء ـ على كُره ـ الانزواء، وبعضهم هاجر إلى معبوده وملاذه، وكما أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[2]. وبعضهم ابتعد وفرّ

١- **الاختصاص**: ٢١٣.

٢- العنكبوت: ٢٦. فسّر الشيخ عليّ بن إبراهيم القمّي «المهاجر» في الآية بأنه من هجر السيّئات وتاب إلى الله ـ كما جاء في تفسير القمّيّ ٢: ١٢٧. وأكثر المفسّرين يذهب إلى أنّ كلّ من خرج من داره أو قطع سبيلاً فقد هاجر. فالمراد بالهجرة هجرُه وطنه وخروجه من بين قومه المشركين إلى أرض لايعترضه فيها المشركون، ولايمنعونه من عبادة ربّه. وعدّت المهاجرة مهاجرة إلى الله من المجاز العقليّ. **تفسير الميزان** للطباطبائيّ ١٦: ١٢٢. ويذهب الضحّاك إلى أنّ نبيّ الله

فراراً لاعودة فيه أو أوبة مع أزمانهم أو مع من عايشهم، كما جرى لأصحاب الكهف والرقيم[١]. و بعضهم صبغ ثوبه لوناً آخر، وربّما ظهر بغير ما هو مألوف عنه، وربّما تظاهر في أن يبدّل مظهره، أو حاول أن يبدّل عنوانه الاجتماعيّ مكرهاً مضطرّاً، وآثر أن ينزع ثوب العلم والعقل الذي يتزيّن به العباد، فغدا متلبّساً بثوب المجانين والأطفال، كما جرى للعالم الجليل جابر بن يزيد الجعفيّ في مشهد «غريب» يحكي سطوة الجبابرة الذين أزعجهم وفرة علمه، وتبحرّه وانقياد الأمور له، لطاعته

إبراهيم الخليل عليه السلام هو أوّل من هاجر في الله. وروي عن قتادة أنّه قال: «هاجر إبراهيم ولوط عليهما السلام من كوثى، وهي من سواد الكوفة، إلى الشام». **تفسير أبي القاسم الكعبيّ البلخيّ**:٢٧٥.
وجاء في خبر رواه إبراهيم بن زياد الكرخيّ عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «لمّا ألقى نُمرود بابل إبراهيمَ عليه السلام في النار وخرج منها سالماً مطلقاً من وثاقه، أمرهم أن ينفوا إبراهيم عليه السلام من بلاده، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله، فحاجّهم إبراهيم عليه السلام عند ذلك، فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي، فإنّ حقّي عليكم أن تردّوا علَيّ ما ذهب من عمري في بلادكم. واختصموا إلى قاضي نمرود، فقضى على إبراهيم عليه السلام أن يسلّم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، وقضى على أصحاب نمرود أن يردّوا على إبراهيم عليه السلام ما ذهب من عمره في بلادهم، فأخبر بذلك نمرود فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله، وأن يخرجوه، وقال لهم: إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضرّ بآلهتكم: فأخرجوا إبراهيم ولوطاً معه صلّى الله عليهما من بلادهم إلى الشام، فخرج إبراهيم عليه السلام ومعه لوط عليه السلام لايفارقه وسارة، وقال لهم: ﴿**إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ**﴾، يعني بيت المقدس». **روضة الكافي** بتحقيق الفقيه ٨: ٢٥٠.

١- أشار إليهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا**﴾ الكهف: ٩ و١٠. والرقيم: هو لوح من حجارة مكتوب عليه. وروي عن سعيد بن جبير قوله بأنّ الرقيم هنا: هو لوح من حجارة كتبوا فيه قصّة أصحاب الكهف ووُضع على باب الكهف. **الدّر المنثور في التفسير بالمأثور** للسيوطيّ ٤: ٢١٢.

لربّه ومعرفته بحقّ أوليائه الذين عاصرهم[١]. ولا يمكن أن يرقى الشكّ إلى دراية جابر الواسعة التي عُرف بها، أو منزلته الكريمة عند الإمام محمّد الباقر عليه السلام.

ويحدّث النعمان بن بشير[٢] عن هذا الرجل العارف الصادق فيقول: «كنت مزاملاً لجابر بن يزيد الجعفيّ، فلمّا أن كنّا بالمدينة دخل على أبي جعفر عليه السلام فودّعه، وخرج من عنده وهو مسرور، حتّى وَرَدنا الأُخَيرجة -أوّل منزل نعدل من فَيد[٣] إلى المدينة- يوم جمعة فصلّينا الزوال، فلمّا نهض بنا البعير إذا أنا برجل طوال آدم معه كتاب فناوله جابراً، فتناوله فقبّله ووضعه على عينيه، و إذا هو: من محمّد بن عليّ إلى جابر بن يزيد. وعليه طين أسود رطب، فقال له: متى عهدك بسيّدي؟ فقال: الساعة، فقال له جابر: قبل الصلاة أو بعد الصلاة؟ فقال: بعد الصلاة. ففكّ الخاتم وأقبل يقرؤه ويقبض وجهه حتّى أتى على آخره، ثمّ أمسك الكتاب، فما رأيته

١- كان جابر بن يزيد من أجلّاء الرواة وأعاظم الثقات، بل هو من حملة أسرارهم وحفظة أخبارهم عليهم السلام، وقد أحاطته رعاية الباقر عليه السلام، ولم يفت علماء أهل السنّة والجماعة الثناء عليه والإشارة إلى فضيلته، فقد روى الحافظ الذهبيّ عن عثمان بن أبي شيبة قال: حدّثنا أبي عن جدّي قال: كنت لآتي جابراً الجعفيّ في وقت ليس فيه خيار ولا قَثّاء، فيتحوّل حول حوضه ثمّ يخرج إليّ بخيار أو قثّاء، فيقول: هذا من بستاني. وهذه الكرامة التي تروى عن جابر تضاف إلى ما عُرف عنه من ورع وصدق وتثبّت في الحديث، كما يُنقل عن مشايخ الحديث والرواية، فيروى عن سفيان أنّه قال: كان جابر ورعاً في الحديث، ما رأيت أورع منه في الحديث. كما يروى عن الشافعيّ أنّه قال: قال سفيان الثوريّ لشعبة: لئن تكلّمتَ في جابر الجعفيّ لأتكلّمن فيك! **ميزان الاعتدال** ١: ٣٧٩ _ ٣٨٠.

٢- ذكره ابن داود في القسم الأوّل من **كتاب الرجال**: ٣٦٠.

٣- فَيْد، بالفتح ثمّ السكون ودال مهملة، قال ياقوت الحمويّ: نصف طريق الحاجّ من الكوفة إلى مكّة، سُمِّيت بفيد بن حام، وهو أوّل من نزلها. **معجم البلدان** ٤: ٢٨٢.

ضاحكاً ولا مسروراً حتّى وافى الكوفة، فلمّا وافينا الكوفة ليلاً بتُّ ليلتي، فلمّا أصبحت أتيته إعظاماً له فوجدته قد خرج علَيّ وفي عنقه كعاب قد علّقها وقد ركب قصبة وهو يقول:

أجد منصورَ بن جُمهور أميراً غيرَ مأمور

وأبياتا من نحو هذا، فنظر في وجهي ونظرت في وجهه فلم يقل لي شيئاً ولم أقل له، وأقبلتُ أبكي لمّا رأيته، واجتمع عَليّ وعليه الصبيان والناس، وجاء حتّى دخل الرحبة وأقبل يدور مع الصبيان والناس يقولون: جُنّ جابر بن يزيد جنّ! فوالله، ما مضت الأيّام حتّى ورد كتاب هشام بن عبد الملك إلى واليه: أن انظر رجلاً يقال له: جابر بن يزيد الجعفيّ، فاضرب عنقه وابعث إليّ برأسه! فالتفت إلى جلسائه فقال لهم: مَن جابر بن يزيد الجعفيّ؟ قالوا: أصلحك الله، كان رجلاً له علم وفضل وحديث وحجّ، فجنّ، وهو ذا في الرحبة مع الصبيان على القصب يلعب معهم. فأشرف عليه فإذا هو مع الصبيان يلعب على القصب، فقال: الحمد لله الذي عافاني من قتله. ولم تمضِ الأيّام حتّى دخل منصور بن جمهور الكوفة وصنع ما كان يقول جابر[1].

١- **الكافي** ١: ٣٩٦ ـ ٣٩٧ / ح ٧. ويروي الكشّيّ رواية أخرى: أنّ الراوي قال: خرج جابر ذات يوم وعلى رأسه قوصرة راكباً قصبة حتّى مرّ على سكك الكوفة، فجعل الناس يقولون: جُنّ جابر! فلبثنا بعد ذلك أيّاماً، فإذا كتاب هشام قد جاء بحمله إليه، فسأل عنه الأمير، فشهدوا عنده أنّه قد اختلط، فكتب بذلك إلى هشام فلم يتعرّض له. ثمّ رجع إلى ما كان من حاله الأوّل. لقد فُتن هذا العبد الصالح بجهل أهل زمانه، وبالعلم والمعرفة التي كان تلقّاها من حجّة الله على خلقه الباقرعليه السلام، وقد بثّ إمامه همومه وفتنته قائلاً له: «قد حمّلتني وقراً عظيماً بما حدّثتني به من سرّكم الذي لا أُحدّث به أحداً، فربّما جاش في صدري حتّى يأخذني منه شِبه الجنون، فقال له عليه السلام: «يا جابر، فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبّان فاحفر حَفيرة ودلّ رأسك فيها ثمّ قل:

وبمثل أو نحو هذا الرجل العارف الذي عاصر الدولة الأموية وتلبّس بثوب المجانين، ظهر شخص آخر في عصر دولة بني العبّاس وقام بنفس هذا الدور يقال له: بُهلول المجنون[1]. وبهلول ليس كباقي العلماء الذين كانوا يستأكلون بعلمهم لنصرة الجور، فقد كان له علم ومعرفة، ودراية بالأمور والفقه والقضاء، فبزّ الآخرين، ممّا دفع هارون الرشيد إلى الطلب منه لتولّي القضاء للدولة العبّاسيّة، فتظاهر بهلول بالجنون أو لبس ثوب المجانين، لكي يفرّ من قبضة هارون الرشيد الذي أراد

حدّثني محمّد بن عليّ بكذا وكذا». وكان جابر إذا روى عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام شيئاً قال: حدّثني وصيّ الأوصياء، ووارث علم الأنبياء، محمّدُ بن عليّ بن الحسين عليهما السلام وكان له من العلم ما لا يمكن لصحابيّ آخر أن يحمله أو يرويه، وكان الباقر عليه السلام كبقية الأئمّة عليهم السلام يوصون بكتمان الأسرار وعدم البوح بها، ولكن لم يكن جابر قادراً على تحمّل هذا الأمر طويلاً، فأخرج إلى الناس بعض الأسرار والأخبار فاستخفّوا به، واسترابت به السلطة الأموية، وقرّرت قتله وإبعاده عن الكوفة التي كانت مصدر قلق للسلطة الأموية، لأنّها مركز القبائل العربية المهاجرة ومنها انطلقت الفتوحات الإسلامية، وصارت ملتقى الصحابة والتابعين بعد المدينة العاصمة النبويّة، كما أنّها كانت عاصمة المسلمين ومقرّ قيادة الإمام عليّ عليه السلام وعاصمته السياسية، وبها تبلور تشيّع أهل العراق وتقوّى، ومنها انطلق الفكر العلويّ الثوريّ نحو البلدان والمدن الأخرى الذي أزعج الحكّام.. ينظر: **رجال الكشّيّ**: ١٩٤ ـ ١٩٥ / الرقم ٣٤٠ و ٣٤٤. **إرشاد** الشيخ المفيد: ٢٦٣، **بحار الأنوار** ٤٦: ٢٨٦ / ح٢.

١- هو بُهلول بن عمرو الصَّيرفيّ، عاصر الرشيد، وقيل: هو ابن عمّ له. ويقال بأنّه كان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. يقول الخوانساريّ بأنّ اسمه وهب، وكان من خواصّ تلامذة مولانا الصادق عليه السلام، ويقال: إنّ أباه عَمْراً كان عمّ الرشيد، كما في تاريخ المستوفي. والأظهر أنّه صحب الإمام موسى الكاظم عليه السلام، وتُوفّي عام ١٩٠ هـ. وله حكايات كثيرة تُنسب إليه. ينظر: **تنقيح المقال** للمامقانيّ ١٣: ١٢١، **منتهى المقال** للحائريّ ٢: ١٨١، **روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات** للخوانساريّ ٢: ١٤٥.

أن يجعله قاضياً للجور، ففرّمنهم بهذا المخرج.

يروي الخوانساريّ عن كتاب (المجالس): أنّ الرشيد لمّا أجمع أمره على قمع أثر مولانا الكاظم عليه السلام وجعل يحتال في ذلك، أرسل إلى حَمَلة الفُتيا يستفتيهم عن إباحة دم المعصوم عليه السلام متّهماً إيّاه بداعية الخروج، فأفتوا بالإباحة سوى البهلول، فإنّه ألقى في سرّه الإمام موسى الكاظم عليه السلام وأخبره بالواقعة، وطلب منه الهداية إلى طريق النجاة، فأشار الإمام عليه السلام إليه بالتجنّن في أعينهم و إظهار السفه والهذيان صيانةً لنفسه ودينه، و إقداراً له على إحقاق الحقّ و إبطال الباطل كما يريد. ثمّ يقول: ويؤيّد ذلك ما نقله السيّد نعمة الله التستريّ في حقّ الرجل في كتابه الموسوم بـ(غرائب الأخبار)، قال: رُوي أنّ هارون الرشيد أراد أن يولّي أحداً قضاء بغداد، فشاور أصحابه فقالوا: لايصلح لذلك إلّا بهلول. فاستدعاه وقال له ياأيّها الشيخ، أعِنّا على عملنا. . فامتنع بهلول وتظاهر بالجنون[1].

ويروي الحسن بن محمّد بن حبيب النيسابوريّ المتوفّى ٤٠٦ للهجرة عن

١- **روضات الجنّات** ٢: ١٤٥. و لبهلول حكايات تعبّر عن موقف واحتجاج على العصر الذي عاش فيه هذا الرجل العالم الذي كان يعيش في غربة عن عصره، و الذي لم يتمكّن من قبوله أو مصانعته أو معايشته على كُره. ومن حكايات بهلول المنقولة عن كتاب (الإيضاح) لمحمّد بن جرير بن رستم الطبريّ: أنّ البهلول سئل في مجلس محمّد بن سليمان العبّاسيّ ابن عمّ الرشيد: مَن إمامك يا بهلول؟ فقال: إمامي من سبّح في كفّه الحصى، وكلّمه الذئب إذ عوى، ورُدّت له الشمس بين المَلا، وأوجب الرسول صلى الله عليه وآله على الخَلق له الوِلا، فتكاملت فيه الخيرات، وتنزّه عن الخُلُق الدنيّات، فذلك إمامي و إمام البريّات.. وحين سُئل بهلول: أبنو العبّاس أحقّ بالخلافة أم بنو عليّ؟ سكت، فقيل له: لِم سكتّ؟ قال: ما للمجانين وهذا التحقيق والتمييز! **منتهى المقال** ٢: ١٨٢، **سفينة البحار**١: ٢٨٤ (بهل). والمتأمّل في هذه العبارات يجد فيها عمقاً ودلالات تنبئ عن وعي عقيديّ وعقل راجح أطّره بما تظاهر به:

عليّ بن ربيعة الكنديّ، أنّه قال: خرج الرشيد إلى الحجّ، فلمّا كان بظاهر الكوفة إذ بصر بهلولاً المجنون على قصبة وخلفه الصبيان وهو يَعدو، فقال: مَن هذا؟! قالوا: بهلول المجنون، قال: كنت أشتهي أن أراه، فادعُوه من غير ترويع، فقالوا له: أجب أمير المؤمنين. فعدا على قصبته، فقال الرشيد: السلام عليك يابهلول، فقال: وعليك السلام يا أمير المؤمنين، قال: كنتُ إليك بالأشواق، قال: لكنّي لم أشتق إليك، قال: عِظني يابهلول، قال: وبِم أعظك؟! هذه قصورهم، وهذه قبورهم! قال: زدني فقد أحسنت، قال: ياأمير المؤمنين، من رزقه الله مالاً وجمالاً فعفّ في جماله وواسى في ماله، كُتب في ديوان الأبرار. فظنّ الرشيد أنّه يريد شيئاً، فقال: قد أمرنا لك أن تقضي دَينك، فقال: لا يا أمير المؤمنين، لايُقضى الدَّين بِدَين، أُرددِ الحقّ على أهله، واقضِ دَينَ نفسك من نفسك، قال: فإنّا قد أمرنا أن يُجرى عليك، فقال: يا أمير المؤمنين، أترى الله يعطيك وينساني! ثمّ ولّى هارباً[١].

ويروي النجاشيّ خبراً أسنده إلى أبي القاسم بن سهل الواسطيّ الذي عايش عبيد الله بن أبي زيد أحمد بن يعقوب بن نصر الأنباريّ، فيحكي عن محنة أحد العلماء والكتّاب العارفين الذين عاشوا في غربة عن زمانهم الذي عاصروه، وهو القرن الرابع الهجريّ، فيقول: ما رأيت رجلاً كان أحسن عبادةً ولا أبين زهادةً ولا أنظف ثوباً ولا أكثر تحلّياً من أبي طالب، وكان يتخوّف من عامّة واسط أن يشهدوا صلاته ويعرفوا عمله، فينفرد في الخرائب والكنائس والبِيَع[٢]، فارّاً من عوامّ المسلمين وجهّالهم، متلبّساً بثوب أهل الذمّة الذين لا يخشى أهلُ وسلطان زمانهم من خطرهم، فوادعوهم وتركوهم، أوكأنّهم نسوهم، لأنّهم انتهوا إلى قلّة لا يُؤبَه بها بين

١- **عقلاء المجانين**: ٦٧

٢- **رجال النجاشيّ**: ٢٣٣ / الرقم ٦١٧.

أكثرية جاهلة ساكنة، وكأنّ معظم هذه الأكثرية كانت غير واعية، واسترخى الحكّام وأمن من أكثرية جاهلة لاتدري ولاتفهم من دينها أكثر ممّا يُملى عليها. وكأنّ هذا العالم المهاجر من زمانه إلى أزمنة منسوخة كان يرصد ضلال هذه الجموع التائهة التي لاتعرف من الإسلام إلّا اسمه، فركبتها وساقتها شهواتها ونزواتها الطائشة، فالعالم العارف يخاف من هؤلاء على نفسه، لأنّ طبع الجاهل وسجيته ـ حين يلاقي بيئة فظّة جاهلة قاسية خلت من العلم والمعرفة ـ تزداد جهلاً على جهل وظلاماً على ظلام، فلا تفهم علم هذا العالم العابد، ولاترى النور الذي يسبح فيه ويبتهل في رحابه إلى خالقه الذي غمره به، ولذا لاتدرك ما الذي يفعله وما تفهم كنهه وكينونته العظيمة[1]، فهي لاتعي من الأمور أكثر من دريهمات تصبّ في الحجور، و قد تأقلمت مع سلطان غشوم يصبّ عليها نار غضبه حين يستعر، ويسوق هذه الرعية بعصا غليظة لاترحم، وكأنّ هذا الجائر الجاهل صار يتناغم مع هؤلاء الهمج[2] الرعاع الذين تلاقوا في الغيّ والجهل والضلال، فيُجيعهم الظالم، ويدمغهم ويقمعهم بسوطه الذي يبدو وكأنّه لايصلح لهم إلّا هذا السوط الغليظ الموجع الذي يمسك به ولايفارقه. فيتساوقون في طاعته، فيخلعون طاعة الله ويبدّلونها بطاعة المخلوق رغبة بالتافه الرخيص، وكأنّهم باتوا يتغنّون ويتناغمون مع الحكم المقدّر لزمانهم، فيتفانون في التسبيح له كرهاً طامعين، فإن رفع الحاكم

١- قال الإمام عليّ عليه السلام في وصف الناس وتقسيمهم: «الناس ثلاثة: فعالِمٌ ربّانيّ، ومتعلّم على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رعاع أتباعُ كلّ ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يَستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق» **نهج البلاغة**: الحكمة ١٤٧.

٢- قال ابن خالويه: الهَمَج: الجوع، وبه سُمّي البعوض، لأنّه إذا جاع عاش، و إذا شبع مات. **لسان العرب** (همج).

سوطه عنهم وأشبعهم بغوا وطغوا، فكان هلاكهم وحتفهم ونهايته معهم[١].

وهناك صور أخرى ربّما تكون مماثلة لمثل هذه الصور جرت في بطون التاريخ الذي لم يدوّن من صوره وأحداثه إلّا النزر اليسير. ولكن كأن لم ولن يُختَم هذا الصراع بين قلّة من العارفين العلماء الطائعين لربّهم وبين أكثرية من الجهلاء الغوغائيّين العاصين لربّهم، و الذين كانوا جماهير الطغاة الجفاة، فلا خلاص للقلّة الواعية الصابرة منهم ومن ملوكهم إلّا بالانزواء والابتعاد عن أعين الظالمين وجماهيرهم اللاهثة وراء متعها الرخيصة، فالعبد الصالح الذي جعله الله خليفته وحجّته على عباده، حتّى لو آثر السلامة أو صمت أو كفّ عن ملاحقة المنكر الذي يتراءى للعيان منهم، يشكّل عنصر إزعاج وممانعة للشهوات والرغبات اللامتناهية التي تتجدّد عند العتاة والطواغيت وأعوانهم الذين تدرّعوا بأكثرية جاهلة لاتفقه شيئاً، وكأنّ رغباتهم وشهواتهم العارمة اللامنضبطة تتجدّد مع حدثان الليل والنهار، فلا يمكن مقاومتها أو الحدّ منها أو تهذيبها. وهذا ما جرى للأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين جعلهم الله حجّة على عباده، فهم قد نأوا عن مخالطة السلاطين رغم وجود صِلات قربى من بعيدٍ معهم، وربّما حصل وجرى لهم دعوات متكرّرة منهم للاتّصال بهم والدنوّ منهم لأغراض شتّى، لكنّهم كانوا في منأى عنهم وعن بيوتهم وقصورهم. و قد يحصل في دورة من دورات الزمان أن يدخل بيوتَهم وقصورهم حجّة من حجج الله ابتلاء واختباراً، كما ابتُلي وامتحن الإمام الثامن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بولاية العهد، هذا العهد الذي كان له عليه السلام كيداً وقيداً، فوضعه المأمون في

١- ولعلّ حياة هؤلاء في هذا النمط من العيش الذي قُدّر لهم هو لصلاح البلاد والعباد، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الشورى: ٢٧.

معصمه لكي يفشل حركة المعارضة السياسية التي تفاقمت في عهده، والتي يشكّل العلويون والشيعة معظمها آنذاك، وكان الإمام الرضاعليه السلام حذراً في مواجهة هذه القضيّة، لأنّ شخصاً مثل المأمون في سياسته وكيده لايمكن التخلّص منه أو إفشال مخططه بسهولة، وقد أخبره الرضاعليه السلام في مواقف كثيرة عمّا يدور في خَلَده، وربّما كان بلغة مباشرة له عليه السلام في حوار معه ومع غيره[١].

وكذلك جرى فصل جديد من كيد سلاطين بني العبّاس بمن جاء بعده، وهو الإمام التاسع محمّد بن عليّ الجوادعليه السلام، هذا الإمام الذي ابتُلي بالمأمون العبّاسيّ الذي كان يعرف منزلة الإمام وموقعه ومدى قدرته في التأثيرفي الجماهيرالغفيرة من المسلمين الذين كانوا مستائين من سلطة بني العبّاس، فقد أراد المأمون أن يجعل من إمام عصره محمّد بن عليّ الجوادعليه السلام وسيلةً بيده يحقّق بها أحلامه، والتي كان يحلم بها من زمان أبيه الرضاعليه السلام في أن يكون آل أبي طالب حرسه الخاصّ، وأن يديروا له مكتب إعلام القصرالعبّاسيّ ليوطّدوا سلطانه ويعزّزوه، ومن هذه الأحلام أن يكون الجوادعليه السلام فتى القصرالعبّاسيّ اللاهج بذكرهم، وكأنّه خطيب السلطة الذي يبارك للحاكم كلّ فعله حين يشاء. وكأنّ الأمل المرجوّمن إرادتهم من هذا العبد الصالح الهادي المهديّ أن يعيش في ظلّ الحاكم العبّاسيّ،

١- روى الكلينيّ بإسناده إلى معمَّربن خلّاد قال: «قال لي أبوالحسن الرضاعليه السلام: قال لي المأمون: يا أبا الحسن، لو كتبتَ إلى بعض مَن يطيعك في هذه النواحي التي فسدت علينا، قال: قلت له: يا أميرالمؤمنين، إن وفيتَ لي وفيتُ لك، إنّما دخلتُ في هذا الأمرالذي دخلتُ فيه على أن لا آمرَولا أنهى، ولا أُولّي ولا أعزل، وما زادني هذا الأمرالذي دخلتُ فيه في النعمة عندي شيئاً، ولقد كنتُ بالمدينة وكتابي ينفذ في المشرق والمغرب، ولقد كنت أركب حماري وأمرّ في سكك المدينة وما بها أعزُّمنّي، وما كان بها أحد منهم يسألني حاجة يمكنني قضاؤها إلّا قضيتها له..»، **الكافي** ٨: ١٥١ / ح ١٣٤.

وينعم بمائدته الملأى بما لذّ وطاب، ولكن عليه أن ينهي دوره ورسالته التي أرادها الله له، والتي توارثها عن آبائه الطاهرين عليهم السلام، وما عليه هنا إلّا أن يمارس دور الكاهن العابد الذي يسجنه الحاكم في زاوية من زوايا قصره فيسبّح شاكراً ومبتهلاً وداعياً له بالبقاء والخلود، عرفاناً بفضله وشكراً لنعمته التي يُغدقها عليه!

ولكنّ الإمام محمّداً الجواد عليه السلام أدرك ما أريد له، فنأى عنه وعن بلاطه ليستقرّ في مدينة أجداده بعيداً عنهم وعن ألاعيبهم إلى حين من الدهر، ولكنّ الظاهر أنّ ابتعاد الإمام الجواد عليه السلام من هذا الجوّ السلطانيّ الخانق، والذي يزعج أولياء الله، لم يدم طويلاً، فتحرّكت عيون بني العبّاس صوب المدينة التي كانت في اعتقادهم ربّما تهدّد السلطة العبّاسية بوجود سلطان الحقّ فيها، وهو الإمام التاسع محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام، الذي جعله الله عَلَماً ومناراً هادياً ومسدّداً لعباده. فظلّت عيون الضلالة تلاحظه عن بعد بترقّب، خوفاً وهلعاً من أن يمتدّ نوره الذي يغشي أبصارهم، وكأنّ المعتصم بن هارون الرشيد العبّاسيّ الذي خلف سلطة أخيه في الحكم والكيد من أجل التشبّث بسلطان زائل، لم يغب عن ذهنه مراقبة هذا الضوء اللامع والشهاب الساطع. ويمكن أن يقال بعبارة أخرى: إنّ مصيبة أخرى أكملت ما كان، فلم يرد المعتصم أن ينسى هذا العبد الصالح الذي آثر البقاء بعيداً عن فتنة بغداد وجور ملوكها ووزرائها، والذين روتهم مياه دجلة من عذب مائها وأطعمتهم لذيذ ثمارها التي غذّتها الأشجار المترعة من شهد دفق الرمال الذهبية التي يرميها لهم النهر المعطاء دجلة الخير والحنان والأمان، والمنبسط في رياض بغداد وبساتينها الزاهية، فلم تمنع هذه النعمة المطغية يد الحاكم العبّاسيّ المترهّلة لكي تمتدّ إلى بدن العبد الصالح والنائي عنهم وعن قصورهم، فيدخل يده الآثمة في بيت الإمام الخاصّ، فيسقي هذا الإمام الطاهر نخب المنيّة على يد ابنة أخيه أمّ الفضل بنت المأمون، والتي يرقد الإمام الجواد عليه السلام عندها، فيالها من مصيبة

وغدرة يخجل منها التاريخ! ولكنّ غياب بدن الإمام الجوادعليه السلام عنهم وعن دنياهم المفتونين بها لايعني لهم ولغيرهم الأمن والاستقرار والنعيم الدائم، فثقافة القتل وتصفية الأولياء والصالحين صارت سنّة لدى الطغاة، كذلك جرت مع من سبقه و تجري مع من لحقه من الأئمّة المعصومين من آل البيتعليهم السلام، فالإمام المعصوم حين يغيب عن أعينهم وأزمنتهم لايعني في هذا المشهد الزمانيّ والمكانيّ المصوّر لهم نهايته الأبدية، أوبُعده عن الوجود المتناهي في أذهانهم إلى تراب وساعات زمنية غيرقابلة للتجدّد، فهوباقٍ مع بقاء الزمن وخالد ما دام الكون و الوجود في دوامه وخلوده، و إلى نحوهذا المعنى صدع أمير المؤمنين عليّعليه السلام في خطبته قائلاً: «أيّها الناس، خُذُوها عن خاتم النبيّينصلى الله عليه وآله: إنّه يموت مَن مات منّا وليس بميّت، ويَبلى مَن بَلي منّا وليس ببالٍ»[١].

وهكذا كانت الحقيقة التي نحاول أن نلقي ضوءاً عليها وعنها، فربح الإمام محمّد الجوادعليه السلام وتسامى ولحق بالأنبياء والأوصياء والأولياء والأئمّة المعصومين من أجداده الطاهرين، وظلّت ذاكرة الزمان تعيد كلّ ما جرى وما كان من سيرة المعصومينعليهم السلام، وكأنّها أحداث مرّت وجرت بالأمس وما زالت على غضاضتها وطراوتها، ومعها أوراق التاريخ الذي دوّن وسجّل جانباً من عظمة هؤلاء الأولياء الذين ملكوا القلوب وأحيوها، وهناك على هامش هذه الأحداث نجد إشارات خجلى لطغاة بُله شاركوا في جريمة قتلهم وسجنهم وملاحقتهم، فخسروا خسراناً مبيناً. وربّما قد يقال بأنّ هذه السطور التي كانت محطّات بحث ودراسة ـ في نظر بعض القرّاء ـ ليست بجديدة، ولكنّها كتبت على وُرَيقات جديدة غضّة تعيد وتستعرض ما كان من عصور تصرّمت وانقضت مع انقضاء واندثار ملوك بني

١- نهج البلاغة: الخطبة ٨٧.

العبّاس، وتصوّر ما جرى للإمام القانع محمّد بن عليّ الجواد عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي أمضى أغلب سني عمره القصيرة بين بغداد والمدينة، فيستقرّ في آخرها عند مقام جدّه المظلوم موسى بن جعفر عليه السلام الذي قضى شهيداً مظلوماً، تبكيه بغداد بحرقة ولظى يستعر لها نسيمها، ويَسودّ مع ظلام وفحمة السواد الحزين الذي كان مجلّلاً بغداد حين غيّبوا جدّه الإمام العابد الساجد موسى بن جعفر عليه السلام، وتظلّ بغداد تذرف دموعها الساخنة على مرّ الدهور والعصور والأزمان المتجدّدة حزناً وألماً للفتى اليافع الذي لم يُمتَّع بالشباب، ولم تَطُل أيّامه المباركة الميمونة التي أرادها الله رحمةً وغيثاً وسقياً لعباده.

فكان لي أيّام وليالٍ، كنت وما أزال أرجو من الله أن يعدّها لي من الحسنات، ويغفر لي بها ما كان لي من سيّئات ملأتُ بها صحائف أعمالي. فمنذ سنين وأنا أتصفّح وأقلّب صفحات من هذه الأحزان والآلام التي لقيها الأئمّة الأطهار في أعصر مضت، اندرجت بعضها في سطور من هذا الكتاب وكتب أخرى، ربّما أوفّق لها إن أراد الله وقدّر. ولعلّه قد يكون لنا منه نظرة وشفاعة تنفعنا يوم فاقتنا. ولعلّ من الجدير بالذكر هنا أيضاً أن يقال: إنّ ما مسطور في هذا الكتاب كتبه الكاتب في الأرض المقدّسة الطيّبة، والمباركة بغصن من أغصان الشجرة العلوية العظيمة والمتفرّعة في الجنّة الرضوية التي ما زال عطاؤها منشوراً ومنثوراً في مشهد الإمام الطاهر المطهّر ابن السادة المطهّرين: السلطان أبي الحسن عليّ بن الإمام موسى بن الإمام جعفر بن الإمام محمّد بن الإمام عليّ بن الإمام الحسين بن الإمام عليّ بن أبي طالب عليه وعلى آبائه آلاف التحيّة والسلام.

عادل عبد الرحمن البدريّ

المشهد الرضويّ المقدّس في مدينة خراسان

الإمامة في المعتقدات الشيعية

الإمامة كمفهوم عقائديّ وسياسيّ له أهمّيته في تاريخ المسلمين، وما زال هذا المفهوم قيد البحث والدراسة، وكأنّ أقلام العلماء لم تُكمل جرّتها الأخيرة في هذا البحث الخطير، نظراً إلى المساحة الكبيرة والدلالات الواسعة لهذا المفهوم. فالنبوّة لها أمد محدود وعصر مقيّد بوجود النبي المبعوث الذي قدّر له الخالق عمراً وزمناً محدوداً، يرحل في ختام هذا العمر عندما تنتهي المدّة المرسومة له، فلم يعد هناك من ضرورة أو جرأة لادّعاء هذا المنصب أو ركوبه، ومن هنا كان هذا البحث والدرس مغلقاً، أمّا دور الإمامة فليس له أمد وعمر محدود، فشخص الإمام حين يرحل لا ترحل معه منصّة الإمامة، بل تبقى لها امتداداتها، يقول الشيخ الصدوق: الإمامة شائعة في طبقات الشيعة وفِرقها، لاينكرها منهم منكر، ولايجحدها جاحد، ولايتأوّلها متأوّل، إنّ الأرض لاتخلو من إمام حيّ معروف: إمّا ظاهر مشهور، أو خائف مستور، ولم يزل إجماعهم عليه إلى زماننا هذا، فالإمامة لاتنقطع، ولايجوز انقطاعها لأنّها متّصلة ما اتّصل الليل والنهار[1].

وربّما كان المسلمون من أكثر الأمم تجالداً وتشقّقاً وانشقاقاً حول مفهوم الإمامة ومداها ومن يتسمّى بها، لذا كانت حوارات الأمّة ودماؤها تسيل في هذا الاتجاه،

١- كمال الدين وإتمام النعمة: ٥٩٦.

ومن شعاعات هذا المفهوم كانت تظهر المقولات والرؤى لدى الموافقين والمخالفين، يقول عارف تامر: ما اختلف المسلمون في أمرٍ اختلافَهم في الإمامة، وهذا الخلاف لم ينشأ عن أثر الغموض في التعليمات الإسلامية، ولا من الجهل بفهم نصوص القرآن الكريم أو تفسيره أو تأويله، إنّما وقوع كلّ ذلك كان بدافع سياسي بحت، والسياسة ما كانت إلّا أداة للتفرقة والانقسام، فهي كما قيل: ما دخلت شيئاً إلّا أفسدته[1].

وخلاف المسلمين في الإمامة يعود إلى عصور التأسيس الأولى، يقول الشهرستاني: أعظم خلاف بين الأمّة خلافُ الإمامة، إذ ما سُلّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثلَ ما سُلّ على الإمامة في كلّ زمان[2].

ويقول محمّد سيّد گيلانيّ: لقد تنازع القوم على منصب الخلافة تنازعاً قلّ أن تجد له مثيلاً في الأمم الأخرى، وارتكبوا في سبيل ذلك ما نتعفّف نحن عن ارتكابه الآن. فترتّب على ذلك أن أُزهقت أرواح ودُمّرت مدن، وهُدّمت قرى و أُحرقت دور، و ترمّلت نساء، وتيتّمت أطفال، وهلك من المسلمين خلق كثيرا! و مع ذلك نجد الكتّاب و المؤرّخين إذا تناولوا هذا العصر أسبغوا على هؤلاء القوم ثوباً من الإجلال والتقديس، وجمعوا حول سِيَرهم الكثيرَ من الأساطير و الخرافات، ووضعوا لهم المناقب و اختلقوا الأحاديث، حتّى إنّ الناس لم يجرؤوا على تناول الأحداث الجسام التي وقعت في هذا العصر بروح النقد النزيه و التمحيص العلميّ، وذلك لما أصابهم الخوف و الوجل إذا هم يتعرّضون لأمثال هؤلاء الرجال، فقد رسخ في

١- **الإمامة في الإسلام**: ٦١.

٢- **الملل والنِحل** ١: ٢٤.

الأذهان أنَّ التعرّض لهم كفر صريح، وخروج عن الدين الحنيف[١].

ولم يقف الاحتراب على السيف وحده، فقد انبرى المتكلّمون ورجال السياسة، وحتّى الفقهاء والفلاسفة في البحث في هذا الموضوع بين القبول والردّ، يقول الشيخ الطوسيّ: والمخالف في وجوب الإمامة طائفتان: إحداهما تخالف في وجوبها عقلاً، والأخرى تخالف في وجوبها سمعاً، والمخالف في وجوبها سمعاً شاذّ لايُعتدّ به لشذوذه، لأنّه لا يُعرف قائل به، وعلماء الأمّة المعروفون مجمعون على وجوب الإمامة سمعاً. والخلاف القويّ في وجوب الإمامة عقلاً، فإنّه لايقول بوجوبها عقلاً غير الإمامية والبغداديين من المعتزلة[٢] وجماعة من المتأخرين، والباقون

١- **أثر التشيّع في الأدب العربيّ**: ١٥.

٢- المعتزلة: هم أتباع واصل بن عطاء والسائرون على نهج أفكاره. ولهم آراء في التوحيد والعدل ونفي الصفات. وقد ذُكر أنّ واصل بن عطاء كان تلميذاً لأبي هاشم بن محمّد ابن الحنفيّة. فتشبّع بالأفكار المبثوثة في خطب الإمام عليّ عليه السلام التي ربّما كانت تلقى عليه من قبل أستاذه فظهرت في مقولاته، وهي مقولات ينسجم بعضها مع معتقدات الشيعة. واتفق أصحاب **الملل والنحل** على أنّ أساس الاعتزال يرجع إلى واصل بن عطاء، وكان واصل يحضر مجلس الحسن البصريّ. وتضافرت الأخبار على أنّه دخل رجل على الحسن البصريّ فقال: يا إمام الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملّة، وجماعة يُرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضرّ مع الإيمان، بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ويقولون: لاتضرّ مع الإيمان معصية، كما لاتنفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا في ذلك؟ ففكّر الحسن في ذلك، وقبلَ أن يجيب بجواب قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول: إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلق، ولا كافر مطلق، بل منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر. ثمّ اعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرّر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنّا، فسمّي هو وأصحابه معتزلة. ينظر: **أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية** للشيخ جعفر السبحانيّ: ١٩٦ – ١٩٨.

يخالفون في ذلك ويقولون: المرجع فيه إلى السمع[١] وذكروا بأنّ الحشوية[٢] وبعض المُرْجِئة[٣] والنجدات من الخوارج[٤] قالوا بأنّ الإمامة ليست لازمة ولا واجبة، ولكن إن

١- **الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد**: ٢٩٦.

٢- الحَشَوِيّة: طائفة تقول بعدم وجوب الإمامة، وسُمّوا بالحشويّة لأنّهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المرويّة عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أي يدخلونها فيها وليست منها، وجميع الحشوية يقولون بالجبروالتشبيه. ولهم مقولات اعتقادية تخالف الاعتقاد المتعارف عليه بين الفرق والمذاهب الإسلامية، ومن مقولاتهم: إنّ الله واحد ليس كمثله شيء، ومعنى ذلك، أي ليس كمثله شيء في العظمة و السلطان والقدرة والعلم والحكمة. وهو موصوف عندهم بالنفس واليد والسمع والبصر. ومن المقولات التي نسبت إليهم: إنّ علياًعليه السلام وطلحة والزبيرلم يكونوا مصيبين في حربهم، وإنّ المصيبين هم الذين قعدوا عنهم، وإنّهم يتولّونهم جميعاً، ويبرؤون من حربهم، وهم يردّون أمرهم إلى الله. ينظر: **الحور العين** للحِمْيَريّ: ١٤٩ و٢٠٤، **المقالات والفرق** للأشعريّ: ١٢.

٣- الإرجاء على معنيَين؛ أحدهما بمعنى التأخير، كما في قوله تعالى: **﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾** الأعراف: ١١١، أي أمهله وأخّره. والثاني: إعطاء الرجاء. أمّا إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأوّل فصحيح، لأنّهم كانوا يؤخّرون العمل عن النيّة والعقد، وأمّا بالمعنى الثاني فظاهر، فإنّهم كانوا يقولون: لاتضرّمع الإيمان معصية، كما لاتنفع مع الكفرطاعة. وقيل: الإرجاء تأخيرحكم صاحب الكبيرة إلى يوم القيامة، فلايُقضى عليه بحكم ما في الدنيا، من كونه من أهل الجنّة، أو من أهل النار.. والمرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القَدَرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة. **الملل والنحل** للشهرستانيّ ١: ١٣٩. وقال بعض أهل المعرفة بالملل: إنّ المرجئة هم الفرقة الجبرية الذين يقولون: إنّ العبد لا فعل له، وإضافة الفعل إليه بمنزلة إضافته إلى المجازات، جرى النهرُ، ودارتِ الرَّحاء، وإنّما سُمّيت المُجبِّرة مرجئة لأنّهم يؤخّرون أمرالله ويرتكبون الكبائر. **مجمع البحرين** للطريحي ١: ١٧٧ (رجا). وقيل: كانت المرجئة قد نشأت بين السنّة والشيعة، فكانوا يستهدفون الإباحيّة المطلقة في الأخلاق والأعمال. **أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية** للسبحانيّ، ١٩٦.

٤- الخوارج: كلّ من خرج على الإمام الحقّ يسمّى خارجياً، سواءً كان الخروج في أيّام الصحابة أم كان بعدهم، وقد غلبت هذه التسمية على الذين خرجوا على أميرالمؤمنين عليّعليه السلام أثناء

أمكن الناس أن ينصبوا إماماً عدلاً من غير إراقة دم ولا حرب فحَسَن، وإن لم يفعلوا ذلك وقام كلّ رجل منهم بأمر منزله ومن يشتمل عليه من ذوي قرابة ورحم وجار، فأقام فيهم الحدود والأحكام على كتاب الله وسنّة نبيّه جاز ذلك، ولم يكن بهم حاجة إلى إمام، ولايجوز إقامة السيف والحرب[١].

فالفِرق الإسلامية التي ظهرت في التاريخ السياسي والكلامي لم تتفاهم أو

حرب صفّين بعد مسألة التحكيم. وكبار الفرق من الخوارج عبارة عن: المحكِّمة، الأزارقة، النجدات، البيهسيّة، العجاردة، الثعالبة، الصفرية، الإباضيّة. **أصول الحديث وأحكامه** للشيخ جعفر السبحانيّ: ١٩٤ و١٩٥. والنجدات: هم أتباع نجدة بن عامر الحنفيّ، وكان السبب في زعامته أنّ نافع بن الأزرق لمّا أظهر البراءة من القاعدين عن القتال ـ وإن كانوا على رأيه وسمّاهم المشركين واستحلّ قتل الأطفال والنساء من المخالفين ـ فارقه جماعة منهم نجدة ابن عامر الذي خرج على نافع بن الأزرق وذهب إلى اليمامة، وكتب إليه يقول بعد أن ذكر منزلته في التقوى والعدل مِن قبل: تجرَّدَ لك الشيطان، ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك، فاستمالك واستهواك واستغواك، وأغواك فغَوِيت. فأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قَعَدة المسلمين وضعفتهم، فقال جلّ ثناؤه: **﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ﴾**، ثمّ سمّاهم أحسن الأسماء فقال: **﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾** التوبة: ٩١. ثمّ استحللت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتلهم وقال تعالى: **﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** الأنعام: ١٦٤. وقال في القُعَدِ خيراً، وفضّل الله مَن جاهد عليهم، ولايدفع منزلةُ أكثر الناس عملاً منزلةَ مَن هو دونه، أوَ ما سمعت قوله عزّوجلّ: **﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾** النساء: ٩٥. فجعلهم الله من المؤمنين وفضّل عليهم المجاهدين بأعمالهم. ورأيت ألّا تؤدّيَ الأمانات إلى أهلها، فاتّقِ الله وانظر لنفسك واتّقِ يوماً لايجزي والد عن والده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإنّ الله عزّ ذكره بالمرصاد، وحكمُه العدل، وقوله الفصل. عامر النجّار، **الخوارج**: ١٥٨.

١- **الحور العين** لنشوان الحميريّ: ١٥٠.

تتّحد في رؤيتها لهذا المقام الخطير (مقام الإمامة)، وإن كانت الفرق المناوئة للإمامة قد اندثرت جلّها، فالنزاع والخصام السياسي والكلامي في هذا الموضوع يبدو وكأنّه لم ينقطع إلى الآن، ولايمكن له أن ينقطع. وقد أشار السيّد هاشم معروف الحسنيّ إلى ذلك فقال: ومن المعلوم أنّ النزاع في الإمامة بين المسلمين كان ولايزال من أبرز ما حدث في تاريخ الإسلام، ونتج عنه انحراف فئات من المسلمين عن الطريق القويم منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وآله، فانقسموا بسبب نزاعهم في الإمامة إلى طوائف وأحزاب، وقامت بينهم المعارك والحروب، أُريقت فيها الدماء، واستُبيحت الأعراض، وتبدّلت المفاهيم، واختلفت القيم. وما زال المسلمون يعانون من آثار هذا الانحراف المتاعبَ والانقسامات التي تجاوزت أبعد الحدود، وتخطّت مسألة الإمامة إلى غيرها من المسائل المتعلّقة بأصول الدين وفروعه، وأصبح من المتعسّر تقريباً على أيٍّ كان إصلاحُ ما حدث، وسدّ تلك الفجوة العميقة التي حدثت نتيجة لذلك الصراع الذي دام طوال هذه القرون، ما دام كلّ فريق يحرص بكلّ ما أُوتي من قوّة وتفكير لتأييد مذهبه وانتشاره[١].

وكان أصل وعمق الخلاف بين الإماميّة وأهل السنّة والجماعة يدور حول موضوع في الإمامة، هو: هل إنّ الإمامة هي بالاختيار أو بالنصّ؟[٢] وباعتقاد الشيعة

١- الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة: ١٩٤.

٢- قال الحميريّ بأنّهم صاروا إلى ثلاث فرق: فرقة قالت هي بالشورى، وهم جميع الأمّة إلّا الشاذّ القليل، وفرقة قالت هي بالقربى والوراثة، وفرقة قالت هي بالنصّ. فأمّا من يقول بالشورى فقالت المعتزلة، والمرجئة، والخوارج، وبعض الحشوية، والجريرية والبترية ـ وهما فرقتان من الزيدية: إنّ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله لم ينصّا على رجل بعينه واسمه، فيجعلوه إماماً للناس، وإنّ الإمامة شورى بين خيار الأمّة وفضلائها يعقدونها لأصلحهم لهم، ما لم يُضطَرّوا إلى العقد قبل المشورة لفتق يُخاف حدوثه على الأمّة، فإذا خافوا وقوع ذلك وبادر قوم من خيار الأمّة وفضلائها أو

أنّ الإمامة رئاسة و إمرة إلهيّة كالنبوّة، فالإمام حافظ للشرع وقائم به، فحاله في ذلك كحال النبيّ. فدَور الإمام لايقتصر على الشؤون الإدارية والتنفيذية، بل يتعدّاها إلى التفسير الشامل للدين وشرحه وتطبيقه، وهداية الناس إلى ما فيه سعادة الدارين، وهذا بذاته يفترض جملة من الشروط في الإمام، كالعصمة والعلم ونحوهما، تمنع الاختيار أو الوصول إلى الحكم بطرق أخرى، لقصور الناس عن معرفة بعضها كالعصمة، فاستلزم النصّ منه سبحانه[1]. وربّما يقترب جمع كثير من العلماء، ومن المفكّرين، القدامى والمحدثون منهم، بما يوافق رؤى الشيعة موافقة نسبية، فيرى بعض علماء أهل السنّة والجماعة بأنّ الإمامة عبارة عن رئاسة في الدين والدنيا عامّة لشخص من الأشخاص[2]. وينتقض ذلك بالنبوّة، فالحقّ باعتقادهم أنّ

رجلان من عدولها وأهل الشورى فعقدوا الإمامة لرجل يصلح لها ويصلح على القيام بها، ثبتت إمامته ووجبت على الأمّة طاعته، وكان على سائر الناس الرضاء. ثمّ اختلف الذين أوجبوا الإمامة، هل يجوز كون إمامين أو أكثر في وقت واحد؟ فقال بعضهم: لايجوز ذلك؛ لِما فيه من الاختلاف والانتشار، وقال بعضهم: يجوز كون إمامين وثلاثة، وأكثر من ذلك في البلدان المتقاربة في وقت واحد. **الحور العين**:١٥٠.

١- ينظر: عليّ أمين جابر آل صفا، **البيعة ونظام الحكم في الإسلام**: ٢١٦

٢- ومن هذا الاعتبار جاء قول أبي الحسين هلال بن المحسّن، وهو من أعلام القرن الرابع والخامس الهجريَّين، في شأن الدولة والخلافة العبّاسيّة: ولمّا كانت الخلافة من النبوّة، وكان لها من جلالة القدر، وفخامة الأمر، أعلاها مراقب، وأشرفُها مراتب، ومن أُسّ الأعمال وقوانين الأفعال، أوضحها معالم، وأثبتها دعائم، ومن شروط المكاتبات، ورسوم الترتيبات، أحسنها طرائق، وأحكمها وثائق، ومن حقوق الخدمة وحدود الحشمة أَولاها بأُولي العقل والمُسْكة، وذوي الحزم والحنكة، وأحراها بأن يُتداوَل، ويُتفاوَض ويُتناقَل، ليكون تذكرة للناسي وتبصرة للناشئ، وطريقاً إلى معرفة ما عظّمه الله من شأن الدعوة الهاشميّة، وأعزّه من سلطان الإمامة العبّاسيّة. **رسوم دار الخلافة**: ٥.

الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص للرسول صلى الله عليه وآله في إقامة قوانين الشرع وحفظ حوزة الملّة، على وجه يجب اتّباعه على كافّة الأمّة[1]. وبهذا الاتّجاه والنظر فإنّ جمع من أهل السنّة والجماعة يقولون بوجوب نصب إمام، كما يقولون كذلك بأنّه لا يجوز أن تخلو الأرض من إمام حتّى يُعقَد لواحد. ويوافقهم في ذلك الرأي المعتزلةُ والخوارج -عدا النجدات- والمرجئة[2]. وبهذا يتقارب ويتوافق جمع كثير منهم مع اعتقاد الشيعة القائل بأنّ الإمام ضرورة دينية وسياسيّة واجتماعيّة، وهذه الضرورة تنبع من عوامل ثلاثة: الأوّل: هو أنَّ الإمامة ضرورة لحلّ الاختلاف في عبادة الله تعالى، وتشخيصِ طريق حركة الإنسان نحو المثل الأعلى الكاملِ المتمثّل بالله تعالى.

الثاني: ضرورة الإمامة في حلّ الاختلاف الذي ينشأ بين الناس في فهم الدين و تفسيره الذي نعبّر عنه بالتأويل في لغة القرآن ولسان أهل البيت عليهم السلام، حيث إنَّ وجود الاختلاف في الدين على كلا المستويين ظاهرةٌ من الظواهر التي واجهتها مسيرة الرسالات الإلهية كلّها بدون استثناء على ما يبدو من خلال نصوص القرآن الكريم.

الثالث: ضرورة الإمامة لقيادة الحكم الإسلاميّ و إدارته، ومن ثمّ تطبيق الحقّ والعدل بين الناس بنحو يؤدّي بهؤلاء الناس كجماعة إلى التكامل الإنسانيّ والبشري، من خلال تحقيق و تطبيق الحقّ والعدل بينهم، ليصلوا إلى الكمالات الإلهيّة التي أرادها الله تعالى[3]. ولذلك لايمكن للوجود والكيان الأرضيّ أن يستمرّ

١- **الإمامة من أبكار الأفكار في أصول الدين** للآمديّ: ٦٩.

٢- عامر النجّار، **الخوارج**: ٢١٦.

٣- السيد محمّد باقر الحكيم، **الإمامة و أهل البيت، النظرية و الاستدلال**: ١٠٦.

بدون وجود الإمام و إشرافه وتوجيهه، ومن هذا المعنى رويَ عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ آخر من يموت هو الإمام»[١]، و:«لو بَقِيت الأرض بغير إمام لَساخت»[٢].

و لهذا السبب تشعّبت العلوم واتّسعت المباحث من هذا الأصل الديني والسياسي، فكان للشيعة في هذا المجال حظّ كبير من المناقشة العلمية، فاعتبر الأستاذ محمّد ضياء الدين الريّس أنّ الشيعة أوّل من بحث وتصدّى للكتابة بالأدلّة العلمية والمنطقية، سواء كانت الأدلّة مبنيّةً على أساس ديني ثيولوجي أم عقلي، فالشيعة ـ باعتقاده العلميّ ـ لهم الفضل في خلق هذا النوع من البحث العلميّ المسمّى بالإمامة، فهم الذين أوجدوه وأفردوا له مكاناً بين مباحث علم الكلام.[٢] ويقال له أيضاً علم الولاية، وهذا ماقاله معظم علماء الشيعة، فيقول الشيخ محمّد جواد مغنية: الولاية موضوع دينيّ، ذكرها علماء الكلام في باب العقائد بعنوان الإمامة، ولكنّها تصلح بمباحثها الهامّة لأن تكون علماً بذاته من علوم الدين، وتكاد تكون عند الإمامية كذلك، حيث وضعوا فيها العديد من الكتب، منها المطوّل ومنها المختصر، ومنها ما بين هذين. وأكثر علماء الإماميّة يرون أنّها من أصول الدين. وقال قائل منهم: هي من أصول المذهب، وذهب البعض إلى أنّها شرط لقبول العبادة والثواب عليها، وليست شرطاً لصحّة العبادة وكفايتها.[٣]

١- **بحار الأنوار** ٢٣: ٢١ / ح ٢١ ـ عن: **علل الشرائع** ١٩٦ / ح ٦ ـ الباب ١٥٣.

٢- ينظر: أسد حيدر، **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة** ٣: ٤٤٧.

٣- جاءت أخبار في هذا الاتّجاه، منها ما ورد في خبر رواه زرارة عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام: «بُنيَ الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحجّ، والولاية. قال زرارة: فقلت له: وأيّ شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية أفضل؛ لأنّها مفتاحهنّ، والوالي هو الدليل عليهنّ، فقلت: ثمّ الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصلاة، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: الصلاة عمود

وألّف بعض علماء السنّة في الإمامة كالماورديّ صاحب (الأحكام السلطانية)، وابن قتيبة صاحب (الإمامة والسياسة)، ولكنّ مؤلّفاتهم في هذا الموضوع تختلف عن كتب الإمامية في الكثير من مباحثها وأهدافها، بل بعض فصولها لايمتّ إلى الإمامة بسبب![1] وأكثر علماء الشيعة لايختلفون في مباحث الولاية، فيقولون بمقولات الإمامية الاثني عشرية في مجمل معتقداتهم، إلّا أنّ الاختلاف الواقع بين بقيّة الفرق المحسوبة على الشيعة، كالإسماعيلية والزيدية والواقفية، وبين الإمامية الاثني عشرية، هو في عدد الأئمّة المعصومين الذين يُرجَع إليهم. ومن الراجح لدى الباحثين بأنّه من وحي هذا المعتقد، أي مفهوم الإمامة، لَحِقت الطائفة الإمامية تسميتها المشهورة بها.

وقد يكون من الجدير بالذكر هنا أنّ يُقال بأنّ طائفة الشيعة قد اتّخذت إطلاقات وأسماء عُرِفت بها، دون غيرها، منها: الاثنا عشرية، والإمامية، والجعفرية، ونحو هذه الألفاظ. وعلى العموم قد تكون هذه الألفاظ، كلّها أو جلّها، ألفاظاً متعدّدة لفظاً، ومتّحدة معنى بشكل نسبيّ. ولعلّه كان من المتسالم عليه لدى

دينكم. قال: ثمّ قلت: الذي يليها في الفضل؟ قال: الزكاة.. قلت: والذي يليها في الفضل؟ قال الحجّ..» ينظر: **أصول الكافي** ٢: ١٨ـ١٩ / ح٥. وجاء في خبر روي عن الحسن بن زياد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: هل تكون الأرض إلّا وفيها إمام؟ قال: لاتكون إلّا وفيها إمام عالم بحلالهم وحرامهم وما يحتاجون إليه. وفي خبر رواه ابن أبي يعفور قال قال أبو عبد الله عليه السلام: «لاتبقى الأرض يوماً واحداً بغير إمام منّا تفزع إليه الأمّة». وفسّر الصادق عليه السلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾ الإسراء: ١٣ بأنّ الطائر هنا هو الولاية. **كمال الدين وإتمام النعمة**، ص٢١٣ ح١٦ وص ٢٣٠ ح٢٩ وص٣٣١.

١- **فلسفة الولاية**: ٢٤ و٣٨.

الباحثين أنّ التسميات المشهورة للشيعة طبقاً لإطلاقاتهم المتداولة[١] هي:

١ـ الاثنا عشرية: و إنّما سُمّيت بذلك لأنّها تقرّأنّ الإمامة إلى اثني عشرإماماً، وهم: عليّ أمير المؤمنين، الحسن، الحسين، عليّ بن الحسين، محمّد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، عليّ الرضا، محمّد الجواد، عليّ الهادي، الحسن العسكريّ، الحجّة بن الحسن المهديّ عليهم السلام.

٢ـ الإمامية: سُمّيت بهذا الاسم لقولها بوجوب نصب الإمام، فقد قالت بوجوب نصبه على الله تعالى، وجعلت الإمامة أصلاً من أصول الدين. وهذا الاسم وإن كان يشمل كلّ من قال بوجوب الإمامة من الشيعة، و إن لم يكن بعضهم اثني عشريّاً، غير أنّه صار لهذه الفرقة لقباً خاصّاً تمتاز به، وتتبادر منه عند التلفّظ[٢].

٣ـ الجعفريّة: وقد أُطلق عليها هذا الاسم نسبةً إلى الإمام السادس جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، ولم تُسمَّ بذلك لأنّها تقف بالإمامة عليه، بل سُمّيت بذلك لبروزها وظهور كيانها في عصره سلام الله عليه، فإنّها كانت في عصر آبائه عليهم السلام خائفة وجلة تخشى أن يتخطّفها الطير. وما أن جاء عصره عليه السلام حتّى تمكّنت أن تبرز قليلاً بآرائها، وتتظاهر نوعاً ما بنظرياتها ومعتقداتها، إذ إنّ الإمام جعفر الصادق عليه السلام

١- ذُكرأنّ هناك فرقاً للشيعة اتّخذت تسميات لم يتحقّق منها الباحثون، ولم يؤيّدها علماء الشيعة وغيرهم من أهل البحث والتحقيق، و ربّما هي تسميات وَهْمية أكثر منها تسميات واقعية وحقيقية، فقد ذكر أبو سعيد بن نشوان الحميريّ أنّ الشيعة افترقوا ستّ فرق هي: سبئية، وسحابية، وغرابيّة، وكامليّة، وزيديّة، و إماميّة. **الحور العين**: ١٥٤. والبحث التاريخيّ لايؤيّد وجود فرق للشيعة بالأسماء الأربعة المذكورة.

٢- يقول السمعانيّ: لُقّبوا بهذا اللقب، لأنّهم يردّون الإمامة لعليّ رضي الله عنه و إلى أولاده من بعده، ويعتقدون أن لابدّ للناس من الإمام، وينتظرون الإمام الذي يخرج في آخر الزمان، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً. **الأنساب** ١: ٢٠٦ ـ باب الألف والميم.

لمّا كثرت تلامذته، وانتشر علمه في أنحاء البلاد الإسلامية ظهر عندئذٍ كيان من هذه الحيثية للشيعة فسُمّوا بالجعفرية، وما زالت تعرف به حتّى الآن.

والمحقَّق أنّ الصادق عليه السلام أدرك حاجة الأمّة الإسلامية إلى تأسيس منهج مذهبيّ وفقهيّ وعقائديّ متين تُبتنى عليه قواعد ومعارف الدين الإسلاميّ الحنيف، فشمّر ساعد العلم والمعرفة بحكمة ودراية، مستفيداً من الفترة الانتقالية التي حوّلت الحكم من دولة الأمويين إلى دولة بني العبّاس، فمكّنته مستجدّات الأحداث والتحوّلات السياسية التي عاصرها الصادق عليه السلام من أن يثبّت دعائم المذهب الجعفريّ، والذي نضج فيما بعد، ويسير بأصوله قُدماً، يقول دوايت م. رونلدسن: إنّ الإمام جعفر بن محمّد الصادق عاش في أواخر زمن الأمويين وأوائل العصر العبّاسيّ، أثناء انشغال هذين الحزبين بمقاومة بعضهما، فوجد له الفرصة لصرف اهتمامه إلى تفسير أوامر الله. ولفتاويه في هذه القضايا يرجع العلماء المتأخّرون في أكثر الاحيان[1]. ويقول فاروق عمر: دخلت الحركة الشيعية العلوية منعطفاً جديداً بظهور جعفر الصادق عليه السلام، فقد تبلور التشيّع العلويّ ووضحت معالمه على يد الصادق عليه السلام الذي عاش بمعزل عن الحركات السياسية والثورية، رغم أنّ عصره الذي عاش فيه كان يعجّ بالحركات والثورات المسلّحة، ويؤكّد كتّاب الفِرق هذه النزعة السلمية لدى الصادق عليه السلام.

ويعلّق هودسون على بروز إمامة جعفر الصادق عليه السلام وشيعته بين الفرق الشيعية، فيعزوها إلى عوامل، أهمّها:

١ـ تضاؤل الشيعة الكَيْسانية المنافسة لشيعة جعفر الصادق عليه السلام، حيث اندمجت الكيسانية بالعبّاسية وعملت على ظهور الخلافة العبّاسية، وبهذا لم يعد لمحمّد ابن الحنفية وابنه أبي هاشم شيعة يعملون من أجلهما.

٢ـ مقتل الكثير من آل الحسن عليه السلام على يد العبّاسيين، وقد كان من نتائج

١- عقيدة الشيعة: ١٤٥.

ذلك خلوّ الساحة لآل الحسين عليه السلام، أي جعفر الصادق عليه السلام ومن جاء بعده.

٣ـ لعبت شخصية جعفر الصادق وأبيه عليهما السلام مِن قَبله دوراً في تبلور فرقة الشيعة الإمامية، وتجمّع الأتباع حول زعامة الصادق عليه السلام الدينية، فلقد استطاع الصادق عليه السلام أن يوضّح أصول مذهبه.

ويعتقد هودسون أنّ هناك ثلاثة مبادئ رئيسية ساهمت في قوّة مذهب الصادق عليه السلام:

أوّلها: فكرة النصّ، ومفادها أنّ الإمامة بالنصّ من الله ورسوله، وأنّ الأئمّة من آل الحسين عليه السلام منصوص عليهم.

وثانيها: فكرة العِلم التي تعني أنّ الأئمّة محيطون بالعلوم الإلهيّة، وهذا يضفي عليه قدسية خاصّة، حيث يُتوارَث العلم من إمام إلى إمام. كما وأنّ معرفته أهّلته أمام أتباعه لكي يقرّر فيما إذا كان الوقت مناسباً لإعلان الإمامة الشيعية ومناهَضة العبّاسيين بالسلاح، وهل من الضروريّ أن يصبح خليفة دنيويّاً إضافة إلى إمامته الدينية ؟

أمّا المبدأ الثالث الذي ساعد في تثبيت إمامة الصادق عليه السلام فهو إيثاره العلم وتكوين حلقة من تلاميذه الذين أخذوا عنه، وانتشار صيته في جميع البلدان، وبالتالي تزايد عدد أتباعه. وإذا كان بعض الأتباع الجريئين من شيعة الصادق عليه السلام قد ملّوا الانتظار وخابت آمالهم من تأجيل الصادق عليه السلام الثورة ضدّ العبّاسيين فانشقّوا عليه وكوّنوا فرقاً أخرى، فإنّ سياسة الصادق عليه السلام السلمية لعبت دوراً في تزايد شيعته الذين يفضّلون السلام، وعدم التورّط في فتنة مع العبّاسيين لاتُبقي ولاتذر[1].

ومع ظهور طائفة من الفرق أو التيّارات الأخرى المنحرفة عن جادّة الإمامة النصّية المعيّنة، فإنّ العنوان الغالب والقويّ للشيعة كان العنوان الإماميّ السائر

١- **الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية:** ١٩٧.

على خطى الأئمّة الاثني عشر، وعليه تَتمَحْور الفرق الأخرى، إن وجدت وهي كارهة، وقد تُعزى وتعود كلّ التسميات، وربّما الرؤى التي تنسب إلى شيعة، إلى الطائفة الأساس الاثني عشرية، يقول السيّد الصدر: وربّما أُطلق على الاثني عشرية المتأوّلة[١] ولكنّ هذا الإطلاق حادث نشأ قبل أربعة قرون تقريباً، وهذه الطائفة غير

١- ربّما يعود أصل هذه التسمية إلى فرق الشيعة الإسماعيليّة، التي تتشارك في بعض اعتقاداتها مع الشيعة الإماميّة الاثني عشريّة، و إذا كانت هناك تخليطات لبعض الباحثين لقلّة اطلاعهم على تاريخ الشيعة، وبالأخصّ الاثني عشريّة، ولكنّهم كانوا على بعض البيّنة بتاريخ الإسماعيلية، فهذه الطائفة كان لها إطلاقات كثيرة نظراً إلى نشاطها السياسيّ والتنظيميّ الواسع لفترات زمنيّة، تمكّنوا من تأسيس دول لهم. يقول الشهرستانيّ: للإسماعيلية ألقاب كثيرة، ففي العراق كانوا يُسمّون الباطنيّة والقرامطة والمزدكيّة، وفي خراسان التعليمية والملحدة. **الملل والنحل** ١: ١٧٢. وكان الإسماعيليون يرون بأنّ للعقيدة ظاهراً وباطناً، وأنّ الراسخين في العلم هم وحدهم الذين يدركون كنه الباطن، وقد أدّى بهم هذا الاعتقاد إلى تأويل أحكام الشريعة، فجعلوا لكلّ نوع من ألوان العبادة ظاهراً وباطناً. فالظاهر للعوامّ، والباطن للراسخين في العلم. عبد النعيم محمّد حسنين، **إيران والعراق في العصر السلجوقي**: ٧٧. و من هذا تعتبر الإسماعيلية الفرقة المؤسسة للباطنية وللتأويل، ومن المناسب للذكر هنا أنّ الإسماعيلية لها فرق متعددة منها: ١- المستعلية أو الطيبية أو البُهْرة، وهي فرقة من الإسماعيلية قالت بإمامة أحمد بن الإمام المستنصر الفاطميّ، وظلّت سائرة على نهجها حتّى عهد الطيّب بن الآمر الفاطميّ، ولهذا يطلق عليها اسم الطيبيّة نسبة إلى الطيّب المذكور الذي قالوا فيه أنّه دخل كهف الستر وسيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن تُملأ ظلماً وجوراً. وموطن هذه الفرقة الهند واليمن، وقد انقسمت فيما بعد إلى داوديّة وسليمانيّة ٢- الداوديّة، فرقة تفرّعت من المستعلية الإسماعيلية، تنتسب إلى داود بن عجب الداعي المطلق للفرقة المتوفّى سنة ٩٩٩ للهجرة، وموطن هذه الفرقة الهند وباكستان واليمن. ٣- السليمانيّة، فرقة تفرّعت من المستعلية أيضاً تنتسب إلى سليمان بن الحسن الداعي المطلق للفرقة المتوفّى سنة ١٠٠٥ للهجرة، موطنها في نجران السعودية وفي بعض أجزاء اليمن، ويوجد منها بعض عائلات في

معروفة بهذا الاسم إلّا في سوريا، وخاصّة في جبل عامل وبعلبك[1]. ولعلّه يكون من المعروف لدى الباحثين في الفرق الإسلامية ـ وكما تقدّم في هذا البحث ـ انفراد الشيعة الإمامية عن بقيّة المذاهب والفرق الإسلامية باعتقادهم القائل بأنّ الإمامة أصل واجب من أصول الدين، وما زالوا على الاعتقاد، ولم يخالف هذا المعتقد منهم شخص يعتدّ به في تاريخ الفكر الشيعيّ، وعدّوا الأصول الاعتقادية الأساسيّة للإسلام بمثابة خمسة أعمدة يقوم بناء الدين الكامل عليها، وهي: ١ـ التوحيد. ٢ـ النبوّة. ٣ـ العدل. ٤ـ المعاد في يوم القيامة. ٥ـ الإمامة. والمسلمون بعامّتهم مجمعون على الأصل الأوّل والثاني، أمّا العدل فلا يراه الأشاعرة أصلاً، بينما يراه

الهند وباكستان وفي الجزيرة العربية تعرف بقبائل بني يام. ٤- النزاريّة فرقة تفرّعت من الإسماعيلية وقالت بإمامة نزار بن المستنصر بالله الفاطميّ، وقد انقسمت فيما بعد إلى مؤمنية وقاسمية- آغاخانية. ٥- المؤمنية، فرقة تفرّعت من النزاريّة الإسماعيلية قالت بإمامة مؤمن شاه بن شمس الدين محمّد النزاريّ وبولده من بعده. ٦- القاسمية والآغاخانية، فرقة تفرعت من النزاريّة الإسماعيلية قالت بإمامة قاسم شاه نجل الإمام شمس الدين محمّد النزاريّ الثاني، و إمامها هو كريم آغا خان، وموطنها في الهند وباكستان و إيران وسوريا وأفريقيا والكونغو ومدغشقر. ٧- الدروز، فرقة تفرّعت من الإسماعيلية توقّفت عن السير الإمامي بعهد الحاكم بأمر الله الفاطميّ، وتنتسب إلى حمزة اللباد الأعجميّ الدرزيّ، وموطن هذه الفرقة لبنان وسوريا والأردن وفلسطين. ٨- القرامطة، فرقة تفرّعت من الإسماعيلية خرجت على مركز الإمامة في عهد أئمّتهم الذين سكنوا سلمية في سوريا في القرن الثاني الهجري وما بعده، وتنسب إلى حمدان ابن الأشعث (قرمط). ٩- الخسروية، فرقة إسماعيلية نزارية تقول بإمامة مؤمن بن شمس الدين محمّد النزاريّ، وينتسبون إلى الفيلسوف الإسماعيليّ ناصر خسرو. ينظر: عارف تامر، **الإمامة في الإسلام**: ٩٢.

١- محمّد صادق الصدر، **الشيعة الإمامية**: ٨٣.

المعتزلة أصلاً في مظهر وفاق مع الإماميّة[١].

ولكلّ أصل من الأصول الأولى شُعب تتفرّع عليه، فمن الشعب أو المسائل التي فرّعها العلماء على أصل التوحيد رؤية الله تعالى، وهل هي ممكنة بذاتها أو ممتنعة، ومسألة صفاته تعالى، وهل هي عين ذاته أو غيرها، وهل أفعال العباد مخلوقة لله، وهل اللوح المحفوظ هو لوح كاسمه، أو هو كناية عن علمه تعالى، وهل لله أن يعفو عن المسيء بعد التهديد والوعيد، وهل القرآن حادث أم قديم، وهل نزل الوحي نجوماً أم دفعة واحدة ؟

وفرّعوا على نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله أنّه هل كان يعلم الغيب، وهل فوّض الله إليه أمر التشريع، وهل أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى بالجسد أم بالروح ؟

وفرّعوا على الإمامة: هل الأئمة المعصومون أفضل أم الأنبياء ما عدا

١- هناك تفاعل متبادل بين الشيعة والمعتزلة، ضمن حقب تاريخية، في بعض المسائل بسبب الظروف التي جمعت بينهما في بعض العهود، أو بسبب الميول الشيعية القويّة التي ظهرت لدى مجموعة من المعتزلة، ويعدّ بشر بن المعتمر واحداً من المتشرّبين بالفكر العلويّ، فقد انبثق مذهب الاعتزال في البصرة أوّلاً، ولكنّ مع قدوم بشر بن معتمر المتوفّى سنة ٢١٠ إلى بغداد، نشأ نوع من الاعتزال يمكن أن نسمّيه علويّ الرأي. لقد كان بشر من نقّاد أبي هذيل، حتّى إنّه اتّهمه بالنفاق. وقد اتّخذ جانب العلويين سياسياً، وذلك فضلاً عمّا له من خلافات نظرية مع المعتزلة في المسائل الكلامية حدّدها الشهرستانيّ في ستّ مسائل. وكان من الطبيعيّ لبشر أن يدفع ثمن موقفه السياسيّ، حيث أمضى سنوات في سجن هارون الرشيد. وربّما كان لبشر وغيره من زعماء الفكر المعتزليّ في أن يظهر هذا التوافق في المعتقدات الدينية والرؤى السياسية. ينظر: **المسار الثقافيّ بين المعتزلة والشيعة منذ البداية وحتّى عصر الشيخ المفيد** لرسول جعفريان المطبوع ضمن المقالات والرسائل المعدّة للمؤتمر العالميّ بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد، ص٢٥.

محمّداً ﷺ، وهل كانت الملائكة تحدّثهم، وهل فاطمة عليها السلام أفضل أم مريم بنت عمران عليها السلام ؟

وفرّعوا على المعاد أشياء وأشياء، كالبرزخ وحساب القبر، وحشر الحيوانات، وكيفية النفخ في الصور، ودقّة الصراط وحدّته، وكيفية نشر الصحف، وشجرة طوبى، والزقّوم، وتعذيب ابن الزنا وأطفال الكفّار. كلّ هذه الشعب ونحوها لايجب تحصيل العلم من أجل الإيمان بها، وإن كانت من أصول الدين أو شؤونها، بل إذا اتّفق وحصل العلم بها وجب الإذعان وإلّا فلا، على العكس من الأصول الأولى التي يجب تحصيل العلم للتديّن بها والإيمان.

يقول الشيخ محمّد جواد مغنية: والاعتقاد بالتوحيد، ونبوّة محمّد ﷺ، والمعاد الجسمانيّ، وإمامة الأئمّة الاثني عشر ـ على قول الشيعة ـ يجب مطلقاً ومن غير قيد. والعلم شرط لوجود هذا الاعتقاد، لا لوجوبه، وما عدا ذلك فالعلم لوجوبه لا لوجوده، وعلى من جهل أن يحجم عن القول بغير علم نفياً وإثباتاً[١].

وأمّا الإمامة بمعناها التي توثّقت وتأصّلت به أصولها في الفكر السياسيّ، فأمرها، على ما يظهر من استقراء تاريخ المسلمين الكلاميّ والفقهيّ، مستحبّ عند جمهور من المسلمين من بعض أهل السنّة والجماعة، ومن طوائف أخرى، كالخوارج. والإمامة باعتقادهم من الفروع لا من الأصول، وأنّ من يقول بوجوبها منهم

١- **فلسفة الولاية**: ٨. وقال أيضاً: ضرورات المذهب عند الشيعة على نوعين: النوع الأوّل يعود إلى الأصول، وهي الإمامة، فيجب على كلّ شيعيّ إماميّ اثني عشريّ أن يعتقد إمامة الاثني عشر إماماً، ومن ترك التديّن بإمامتهم عالماً كان أم جاهلاً، واعتقد بالأصول الثلاثة فهو عند الشيعة مسلم غير شيعي له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، فالإمامة أصل لمذهب التشيّع الذي يرجع معناه ودليله إلى حديث الثقلين «**مَثل أهل بيتي كسفينة نوح، مَن ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك**». النوع الثاني من ضرورات المذهب يرجع إلى الفروع، كنفي العَوْل والتعصيب، ووجوب الإشهاد على الطلاق، وفتح باب الاجتهاد.. فمن أنكر فرعاً منها مع علمه بثبوته في مذهب التشيّع لم يكن شيعياً. **الجوامع والفوارق بين السنّة والشيعة**: ٣٨.

يقول بالوجوب كفاية لا عيناً، إذا قام بها البعض سقط وجوبها عن الكلّ[1]، بينما اعتبرها أتباع أهل البيت عليهم السلام أصلاً من الأصول لا من الفروع، والذي يقوم بها شخص محدّد منصوص عليه.

والإمامة وفق الرؤية التي يقول بها الشيعة ـ والتي يعتقدها فقهاؤهم وعلماؤهم من عصور الاجتهاد الفقهيّ إلى هذا الوقت ـ بأنّها أصل من أصول الدين والمذهب

١- المراد هنا أنّ اختيار الإمام واجب كفائي، وليس بواجب عيني يتعيّن على كلّ شخص يقوم بمهام الإمامة، ولكنّه منوط بالأمّة الإسلامية، فالأمّة مكلّفة به شرعاً، أي أنّ إقامة الإمامة من صلاحيات الأمّة، و إذا قام به البعض سقط عن الآخرين. و تقوم النظرية الاتباعية للإمامة لدى أهل السنّة والجماعة على الأسس الخمسة التالية: أوّلاً: اختيار الإمام واجب كفائي منوط بالأمّة، فالأمّة مكلّفة شرعاً بإقامة الإمامة، لكنّ واجبها في إقامة الإمامة واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، كما يوضّح الماوردي: الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمّة واجب بالإجماع، وإن شذّ الأصم. و يضيف الماوردي مبيّناً: فإذا قام بها من هو أهلها سقط فرضها على الكفاية.

ثانياً: تنحصر مهمّة اختيار الإمام في فريقين من أفراد الأمّة: أهل الاختيار، أو أهل الحلّ والعقد، و أهل الإمامة. يقول الماوردي: فإذا قام بها، أي الإمامة، من هو أهلها سقط فرضها على الكفاية، و إن لم يقم بها أحد خرج فريقان، أحدهما أهل الاختيار حتّى يختاروا إماماً للأمّة، والثاني أهل الإمامة حتّى ينتصب أحدهم للإمامة، و ليس على من عدا هذين الفريقين من الأمّة في تأخير الإمامة حرج و لا مأثم.

ثالثاً: يتعيّن أهل الاختيار وفق شروط ثلاثة: أحدها العدالة الجامعة لشروطها، و الثاني: العلم الذي يتوصّل به إلى معرفة من يستحقّ الإمامة على الشروط المعتبرة فيها، و الثالث: الرأي والحكمة المؤدّيان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح و بتدبير المصالح أقوم و أعرق وأعرف.

رابعاً: يتعيّن أهل الإمامة وفق شروط سبعة، أحدها العدالة على شروطها الجامعة، الثاني: العلم المؤدّي إلى الاجتهاد في النوازل والأحكام، والثالث: سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان ليصحّ معها مباشرة ما يدرك بها، و الرابع: سلامة الأعضاء من نقص يمنع عن استيفاء الحركة و سرعة النهوض، و الخامس : الرأي المفضي إلى سياسة الرعيّة و تدبير المصالح، والسادس: الشجاعة والنجدة المؤدّية إلى حماية البيضة و جهاد العدوّ، و السابع: النسب، و هو أن يكون من قريش لورود النصّ و انعقاد الإجماع عليه.

خامساً: يصحّ اختيار الإمام بطريقة من اثنتين: مبايعة أهل العقد و الحلّ لإمام يختارونه من أهل الإمامة، أو عهد الإمام السابق للّاحق. ينظر: لؤي صافي، **العقيدة والسياسة**: ١٣١.

معاً، لا بمعناها اللغويّ العامّ[1]، وإنّما هي عبارة عن نصّ وتعيين، فالإمام الأوّل ينصّ على الثاني، والسابق يعيّن اللاحق حتّى تكاملوا اثني عشر إماماً. ولم يختلف اثنان من الإمامية الاثني عشرية في هذه السلسلة، كما اختلفت الزيدية[2]

١- ذهب اللغويون في معنى الإمام إلى معانٍ عديدة تؤدّي معنى القيادة والتقدّم والإرشاد والهداية، منها قولهم: الإمام العالم المقتدى به، والإمام من يُؤتمّ به في الصلاة، والإمام الخليفة. وقد يُجعل الطريق إماماً، لأنّ المسافر يأتمّ به ويستدل. ينظر: **تأويل مشكل القرآن** لابن قتيبة: ٤٥٩، **المصباح المنير**: ٢٣، **لسان العرب** (أمم).

٢- الزيدية: هم أتباع زيد بن عليّ بن الحسين الذي اتّفق علماء الإسلام على جلالته ووثاقته وورعه وعلمه وفضله. والزيدية بمعناها الفرقيّ: فرقة نشأت مع قيام ثورة زيد بن عليّ بن الحسين ضدّ الدولة الأمويّة، ولم يكن زيدٌ قاصداً بثورته الخروج على المعتقدات الشيعية الأساسية أو تغييرها، وإنّما خرجت المعتقدات والأفكار من جماعات خرجوا معه واصطفّوا داخل صفوف أتباعه وجماعته، وظهرت لهم مقالات فقهية واعتقادية وسياسية متعددة. إلّا أنّ عامّتهم قالوا بإمامة أولاد فاطمة عليها السلام. وأنّ كلّ من انتسب إلى فاطمة عليها السلام وكان شجاعاً زاهداً سخيّاً فهو حريّ بالإمامة إذا ادّعاها، وسواء عندهم كان من أولاد الإمام الحسن عليه السلام أو من أولاد الإمام الحسين عليه السلام، فالسيف عندهم قاعدة الإمامة. فكلّ فاطميّ لديهم مقبول وفقاً لمقاييسهم، ولا اعتبار لعدد الاثني عشر الذي يقول به عامّة الشيعة الإمامية. وافترقت الزيدية إلى ثلاث فرق: بترية، وجريرية، وجارودية. والبترية تقول بأنّ عليّاً عليه السلام أفضل الناس وأولاهم بالإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ بيعة أبي بكر وعمر ليست بالخطأ. والجريرية تقول بأنّ عليّاً عليه السلام كان الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ بيعة أبي بكر وعمر كانت خطأً لا يستحقّ عليه اسم الكفر ولا اسم الفسوق، وأنّ الأمّة قد تركت الأصلح. والجريرية تقول بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ على عليّ عليه السلام بالإشارة والوصف، دون التسمية والتعيين، وأنّ الأمّة ضلّت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نصّ على الحسن والحسين عليهما السلام بمثل نصّه على عليّ عليه السلام، ثمّ الإمام بعد هؤلاء الثلاثة ليس بمنصوص عليه، ولكنّ الإمامة شورى بين الأفاضل من ولد الحسن والحسين عليهما السلام، فمن شهر منهم سيفه ودعا إلى سبيل ربّه وباين الظالمين، وكان صحيح النسب من هذين البطنين، وكان عالماً زاهداً شجاعاً، فهو الإمام. ينظر: **عيون الأخبار وفنون الآثار** للقرشي السبع الرابع: ٢٣٢، **الحور العين** للحميريّ: ١٥٥، **أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية** للشيخ السبحانيّ: ٢٠٧.

والإسماعيلية[1] والفاطمية[2] والواقفة[3] وأضرابهم من فرق الشيعة.[4]

١- الإسماعيليّة فرقة قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادقعليه السلام لأنّه كان أكبر إخوته، وكان أبو عبد الله الصادق عليه السلام شديد المحبّة له والبرّ والإشفاق عليه، وكان قوم من الشيعة يظنّون أنّه القائم بعد أبيه، والخليفة من بعده. ولمّا مات إسماعيل انصرف على القول بإمامته بعد أبيه قسم من كان يظنّ ذلك.. ولمّا استشهد الإمام الصادقعليه السلام انتقل فريق منهم إلى القول بإمامة موسىعليه السلام وافترق الباقون فرقتين: فرقة منهم رجعوا إلى حياة إسماعيل وقالوا بإمامة ابنه محمّد بن إسماعيل بظنّهم أنّ الإمامة كانت في أبيه وأنّ الابن أحقّ بمقام الإمامة من الأخ، وفرقة ثبتت على حياة إسماعيل، وهذان الفريقان يسمّيان بالإسماعيلية، ومنهم من يزعم أنّ الإمامة بعد إسماعيل في ولده وولد ولده إلى آخر الزمان. ينظر: **الإرشاد** للشيخ المفيد:٢٨٤ و**بحار الأنوار**٤٧: ٢٤٧.

٢- يطلق اصطلاح الفاطميّ على كلّ من انتسب إلى فاطمة الزهراءعليها السلام بالولادة، وكلّ من انتسب إلى الإمام عليّعليه السلام ولم ينتسب إلى فاطمة عليها السلام يقال له: علويّ. ينظر: **مجمع البحرين** ٦: ١٣١ (فطم). ولم تظهر في فرق الشيعة فرقة بهذا الاسم لها فقهها واجتهادها وعقائدها الخاصّة بها، كما للزيدية أو الإسماعيلية أو غيرهما، و إنّما هو اصطلاح عامّ يفتقر إلى التفصيل الفرقيّ والمذهبيّ، وقد يراد من مفهوم الفاطميين هذا ما ظهر من رؤى وفلسفات انطلقت من بين أظهر أولاد فاطمةعليها السلام، وقد يراد منه ما ظهر للدولة الفاطمية التي قامت في مصر والشمال الأفريقيّ من فقه ومعتقدات وفلسفة كانت تغاير العقائد والرؤى التي يقول بها الشيعة الاثنا عشريّة، وأيضاً مع بعض فرق الشيعة الأخرى، وقد اتّخذ العبّاسيون تسمية واصطلاح الفاطميّ لمن كان لاينسجم مع هواهم أو يخالفهم في المعتقد، فروي أنّ المهديّ العبّاسيّ رأى في المنام أنّ القاضي شريك بن عبد الله بن سنان النخعيّ الكوفيّ قد صرف وجهه عنه، فعبّروا رؤياه بأنّ شريكاً فاطميّ، لأنّه مخالف له. ينظر: **بحار الأنوار**٤٨: ١٣٩.

٣- الواقفة أو الواقفية: هم الواقفون على إمامة الإمام موسى بن جعفرعليه السلام، والمنكرون أن يكون بعده إمام معصوم مفترض الطاعة، و قد ادّعوا أنّه لم يمت وأنّه حيّ، ولايموت حتّى يملك شرق الأرض وغربها ويملأها عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، وأنّه القائم المهديّ، وزعموا أنّه لمّا خاف على نفسه القتل خرج من الحبس نهاراً ولم يره أحد ولم يعلم به، وأنّ السلطان وأصحابه ادّعوا موته وموّهوا على الناس ولبّسوا عليهم برجل مات في الحبس فأخرجوه ودفنوه في مقابر قريش في القبر الذي يدّعي الناس أنّه قبر موسى بن جعفرعليه السلام. وكذبوا في ذلك، إنّما غاب عن الناس واختفى. ورووا عن أبيه عليه السلام أنّه قال هو الإمام المهديّ، وكان السبب الذي دفعهم إلى القول بالوقف هو الطمع في الدنيا والأموال التي وصلت إليهم بعد أن كانوا وكلاء الإمام المعصوم، فاستولوا عليها وأنكروا إمامة الرضاعليه السلام ظلماً وعدواناً. وأوّل من أظهر الاعتقاد للوقف عليّ بن أبي حمزة البطائنيّ وزياد بن مروان القنديّ وعثمان بن عيسى الرواسيّ، وقد عاد جمع منهم إلى إمامة الرضاعليه السلام، ولم يبق إلّا شرذمة تناثرت وتبددت ولم يبق منهم كطائفة أو تيّار في أوساط الشيعة له من يؤيّده أو يتبنّاه. ينظر: **المقالات والفرق** للأشعريّ: ٨٩، **بحار الأنوار**٤٨: ٢٥١ و٣٠٧، **الغيبة** للشيخ الطوسيّ: ٢١٣.

٤- ينظر: محمّد حسين الصغير، **الفكر الإماميّ من النصّ حتّى المرجعية**: ١٣_١٤.

ويستند الشيعة الإماميّة باعتقادهم في الأئمّة وأنّهم اثنا عشر إماماً، إلى طريقين -كما يقول الشيخ السدآباديّ -أحدهما من رواية العامّة، والآخر من رواية الخاصّة. فأمّا طريق العامّة فهو ما رووه عن مسروق[١] أنّه قال: كنّا عند ابن مسعود في المسجد بين المغرب وعشاء الآخرة، وهو يُقرئنا القرآن، فقلنا له: يا أبا عبد الرحمن، هل سألتم رسول الله كم الخلفاء بعده ؟ فقال: بلى قد سألناه فقال لنا: هم اثنا عشر، على عدد نقباء بني إسرائيل. ومثله ما رووه عن جابر بن سَمُرة أنّه قال: كنت مع والدي عند رسول الله ﷺ فقال: يملك هذا الأمر بعدي اثنا عشر، كلٌّ منهم هاد مهديّ.

وأمّا روايات الخاصّة، وهم الإماميّة، فالخبر المجمع عليه خبر اللوح، وهو ما روي عن جابر بن عبد الله الأنصاري مع عليّ بن الحسين عليه السلام بأنّه رأى في يد فاطمة الزهراء عليها السلام لوحاً أخضر من زمردة خضراء، فيه كتابة بيضاء، فقال جابر: قلت لها عليها السلام: ما هذا اللوح يا بنت رسول الله؟ فقالت: لوح أهداه الله تعالى إلى أبي، وأهداه أبي إليّ، فيه اسم أبي واسم بعلي والأئمّة من ولدي. قال جابر: فنظرت في اللوح، فرأيت فيه ثلاثة عشر اسماً، كان فيهم محمّد في أربعة مواضع[٢]. ومثله خبر سلمان رضي الله عنه أنّه قال: دخلت على رسول الله ﷺ يوماً والحسين بن عليّ عليه السلام على فخذه، فقال لي: يا سلمان، إنّ ابني هذا سيّد ابن سيّد أبو سادة، حجّة وابن

١- مسروق بن الأجدع، يعدّ من الزهّاد، يقال كان عشّاراً لمعاوية. ينظر: **رجال الكشّيّ**: ٩٧.

٢- ينظر: الخبر في **الكافي** ١: ٥٢٧ / ح ٣ .**كمال الدين وتمام النعمة** للصدوق: ٢٨٨ .باب ما روي عن سيّدة نساء العالمين فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلّى الله عليهما من حديث الصحيفة.

حجّة وأبو حجج، إمام وابن إمام وأبو أئمّة تسعة من ولده، تاسعهم قائمهم.[١] ويرى عماد الدين الطبري بأنّ الإمامة قائمة على أربعة أمور: نصّ لله، ونصّ للرسول، والعصمة، ووصاية النبيّ إلى الوصيّ، والوصيّ إلى الوصيّ ـ كما أوصى النبيّ صلى الله عليه وآله إلى عليّ عليه السلام وأوصى عليّ عليه السلام إلى الحسن عليه السلام، وأوصى الحسن عليه السلام إلى الحسين عليه السلام، وهكذا إلى المهديّ عليه السلام ـ و إظهار المعجزة عند الحاجة.[٢] ومستند الشيعة الإماميّة هو نصوص معتبرة وواضحة وصريحة، بعضها قد رويت من طريق أهل السنّة والجماعة، كما قال الشيخ السدآباديّ، كقوله صلى الله عليه وآله: لايزال الإسلام منيعاً إلى اثني عشر إماماً[٣]، وقوله صلى الله عليه وآله: أمراء أمّتي (أو: خلفاء أمّتي) بعدد نقباء بني إسرائيل[٤]، وقوله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: يا علي، اكتب ما أملي عليك، قال عليّ عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وآله: يا رسول الله، أتخاف علَيّ النسيان؟! قال صلى الله عليه وآله: لا، وقد دعوت الله عزّوجلّ أن يجعلك حافظاً، ولكن اكتب لشركائك... الأئمّة من ولدك، بهم تُسقى أمّتي الغيث، وبهم يستجاب دعاؤهم، وبهم يصرف الله عن الناس البلاء، وبهم تنزل الرحمة من السماء، وهذا أوّلهم. وأشار إلى الحسن عليه السلام ثمّ قال: وهذا ثانيهم. وأشار إلى الحسين عليه السلام، ثمّ قال صلى الله عليه وآله: والأئمّة من ولده رضي الله عنهم[٥].

١- **المقنع في الإمامة**: ١٥٠ ـ ١٥١. وينظر: **صحيح مسلم** ٣: ١٤٥١ و**مسند أحمد** بن حنبل ٣: ١٢٩و١٨٣ وج٤: ٤٢١. بخصوص أخبار أهل السنّة والجماعة، وأمّا أخبار الخاصّة فتعدّدت مصادرها على مختلف العصور، وقد أشار إلى بعضها علماء الشيعة نظراً إلى كثرتها، ووفقاً لما تيسّر لهم، ومنهم العلّامة المجلسيّ في **بحار الأنوار**٣٦: ١٩٢- ٤١٤.

٢- **تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار**: ٣٨و٥٤.

٣- **صحيح مسلم** ٣: ١٤٥٢ ـ كتاب الإمارة، الناس تبع لقريش.

٤- **مسند أحمد بن حنبل** ١: ٣٩٨.

٥- **ينابيع المودّة** للحافظ القندوزيّ الحنفيّ ١: ٧٣ / ح ٨ _ الباب الثالث.

وعامّة الشيعة يعتبرون الإمامة، أو الولاية، في اعتقادات وعبادات المكلّفين عنصراً وركناً وأصلاً ـ اعتقاديّاً وعباديّاً ـ ضروريّاً لايمكن التنازل عنه، لذا قالوا: لايكتمل الإيمان إلّا بالاعتقاد الصادق لإمامة الأئمّة أو الخلفاء المُعيَّنين من قبل الله و تبليغ رسوله، وأنّ الإمامة وتشريعها كان لطفاً من الله بعباده، لأنّ المسلمين لم يكونوا مؤهّلين لسدّ الفراغات التي خلّفها النبيّ ﷺ بغيابه، فالحقبة الزمنية التي قضاها بينهم تعدّ قصيرة لإعداد أمّة كاملة إعداداً كافياً يؤهّلها لإدارة وتدبير شؤونها الدينية والدنيوية بعده، خصوصاً إذا كان الأمر متعلّقاً بإعداد أمّة قد ترسّخت فيها عادات المجتمع الجاهليّ ووحشيته، والذي كانت تحكمه لا أقلّ من شريعة الغاب، فضلاً عن أنّ الغالبية العظمى ممّن أسلموا قد تلفّظوا بالشهادتين بعد فتح مكّة وأواخر حياة الرسول ﷺ، فإعداد هكذا أمّة لايمكن أن يتمّ خلال تلك الحقبة الزمنية القصيرة، لاسيّما إذا علمنا أنّ النبيّ قضى أكثر من نصف عمر دعوته في مكّة يدعو الناس إلى قول كلمة التوحيد لا غير، ولم يقلها منهم إلّا القليل، وقضى ما تبقّى من عمر الدعوة في المدينة، وكان شغله الشاغل فيها الدفاع عن الإسلام كوجود مهدّد بالفناء، وقد أخذت الحروب والغزوات الكثيرة من المسلمين كلّ مأخذ والتي محّص بعضها - كموقعتي أُحد وحنين على سبيل المثال - مدى تغلغل الإيمان في نفوسهم. ولهذه الأسباب يرى الشيعة أنّ الله سبحانه لم يطلب من رسوله سوى تبليغ الرسالة للناس، وإقامة الحجّة عليهم بها لقوله تعالى: ﴿**فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ**﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**فإنْ أعرَضُوا فَما أَرسَلْناكَ عَليهِم حَفيظاً إنْ عليكَ إلّا البلاغ**﴾[٢]، فالحفيظ المقصود في هذه الآية هو

١- المائدة: ٩٢.

٢- الشورى: ٤٨.

المسؤول عن هداية الناس وتعليمهم، كما في قوله تعالى: ﴿**إنّما أنتَ مُنذِرٌ ولِكُلِّ قَومٍ هادٍ**﴾[١]. واعتماداً على هذه الآيات وغيرها يرى الشيعة أنّ دور الخلافة والإمامة في كلّ عصر﴿**لكلِّ قومٍ هادٍ**﴾ هو هداية الإنسان و إصلاح الفرد والمجتمع من خلال حمل الرسالة وحفظها من تحريف المحرّفين وتشكيك المشككين[٢].

ومن هذا المنطلق اعتقد الشيعة أنّ الإمامة في مجمل أهدافها ومعانيها تعني الهداية للأمّة بمعناها الواسع المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**وجَعَلْناهُم أئمّةً يَهْدونَ بأمرِنا**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**إنّما أنتَ مُنذِرٌ ولِكلِّ قَومٍ هادٍ**﴾[٤] أي إمام. وليس المقصود بالهداية مجرّد الهداية التشريعية من بيان الأحكام وتفسيرها وشرحها وتبليغها، فإنّها وظيفة النبيّ والرسول أيضاً، بل ـ إضافةً إلى ذلك ـ فإنّ هداية الإمامة هي هداية تبليغية وفعلية وقيادية لظاهر الإنسان وباطنه، بمقتضى أنّ الإمام قدوة يُتّبَع وتقتدي به الأمّة، فهو المبيّن للشريعة والقائم بها بعد النبيّ[٥].

ويعبّر الكاتب سعيد يعقوب عن الهداية بأنّها تفويت فرصة صرف جهد النفس بغير طائل، وعدم السير وراء أمور تبدو وكأنّها غاية السعادة وكمال الطمأنينة، وعند بلوغها تنكشف عن مخادعتها وعدم صدقها وسرابيتها، فتصاب بخسران جميع الجهد والزمن الذي صرفته من أجلها، وهذه الخيبة لها ذكر في مواطن عدّة من كتاب الله تعالى، منها قوله سبحانه: ﴿**قُل هلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أعمالاً*الذينَ**

١- الرعد: ٧.

٢- ينظر: أسعد القاسم، **أزمة الخلافة والإمامة**: ٣٥.

٣- الأنبياء: ٧٣.

٤- الرعد: ٧.

٥- ينظر: عليّ أمين جابر آل صفا، **البيعة ونظام الحكم في الإسلام**: ٢٣٣.

ضَلَّ سَعْيُهم فى الحياةِ الدُّنيا وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهم يُحسِنُونَ صُنْعاً﴾[١] في تصريح واضح يلفت انتباه الناس إلى أنّ فرص العمر الممنوحة قد لاتكون كبيرة. لذلك لاينبغي المغامرة بها في البحث دون بلوغ الغاية المرجوّة، أو الاستجابة والامتثال لدافع التعلّق بالمثال ، أي القائد أونحوه ، وهذا الدافع رافق البشر منذ بدايات وعي الإنسان، وهو الحافز الأشدّ توثّباً في ملاك الدخول إلى عالم الهداية، الذي يصدّقه قوله تعالى: **﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهتَدى﴾**[٢]، فالهداية بجميع أشكالها منوطة ببذل الجهد للاستحواذ عليها، وعدم بذله موجب للضلالة، وفيه قوله تعالى: **﴿ومَن يُضْلِلْ فأُولئكَ هُمُ الخاسِرُون﴾**[٣]، فالربط القرآنيّ بين الهداية وبين الخسران ربط يدفع إلى التأمّل! فمن المعروف أنّ الله سبحانه وتعالى عادل، وليس من العدل أن يمنح الهداية بأمر منه لهذا الإنسان ويحجبها عن ذاك، وبالتالي فإنّ البحث والدأب وراء سموّ الغاية والجدَّ من ورائه هو مسلك موصل لا محالة إلى الهداية، التي ترتبط بسبب موضوعيّ أوجده الله سبحانه وجعله في الإمام، ونجد إشارات القرآن إلى ذلك في غير مكان[٤]. ومن هنا فالإمامة في مفهوم الشيعة الإماميّة وعقيدتهم: رئاسة دينية وزمنية يتولّاها رجل عالم بما يصلح الناس في شؤون دينهم ودنياهم، ويعمل على ذلك دون أن يستأثر عنهم بشيء، ولايخطئ في علمه ولا عمله.

فالإمام في حقيقته وطبيعته إنسان كسائر الناس لايختلف عنهم إلّا في

١- الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٤.

٢- الأعراف: ١٧٨.

٣- الأعراف: ١٧٨

٤- ينظر معراج الهداية، دراسة حول الإمام عليّ عليه السلام ومنهج الإمامة: ٦٧ .

الصفات التالية: ١ -أنّه يعلم الشريعة بجميع أحكامها ودقائقها وأسرارها تماماً كما هي في واقعها، وكما نزلت على محمّد صلى الله عليه وآله، بحيث لايجوز الخطأ واحتمال الخلاف في معرفته لها، بخلاف غيره من علماء الشريعة الذين قد يصيبون وقد يُخطئون، ومن أجل ذلك جاز أن يخطّئ بعضهم بعضاً، ويناقشه بالدليل والبرهان، أمّا الإمام فلا تجوز مناقشته والردّ عليه بحال. والإماميّة يعتقدون أنّ الإمام ليس واضعاً للأحكام بنفسه وجاعلها من تلقائه، بل واضعها ومشرّعها هو الله جلّ وعزّ، وأنّه بيّنها لرسوله محمّد صلى الله عليه وآله، وأنّ النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله بيّنها للإمام مباشرة أو بواسطة إمام، فالإمام علي علم بها بعد وجودها وتشريعها، فهو المبلّغ عن الرسول، والرسول مبلّغ عن الله[١].

وربّما حصل في تاريخ المسلمين تفريق بين مصطلح الإمام والخليفة نتيجة الظروف المضطربة والأعاصير السياسية التي مرّت بهم، وقد يكون هذا التفريق له ما يبرّره في نظر آخرين، لذا آثر علماء الشيعة مجاراة هذا التقسيم، وإن كان الظاهر من النصوص القرآنية والحديثية أنّ الإمام والخليفة لفظتان تعبّران عن معنى واحد، وهو الرئاسة العامّة في أمور الدين والدنيا نيابة عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وسمّي القائم بهذه المهمّات إماماً، لأنّ الناس يسيرون وراءه فيما يشرّع لهم ويرشدهم إليه.

وسمّي بالخليفة كما كان الشائع في عصر الراشدين وما بعده، لأنّه يخلف الرسول في إدارة شؤون الأمّة وقيادتها. وكما كان تعيين الخليفة بعد الرسول موضع جدل وخلاف أدّى إلى انقسامهم وتمزيق وحدتهم، كذلك حصلت بينهم أنواع أخرى من الجدل والنزاع تطوّر بعد ذلك إلى النزاع في وجوب نصب الإمام على الله سبحانه وعدمه، فأنكره جماعة وأثبته آخرون، والقائلون بوجوبه بين من يقول

١- ينظر: محمّد جواد مغنية، **الجوامع والفوارق بين السنّة والشيعة**: ١٠٦.

بوجوبه على الله سبحانه عقلاً، وبين من يقول بوجوبه على الأمّة بحكم العقل. أمّا الأشاعرة[١] ومعهم المحدّثون والجبّائيّان[٢] من المعتزلة، فقد قالوا بعدم وجوبه بالنصّ الشرعي على الأمّة، والباقون من المعتزلة أوجبوه عقلاً على الأمّة أيضاً، وذهب الإماميّة إلى وجوبه على الله بحكم العقل[٣].

١- الأشاعرة: هم جماعة نُسبوا إلى مذهب أبي الحسن عليّ بن إسماعيل بن أبي بشر، واسمه إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعريّ، المتكلّم البصريّ، وإنّما قيل له: الأشعريّ لأنه من ولد أبي موسى الأشعريّ. صاحب الكتب والتصانيف في الردّ على مخالفيه، وهو بصريّ سكن بغداد إلى أن توفّي بها سنة ثلاثين وثلاثمائة. والأشعريّ نسبة إلى أشعر، قبيلة مشهورة من اليمن. **الأنساب** للسمعانيّ ١: ١٦٦.

٢- الجبّائيّان: هما: محمّد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد المكنّى بأبي عليّ، شيخ المعتزلة في زمانه ورئيس علماء الكلام توفّي سنة ٣٠٣ من الهجرة، وابنه عبد السلام بن محمّد يكنّى بأبي هاشم، وهو على مذهب أبيه توفّي سنة ٣٢١، ينسبان إلى الجبّاء - كرمان - من نواحي الأهواز بين فارس وواسط والبصرة. ينظر: **الأعلام** للزركليّ ٦: ٢٥٦ و**تاج العروس من جواهر القاموس** ١٦٨:١ ـ ط الكويت، و**الملل والنحل** للشهرستانيّ ٧٣:١.

٣- أي أنّ الأمر ليس باختيار وهوى العباد أو إرادتهم، وحتّى الرسل والأوصياء لايمكنهم أن يسمّوا من أرادوا، ومن هذا المنطلق فالعقل ينتهي إلى التعيين السماويّ لمصلحة العباد. ولانسداد طرق اختيارهم. وفي ذلك روايات كثيرة تصل بنا إلى ذلك المقال، منها ما روى معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الإمامة عهد من الله عزّوجلّ معهود لرجال مسمّين. ليس للإمام أن يزويها عن الذي يكون من بعده، إنّ الله تبارك وتعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن اتّخذ وصيّاً من أهلك، فإنّه قد سبق في علمي أن لا أبعث نبيّاً إلّا وله وصيّ من أهله: وكان لداود عليه السلام أولاد عدّة وفيهم غلام كانت أمّه عند داود وكان لها محبّاً، فدخل داود عليه السلام عليها حين أتاه الوحي فقال لها: إنّ الله عزّوجلّ أوحى إليّ يأمرني أن أتّخذ وصيّاً من أهلي، فقالت له امرأته: فليكن ابني، قال: ذلك أريد. وكان السابق في علم الله المحتوم عنده أنّه سليمان، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: أن لا تعجل دون أن يأتيك أمري. فلم يلبث داود عليه السلام أن ورد عليه

رجلان يختصمان في الغنم والكرم، فأوحى الله عزّوجلّ إلى داود أن اجمع ولدك، فمن قضى بهذه القضيّة فأصاب فهو وصيّك من بعدك، فجمع داود عليه السلام ولده، فلمّا أن قصّ الخصمان، قال سليمان عليه السلام: يا صاحب الكرم، متى دخلت غنم هذا الرجل كرمك؟ قال: دخلته ليلاً، قال: قضيت عليك يا صاحب الغنم بأولاد غنمك وأصوافها في عامك هذا، ثمّ قال له داود: فكيف لم تقضِ برقاب الغنم، وقد قوّم ذلك علماء بني إسرائيل، وكان ثمن الكرم قيمة الغنم؟ فقال سليمان: إنّ الكرم لم يُجتَثّ من أصله، وإنّما أكل حمله وهو عائد في قابل. فأوحى الله عزّوجلّ إلى داود: أنّ القضاء في هذه القضيّة ما قضى سليمان به، يا داود أردتَ أمراً وأردنا أمراً غيره. فدخل داود على امرأته فقال: أردنا أمراً وأراد الله عزّوجلّ أمراً غيره، ولم يكن إلّا ما أراد الله عزّوجلّ، فقد رضينا بأمر الله عزّوجلّ وسلّمنا. وكذلك الأوصياء عليهم السلام ليس لهم أن يتعدّوا بهذا الأمر فيجاوزون صاحبه إلى غيره. وفي خبر رواه عمرو بن مصعب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: أترون أنّ الموصي منّا يوصي إلى من يريد؟ لا والله، ولكنّه عهد من رسول الله صلى الله عليه وآله إلى رجل فرجل حتّى انتهى إلى نفسه». وفي خبر رواه محمّد بن أحمد بن عبيد الله العمري عن أبيه عن جدّه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله عزّوجلّ أنزل على نبيّه صلى الله عليه وآله كتاباً قبل وفاته، فقال: يا محمد، هذه وصيّتك إلى النجبة من أهلك، قال: وما النجبة ياجبرئيل؟ فقال: عليّ بن أبي طالب وولده عليهم السلام. وكان على الكتاب خواتيم من ذهب، فدفعه النبي صلى الله عليه وآله إلى أمير المؤمنين عليه السلام وأمره أن يفكّ خاتماً منه ويعمل بما فيه، ففكّ أمير المؤمنين عليه السلام خاتماً وعمل بما فيه، ثمّ دفعه إلى ابنه الحسن عليه السلام ففكّ خاتماً وعمل بما فيه، ثمّ دفعه إلى الحسين عليه السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه: أن اخرج بقوم إلى الشهادة، فلا شهادة لهم إلّا معك، واشْرِ نفسك لله عزّوجلّ، ففعل، ثمّ دفعه إلى عليّ بن الحسين عليهما السلام ففكّ خاتماً فوجد فيه أن أطرق واصمت والزم منزلك واعبد ربّك حتّى يأتيك اليقين، ففعل، ثمّ دفعه إلى ابنه محمّد بن عليّ عليهما السلام، ففكّ خاتماً فوجد فيه: حدّثِ الناس وافتِهم ولاتخافنّ إلّا الله عزّوجلّ، فإنّه لا سبيل لأحد عليك، ففعل، ثمّ دفعه إلى ابنه جعفر، ففكّ خاتماً فوجد فيه: حدّث الناس وافتِهم وانشر علوم أهل بيتك وصدّق آباءك الصالحين ولا تخافنّ إلّا الله عزّوجلّ وأنت في حرز وأمان، ففعل، ثمّ دفعه إلى ابنه موسى عليه السلام، وكذلك يدفعه موسى إلى الذي بعده، ثمّ كذلك إلى قيام المهديّ صلّى الله عليه... **الكافي** ١: ٢٧٨ ـ ٢٨٠ ـ باب أنّ الإمامة عهد من الله/ ح٣ و٤، وباب أنّ الأئمّة عليهم السلام لم يفعلوا شيئاً ولايفعلون إلّا بعهد من الله / ح٢.

ولم يعارض في أصل وجوب نصب الإمام سوى العجاردة[1] من الخوارج ومعهم حاتم الأصمّ (المتوفّى ٢٣٧) أحد شيوخ المعتزلة، وادّعى هؤلاء بأنّ الواجب على الأمّة التعاون والتعاضد لإحياء الحقّ و إماتة الباطل، ومع قيام الأمّة بهذا الواجب لايبقى للإمام فائدة تستدعي تسلّطه على العباد، أمّا إذا اختلفت الأمّة ولم تتعاون على نشر العدل و إحقاق الحقّ فيجب عليها تعيين من يقوم بهذه المهمّات، وبالتالي فإنّ الإمامة لاتجب بالشرع ولا بالعقل، و إنّما تجب للمصلحة أحياناً[2]. أمّا

١- العجاردة من الخوارج أتباع عبد الكريم بن عجرد، وكان هذا من أتباع عطيّة بن الأسود الحنفيّ. وعطيّة أصلاً كان من أصحاب نجدة، لكن خرج عنه، ولهذا فإنّ فكر العجاردة قريب من فكر النجدات، لأنّ النجدات الأصل، لكن ممّا انفرد به العجاردة عن غيرهم قولهم: يجب البراءة من الطفل حتّى يُدعى إلى الإسلام، ويجب دعاؤه إذا بلغ، وأطفال المشركين في النار مع آبائهم. والعجاردة متفرّقة عشر فرق. ينظر: **موسوعة الفرق الإسلامية** لمشكور: ٣٨٦ **والخوارج** لعامر النجّار: ١٤٥.

٢- قال الخوارج وحاتم الأصمّ: لايجب نصب الإمام على الله ولا على المسلمين. لاعقلاً ولاشرعاً. واحتجّ الخوارج **أوّلاً**: أنّ وجود الإمام في كلّ عصر تتوافر فيه الشروط المطلوبة متعذّر، ثانياً: أنّ آراء الناس مختلفة، وأهواءهم متباينة، وأحزابهم متعدّدة، فإذا أرادوا نصب إمام مال كلّ حزب مع هواه، وهذا يستدعي إثارة الفتن والحروب، و إنّ التجربة تشهد بذلك، فالأَولى سدّ الباب، على أنّه إذا أمكن أن تتفق الكلمة على تعيين من تتوفّر فيه الشروط الكاملة، فيجوز أن ينصبوه إماماً لهم، أمّا الوجوب فلا، مهما كانت الظروف. وقال المعتزلة والزيدية: يجب على المسلمين أن ينصبوا إماماً عليهم بحكم العقل، لا بدليل من الشرع، واحتجّوا بأنّ عدم نصب الإمام ضرر على العباد، إذ بوجوده ترتفع الفوضى والفساد، ودفع الضرر واجب عقلاً، كالابتعاد عن الطعام، وما لايتمّ الواجب إلّا به فهو واجب. وقال الإماميّة: إنّ نصب الإمام يجب على الله بحكم العقل، لأنّ الإمام لطف من الله يقرّب الناس من الطاعات، ويبعدهم عن المعاصي، فأشبه وجوده بإيجاد الأسباب الداعية لعمل الخير وترك الشرّ، فإنّ من دعا غيره إلى طعام وعلم أنّه لايجيبه

بقيّة الخوارج فهم كغيرهم من المسلمين يرونها من الضرورات التي لابدّ منها، لحفظ النظام و إحقاق الحقّ، ولكنّها لا تجب على غير الأمّة، وتتعيّن باجتماع أهل الحلّ والعقد على شخص منهم، كما فعل المسلمون الأوّلون في تعيين أبي بكر وعمر على حدّ تعبيرهم.[١]

وأمّا قرشيّة الإمام فلا اعتبار لها عند فرق الخوارج، فقالوا بأنّ الإمامة ليست منحصرة بقريش، وقالوا بأنّ كلّ من نصبوه برأيهم وعاشر الناس على ما مثّلوا به من

إلّا إذا فعل معه نوعاً من التأديب، فلو لم يفعله كان ناقضاً لغرضه، وإذا كان نصب الإمام لطفاً من الله، واللّطف واجب، فنصب الإمام واجب. واعترض الأشاعرة السنّة على دليل الإماميّة هذا بأنّ اللّطف الذي ذكرتموه إنّما يتحقق بوجود إمام ظاهر يُرجى ثوابه ويُخشى عقابه، يدعو الناس إلى الطاعات، ويزجرهم عن المعاصي. وأين يوجد الإمام الموصوف بهذا الوصف؟ ولو وجب نصبه على الله لوجد في هذا الزمان وفي كلّ زمان، ولفعل الناس الطاعات وتركوا المعاصي، مع أنّ الإمام المطلوب غير موجود، والموجود غير مطلوب. وأجاب الإماميّة عن هذا الاعتراض بأنّنا نقول: إنّ الله يوجد الإمام ويفرضه على الناس فرضاً وقهراً، و إنّما نقول: إنّ الله يخلق الإمام المتّصف بالمؤهلات، وينصّ عليه بواسطة نبيّ أو إمام، وعلى الإمام أن يرشد ويعلّم، وعلى الناس أن يسمعوا و يُطيعوا، وقد فعل الله ما يجب عليه من خلق الإمام والنصّ عليه، والإمام على استعداد للقيام بمهمّته لو توفرت له الأسباب، ولكنّ الناس قد هدّدوه و حاربوه وتركوا نصرته، لذلك امتنع وجوده من بينهم، فكان منع اللطف منهم لا من الله ولا من الإمام. وقال أهل السنّة: لا يجب نصب الإمام على الله لا عقلاً ولا شرعاً، لأنّه لا يجب على الله شيء، ولا يقبح منه شيء، ولكنّهم أوجبوا على المسلمين نصبه شرعاً لا عقلاً، فإذا تركوه أثموا أجمعين. واستدلّوا بإجماع الصحابة والتابعين، لأنّ الأصحاب عند وفاة الرسول صلى الله عليه وآله بادروا إلى بيعة أبي بكر وتسليم النظر إليه فى أمورهم، وكذا فعلوا في كلّ عصر، وهذا إجماع محقق دالّ على وجوب نصب الإمام. ينظر: **الجوامع والفوارق بين السنّة والشيعة** لمحمّد جواد مغنية: ١١٤.

١- ينظر: هاشم معروف الحسني، **الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة**: ١٩٥.

العدل واجتناب الجور كان إماماً، وجوّزوا أن لايكون في العالم إمام أصلاً، و إن احتيج إليه فيجوز أن يكون عبداً أو حرّاً أو نبطيّاً أو قرشيّاً.[١] وقد استدلّ الخوارج على قولهم بعدم اشتراط الإمامة في قريش بأنّ القرآن الكريم لايشير إلى إمام من قبيلة خاصّة أو نسل خاصّ، بل يشير إلى طاعة وليّ الأمر إذا أمر بشرع الله تعالى وحكم وعدل. ومن آيات القرآن الكريم التي استدلّوا بها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[٢] .ووجه الاستدلال عند الخوارج أنّ الله تعالى أمر أن يحكم الحاكم بالعدل ولم يشترط أن يكون من قريش أو من غير قريش.

وقال الخوارج: إذا قال غيرنا بأنّ قول الرسول ﷺ: الأئمة من قريش»[٣]، مخصِّص لعموم النصّ القرآني السابق، ومفيد للعموم المستفاد منه.

قلنا ـ أي الخوارج ـ: قد يلزمنا قولكم إذا لم يرد عن الرسول ﷺ ما يوافق النصّ القرآنيّ السابق، أمّا وقد روي عنه ما يدلّ عن أنّه ليس بلازم أن يكون الإمام قرشيّاً، فإنّ دليل التخصيص والتقييد غير ملزم لنا. لقد روى مسلم في صحيحه عن أمّ الحصين[٤] قالت: قال رسول الله ﷺ: إن أُمّر عليكم عبد مجدع يقودكم بكتاب الله

١- **الملل والنحل** للشهرستاني ١: ١١٦.

٢- النساء: ٥٨ -٥٩.

٣- ينظر: **صحيح مسلم** ج٣: ١٤٥٢ ـ كتاب الإمارة ، الناس تبع لقريش، طبعة دار إحياء التراث العربي في بيروت.

٤- روى هذا الخبر يحيى بن الحصين البجلي الأحمسي عن جدّته أمّ الحصين. **رجال صحيح مسلم** ٢: ٣٣٦.

فاسمعوا له وأطيعوا. وفي الحديث أيضاً: وإن تأمّر عليكم عبد حبشي...[١]، وأيضاً: ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر[٢]. فإنّ قول رسول الله صلى الله عليه وآله: ومن بايع إماماً، يدلّ على أيّ إمام عادل، سواء كان قرشيّاً أو غير قرشيّ[٣].

وعلى العموم تقوم الإمامة على ركنين رئيسيين: أحدهما: الكفاءة التي تشمل العلم والعصمة وغيرهما، والآخر: النص. من هنا نجد الأئمّة عليهم السلام كانوا يهتمّون بذكر هذه النصوص والتذكير بها، والتركيز عليها باستمرار. وكذلك الحال بالنسبة إلى العلم، فإنّهم عليهم السلام ما فتئوا يؤكّدون أنّهم هم ورثة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وعندهم الجفر والجامعة وغير ذلك[٤]؛ ولذلك برز وتبلور الاعتقاد الغالب لعامّة طوائف الشيعة أنّ الإمام هو الذي يناط به منصب الإمامة، والتي تعني هنا المرجعية والقيادة السياسية والدينية له بكلّ وجوهها، باعتباره هو أسّ الدين، ومحور كلّ العناصر، فلا أحد يفهم المقصود الشرعي من كلّ نصّ فهماً قائماً على الجزم واليقين إلّا الإمام أو القائد أو المرجع، فهو الملجأ الذي يلجأ إليه المؤمنون، وهو الثقة الذي يتلقّون منه بيان القواعد الإلهية، وهو المخوّل بإجابة الأمّة على كلّ سؤال، فإذا فقدت الأمّة نبيّها أو إمامها أو قائدها الشرعيّ أو مرجعها الذي ينبغي أن ترجع إليه، عندئذٍ تصبح الأمّة مثل جسد بغير رأس، أو كبدنٍ من غير قلب، أو كقطعان من غير راعٍ، ومن هنا صارت الإمامة ضرورة من الضرورات التي لا غنى عنها في كلّ العقائد

١- **صحيح مسلم** ٣: ١٤٦٨ / ح ١٨٣٨ ـ كتاب الإمارة.

٢- ينظر: **صحيح مسلم** ٣: ١٤٨٠ ح١٨٥٣ كتاب الإمارة، **مسند أحمد** بن حنبل ٢: ١٦١.

٣- عامر النجّار، **الخوارج**: ٢١٠ - ٢١١.

٤- ينظر: **الإمام الحسن المجتبى**عليه السلام، **أعلام الهداية**:٦٢.

الإلهية. وقد توصّلت التشريعات الوضعية أيضاً إلى هذا المطاف، فأقرّت بضرورة الإمامة أو القيادة أو المرجعية ونحوها.

والظاهر من مسيرة التاريخ أنّ الرسل والأئمّة والقادة والمراجع كانوا مؤهّلين لهذا الدور أو غيره تأهيلاً فطريّاً، وكأنّه يحمل استعداداً ذاتياً. وقد أشار بعضهم إلى هذا بالقول: فما من رسول ولا نبيّ إلّا أهّله الله سبحانه وتعالى، وأعدّه وهيّأه ليقوم بأعباء الرسالة، فعلى سبيل المثال الرسول موسى عليه السلام اختاره الله للرسالة وهيّأه وأعدّه ورعاه، منذ أن ولدته أمّه وحتّى ذلك اليوم الذي كلّفه الله فيه بحمل الرسالة، وكذلك داود وسليمان عليهما السلام، وكذلك خاتم الرسل محمّد صلى الله عليه وآله، فما من رسول إلّا وأهّله الله تعالى لأداء رسالته ولاتّباع ما يوحي إليه بدون زيادة ولا نقصان. وكذلك أعدّ الأئمّة وأهّلهم وهيّأهم ليقوموا مقام الأنبياء، وليتّبعوا ما أوحي إلى الأنبياء بدقّة بدون زيادة ولا نقصان. أو بتعبير أدقّ: عَصَمهم[١].

ولا يختلف علماء الشيعة في عصمة الأئمّة الاثني عشر المنصوص عليهم، ولكن تباينت طرق استدلالهم وحججهم في إثبات عصمتهم عليهم السلام، وكأنّهم اتّفقوا على عدم قبول مقولة القائلين بسهوهم أو نحو ذلك فيما يقدح بعصمتهم، ومنهم من مال إلى أدلّة عقلية، كما هو متناثر في كتب الشيعة، ومنهم من آثر الدليل القرآنيّ، وقد استعان الشيخ الحرّ العامليّ باثنتَي عشرةَ آية -وكأنّه تعمّد هذا الرقم تيمّناً بتكامل الرسالة بهذا العدد الذي يُختم بذكره آخر وصيّ وآخر سفير إلى العباد - في الفصل الثالث من كتابه التنبيه بالمعلوم، في ذكر جملة ممّا يدلّ على نفي السهو والشكّ والنسيان عن النبيّ والأئمّة المعصومين عليهم الصلاة السلام، فقال: وبطريق العموم والإطلاق الشامل للعبادة وغيرها، من الآيات القرآنية، وحجّيتها

١- ينظر: المحامي أحمد حسين يعقوب، **المواجهة مع رسول الله وآله**:٢٤٠ و٣٥٥.

على العصمة وغيرها معلومة، وذلك ممكن من آيات كثيرة، بعضها دالّ مع ضميمة مقدّمة أخرى ثابتة، أو رواية أخرى معتمدة، ولنقتصر من ذلك على اثنتي عشرة آية: الأولى قوله تعالى: ﴿**إنّ الله اصْطَفى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إبراهيم وآلَ عِمْرانَ عَلَى العالَمين**﴾[١].

ثمّ قال: والاستدلال بالآية من وجوه، أحدها: دلالتها على العصمة التي يلزمها وجوب اتّباعهم في أقوالهم وأفعالهم، وثانيها: استلزامها لاستحالة الخطأ عليهم مطلقاً، وثالثها: دلالتها، ورابعها: أنّ الاستقامة في الأقوال والأفعال، الذي يستفاد من الآية ينافيه تجويز السهو، لأنّه يستلزم عدم استقامة الأفعال والأقوال، إذا صلّى الصلاة ركعتين على قولهم، وسلّم وتكلّم وترك ركعتين واجبتين، وأين هذا من الاستقامة ؟والثانية قوله تعالى: ﴿**قُلْ إنْ كُنتُم تُحِبّونَ اللهَ فاتَّبِعُونى يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾[٢] دلّت على وجوب متابعته عليه السلام في أفعاله وأوامره وأقواله، فلو جاز عليه السهو لوجبت متابعته فيه، وهو باطل قطعاً، وأقلّه أنّه يلزم جواز المتابعة، وبطلانه أيضاً واضح، على أنّه لو جاز السهو لاحتمل كلّ من أفعاله وأقواله ذلك، فلايكون حجّة أصلاً، وهو ظاهر الفساد اتفاقاً، وخلاف مدلول الآية قطعاً، ومناف لوجوب العصمة في النبيّ والإمام.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿**لَقَد كانَ لَكُم فى رَسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حَسَنةٌ لِمَنْ كانْ يَرْجُوا اللهَ واليومَ الآخِرَ وذَكَرَ اللهَ كَثيراً**﴾[٣] استدلّ بعض علمائنا بها على وجوب الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وآله، ومطلبنا حاصل وإن لم تثبت تلك المقدّمات، لصراحتها في حسن

١- آل عمران: ٣٣.

٢- آل عمران: ٣١.

٣- الأحزاب: ٢١.

الاقتداء به عموماً، بل مطلقاً، ولاكان فعله حجّة على الجواز، ولا تركه حجّة على نفي الوجوب، مع أنّ فعله كلّه نوع من التبليغ، فإنّ عبادته لايتميّز منها ما هو تبليغ عن غيره، بل ينبغي الجزم بأنّ جميعها تبليغ، و إلّا لما علم دوام التكليف.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿**إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهيراً**﴾[١]، وهي دالّة على عصمتهم بالوجوه المقررة في الأصول والتفاسير والروايات الكثيرة من العامّة والخاصّة باختصاصها بأهلها، وهي شاملة للتطهير من كلّ عيب ونقص وكذب وخطأ وغلط، ومنافية لحديث ذي الشمالين[٢].

١- الأحزاب: ٣٢.

٢- روى أبو هريرة أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله صلّى بهم صلاة العصر فسلّم في ركعتين، فقام ذو اليدين فقال: أقصرتَ أم نسيت يا رسول الله؟ فأقبل على القوم وقال: أَصَدَق ذو اليدين؟! قالوا؟! نعم. فأتمّ ما بقي من صلاته وسجد وهو جالس سجدتين بعد التسليم! **صحيح مسلم** ١: ٤٠٣ / الحديث ٥٧٣، **مسند أحمد** ٢: ٤٢٣ و٤٥٩. وقد طُعن في هذا الخبر بأن قيل: لا أصل له: لأنّ أبا هريرة أسلم بعد أن مات ذو اليدين بسنين، فإنّ ذا اليدين قتل يوم بدر، وذلك بعد الهجرة بسنتين، وأسلم أبو هريرة بعد الهجرة بسبع سنين. فقال من احتجّ بهذا الحديث: إنّ هذا غلط، لأنّ الذي قتل يوم بدر هو ذو الشمالين، واسمه عبد الله بن عمرو بن نضلة الخزاعي، وذو اليدين عاش بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله ومات في أيّام معاوية، وقبره بذي خشب واسمه الخرباق. **المجموع** للنوويّ ٤: ٨٦. قالوا: والدليل عليه أنّ عِمران بن الحُصَين روى هذا الحديث فقال فيه: فقام الخرباق فقال: أقصرتَ الصلاة أم نسيت يا رسول الله؟ **صحيح مسلم** ١: ٤٠٤ / ح٥٧٤.. قال الطبرسي في **المؤتلف**: أمّا أصحابنا فقد رووا أنّ ذا اليدين يقال له: ذو الشمالين، وقد روى ذلك سعيد الأعرج عن أبي عبد الله عليه السلام في هذه القصّة. **الكافي** ٣: ٣٥٧ / ح٦ **والتهذيب** ٢: ٣٤٥ / ح١٤٣٣ فقال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ سلّم في ركعتين فسأله مَن خلفه: يا رسول الله، أحدَثَ في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: إنّما صلّيت ركعتين، فقال: أكَذاك يا ذا اليدين؟ وكان يُدعى ذا الشمالين، فقال: نعم. فبنى على صلاته فأتمّ الصلاة أَربعاً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿**وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوى* إنْ هُوَ إلّا وَحْيٌ يُوحى**﴾[١] دلّت على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لاينطق إلّا عن وحي، فيستحيل أن يسلّم في الصلاة في غير محلّه، ثمّ يتكلّم قبل تمام صلاته، ثمّ يكذّب ذا الشمالين وهو صادق على قولكم، ثمّ يعترف بخطئه، وكلّ ذلك ينافي مدلول الآية.

السادسة: قوله تعالى: ﴿**و ما آتاكُمُ الرسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهاكُم عَنْه فانتَهُوا**﴾[٢]، دلّت على وجوب التسليم والانقياد لأقواله وأفعاله على وجه العموم والإطلاق، فلو جاز السهو لاحتمل كلّ فعل وقول ذلك، ومنافاته لمدلول الآية واضح، ومنافاة

وقال: إنّ الله هو الذي أنساه رحمة للأمّة، ألا ترى لو أنّ رجلاً صنع هذا لَعُيّر وقيل: ما تُقبل صلاتك عن دخل.. وقد أورد الحرّ العامليّ هذه الرواية في **وسائل الشيعة** ٥: ٣١١ / ح١٦ باب عدم بطلان صلاة من نسي ركعة أو أكثر وسلّم في غير محلّه ثمّ تيقّن أو تكلّم ناسياً.. من أبواب الخلل الواقع في الصلاة، من طبعة المكتبة الإسلامية بطهران. وينظر: تفصيل ذلك في **المؤتلف من المختلف بين أئمّة السلف**، والمسمّى أيضاً **منتخب الخلاف** ١: ٣٤٩ / المسألتان ١٤٣ و ١٥٤)، وكتاب **الخلاف** للشيخ الطوسيّ ١: ٤٠٤ ـط جماعة المدرّسين قمّ المقدّسة، و **نضد القواعد الفقهية على مذهب الإمامية** للسيوري: ٦٨.

وقال الحرّ العامليّ في موضع آخر من كتابه المذكور في أوّل الكلام: إنّه لو جاز السهو والنسيان وترك الواجبات والإتيان بالمحرّمات عن غير عمد، كما يقتضيه حديث ذي الشمالين من ترك ركعتين واجبتين في الواقع والإتيان بالسلام والكلام المحرَّمَين في الواقع، لكان ظالماً: لأنّ الظلم وضعُ الشيء في غير موضعه، والظالم لايكون إماماً، لقوله تعالى: ﴿**لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ١٢٤)، والمراد بعهدي هو عهد الإمامة كما يُفهَم من الآية والحديث الوارد في تفسيرها. **التنبيه بالمعلوم**: ١١٢.

١- النجم: ٣ ـ ٤.

٢- الحشر: ٧.

حديث ذي الشمالين[١] له أوضح.

السابعة قوله تعالى: ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية**﴾[٢]، روى الطبرسيّ وغيره من طرق العامّة والخاصّة[٣] أنّها نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّه قال: «ماسَمِعتُ شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وآله فنسيته»، وهذا عامّ مطلق في التبليغ وغيره، فيستحيل النسيان على النبيّ صلى الله عليه وآله بطريق الأولويّة مع الوجوه السابقة والآتية.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فلاتَنْسى**﴾[٤]، وهي عامّة، فإنّ المفعول لا يتعيّن تقديره بالقراءة، ولا قائل بالفرق بين ما قبل نزول الآية وقبل القراءة وما بعدها، فالفارق خارق للإجماع.

التاسعة قوله تعالى: ﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[٥]، روي في عدّة أحاديث أنّ المراد من التسليم هو التسليم له صلى الله عليه وآله والانقياد لأقواله وأفعاله، ودلالته على المراد ظاهرة ممّا مرّ، وأدلّة التسليم من القرآن والحديث كثيرة، ولو جاز

١- قال بعض المحقّقين: اختلفت ألفاظ الحديث، كما اختلفت النسبة إليه، فتارة لذي اليدين، وأخرى لذي الشمالين، وثالثة ذُكرا معاً في رواية واحدة، ورابعة للخرباق، وخامسة لرجل من سليم.. ينظر: **تعليقة المحقّقين على خلاف الشيخ الطوسيّ** ١: ٤٠٤ ط ـ جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقمّ المقدّسة. كما أنّ هناك من يفرّق بين شخص ذي اليدين وذي الشمالين ويعدّهما شخصين متمايزين، قال ابن عبد البرّ: ذو اليدين رجل من بني سليم يقال له: الخرباق، حجازيّ شهد النبيّ صلى الله عليه وآله، وليس هو ذا الشمالين. وذو الشمالين رجل خزاعيّ حليف لبني زهرة قُتل يوم بدر. **الاستيعاب في معرفة الأصحاب** ١: ٤٩١.

٢- الحاقّة: ١٢.

٣- كما في **مجمع البيان** للطبرسيّ ٥: ٣٤٥ و**أسباب النزول** للواحديّ: ٢٤٩.

٤- الأعلى: ٦.

٥- الأحزاب: ٥٦.

السهو لنافى وجوب التسليم.

العاشرة قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ**﴾[١]، ودلالتها ظاهرة ممّا مرّ.

الحادية عشرة قوله تعالى: ﴿**فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[٢] ودلالتها أوضح ممّا تقدّم.

الثانية عشرة قوله تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[٣]، ثمّ قال: ولو كان الرسول صلى الله عليه وآله سها في صلاته لدخل في هذا التهديد والذمّ، وهو محال[٤].

وخلاصة ما يمكن قوله هنا هو أنّ الله تعالى أكمل نبيّه صلى الله عليه وآله وأوصياءه عليهم السلام من بعده، فجعل السداد والهداية والاستقامة التي تستكنّ فيهم وتنطلق منهم لتكتمل بهم الرسالة، وفي هذا رحمة للعباد، ومن لطفه ورحمته بالعباد أيضاً أن تكون العصمة مَلَكة حصرية بهم، بالنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وأهل بيته المسمَّين بالعدد والذات دون غيرهم من ذرّية فاطمة عليها السلام، فلولم يسمّ النبيّ صلى الله عليه وآله ويحدّد أسماء المعصومين لتكثّرت القالة والمقالة، وتفرّعت المقالات والفرق، ومع كلّ هذا فلم يكن تاريخ الشيعة الإماميّة خالياً من الفتن والمجالدات والمطارحات والانشقاقات، ولكنّ الله منّ عليهم بوجود إمام معصوم بينهم بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله جمع شملهم ووحّد كلمتهم، ومن هذا يقول الشيخ عبيد الله السدآبادي: إنّ وجود الإمام لطف من الله

١- الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧.

٢- الأعراف: ١٥٨.

٣- الماعون: ٤ ـ ٥.

٤- **التنبيه بالمعلوم**: ٧٣.

تعالى لعبيده، لأنّه يكون بينهم فيجتمع شملهم ويتّصل حبلهم، وينتصف الضعيف من القويّ، والفقير من الغنيّ، ويرتدع الجاهل، ويتيقّظ الغافل. فإذا عُدِم بَطَل الشرعُ وأحكام الدين: كالحجّ، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجميع أركان الإسلام، إلّا أن يكون الإمام خائفاً على نفسه فقد ظهر عذره.

ويوجب العقل أن يكون الإمام أفضل الأمّة؛ لأنّ عبء الإمامة ثقيل، وخَطْبها جليل، وأمرها عظيم، وخطرها جسيم، لأنّه حافظ الشرع، ولأنّه ـ عند أهل الحقّ والعدل ـ يجب أن تجتمع فيه خصال الخير المتفرّقة في غيره، لا يحتملها إلّا من كان كامل الأدوات، حاوياً لأسباب الخيرات، مثل: العلم بكتاب الله وسنّة رسول الله ﷺ، والفقه في دين الله، والجهاد في سبيل الله، والرغبة فيما عند الله، والزهد فيما بيد خلق الله. وليس يُوصَل إلى معرفة هذه الخلال المحمودة. والخصال المعدودة، إلّا بوحي من الله تعالى إلى رسوله ﷺ، فإذا ظهر الوحي وجب على الرسول ﷺ أن ينصّ على مَن خلفه مَن بعد وفاته. ويقتضي العقل أن يكون هذا النصّ منه ﷺ على معصوم، لأنّه تقدّس اسمه عصم رسولَ الله ﷺ من الزيغ والزلل والخطأ والخلل في القول والعمل، ونزّهه عن أن يحكم بالهوى، أو يميل إلى الدنيا[١].

وعلى هذا الأساس قامت وابتُنيت المعتقدات الشيعية، فمن هنا تكون شروط الإمامة بالمعنى والإرادة التي أرادتها السماء عصيّة على عامّة الناس ونخبهم، لأنّ الإمامة هنا ـ وكما تقدّمت الإشارة ـ تكون أصلاً من أصول الدين، وكما يعتقدها عامّة العلماء والفقهاء، وألزموا بها كلّ من يقول ويتعبّد بفقه الشيعة، فغدت بالقهر والضرورة خارجةً عن إرادة الأمّة، وبالتالي فهي ليست ضمن

١- المقنع في الإمامة: ٤٧.

اختيارات أهل الحلّ والعقد[1]، وليست داخلة في ما يُعرَف بالشورى أو الانتخاب المباشر أو بالواسطة، ونحو ذلك، فلذا قالوا بعصمة الإمام وأوجبوا قرشيّته، وأن يكون من صلب الإمام عليّ عليه السلام ومن نسل الصدّيقة فاطمة عليها السلام، ومن وُلد الحسين عليه السلام دون الحسن عليه السلام[2]، ونحو ذلك من الشروط التي لا يمكن توفّرها في بقيّة الأفراد، والتي عرفت بعلامات الإمام، منها: أنّ الإمام يكون أعلم الناس، وأحكم الناس، وأتقى الناس، وأحلم الناس، وأشجع الناس، وأسخى الناس، وأعبد الناس، يُولَد مختوناً، ويكون مطهّراً، ويرى من خلفه كما يرى من بين يديه، ولا يكون له ظلّ،

١- عوّل فقهاء أهل السنّة والجماعة على أهل الحلّ والعقد في تقرير مصير الأمّة، وسُمّيت الفئة التي تختار الإمام أو رئيس الدولة تارة أهلَ الحلّ والعقد، وتارة أهل الاجتهاد، وثالثة أهل الاختيار، كما ورد في كلام الفقهاء. ينظر: محمّد المبارك، **نظام الإسلام الحكم والدولة**: ٨١. وجمهور الفقهاء يرى أنّ الإمامة تنعقد من وجهين، أحدهما باختيار أهل العقد والحلّ، والثاني بعهد الإمام من قبل. لؤي صافي، **العقيدة والسياسة**: ٣٤. وببيعة أهل الحلّ والعقد يتمّ تعيين الخليفة وتتعيّن بذلك طاعته على كافّة المسلمين. ينظر: أحمد علّام، **دراسات في مصطلح السياسة عند العرب**:١٣٢.

٢- للشيعة الإمامية أخبار رُويت عن بعض الأئمّة عليهم السلام في علل وأسرار بعض العبادات والمعتقدات التي يقول بها المسلمون والشيعة منهم، ومع هذا بقيت مجموعة من إجاباتهم عن بعض الاعتقادات والمعارف العبادية محجوبة، أو غير مفهومة عند عامّة الشيعة وغيرهم، فلم تكن هناك إجابة على كثير من التساؤلات عن بعض أسرار الإمامة، فقد سأل محمّد بن أبي يعقوب البلخي الإمام الرضا عليه السلام عن علّة كون الإمامة في ولد الإمام الحسين عليه السلام دون الإمام الحسن عليه السلام، فقال الرضا عليه السلام: «لأنّ الله عزوجلّ جعلها في ولد الحسين عليه السلام ولم يجعلها في ولد الحسن عليه السلام، والله لا يسأل عمّا يفعل. **عيون أخبار الرضا**٢: ٨٢، **بحار الأنوار**٢٥: ٢٥٩.

وإذا وقع على الأرض من بطن أمّه وقع على راحتيه رافعاً صوته بالشهادتين[١]، ولايحتلم، وتنام عينه ولاينام قلبه، ويكون محدَّثاً. ويستوي عليه درع رسول الله، ولا يُرى له بول ولا غائط؛ لأنّ الله عزّوجلّ قد وكّل الأرض بابتلاع ما يخرج منه، وتكون رائحته أطيب من رائحة المسك، ويكون أَولى الناس منهم بأنفسهم وأشفقَ عليهم من آبائهم وأمّهاتهم، ويكون أشدّ الناس تواضعاً لله عزّوجلّ، ويكون آخَذَ الناس بما يأمر به، وأكفَّ الناس عمّا ينهى عنه. ويكون دعاؤه مستجاباً، حتّى إنّه لو دعا على صخرة لانشقّت بنصفين. ويكون عنده سلاح رسول الله ﷺ وسيفه ذو الفَقار، وتكون عنده صحيفة فيها أسماء شيعتهم إلى يوم القيامة، وصحيفة فيها أسماء أعدائهم إلى يوم القيامة. وتكون عنده الجامعة، وهي صحيفة طولها سبعون ذراعاً فيها

١- جاءت روايات كثيرة في هذا المعنى، في الكتب الأربعة وغيرها من كتب الأصول، ومنها ما روي عن إسحاق بن الإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام أنه قال: سمعت أبي يقول: «الأوصياء إذا حملت بهم أمّهاتهم أصابها فترة شبه الغشية، فأقامت في ذلك يومها ذلك إن كان نهاراً، أو ليلتها إن كان ليلاً، ثمّ ترى في منامها رجلاً يبشّرها بغلام عليم حليم، فتفرح لذلك، ثمّ تنتبه من نومها فتسمع من جانبها الأيمن في جانب البيت صوتاً يقول: حملت بخير، وتصيرين إلى خير، وجئت بخير، أبشِري بغلام حليم عليم. وتجد خفّة في بدنها، ثمّ لم تجد بعد ذلك امتناعاً من جنبيها وبطنها، فإذا كان لتسع من شهرها سمعت في البيت حسّاً شديداً، فإذا كانت الليلة التي تلد فيها ظهر لها في البيت نوراً لا يراه غيرها إلّا أبوه، فإذا ولَدَته قاعداً وتفتّحت له حتّى يخرج متربّعاً يستدير بعد وقوعه إلى الأرض، فلا يُخطئ القِبلة حيث كانت بوجهه، ثمّ يعطس ثلاثاً يشير بإصبعه بالتحميد ويقع مسروراً، مختوناً، ورباعيّتاه من فوق وأسفل، ونابيه وضاحكاه، ومن بين يديه مثل سبيكة الذهب نور، ويقيم يومه وليلته تسيل يداه ذهباً، وكذلك الأنبياء إذا ولدوا، وإنّما الأوصياء أعلاق من الأنبياء. **الكافي** ١: ٣٨٧ / ح٥ ـ باب مواليد الأئمّة عليهم السلام.

جميع ما يحتاج إليه ولد آدم. ويكون عنده الجفر الأكبر والأصغر[١]، وإهاب ماعز وإهاب كبش فيهما جميع العلوم، حتّى أرش الخدش، وحتّى الجلدة ونصف الجلدة، ويكون عنده مصحف فاطمة عليها السلام .

وجاء في خبر آخر: مؤيَّدٌ بروح القدس، وبينه وبين الله عمود من نور يرى فيه أعمال العباد، وكلَّ ما يحتاج إليه. . ويُبسَط له العلم فيعلم، ويُقبض عنه فلا يعلم[٢]. ومن هذه العلامات والشرائط يمكننا الذهاب مع القائلين إلى أنّ الإمامة امتداد للنبوّة وتفريع لها، لذا تصلّبت المواقف وتشدّدت في قبول مَن يدّعي هذا المقام. ومع هذه العلامات والاشتراطات التي وضعت، إلّا أنّ النصوص لم تضع شرط التقدّم في العمر للإمام المعصوم. وجرت السيرة أنّ العمر الذي يشترط توفّره في المناصب الإدارية والسياسية والقضائية ينبغي أن يؤخذ بنظر الاعتبار، فالقائد والقاضي ونحوهما يفترض أن يكون راشداً مكتمل السنّ والتجربة، وكما هو متعارف

١- أصل الجفر: الجذع من ولد الضأن، والجمع أجفار وجفرة. **ترتيب جمهرة اللغة**١: ٢٩٥ (جفر). وهو بمعناه الاصطلاحيّ: الكتاب المشتمل على علم المنايا والبلايا والرزايا، وعلم ما كان ويكون إلى يوم القيامة، الذي خصّ الله به محمّداً والأئمّة من بعده. **كمال الدين وتمام النعمة** للصدوق: ٣٣١. وجاء في بعض أخبار الشيعة بأنّ الجفر أُخذ من ألواح موسى عليه السلام، فإنّه استودعها في جبل إلى زمان النبي صلى الله عليه وآله فوصلت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فدعا النبي صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام وأعطاه إيّاها وأمره أن يضعها تحت رأسه، ففعل، فأصبح عليّ عليه السلام وقد علّمه الله كلّ شيء فيها، وفيها علم الأوّلين والآخرين، فأمرَه النبي صلى الله عليه وآله أن ينسخها، فنسخها في جلد شاة، وهو الجفر. ينظر: **بحار الأنوار**١٧: ١٣٧ـ١٣٨ / ح ٢١ ـ عن: **بصائر الدرجات** للصفّار القمّي: ٣٨.

٢- جاءت هذه العلامات في **عيون أخبار الرضا**١: ٢١٣. وجاء في أُخبار أُخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الإمام إذا شاء أن يعلم أُعلِم». وقال عليه السلام: «إذا أراد الإمام أن يعلم شيئاً أعلمه الله ذلك». **الكافي**١: ٢٥٨ / ح ٢ و٣ باب أنّ الأئمّة عليهم السلام إذا شاؤوا أن يعلموا عَلِموا.

في تاريخ الإسلام السياسيّ، وكما هو مشاهد في تاريخ الدول، في حين أنّ هذا لم يُذكر في المأثور والمنصوص لدى علماء الشيعة وأخبارهم للذي يتصدّى للإمامة.

ومن هنا كان القول بإمامة الإمام التاسع محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام قد حيّر السلطة العبّاسية والفقهاء ورجال القضاء والجيش والإدارة، لمؤهّلات الإمام التي يمتلكها مع صغر سنّه، وربّما كانت هذه الحيرة والدهشة لديهم لعدم تعرّفهم على دلائل الإمامة، لأنّه في عرف العقلاء إذا كان الدرس الذي يتلقّاه الإنسان العاديّ يتطلّب سنينَ متطاولة من العمر كي يتمكّن من العلم والفُتيا، فإنّ الإمام الجواد عليه السلام حصّل كلّ هذا بما لا يصدق حصوله لأيّ إنسان، بل وأكثر ممّا لم يمكنهم من مشاهدته ومعاينته، فما كان لديه عليه السلام كان من منبع سماوي وضعه في مقام الإمامة التي يقول بها الشيعة، فما معنى هذا العلم الذي كان يتلقّاه وهو بعيد عن مصادر العلوم و المعرفة البشرية، وزِدْ على ذلك انفراد الإمام الجواد عليه السلام عن كل مخلوق يمكن أن يمدّه بأيّ علم، وحتّى عن مصادر قريبة أخرى، فهو عاش في بُعدٍ ووحدة، حتّى إنّه لم يُمكَّن من أن يعيش فترة زمنية كافية لكي يقترب من أبيه الرضا عليه السلام الذي عاش مطوّقاً من قِبَل الدولة العبّاسية حين سجنوه في دار ولاية العهد، ولم يكن للإمام الجواد عليه السلام أستاذ أو شيخ يلقّنه العلوم، كما هو متعارف في تاريخ وسيرة الأعلام المشهورين الذين يترجم لهم علماء السيرة والتاريخ، فلم نجد مؤرّخاً يحدّث عن اختلاف محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام إلى مدارس البحث أو مساجد المدينة التي كانت عامرة بالعلماء والفقهاء في زمانه، فليس لنا إلّا الإقرار بالمدد الغيبيّ والمعجز والوحيّ أو الإلهام، أو نحو ذلك من الطرق التي يراها ربّ السماء والأرض لأوليائه الذين ارتضاهم وخصّهم بالعلم، قال تعالى: ﴿**عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ**

يَعْلَمْ﴾[١].

وفي حوار المأمون العبّاسي مع قومه من بني العبّاس بخصوص علم الإمام الجوادعليه السلام لمّا بدت لهم معرفته الواسعة بالعلوم، قال لهم: وَيْحكم! إنّ أهل هذا البيت خُصّوا من الخَلق بما ترون من الفضل، وإنّ صغرالسنّ لايمنعهم من الكمال، أما عَلِمتم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهوابن عشرسنين، وقَبِل منه الإسلام وحكم له به، ولم يَدْعُ أحداً في سنّه غيره، وبايع الحسنَ والحسين عليهما السلام وهما دون الستّ سنين، ولم يبايع صبيّاً غيرهما! أو لاتعلمون الآن ما اختصّ الله به هؤلاء القوم، وأنّهم ذرّية بعضها من بعض يجري لآخرهم ما يجري لأوّلهم[٢]. ورَوَت بعض الأخبار حصول العِلوم اللدُنيّة لطائفةٍ من الأولياء والأنبياء ومن هو بدرجتهم، بدون تعلّم أو تعليم متعارف عليه وحتّى بدون اتصال بأيّ مخلوق، كما جرى للخضرعليه السلام[٣]. وكما هو مؤكّد ومحقّق

١- العلق: ٥.

٢- **الاحتجاج**: ٤٤٦.

٣- قال السيد محمّد حسين الطباطبائيّ: لم يرد ذكره (الخضرعليه السلام في القرآن إلّا ما في قصّة رحلة موسى إلى مجمع البحرين، ولا ذُكرشيء من جوامع أوصافه إلّا ما في قوله تعالى: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا» (الكهف: ٦٥)، والذي يتحصّل من الروايات النبوية أو الواردة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام في قصّته، ففي رواية محمّد بن عُمارة عن الإمام الصادق عليه السلام» إنَّ الخضركان نبيّاً مرسلاً بعثه الله تبارك و تعالى إلى قومه، فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه و رسله و كتبه، وكان آيته أنّه كان لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلّا أزهرت خضراء، وإنّما سُمّي خضراً لذلك، وكان اسمه تاليا بن مالك ابن عامربن ارفخشد بن سام بن نوح...» الحديث. ويؤتيه ما ذكرمن وجه تسميته ما في **الدرّ المنثور**عن عدّة من أرباب الجوامع عن ابن عبّاس و أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «إنّما سُمّي الخضرخضراً لأنّه صلّى على فروة بيضاء فاهتزّت خضراء» **علل الشرائع** : ٥٩ –٦٠ / ح ١ – الباب ٥٤ ، عنه : **بحار الأنوار**١٣ : ٢٨٦ / ح ٤.

لدى الشيعة أنّ بعض الأئمّة، كالإمام الجواد والهادي والعسكريّ عليهم السلام، لم يبلغوا من العمر ما يسعهم فيه من الإحاطة الشاملة بشتّى العلوم والفنون، لو كان علمهم ناشئاً من تأديب المؤدّبين وتعليم المعلّمين، ولكن كانوا يستلهمون علمهم من معدن الرسالة ومَعين النبوّة والإمامة، فضيلة اختصّهم الله بها دون خلقه، لينير بهم طريق الهدى ويرفع بهم كلمة الإيمان والحقّ في الأرض[١].

وفي **تفسير البرهان:** عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمّد بن عمارة عن أبيه عن جعفر بن محمّد عليه السلام في حديث أنّ موسى لمّا كلّمه الله تكليماً، و أنزل عليه التوراة وكتب له في الألواح من كلّ شيء موعظة وتفصيلاً لكلّ شيء، وجعل آية في يده وعصاه، و في الطوفان والجراد و القمّل والضفادع والدم وفلق البحر وأغرق الله عزّوجل فرعون و جنوده، عَمِلت البشرية فيه حتّى قال في نفسه: ما أرى الله عزّوجلّ خلق خلقاً أعلمَ منّي، فأوحى الله عزّوجلّ إلى جبرئيل : أدرك عبدي قبلَ أن يهلك! و قل له: إنَّ عند ملتقى البحرين رجلاً عابداً فاتّبِعه وتعلّم منه». **الميزان في تفسير القرآن** ١٣: ٣٥٢ –٣٥٤ ، عن : **البرهان في تفسير القرآن** ٢ : ٤٧٢ – ٤٧٣ / ح ١.

وجاء في خبر الخضر عليه السلام برواية أُسندت إلى أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: كان في الزمان الأوّل ملك له أسوة حسنة في أهل مملكته، وكان له ابنٌ رَغِب عمّا هو فيه، وتخلّى في بيت يعبد الله تعالى، فلمّا كبر سنّ الملك مشى إليه خيرة الناس قالوا: أحسنتَ الولاية علينا وكبر سنّك ولا خلفك إلّا ابنك، وهو راغب عمّا أنت فيه، وأنّه لم ينل من الدنيا، فلو حملتَه على النساء حتّى يصيب لذّة الدنيا لعاد، فاخطبْ كريمة له. فأمرهم بذلك، فزوّجه جارية لها أدب وعقل، فلمّا أتوا بها وأجلسوها حوّلها إلى بيته وهو في صلاته، فلمّا فرغ قال: أيّتها المرأة، ليس النساء من شأني، فإن كنتِ تحبّين أن تقيمي معي وتصنعي كما أصنع، كان لك من الثواب كذا وكذا، .قالت: فأنا أقيم على ما تريد. ثمّ إنّ أباه بعث إليها يسائلها هل حبلت؟ فقالت: إنّ ابنك ما كشف لي عن ثوب. فأمر بردّها إلى أهلها، وغضب على ابنه وأغلق الباب عليه ووضع عليه الحرس، فمكث ثلاثاً، ثمّ فتح عنه فلم يوجد في البيت أحد! فهو الخضر عليه الصلاة والسلام. **قصص الأنبياء** للراونديّ ١: ٣٩١.

١- ينظر: محمّد جواد فضل الله، **الإمام الرضا عليه السلام تاريخ ودراسة**، تحقيق محمّد صادق الغرّاوي، دار الكتاب الإسلامي- قمّ المقدّسة: ٢٩.

الإمام الجواد والمعجزة

كاد يُجمِع الشيعة بعامّة فرقهم على أنّ الأئمة المعصومين عليهم السلام والمنصوص عليهم في الأخبار حصلت لهم معجزات وخوارق مدّة حياتهم، وقد تواترت أخبار كثيرة عن علماء الشيعة وغيرهم في هذا المجال. ويعتقد جمع كثير من العلماء أنّ ما يدلّ على إمامتهم عليهم السلام ظهور المعجزات على أيديهم، كظهورها على أيدي الأنبياء عليهم السلام. وطريق العلم بها تواتر الشيعة الإمامية بظهورها على يد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب وأعيان الأئمّة من ذرّيته صلوات الله عليهم، كتواتر الناقلين لمعجزات النبيّ صلى الله عليه وآله، ويعلم ذلك من حالهم كلّ متأمّل لما نقل عنهم، فإذا ظهرت المعجزات على أيديهم مقترنة بدعواهم للإمامة، وثبت النصّ من الله تعالى بها عليهم زال الريب في ثبوتها لهم[1].

والمعجز في اللغة عبارة عمّن جعل غيره عاجزاً، مثل المقدر الذي يجعل غيره قادراً، إلّا أنّه صار بالعرف عبارة عمّا يدلّ على صدق من ظهر على يده واختصّ به[2]. والمعجزة، ومثلما يفاد من لفظها، تُطلَق على أيّ عمل خارق للعادة يأتي به دعاة النبوّة لإثبات ادّعائهم المتمثّل في اتّصالهم بعالم الغيب وربِّ عالم الوجود، وتحدّيهم للآخرين في الإتيان بمثله، وعندما لايتمكّن أحد من فعل ذلك

١- **الكافي في الفقه** لأبي الصلاح الحلبيّ: ١٠٠.

٢- **الاقتصاد** للشيخ الطوسيّ: ٢٥٠.

ويعجزعن القيام به، يُسمّى ذلك العمل عندئذ بالمعجزة.

وهناك قيود واردة في هذا التعريف[١] لابدّ من الإشارة إليها باختصار: أنّ العمل الخارق للعادة يقف على النقيض من العمل المستحيل عقليّاً، وقد قال العلماء: إنّ المعجزة لاتتعلّق بالأعمال التي تستحيل عقليّاً، كما أنّ إرادة الحقّ تعالى لا تتعلّق بمثل هذه الأمور أيضاً، أي أنّ المعجزة تتعلّق بالأعمال التي يبدو تحقّقها مستحيلاً بشكل اعتياديّ وطبيعيّ، إلّا أنّها ليست مستحيلة عقليّاً، مثل: تحوّل العصا إلى ثعبان، و إحياء الميّت، واخضرار و إثمار الشجرة الجافّة، أو قطع مئات وآلاف الفراسخ في فترة قصيرة، بل وفي لحظة واحدة بدون استخدام وسائط النقل الظاهرية، أو نقل أجسام من مكان بعيد خلال فترة زمنية قصيرة، أو انشقاق الأجرام السماوية والكتل الأرضية الصلبة بأدوات عادية كالعصا، وبقيّة الأعمال التي يلزم تحقّقها بصورة عادية وجود وسائل وزمن طويل. وقد أنجز أنبياء الله مثل هذه الأعمال بدون استخدام تلك الوسائل وفي فترة قصيرة، بناءً على طلب الأعداء والمعارضين، أو بدون طلبهم، إثباتاً لدعواهم، كما كانوا يتحدّون غيرهم في القيام بمثل ما قاموا به. ومن النماذج التي ذكرها القرآن: عصا موسى في تحوّلها إلى ثعبان، وضربها بالحجر وانفجار اثنتي عشرة عيناً منه، وغيرها من معجزات هذه العصا التاريخية المقدّسة، وحادثة انتقال عرش بلقيس، و إحياء الموتى على يد السيّد المسيح عليه السلام، وقصّة مريم عليها السلام، وولادة النبيّ عيسى عليه السلام، و إسراء الرسول صلى الله عليه وآله

١- ذهب بعضهم إلى وضع الشروط والقيود، ومن شروط المعجز قالوا: ١- أن يكون خارقاً للعادة. ٢- أن يكون من فعل الله أو جارياً مجرى فعله. ٣- أن يتعذّر على الخلق جنسه أو صفته المخصوصة. ٤- أن يتعلّق بالمدّعى على وجه التصديق لدعواه. ينظر: **الاقتصاد** للشيخ الطوسي: ٢٥٠.

ومعراجه، وشقّ القمر.

والنقطة الأخرى التي يمكن فهمها من هذا التعريف هي أنّ الإتيان بالمعجزة والقدرة على القيام بها، علامة من علامات صدق نبوّة أنبياء الله ورسله، فمتى ما طُولِب المدّعي بمعجزة، وكان بالإمكان القيام بها عقليّاً، يجب عليه القيام بها، وعندئذٍ تصدق نبوّته، ولو لم يستطع فسيُفهَم أنّه كاذب ومنتحل للنبوّة.

والموضوع الآخر: هو الفرق بين المعجزة من جهة والسحر والشعوذة وغيرها من جهة أخرى، فليست المعجزة نوعاً من السحر، لأنّها عندما تتعلّق بعمل ما فسيقع هذا العمل في الخارج بشكل واقعيّ، غير أنّ السحر والشعوذة ليست لهما حقيقة خارجية أو واقعية، والعمل السحريّ لايحدث إلّا في عين المشاهِد، ففي قصّة موسى عليه السلام وسحرة فرعون كان عمل موسى عليه السلام حقيقيّاً وواقعيّاً، أي أنّ عصا موسى قد تحوّلت حقيقة إلى ثعبان عظيم ورهيب و إلى حيوان مفترس، ولم تعد خشبة أو عصا، بينما حيّات السحرة لم تكن حيّات حقيقية، بل كانت حبالهم وعصيّهم التي جعلوها تتحرّك بفعل بعض المواد الكيمياوية، والتي تَصوَّرها الناس أنّها أفاعٍ حقيقية.

وذكر كبار العلماء أنّ المعجزة والقيام بها ليسا بالشيء الذي يخترق قانون العلّية والأسباب والعلل في الكون، أو يعمل خارج إطار العلّة والمعلول والسبب والمسبب، لأنّ عدم ظهور أيّ ظاهرة في هذا الكون بدون علّة أو سبب، قانون من قوانين خلق عالم الوجود، ومن السنن الإلهيّة الحتميّة، ولكن لمّا كانت العلل والأسباب والحوادث العادية محسوسة وملموسة عادة، وليست هي هكذا في المعجزات، تصوّر الناس العاديون أنّها وُجِدت من غير علّة أو سبب، بينما ذكر القرآن الكريم علّة و سبباً لكلّ أحداث العالم، ويرى أنّ كلّ شيء معلول لإرادة الله

وتقديره، مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾[٣] وغير ذلك من الآيات. ولا ريب في أنّ وسائط تحقّق إرادة الحقّ تعالى قد تكون قليلة، وقد تكون كثيرة، وقد تكون محسوسة وقد لاتكون. وحينما لانشاهد أحياناً هذه الوسائط، أو لانتمكّن بهذه الأسباب والعلل المادّية، والأعضاء والجوارح الظاهرية من إدراكها، فلا يمكننا إنكارها[٤].

كما وأنّ هناك من المعجزات التي جرت على يد غير الأنبياء، ومن هؤلاء أمّ موسى، كما أشار القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[٥]، ففعلت ما أُمِرت به، وهذا يقتضي ظهور المعجز لها من وجهين: أحدهما الوحي، وهو معجز، والثاني أنّها لايجوز أن تُقْدم على جعل ولدها في التابوت وطرحه في اليمّ إلّا بعد اليقين بأنّ الآمر لها بذلك هو القديم سبحانه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا بظهور معجز تعلم به أنّ الخطاب المتضمّن ذلك وحيٌ منه سبحانه، وأمّ موسى ليست بنبيّ.

ومن ذلك ظهور المعجز لمريم في عدّة مواضع، منها نزول الرزق عليها من السماء، حسب ما أخبر به سبحانه بقوله: ﴿**كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ**

١- القمر: ٤٩.

٢- الحجر: ٢١.

٣- الطلاق: ٣.

٤- ينظر: هاشم رسولي محلّاتي، **بحوث حول بعثة الرسول وما هي المعجزة**، المقالات والرسائل، المؤتمر العالميّ للذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد / المقالة ١١، ص٤١.

٥- القصص: ٧.

عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١]، ولا شبهة في أنّ نزول الرزق من السماء معجزة. ومنها معاينة المَلَك المبشّر لها بالمسيح عليه السلام في صورة بشر، ومنها تكلّم المسيح معها من تحتها في حال الولادة في قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ... إلى قوله : وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾[٢].

كما وإنّ هناك بعض المعجزات، أو الكرامات، أو المقامات على ما يقولها بعضهم، تناولتها كتب أهل السنّة والجماعة بالتسليم والقبول، ينقلها مؤلّفوها عن بعض المتصوّفين والعرفاء والأولياء، حتّى صارت الكتب التي تتحدّث عن كرامات هؤلاء الأولياء[٣] تنافس كتب الحديث والأخبار، وربّما فاقتها، وقد تعرّضت بعض هذه الكتب للتشكيك، وربّما للإنكار والجحد، فانبرى الشيخ يوسف بن إسماعيل النبهانيّ لتبرير كثرة هذه الروايات فقال: الحكمة في كثرة كرامات أولياء الأمّة المحمّدية، والله أعلم، إظهار سيادته صلى الله عليه [وآله] وسلّم على سائر

١- آل عمران: ٣٧.

٢- مريم: ٢٤ إلى ٣٣.

٣- هناك من يجعل فاصلاً وفرقاً بين الكرامات والمعجزات، فيقول بأنّ الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والوليّ يجب عليه سترها وإخفاؤها، والنبيّ يدّعي ذلك ويقطع القول به، والولي لايدّعيها ولايقطع بكرامته، لجواز أن يكون ذلك مكراً.. وهناك من يرى أنّ المعجزات تختصّ بالأنبياء، والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء، ولاتكون للأولياء معجزة، لأنّ من شروط المعجزة اقتران دعوى النبوّة بها، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها، وإنّما كانت معجزة لحصولها لأوصاف كثيرة، فمتى اختلّ شرط من تلك الشرائط لاتكون معجزة، وإحدى تلك الشرائط دعوى النبوّة، والوليّ لا يدّعي النبوّة، والذي يظهر عليه لايكون معجزة.. وسئل أبو يزيد البسطاميّ عمّا يحصل للأولياء من كرامات، فقال: ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زقّ فيه عسل ترشّح منه قطرة، فتلك القطرة مِثل ما لجميع الأولياء. **الرسالة القُشَيرية**: ١٥٩.

الأنبياء بكثرة معجزاته في حياته وبعد مماته، ولكونه صلى الله عليه [وآله]وسلّم خاتم النبيّين، وحبيب ربّ العالمين، واستمرار دينه المبين إلى قيام الساعة، فالحاجة إلى أسباب التصديق به مستمرّة.

ومن أقوى هذه الأسباب كرامات أمّته، التي هي في الحقيقة من جملة معجزاته صلّى الله عليه [وآله] وسلّم، زيادةً على وجود القرآن سيّد المعجزات، وجامع الآيات البيّنات، كلام الله القديم، وذكره الحكيم، الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وزيادة على ظهور ما أخبر به صلّى الله عليه [وآله] وسلّم من أشراط الساعة وغيرها تدريجاً، فكان بذلك صلّى الله عليه [وآله] وسلّم كأنّه موجود بين أمّته، يشاهدون معجزاته بعد مماته، كما كانوا يشاهدونها في حياته، صلّى الله عليه [وآله] وسلّم: ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويهدي الله لدينه من يشاء ممّن لم يكونوا مؤمنين.

وربّما يكون في هذا الكلام جواب لمن يذهب بالقول إلى أنّ ما ظهر من المعجز الذي يروى في حياة المعصومين عليهم السلام يدعو إلى الحيرة والعجب، لأنّهم ليسوا بأنبياء، والمعهود أن تكون المعجزات مختصّة بالأنبياء والرسل، وكذلك يمكن أن يقال عمّا جرى في حياة الإمام الجواد عليه السلام من معجز العلم وغيره في حياته القصيرة الملأى بالعجائب. ومن الإنصاف أن نقول: ليس المعجز الذي ظهر له وروي عنه عليه السلام في أخبار صحيحة وموثّقة، ببعيد عنه.

و إذا كانت المعجزة آية خارجة عن العادة وخارقة لها، فهي و إن كانت غير معهودة، إلّا أنّها لاتكون غير معقولة، بأن لاتكون لها علّة موجبة، أو كانت لها علّة كذلك إلّا أنّه لا ربط ضروري بينها وبين علّتها، لأنّ كلّ موجود لايكون وجوده عين ذاته فهو معلول، فلا يُعقَل أن يوجد شيء لايكون وجوده عين ذاته بلا علّة. وحيث إنّ أصل العلّية مستفاد من العقل لا الحسّ، لأنّه كما قال ابن سينا: لايؤدّي إلّا إلى

الموافاة، وليس إذا توافى شيئان أن يكون أحدهما سبباً للآخر، والإقناع الذي يقع للنفس لكثرة ما يورده الحسّ والتجربة فغير متأكّد. فإذا وُجِد شيء عند شيء لم يكن صدوره عنه معهوداً، أو منع صدوره عن شيء لم يكن انفكاكه عنه معهوداً، يكون ذلك خرقاً للعادة لا للعلّية، لأنّها أمر عقلي لا ينقصه الحسّ. كما أنّ امتناع الترجيح بدون المرجِّح أمر عقلي لا يناقضه الحسّ من اختيار الهارب أحدَ الطريقين بلا مرجّح، إذ البرهان العقليّ قائم في ذلك كلّه بامتناع صدور المعلول بدون علّة أصلاً، أو عن غير علّته، فجميع ما لا يكون وجوده عين ذاته لابدّ وأن يستند إلى علّته المنتهية إلى موجود يكون وجوده عين ذاته، وهو الله سبحانه الخالق لكلّ شيء.

ثمّ إنّ الموجود الخارج عن العادة، الخارق لها، إمّا: أمر علميّ يخضع تجاهه العلماء. وعلى أيّ حال، إمّا أن يكون له طريق فكري قابل للتعليم والتعلّم، وله مبادئ خاصّة حصولية يدركها الذهن ويحلّلها أو يركّبها، ويستنتج منها شيئاً خارقاً للعادة، أو لا. والأوّل، هو ما يُعدّ من العلوم الغريبة ـ كالسحر والشعبذة ـ وما إلى ذلك ممّا له طريق فكريّ دراسيّ يدرّس الناس بعضهم بعضاً. والثاني: هو ما يعدّ من العلوم اللدنية التي تكون مباديها نفوساً زكية، أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ولا طريق إليها للفكر الدراسيّ، بل هو كشف وراثي يورثه أولياء الله بعضهم بعضاً.

ويتفرّع عليه أنّه لايعارض بالمثل، ولا يغلب بالأقوى منه عند التحدّي، لأنّه بإذن الواحد القهّار، وإن كان كلّ موجود في الخارج هو بإذن منه، إلّا أنّ المعجزة تصدر عن الله الذي يكون مع العبد بتقرّبه بالنوافل، حيث إنّه سبحانه يصيّر قدرته

عند عينه وسمعه ويده[١] وصدور مثل هذا الأمر عن وليّ الله بإذنه، إنّما يكون للهداية إلى الفلاح، لأنّ الله سبحانه، وكذا أولياؤه المقرّبون لايريدون إلّا الحق[٢]. يقول عماد الدين الطبري: وجدت المؤرّخين والمحدّثين ونقلة الحديث قد أجمعوا ـ على اختلافهم ـ على أنّ أئمّة الشيعة لم يُعهَد عنهم عجزأو عيّ في أيّ علم، وفي أيّ محفل، منذ نعومة أظفارهم، وأنّ أحداً من علماء الطوائف والأديان والملل المختلفة لم يدّعِ ذلك لنفسه، كما أجمعوا على أنّ أئمّة الشيعة كانوا عالمين بالعلوم الإلهاميّة واللدنية، وبجملة الكتب السماوية، عارفين بلغات الشرق والغرب، وهذا لايحصل إلّا بمحض المعجزة، وهو دليل إمامتهم، إذ لم يتعلّموا شيئاً من أحد، ولم يدرسوا من أستاذ.

وقد أفتى الإمام صاحب الأمر عليه السلام وهو في السادسة من عمره، وسبقه في ذلك الإمامان محمّد التقيّ الجواد وزين العابدين عليهما السلام، فيكون شأنهم في ذلك شأن آدم عليه السلام: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾[٣] الذي كانت الملائكة أمامه كالصبيّ أمام

١- جاء في الخبر أنّ الله جلّ وعلا قال: «ما يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أُحبّه، إن سألني أعطيته، وإن دعاني أجبتُه»، روي هذا في **مسند أحمد** بن حنبل ٦: ٢٥٦. وفي خبر آخر رواه البرقيّ مسنداً عن النبيّ صلى الله عليه وآله بأنّ الله تعالى قال: «ما تحبّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضته عليه، وإنّه لَيتحبّب إليّ بالنافلة حتّى أُحبّه، فإذا أحببتُه كنتُ سمعَه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها ورِجلَه التي يمشي بها، إذا دعاني أجبته، وإذا سألني أعطيته. وما تردّدتُ في شيء أنا فاعله كتردّدي في موت مؤمنٍ يكره الموت وأنا أكره مساءته. **المحاسن** للبرقيّ: ٢٩١ ح٤٤٣.

٢- ينظر: عبد الله الجوادي الآمليّ، **علي بن موسى الرضا** عليه السلام **والفلسفة الإلهية**، منشورات دار الإسراء .قم المقدّسة، ط الثالثة: ١١٠ـ١١١.

٣- البقرة: ٣١.

العالِم، مع أنّهم كانوا يشاهدون العالَم العُلوي والعالم السفلي، ويطّلعون على اللوح والقلم. ألم يمرّ يحيى عليه السلام وهو في السادسة من عمره بالصبيان وهم يلعبون ! فقالوا: يا يحيى تعالَ نلعب ؟فقال: ما لهذا خُلقتُ ولا بهذا أُمرتُ. فقال تعالى في شأنه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١] ، ألم يقل عيسى في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[٢] ، وكان يخبر الصبيان في المكتب بما يدّخره أهلوهم لهم في بيوتهم. قال تعالى على لسانه: ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[٣]. ألم يلهم الله تعالى سليمان ليحكم في قضيّة بخلاف حكم أبيه داود عليه السلام المرسل صاحب الكتاب ! فقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾[٤] ؟! ألم يكن موسى أمام الخضر عليه السلام في المكالمة وعلم التوراة كالصبيّ أمام معلّم فاضل[٥]؟!

وآل بيت نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله منذ صغرهم ونعومة أظفارهم كانوا ينطقون بالعلم والحكمة والمعرفة الربّانية، فواحدهم يغترف وينزع من علم و إلهام ربّانيّ. يروي المحقق الشيخ جعفر النقدي عن زينب بنت علي عليهما السلام أنّها في طفولتها كانت جالسة في حجر أبيها عليه السلام وهو يلاطفها بالكلام، فقال لها: يا بنيّة، قولي واحد، فقالت: واحد، فقال لها: قولي: اثنين، فسكتت، فقال لها: تكلّمي يا قرّة عيني! فقالت عليها السلام: يا أبتاه، ما أطيق أن أقول اثنين بلسان أجريته بالواحد! فضمّها صلوات

١- مريم: ١٢.

٢- مريم: ٣٠ ـ ٣١.

٣- آل عمران: ٤٩.

٤- الأنبياء ٧٩.

٥- **تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار**:١٣١.

الله عليه إلى صدره وقبّلها بين عينيها.[1]

وبناء على هذا الاستنتاج لا غرابة من أن يكون هنالك إمام معصوم منصوص عليه خرج من بيت النبوّة والوحي، كالجواد عليه السلام، فيُبرز ما لديه من قدرة أو دراية لتظهر لنا بشكل خارق أو معجز أو غير مألوف أو غير متعارف لدى الناس في أمر من الأمور، فالله عند سمعه وبصره يلقّنه ما يشاء من العلوم اللدنية والمعارف العلوية، إلى جانب ما ظهر منه من معجزات وكرامات وأخبار عن مغيّبات وحوادث ذكرتها كتب الأخبار والحديث.

وقد ظهرت آياته ومعجزاته عليه السلام في وقت مبكّر من عمره الشريف، فمِمّا يُروى في هذا أنّ الإمام الجواد عليه السلام كان شديد الأدمة، فشكّ فيه المرتابون وهو بمكّة، فعرضوه على القافة، فلمّا نظروا إليه خرّوا لوجوههم سجّداً، ثمّ قاموا فقالوا: يا وَيحكُم! أمثل هذا الكوكب الدرّيّ والنور الزاهر تعرضون على مثلنا ؟! وهذا ـ والله ـ الحَسَبُ الزكي، والنسب المهذّب الطاهر، ولَدَته النجوم الزواهر، والأرحام الطواهر، واللهِ ما هو إلّا من ذرّية النبيّ وأمير المؤمنين. فنطق بلسان أرهف من السيف، وأفصح من الفصاحة يقول: الحمد لله الذي خلقَنا من نوره، واصطفانا من بريّته، وجعلنا أمناء على خلقه ووحيه، أيّها الناس، أنا محمّد بن عليّ الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر بن عليّ سيّد العابدين بن الحسين الشهيد بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، وابن فاطمة الزهراء بنت محمّد المصطفى عليهم السلام أجمعين، أفي مِثلي يُشَكّ !وعلى الله تبارك وتعالى، وعلى جدّي يفترى ؟! وأعرض على القافة! إنّي والله لأعلم ما في سرائرهم وخواطرهم، و إنّي والله لأعلم الناس أجمعين بما هم إليه صائرون، أقول حقّاً وأُظهر صدقاً، علماً قد

١- زينب الكبرى: ٣٥.

نبّأه الله تبارك وتعالى قبل الخلق أجمعين، وقبل بناء السماوات والأرضين، وأيم الله، لولا تظاهر الباطل علينا، وغواية ذرّية الكفر، وتوثّب أهل الشرك والشكّ والشقاق علينا، لقَلتُ قولاً يعجب منه الأوّلون والآخِرون. ثمّ وضع الإمام الجواد عليه السلام يده على فيه ثمّ قال: يا محمّدُ اصمت كما صَمَت آباؤك: ﴿ **فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[1]، ثمّ أتى إلى رجل بجانبه فقبض على يده، فما زال يمشي يتخطّى رقاب الناس وهم يُفرجِون له.

قال الراوي: فرأيت مشيخة أجلّاء ينظرون إليه ويقولون: اللهُ أعلمُ حيثُ يجعل رسالته! فسألت عنهم فقيل: هؤلاء قوم من بني هاشم من أولاد عبد المطّلب. فبلغ الرضا عليه السلام وهو في خراسان ما صنع ابنه فقال: الحمد لله. ثمّ ذكر ما قُذِفت به مارية القبطيّة، ثمّ قال: الحمد لله الذي جعل في ابني محمّدٍ أسوةً برسول الله وابنه إبراهيم[2].

ونحو هذا المعجز جاءت رواية الكلينيّ التي فهم فيها الإمام الجواد عليه السلام ما يدور في أذهان الشيعة، فروى عليّ بن أسباط قال: خرج عليه السلام - أي الجواد عليه السلام - عليّ فنظرت إلى رأسه ورجليه لأصف قامته لأصحابنا بمصر، فبينا أنا كذلك حتّى قعد وقال: يا عليّ، إنّ الله احتجّ في الإمامة بمثل ما احتجّ في النبوّة، فقال: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا** ﴾[3] قال: ﴿ **وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ** ﴾[4]، ﴿ **وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً** ﴾[5]، فقد يجوز أن

١- الأحقاف: ٣٥.

٢- **مناقب آل أبي طالب**، لابن شهرآشوب ٤: ٣٨٧.

٣- مريم: ١٢.

٤- يوسف: ٢٢.

٥- الأحقاف: ١٥.

يؤتى الحكم صبيّاً ويجوز أن يُعطاها وهو ابن أربعين سنة [١] . وربّما كانت المعجزات والخوارق والكرامات التي حكيت ورويت عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام أقلّ ممّا ذكرها المؤرّخون والمنقولة عن كتب أهل السنّة والجماعة التي فصّلت بعضها في إيراد كرامات وخوارق منسوبة تعدّ من جملة فضائل بعض الصحابة والتابعين [٢]

١- **الكافي** ١: ٤٩٤ / ح٣.

٢- روى ابن أعثم الكوفيّ أنّ الحجّاج دعا برجلين من عتاة أصحابه، أحدهما إسماعيل بن الأوسط، والآخر المتلمّس بن الأحوص، وهما جميعاً من ثقيف، فضمّ إليهما نفراً من ثقات أصحابه، ثمّ قال: اطلبا لي الآن سعيد بن جبير، فأتياني به من حيث ماكان، فإنّه لم يكن فيمن خرج عَلَيّ مع ابن الأشعث أشدّ منه! فخرج القوم في طلبه، فجعلوا يسألون عنه وعن موضعه، فلا يرشدهم إليه أحد، فبينما هم كذلك إذ مرّوا براهب في صومعة فوقفوا عليه فسألوه عنه، فقال الراهب:، أمّا سعيد بن جبير فإنّي لا أعرفه، ولكنّي رأيت رجلاً مرّبي من عشية أمس عليه جبّة من صوف و كساء فتوضأ بهذه البئر ثمّ صلّى ركعتين ومضى في هذه البرية، فلا أدري إلى أين، فسار القوم عند ذلك وجعلوا يقتصّون الآ ثار حتّى وقفوا عليه، فوجدوه ساجداً، فلم يشعر سعيد بن جبير إلّا والقوم على رأسه، فسلّموا عليه، فأوجز في صلاته ثمّ ردّ عليهم السلام. ثمّ قال: ما وراءكم عافاكم؟ فقالوا: نحن رسل الأمير الحجّاج بن يوسف فأجب، فقال سعيد: ولابدّ لكم من ذلك؟ قالوا: نعم. فوثب سعيد ومشى معهم حتّى انتهى إلى باب الدير، وذلك في وقت المساء، فقال لهم الراهب: أصبتم صاحبكم؟ قالوا: نعم قد أصبناه، قال: فادخلوا إذاً الدير، فهذا موضع مسبع لم يخل من السباع، وهذا وقت المساء. فبادروا ودخلوا، فدخل القوم وأبى سعيد بن جبير أن يدخل معهم. فقال له القوم: ياابن جبير، إنّا نظنّك قد عزمت على الهرب! فقال: لا، ولكنّي لا أحبّ أن أدخل منزلاً لايصلّي فيه أهله الخَمس، فادخلوا وذروني هاهنا على باب الدير، فإنّي أعطيكم عهد الله وميثاقه أن لا أبرح مكاني هذا حتّى أُصبح. فتركوه ودخلوا الدير، وقام سعيد يصلّي والراهب ينظر إليه من فوق صومعته، فلمّا مضى من الليل ما مضى إذا بالأسد واللبوة قد أقبلا جميعاً إليه وهما يزأران حتّى تقاربا منه ثمّ شمّاه وتنحّيا عنه فربضا قريباً منه، والراهب ينظر إلى ذلك، فصاح بالقوم وقال: يا هؤلاء! قوموا وانظروا

وعدد من أئمّتهم وزهّادهم وعلمائهم وحتّى الأفراد العاديين[1] الذين لايمكن تصوّر

إلى صاحبكم. فأشرف أصحاب الحجّاج من فوق حائط الدير فنظروا إلى سعيد بن جبير قائماً يصلّي والأسد واللّبوة رابضان جميعاً قريباً منه، فعجبوا من ذلك. ثمّ قال بعضهم لبعض: بأيّ وجه نلقى اللهَ غداً وقد ذهب بمثل هذا الرجل إلى الحجّاج، ولعله أن يقتله. وانصرف الأسد واللبوة وأصبح القوم، فأوّل من خرج إليه الراهب صاحب الدير فأسلم، ثمّ خرج إليه أصحاب الحجّاج فقالوا: أيّها الرجل الصالح، إنّ الحجّاج قد أخذ علينا الأيمان المغلّظة أنّا إن عايناك لم نفارقك فنأتيه بك، فمُرنا بما شئت، فقال سعيد: لابدّ لكم إذا قد حلفتم أن تحضروني إليه، ولا رادّ لقضاء الله وقدره. فحمله القوم على دوابّهم وساروا، حتّى إذا تقاربوا من واسط قال لهم سعيد: لا تعجلوا، هذه واسط قد بلغناها، ولست أشكّ أنّ أجلي قد حضر، ولكن ذروني الليلة حتّى آخذ أهبة الموت، فإذا أصبحت أدخلوني على صاحبكم. فسكت القوم وخلّوا عنه. ثمّ خلا بعضهم ببعض فقالوا: لا نطلب أثراً بعد عين، نخاف أن يهرب. فقال بعضهم: لا والله لايهرب وقد أعطاكم على باب الدير من العهود والمواثيق ثمّ وفى لكم بما قال ولم يهرب. وقد رأيتم من الأسد واللبوة ما قد رأيتم، فذروه ليلته هذه يصنع ما بدا له. فتركه القوم ليلته. ونزل القوم ناحية عنه، وقام سعيد يصلّي وهو مع ذلك لايأكل ولايشرب، حتّى إذا أصبح القوم وصلّوا حملوه حتّى دخلوا مدينة واسط والناس ينظرون إليه، فأُتي به إلى باب الحجّاج، ودخل إسماعيل بن الأوسط فقال: أصلح الله الأمير، قد جئتك بسعيد بن جبير، وقد واللهِ رأيتُ منه شيئاً ما ظننت أن يكون لأحد في هذا الدهر! قال الحجّاج: وما ذلك؟ فحدّثه إسماعيل بما رأى من صومه وصلاته وخشوعه وما رأى من الأسد واللبوة، فزبره الحجّاج وقال: اخرج فأتِني به.. **الفتوح** ٧: ١٥٨. وجرى حوار بين الحجّاج وسعيد بن جبير خُتم بقتل سعيد على يد الحجاج.

١- كان الشاعر الكميت بن زيد الأسدي صاحب الهاشميات ـ والذي عُرف بتشيّعه ـ مطلوباً ومطارداً مِن قِبل الأمويين لكونه هجا الأمويين ولم يمدحهم، فظلّ متوارياً عنهم مدّة من الزمن، يروي أبو الفرج الأصفهانيّ عن ابن الأعرابيّ عن المستهل أن أقام الكميت مدّة متوارياً، حتّى إذا أيقن أنّ الطلب قد خفّ عنه خرج ليلاً في جماعة من بني أسد على خوف ووجل، وفيمن

صدور معجزة أو كرامة أو نحو ذلك عنهم، وربّما زادت الكرامات والخوارق التي أوردوها بخصوص المتعبّدين والفقهاء وأهل الحديث والمتصوّفة والزهّاد وغيرهم عمّا رووا ونسبوا إلى الصحابة والتابعين، والذين أشرنا إليهم آنفاً وغيرهم، ممّن تُنسب إليهم الخوارق، هم أقلّ وأدنى منزلة ودرجة عمّن تقدّمهم من الصحابة والتابعين، فليس من المستبعد والغريب هنا - ولذا لاينبغي لهم أن ينكروا أو يحجموا عن نقل كرامة أو معجزة تنسب إلى أئمّة الشيعة - أن تتَناقَلَ كتب الشيعة كرامة أو معجزة تنسب إلى إمام معصوم كامل مسدد الخطى، لاشكّ بأنّه ينتسب في لحمه ودمه وروحه إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد المصطفى، صاحب المعجزات والكرامات صلى الله عليه وآله، و إلى سيّد الوصيين عليّ المرتضى عليه السلام.

ونقول هنا: من الثابت أنّ الإمام الجواد عليه السلام تولّى الإمامة بعد أبيه وهو في سنّ الطفولة، وهذه الظاهرة ظهرت لأوّل مرّة في حياة أئمّة أهل البيت في شخص الإمام

معه صاعد غلامه قال: وأخذ الطريق على القطقطانة، وكان عالماً بالنجوم مهتدياً بها، فلمّا صار سحير صاح بنا: هوّموا يا فتيان. فهوّمنا، وقام يصلّي، قال أبو المستهلّ: فرأيت شخصاً فتضعضعت له، فقال: ما لك؟ قلت: أرى شيئاً مقبلاً. فنظر إليه فقال: هذا ذئب قد جاء يستطعمكم. فجاء الذئب فربض ناحية فأطعمناه يد جزور فتعرّقها، ثمّ أهوينا له بإناء فيه ماء فشرب منه وارتحلنا، فجعل الذئب يعوي، فقال الكميت: ما له! ويله، ألم نطعمه ونسقيه! وما أعرفني بما يريد، هو يعلمنا أنّا لسنا على الطريق! تيامنوا يا فتيان، فتيامنّا فسكن عواؤه، فلم نزل نسير حتّى جئنا الشام، فتوارى في بني أسد وبني تميم، وأرسل إلى أشراف قريش، وكان سيّدهم يومئذ عنبسة بن سعيد بن العاص، فمشت رجالات قريش بعضها إلى بعض وأتوا عنبسة فقالوا: يا أبا خالد، هذه مكرمة قد أتاك الله بها، هذا الكميت بن زيد لسان مضر، وكان أمير المؤمنين كتب في قتله فنجا حتّى تخلّص إليك و إلينا.. **الأغاني** ١٥: ١١٥. فكان أن تمكّن أن يرفع عنه سيف الانتقام الذي كان مشهراً عليه من قبل الأمويين.

الجواد عليه السلام، وكان تحدّياً صارخاً للحكّام المنحرفين وتثبيتاً أكيداً وإعجازياً على حقيقة امتداد خطّ إمامة ومرجعيّة أئمّة أهل البيت الذي يمثّله الإمام الجواد عليه السلام. ولو اعتمدنا حساب الاحتمالات لوجدنا أنّ صغر سن الإمام عليه السلام وحده كان سبباً كافياً للاقتناع بحقيقة إمامته وتمثيله لخطّ إمامة أهل البيت، وإلّا كيف نفسّر تولّيه للزعامة الشيعية في كلّ المجالات النظرية والعملية.

يقول الكاتب عادل الأديب: ولربّما يتبادر افتراض يقول: إنّ الطائفة الإسلامية الشيعية ربّما لم ينكشف لديها بوضوح إمامة وزعامة هذا الصبي لأهل البيت، ولربّما زادوا على هذا الافتراض زعماً آخر، كما جاء على لسان الباحث أحمد أمين: باختفاء الأئمّة عن الأعين، واكتفائهم بالدعوة سرّاً، ليبقى العطف عليهم في الناس.

وردُّنا على هذا الافتراض والزعم نقول: إنّ زعامة الإمام الجواد عليه السلام كانت زعامة مكشوفة وعلنيّة أمام الجماهير، ولم تكن زعامة أئمّة أهل البيت في يومٍ ما زعامة محاطة بالشَّرَطة أو الجيش وأبّهة الملك والسلطان، بحيث تحجب الزعيم عن رعيّته، ولم تكن زعامتهم عليهم السلام زعامة دعوةٍ سرّية من قبيل الدعوات الصوفيّة والباطنيّة، كي تحجب بين قائد الدعوة وبين قواعده الشعبية، بل كان إمام أهل البيت عليه السلام يمارس زعامة مكشوفة إلى حدّ ما، وكانت القواعد الشعبية المؤمنة بزعامته وإمامته تتفاعل معه مباشرة في مسائلها الدينية وقضاياها الاجتماعية والأخلاقية[1].

وكذلك كان الإمام الجواد عليه السلام يمارس دوره الواعي في توجيه العباد وتنويرهم بأحكام الإسلام وثقافته، وفي الإفتاء من سنين مبكّرة، فقد روى عليّ بن إبراهيم عن

١- **الأئمّة الاثنا عشر: ٢٢٠.**

أبيه قال: استأذن على أبي جعفر الجوادعليه السلام قوم من أهل النواحي، فأذن لهم فدخلوا، فسألوه في مجلس واحد عن ثلاثين ألف مسألة فأجاب وله عشر سنين.[١]

ويروى في هذا أنّ فقهاء بغداد والأمصار اجتمعوا ـ وهم ثمانون ـ في دار جعفر الصادقعليه السلام في المدينة لامتحان الجوادعليه السلام فأجابهم إجابة كاملة وهو في نحو سبع سنين من عمره[٢].

وكان الإمام الجواد عليه السلام حين تسلّمه زمام القيادة الرسالية أمام تساؤل كبير قد طرح نفسه لأوّل مرّة على مستويات ثلاثة، ولابدّ للإمام الجواد عليه السلام من أن يبيّن جدارته للجميع، و إن كان ذلك يكلّفه حياته فيما بعد، لأنّ بقاء هذا الخطّ الرّبانيّ و إثبات حقّانية خطّ أهل البيت و رسالته الربّانيّة هما فوق كلّ شيء. ومن هنا كان لابدّ للإمام الجواد عليه السلام أن يتصدّى للردّ على كلّ هذه الأسئلة، ويتحدّى كلّ القوى السياسية والعلمية التي تحتلّ معظم الساحة الإسلاميّة، ليتسنّى له القيام بسائر مهامّه الرسالية الأخرى في الحقلين العامّ والخاصّ معاً. إذاً فقد كان إثبات الإمامة على المستويين العامّ والخاصّ أُولى مهامّ الإمام الرسالية في مرحلته التي عاش فيها بعد شهادة أبيه الإمام الرضاعليه السلام الذي كان قد نصّ عليه وعرّفه لأصحابه وأتباعه، لأنّ الإمام الرضاعليه السلام كان قد عاصر خطط المأمون و بيّن عن كثب أهدافه الخفيّة من أطروحة ولاية العهد الخبيثة، وقد استطاع الإمام أن يستثمرها لصالح الإسلام رغم قصر الفترة الزمنية، ورغم ما كلّفته من حياته الغالية التي قدّمها راضيةً في ذات الله تعالى.

وتأتي إجابات الإمام الجوادعليه السلام في المجالس العامّة للحكّام على الأسئلة

١- ينظر: **كشف الغمّة** ٢: ٣٦٤ ـ عنه: **بحار الأنوار** ٥٠: ٩٣ / ح ٦.

٢- ينظر: **بحار الأنوار** ٥٠: ٩٩ ـ ١٠٠ / ح ١٢ ـ عن: عيون المعجزات.

الموجهة إليه خطوةً موفقة لإثبات أحقية أهل البيت عليهم السلام الرساليّة و إثبات إمامة الجواد عليه السلام وزعامته العلمية وشخصيته القيادية لعامّة المسلمين إتماماً للحجة عليهم على الحكّام والعلماء الذين يشكّلون الرصيد العلميّ والخلفية الثقافية والشرعية في منظار مجموعة من أبناء المجتمع الذين نشأوا في مجتمع منحرف عن خطّ الرسالة المحمّدية الأصيلة، ممّن اغتروا بالمظاهر والشعارات ولم ينفذوا بعقولهم إلى عمق الأحداث و التيّارات المتحكّمة في المجتمع الإسلاميّ آنذاك، كما أنّها كانت ردّاً على محاولات التسقيط والاستفزاز التي كان يستهدفها الحكّام بالنسبة إلى أهل البيت عليهم السلام الذين كانوا يشكّلون المعارضة الصامتة والخطّ المعارض للحكّام المستبدّين بالأمر والمتربّعين على كرسيّ الحكم دون إذن أو نصّ إلهيّ، كما هي عقيدة أهل البيت عليهم السلام بالنسبة إلى الإمامة، حيث إنّ الإمام لابدَّ أن يكون معصوماً و منصوصاً عليه من الله تعالى ورسوله[1].

وكان الإمام الجواد عليه السلام يؤدّي دوره المرسوم له بنجاح، رغم المضايقات والاستفزازات والمراقبات الشديدة القويّة للسلطة العبّاسيّة في ملاحقة الإمام ومتابعته ومنعه من الاتّصال بشيعته وأصحابه آنذاك، و كانت السلطة ماضية في تأكيدها لأزلامها في أن لايغيب الإمام الجواد عليه السلام، أو غيره من أهل البيت عليهم السلام الصادحين بالحقّ، من نطاق الطوق المفروض عليه. ومع هذا فليس من شروط الإمامة أن يُظهر الإمام المعصوم ما لديه من معجزات كي يحمل الناس على القول بإمامته، كالإخبار عن المغيبات والحوادث التي ستتحقق أو نحوها، أو التكلّم مع الحيوانات أو الجمادات، أو تسخير الجنّ. . أو نحو ذلك من المعجز الذي يثبت به ما لديه من طاقة أودعها الله فيه، ولايمكن أن يحصل لديه عجز أو توقّف عن أمر

١- أعلام الهداية، الإمام محمّد الجواد عليه السلام: ١٥٣.

أراده في مصلحةٍ ما، ومن هذا الاعتبار جاءت مقولة بعض علماء الشيعة بولاية الإمام التشريعية والتكوينية.

ويمكن للإمام أن يُظهر من الآيات والعلامات التي يرى ضرورة صيرورتها، وإن كان الغالب على سيرة أئمّة الشيعة أنّهم كانوا يوصون أصحابهم بالكتمان، فلذاك تداولت الأخبار جزءاً يسيراً ممّا حصل لهم من معجز أو خارق، أو إخبار بالحوادث والمغيبات، وما لم يصل إلينا كان أكثر. وعلى ذلك قول لبعض علماء الشيعة، يقول السيّد المرتضى: ليس من شروط الإمامة الإخبار عن الشيء قبل كونه، لأنّ ذلك معجز، وقد يجوز إظهار المعجزات على أيدي الأئمة عليهم السلام، وقد يجوز ألّا يظهر على أيديهم[١].

وما ذكره السيّد المرتضى هنا هو لبيان أنّ حجّة الله ووصيّه على عباده له من القدرات والمؤهّلات ما يوازي المعجز أو الإلهام، فالإمام المعصوم قد يبرهن للآخرين ببراهين عقلية وملموسة تناسب العقل البشريّ، وقد لاتكون هناك ضرورة في أمر أو غيره لإظهار المعجزة. يقول الشيخ الطوسيّ: لايلزم أن نقول فيمن لم تظهر على يده معجزة أنّه ليس بإمام ولا صالح، كما يجب أن يقطع على أنّه ليس بنبيّ، لأنّ المعجز إنّما يبيّن مدّعَياً صادقاً مِن مدّعٍ غير صادق. والإمام إذا لم يدّع الإمامة، والصالح إذا لم يدّع الصلاح، لايجب إظهار المعجز على يده، وإذا لم يظهر لايجب نفي الصلاح عنه، ولا نفي الإمامة عنه، بل لا يمتنع أن نعلمه إماماً أو صالحاً بغير المعجز، وليس كذلك النبيّ؛ لأنّه لاطريق لنا إلى معرفته إلّا بالمعجز. فعلى هذا لايلزم أن يظهر الله على يد كلّ إمام معجزاً، لأنّه يجوز أن نعلم إمامته بنصّ أو طريق آخر، ومتى فرضنا أنّه لا طريق إلى معرفة إمامته إلّا بالمعجز وجب إظهار ذلك عليه،

١- **رسائل الشريف المرتضى** ـ المجموعة الأولى: ٢٨٢.

وجرى مجرى النبيّ سواء، لأنّه لابدّ لنا من معرفته، كما لابدّ لنا من معرفة النبيّ[١].

وربّما كانت هناك معجزات كثيرة أظهرها الإمام الجواد عليه السلام لم تؤكَّد، أو حُجِبت نظراً إلى ظروف الإمام الجواد التي كانت تحتّم عليه أن يخفي هذه المعجزات، لئلا تُثار السلطة العبّاسية التي كانت تخشى من شخصية الجواد عليه السلام الذي يهدّد الوجود العبّاسي آنذاك، فشخصية الإمام الرضا عليه السلام الذي عرف في أوساط المسلمين بصلاحه و وسعة علمه وقربه من النسب النبويّ يدفع أذهان العباسيين إلى التفكير بخطر وارثه الذي كان صغير السنّ، ولكنه كبير الشأو والخطر، فحجبُ هذا الشخص عن أوساط المسلمين يكون للعبّاسين ضروريّاً، نظراً للشهرة الكبيرة التي اكتسبتها الطائفة الإماميّة الاثنا عشرية من خلال شخصية الإمام الرضا عليه السلام حيث ملأت شخصيته العظيمة الآفاق، لذا فكّر العبّاسيون في إبعاد شخص الجواد عليه السلام الوارث لعلم و مقام أبيه، وربّما صغر سنّ الجواد عليه السلام لم يكن مانعاً من قبول أوساط بعض المسلمين لإمامته، ولكن تبقى مشكلة أو شبهة المخالفين قائمة هنا، ومن هنا فالاتّكاء على المعجزة والخوارق في تأكيد إمامة الجواد عليه السلام كان لابدّ منها.

وظاهرة المعجز والخارق في مسيرة الإمامة لدى الشيعة وجمهور المسلمين، إضافة إلى صغر سنّهم، كانت مثار بحث وما زالت، ولذلك عدّ الكاتب محمّد بيوميّ مهران بأنَّ أخطر مشكلة واجهت الشيعة هي إمامة الجواد عليه السلام في سنّ مبكّرة وهو لم يبلغ سنّ الرشد، فيقول: عندما انتقل الإمام عليّ الرضا عليه السلام إلى جوار ربّه ـ راضياً مرضيّاً ـ كان ولده محمّد الجواد في التاسعة من عمره، فأنكر جمهور المسلمين على الشيعة والية الأئمّة والأخذ عنهم وهم في سنّ الصبا، لاسيما وأنَّ

١- الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد: ٢٥٧.

العادات العربية تجعل للسنّ أهمّية في ولاية الأمور، فكانت ولايته وهو لم يبغ سنّ الرشد أخطر مشكلة واجهت الشيعة بالنسبة إلى شخص الإمام الجواد عليه السلام [١].

وربّما كانت إشارات النوبختيّ إلى شخص الجواد عليه السلام تعكس تساؤل طائفة من الشيعة وجمهور كبير من المسلمين في تلك الأزمنة، فيقول: توفّي الرضا عليه السلام وابنه محمّد ابن سبع سنين، فاستَصبَوه و استصغروه، وقالوا: لايجوز الإمام إلّا بالغاً، ولو جاز أن يأمر الله عزّوجلّ بطاعة غير بالغ لجاز أن يكلّف الله غير بالغ، فكما لا يُعقل أن يحتمل التكليف غير بالغ، فكذلك لا يفهم القضاء بين الناس و دقيقه وجليله و غامض الأحكام و شرائع الدين وجميع ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وآله و ما تحتاج إليه الأمّة إلى يوم القيامة من أمر دينها و دنياها طفلٌ غير بلاغ، ولو جاز أن يفهم ذلك من قد نزل عن حدّ البلوغ درجة، لجاز أن يفهم ذلك من قد نزل عن حدّ البلوغ درجتين وثلاثاً وأربعاً راجعاً إلى الطفولية حتّى يجوز أن يفهم ذلك طفل في المهد والخرق، وذلك غير معقول ولا مفهوم ولا متعارف.

ثمّ إنَّ الذين قالوا بإمامة أبي جعفر محمّد بن عليّ بن موسى عليهم السلام اختلفوا في كيفية علمه ـ لحداثة سنّه ـ ضروباً من الاختلافات، فقال بعضهم لبعض: الإمام لايكون إلّا عالماً، وأبو جعفر غير بالغ و أبوه قد توفّي، فكيف عَلِم؟ ومن أين علم؟

فأجابوا، قال بعضهم: لا يجوز أن يكون علمه من قِبل أبيه، لأنّ أباه حمل إلى خراسان وأبو جعفر ابن أربع سنين وأشهر، ومن كان في هذه السنّ فليس في حدّ من يستفرغ تعليم معرفة دقيق الدين وجليله، ولكنّ الله عزّوجلّ علّمه ذلك البلوغ بضروب، ممّا يدلّ على جهات علم الإمام، مثل: الإلهام، والنَّكت في القلب، والنقر في الأُذن، والرؤيا الصادقة في النوم، والملَك المحدّث له، ووجوه رفع المنار

١- الإمامة وأهل البيت ٣: ١٦٧.

والعمود والمصباح؛ وعرض الأعمال؛ لأن ذلك كلّه قد صحّت الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد فيه، والتي لا يجوز دفعها ولا ردّ مثلها.

وقال بعضهم: قبل البلوغ هو إمام على معنى أنَّ الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ، فإذا بلغ عَلِم لا من جهة الإلهام والنكت و لا الملَك ولا لشيء من الوجوه التي ذكرتها الفرقة المتقدّمة، لأنَّ الوحي منقطع بعد النبيّ ﷺ بإجماع الأمّة، ولأنّ الإلهام إنّما هو أن يلحقك عند الخاطر و الفكر معرفة بشيء قد كانت تقدّمت معرفتك به من الأمور النافعة فذكرته، وذلك لا يعلم به الأحكام و شرائع الدين على كثرة اختلافها و عللها، قبل أن يوقف بالسمع منها على شيء، لأنّ أصحّ الناس فكراً و أوضحهم خاطراً و عقلاً و أحضرهم توفيقاً لو فكر، وهو لا يسمع بأنّ الظهر أربع والمغرب ثلاث والغداة ركعتان، وما استخرج ذلك بحضور توفيقه، ولا لحقه علم ذلك من جهة التوفيق أبداً، ولا يُعقل أن يعلم ذلك إلّا بالتوفيق والتعليم، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام و التوفيق. لكن نقول: إنّه علم ذلك عند البلوغ من كُتب أبيه و ما ورثه من العلم فيها، وما رسم له فيها من الأصول والفروع، وبعض هذه الفرقة تجيز القياس في الأحكام للإمام خاصّة على الأصول التي في يديه، لأنّه معصوم من الخطأ والزلل، فلا يُخطئ في القياس، و إنّما صاروا إلى هذه المقالة لضيق الأمر عليهم في علم الإمام و كيفية تعليمه، إذ ليس هو ببالغ عندهم .

وقال بعضهم: الإمام يكون غير بالغ ولو قلّت سِنّه، لأنّه حجّة الله فقد يجوز أن يعلم و إن كان صبيّاً، وتجوز عليه الأسباب التي ذُكرت من: الإلهام، والنكت، والرؤيا، والملك المحدِّث، ورفع المنار و العمود، وعرض الأعمال، كلّ ذلك جائز عليه، وفيه كما جاز ذلك عن سلفه من حجج الله الماضين، واعتلّوا في ذلك بيحيى بن زكريّا، وأنَّ الله آتاه الحكم صبيّاً، وبأسباب عيسى بن مريم، و بحكم الصبيّ بين يوسف بن يعقوب وامرأة الملك، وبعلم سليمان بن داود حُكماً من غير

تعليم، وغير ذلك، فإنّه كان في حجج الله ممّن كان غير بالغ عند الناس[١].

وكان الإمام الرضا عليه السلام يحتجّ بنبوّة عيسى عليه السلام، كما في رواية أسندها الكلينيّ إلى صفوان بن يحيى حين قال له: قد كنّا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام، فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، فقد وهبه الله لك، فأقرّ عيوننا، فلا أرانا الله يومك، فإن كان كونٌ فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه، فقلت: جُعلت فداك ،هذا ابن ثلاث سنين! فقال: وما يضرّه من ذلك، فقد قام عيسى عليه السلام بالحجّة وهو ابن ثلاث سنين؟![٢]. وهناك رواية أخرى للكلينيّ أيضاً،فيها أنّ الإمام الرضا عليه السلام أشار إلى وصول معجزة وكرامة للإمام الجواد عليه السلام، فيقول معمّر بن خلّاد: سمعت إسماعيل بن إبراهيم يقول للرضا عليه السلام: إنَّ ابني في لسانه ثقل، فأنا أبعث به إليك غداً تمسح على رأسه و تدعو له، فإنّه مولاك، فقال له: هو مولى أبي جعفر، فابعث به غداً إليه.[٣]

ومثل هذه الأخبار التي يرويها كبار علماء الشيعة توثّق المعجزات المنقولة عنهم عليهم السلام، والإمام الجواد عليه السلام هو واحد من هؤلاء الذين يصدر منهم المعجزة كما كان يجري لآبائه عليهم السلام.

١- فرق الشيعة: ٨٨.

٢- الكافي ١: ٣٢١ / ح١٠.

٣- الكافي ١: ٣٢١ / ح١١.

معجزات وكرامات رويت عن الجواد عليه السلام

تواترت أخبار كثيرة واشتهرت عن حصول معجزات، أو خوارق للعادة، أو كرامات، أو إخبار، أو أحداث يعلمها الإمام قبل وقوعها وتحققها، ونحو ذلك من الوقائع وغيرها، خصّ الله بها الإمام التاسع والنجم الساطع محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام، كما خصّ بها بقيّة الأئمّة عليهم السلام، يجدها القارئ في مصادر معتبرة، وقد رَوَتها بأسانيد صحيحة وموثّقة، لذا فلا يمكن تضعيفها أو ردّها، ومن المناسب لهذا الكتاب أن ننقل بعضاً منها:

فقد روى داود بن القاسم الجعفري[1] قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام ومعي ثلاث رقاع غير معنونة، واشتَبَهت علَيّ فاغتممت، فتناول إحداها وقال: هذه رقعة ريّان بن شبيب، ثمّ تناول الثانية فقال: هذه رقعة فلان، فبُهتّ أنظر إليه، فتبسّم وأخذ الثالثة فقال: هذه رقعة فلان، فقلت: نعم جُعِلتُ فداك. فأعطاني ثلاثمائة

١- داود بن القاسم الجعفريّ: أبو هاشم، ينتهي نسبه إلى جعفر الطيّار بن أبي طالب (رضي الله عنه)، كان ثقة جليل القدر، عظيم المنزلة عند الأئمّة عليهم السلام، لقي من الأئمّة عليهم السلام: الإمام الرضا والجواد والهادي والعسكريّ والمهديّ عليهم السلام، وكان منقطعاً إليهم، وروى عنهم. قالوا: هو من سفراء الصاحب –أي صاحب الأمر صلوات الله عليه - وأحد الأبواب المعروفين. ينظر: **رجال النجاشي**: ١٥٦ / الرقم ٤١١، **رجال ابن داود**: ١٤٦ / الرقم ٥٨٣، **فائق المقال في الحديث والرجال**، : ١٠٩ الرقم ٣٩٨.

دينار وأمرني أن أحملها إلى بعض بني عمّه، ثمّ قال: أما إنّه سيقول لك: دلّني على حريف[1] يشتري لي بها متاعاً، فدلِّه عليه. قال: فأتيته بالدنانير، فقال لي: يا أبا هاشم، دلّني على حريف يشتري لي بها متاعاً، فقلت: نعم. وكلّمني في الطريق جمّال سألني أن أخاطبه في إدخاله مع بعض أصحابه في أمور، فدخلت عليه لأكلّمه فوجدته يأكل ومعه جماعة فلم أتمكّن من كلامه، فقال: يا أبا هاشم كُلْ. ووضع بين يدَيّ ما أكل منه، ثمّ قال ابتداءً من غير مسألة: يا غلام، انظر الجمّال الذي أتانا به أبو هاشم فضُمَّه إليك.

قال أبو هاشم: ودخلت معه يوماً بستاناً فقلت له: جُعلت فداك، إنّي مولع بأكل الطين، فادْعُ الله لي. فسكت ثمّ قال لي بعد أيّام ابتداء منه: يا أبا هاشم، قد أذهب الله عنك أكل الطين، قال أبو هاشم: فما من شيء أبغض إليّ عنه اليوم[1].

وروى الشيخ المفيد: لمّا توجّه أبو جعفرعليه السلام من بغداد منصرفاً من عند المأمون ومعه أمّ الفضل قاصداً بها المدينة، صار إلى شارع باب الكوفة ومعه الناس يشيّعونه، فانتهى إلى دار المسيّب عند مغيب الشمس، نزل ودخل المسجد، وكان في صحنه نبقة لم تحمل بعد، فدعا بكوز فيه ماء فتوضّأ في أصل النبقة وقام عليه السلام وصلّى بالناس صلاة المغرب، فقرأ في الأولى منها الحمد و إذا جاء نصر الله، وقرأ في الثانية الحمد وقل هو الله، وقنت قبل ركوعه فيها، وصلّى الثالثة وتشهّد وسلّم ثمّ جلس هُنَيهة يذكر الله جلّ اسمه، وقام من غير أن يعقّب فصلّى النوافل أربع ركعات، وعقّب تعقيبها وسجد سجدتَي الشكر، ثمّ خرج، فلمّا انتهى إلى النبقة رآها الناس وقد حملت حملاً حسناً، فتعجّبوا من ذلك وأكلوا منه، فوجدوا نبقاً حلواً لا عُجْمَ له، وودّعوه، ومضى من وقته إلى المدينة، فلم يزل بها إلى أن

١- حريف الرجل: مُعامِله في حرفته. **لسان العرب** (حرف).

أشخصه المعتصم في أوّل سنة خمس وعشرين ومائتين الى بغداد[1].

وروى الخصيبي بإسناده إلى محمّد بن حمزة بن القاسم الهاشمي، عن عليّ ابن محمّد بن عليّ بن أحمد بن أبي الحسن قال: دخلت على أبي جعفر في صبيحة عرسه بأمّ الفضل بنت المأمون، وكنت أوّل من دخل عليه في ذلك اليوم، فدنوت منه وقعدت فوجدت عطشاً شديداً، فجللته أن أطلب الماء، فنظر إليّ وقال: يا عليّ، شربتَ الدواء بالليل وتغدّيت على بكرة فأصبتَ العطش واستَحْيَيت تطلب الماء منّي ؟ فقلت: والله يا سيّدي هذه صفتي، ما غادرتَ منها حرفاً. فصاح: يا غلام، تسقيني، فقلت في نفسي: يا ليت لايسقى الماء، واغتممت، فأقبل الغلام ومعه الماء، فنظر إلى الماء و إليّ وتبسّم وأخذ الماء وشرب منه وسقاني، فمكثت قليلاً وعاودني العطش فاستحييت أطلب الماء، فصاح بالخادم وقال: تسقيني ماء، فقلت في نفسي مثل ذلك القول الأوّل، وأقبل الخادم بالماء فأخذه وشرب منه وسقاني، فقلت: لا إله إلّا الله، أيّ دليل أدلّ على إمامته من علمه ما أسرُّه في نفسي ! فقال: يا عليّ، والله نحن كما قال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ**﴾[2] فقمت وقلت لمن كان معي: هذه ثلاثة براهين رأيتها من أبي جعفر عليه السلام في مجلسي هذا[3].

وروى الشيخ عباس القمّي بالإسناد إلى محمد بن سنان قوله: شكوت إلى الرضا عليه السلام وجع العين، فأخذ قرطاساً فكتب إلى أبي جعفر الجواد عليه السلام و هو أقلُّ من ثلاث، ودفع الكتاب إلى الخادم وأمرني أن أذهب معه، وقال: أُكتُم. فأتيناه ففتح

١- **الإرشاد: ٣٢٣ ـ ٣٢٤.**

٢- الزخرف: ٨٠.

٣- **الهداية الكبرى: ٣٠١.**

الخادم الكتاب بين يدَي أبي جعفرعليه السلام ، فجعل أبو جعفرعليه السلام ينظر في الكتاب ويرفع رأسه إلى السماء، ففعل ذلك مراراً، فذهب كلّ وجع في عيني وأبصرت بصراً لا يبصره أحد، فقلت لأبي جعفرعليه السلام: جعلك الله شيخاً على هذه الأمّة كما جعل عيسى بن مريم شيخاً على بني اسرائيل. قال ابن سنان: فما زلت صحيح البصر حتّى أذعتُ ما كان من أبي جعفرعليه السلام في أمر عيني فعاودني الوجع[١].

وروى الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي عن أبي هاشم الجعفري قوله: جاء رجل إلى محمّد بن عليّ بن موسى عليهما السلام: فقال: يا ابن رسول الله، إنّ أبي مات وكان له مال ففاجأه الموت، ولست أقف على ماله، ولي عيال كثير، وأنا من مواليكم فأغثني، فقال أبو جعفرعليه السلام: إذا صلّيتَ العِشاء الآخرة فصلّ على محمّد وآل محمّد، فإنّ أباك يأتيك في النوم ويخبرك بأمر المال. ففعل الرجل ذلك، فرأى أباه في النوم، فقال: يا بُنيّ، مالي في موضع كذا، فخذه و اذهب إلى ابن رسول الله وأخبره أنّي دللتك على المال. فذهب الرجل و أخذ المال و أخبر الإمام بأمر المال[٢].

وروى الخصيبي بإسناده إلى يحيى بن أبي عمران قال: إنّ موسى بن جعفر الداري قال: وَرَدنا جماعةً من أهل الري إلى بغداد نريد أبا جعفرعليه السلام، فدُللنا عليه ومعنا رجل من أهل الري زيدي يظهر لنا الإمامة، فلمّا دخلنا على أبي جعفرعليه السلام سأَلَنا عن مسائل قصدنا بها، وقال أبو جعفرعليه السلام لبعض غلمانه: خذ بيد هذا الرجل الزيدي وأخرجه. فقام الرجل على قدميه وقال: أنا أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله، وأنّ عليّاً أمير المؤمنين، وأنّ آباءك الأئمّة، وأُثبت لك الحجّة لله

١- **اختيار معرفة الرجال** : ٥٨٢ / الرقم ١٠٩٢ ـ عنه : **بحار الأنوار ٥٠**: ٦٦ / ح ٤٣.

٢- **الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم**: ٧١١ ـ ٧١٢.

في هذا العصر، فقال له: اجلس، فقد استحقّيت بترك الضلال الذي كنتَ عليه وتسليمك الأمرلي من جعله له يسمع ولايمنع، فقال الرجل: والله، يا سيّدي إنّي أَدين لله بإمامة زيد بن عليّ مدّة أربعين سنة، ولا أظهر للناس غيرمذهب الإمامة، فلمّا علمتُ منّي ما لا يعلمه إلّا الله أَشهد أنّك الإمام والحجّة.

وروى عن داود بن زيد الخيّاط قال: كنت بين يدي أبي جعفرعليه السلام، وهو جالس في مجلسه، فسُرقَت شاة لبعض مواليه، فطالب قوماً بأعينهم، فقال عليه السلام: أُحضِروا فلاناً لقد سُرقت شاته وهو يطالب بها من لايسرقها. فأحضروه، فقال: خلِّ القوم الذين تطالبهم بشاتك، وامضِ إلى منزل راشد مولاك وخذ شاتك من بيته فهو أخذها، قال داود: فقمت حتّى صرت بداره فوجدت الشاة في بيته فأخذتها [١].

وروى السيّد ابن طاووس بإسناده إلى حكيمة بنت محمّد بن عليّ بن موسى ابن جعفرعليهم السلام، عمّة أبي محمّد الحسن بن عليّعليه السلام، قالت: لمّا مات محمّد بن عليّ الرضاعليه السلام أتيت زوجته أمّ عيسى بنت المأمون فعزّيتها، فوجدتها شديدة الحزن والجزع عليه، تقتل نفسها بالبكاء والعويل، فخفت عليها أن تتصدّع مرارتها، فبينما نحن في حديثه وكرمه ووصف خُلقه، وما أعطاه الله تعالى من الشرف والإخلاص، ومَنَحه من العزوالكرامة، إذ قالت أمّ عيسى: ألا أخبركِ عنه بشيء عجيب وأمرجليل، فوق الوصف والمقدار؟ قلت: وما ذاك ؟

قالت: كنت أغار عليه كثيراً وأراقبه أبداً، وربّما يُسمعني الكلام فأشكو ذلك إلى أبي، فيقول: يا بنية احتمليه، فإنّه بضعة من رسول الله صلى الله عليه وآله. فبينما أنا جالسة ذات يوم إذ دخَلَت عليّ جارية فسلّمت، فقلت: من أنت ؟فقالت: أنا جارية من ولد عمّار بن ياسر، وأنا زوجة أبي جعفرمحمّد بن عليّ الرضاعليه السلام زوجِك. فدخلني

١- الهداية الكبرى: ٣٠٢.

من الغيرة ما لا أقدر على احتمال ذلك، فهممت أن أخرج وأسيح في البلاد، وكاد الشيطان أن يحملني على الإساءة إليها، فكظمت غيظي وأحسنت رفدها وكسوتها، فلمّا خرجت من عندي المرأة نهضت ودخلت على أبي وأخبرته الخبر، وكان سكرانَ لايعقل، فقال: يا غلام. عليّ بالسيف. فأتى به فركب وقال: واللهِ لأقتلنّه! فلمّا رأيت ذلك قلت: إنّا لله و إنّا إليه راجعون، ما صنعتُ بنفسي وبزوجي! وجعلت ألطم حرّ وجهي، فدخل عليه والدي وما زال يضربه بالسيف حتّى قطّعه، ثمّ خرج من عنده، وخرجت هاربة من خلفه، فلم أرقد ليلتي.

فلمّا ارتفع النهار أتيت أبي فقلت: أتدري ما صنعتَ البارحة ؟! قال: وما صنعت ؟قلت: قتلتَ ابن الرضاعليه السلام! فبرق عينه وغُشي عليه، ثمّ أفاق بعد حين وقال: ويلكِ ما تقولين! قلت: نعم واللهِ، يا أبتِ، دخلتَ عليه، ولم تزل تضربه بالسيف حتّى قتلته. فاضطرب من ذلك اضطراباً شديداً وقال: علَيّ بياسر الخادم، فجاء ياسر، فنظر إليه المأمون وقال: ويلك، ما هذا الذي تقول هذه ابنتي! قال: صدقت يا أمير المؤمنين. فضرب بيده على صدره وخدّه وقال: إنّا لله و إنّا إليه راجعون، هلكنا بالله وعطبنا وافتضحنا إلى آخر الأبد، ويلك يا ياسر فانظر ما الخبر والقصّة عنه، وعجِّل علَيّ بالخبر، فإنّ نفسي تكاد أن تخرج الساعة ! فخرج ياسر وأنا ألطم حرّ وجهي، فما كان بأسرع من أن رجع ياسر فقال: البشرى يا أمير المؤمنين، قال: لك البشرى، فما عندك ؟ قال ياسر: دخلت عليه فإذا هو جالس وعليه قميص ودواج وهو يستاك، فسلّمت عليه وقلت: يا ابن رسول الله، أحبّ أن تهب لي قميصك هذا أصلّي فيه وأتبرّك به. و إنّما أردت أن أنظر إليه و إلى جسده هل به أثر السيف، فوالله كأنّه العاج الذي مسّته صفرة، ما به أثر! فبكى المأمون طويلاً وقال: ما بقي مع هذا شيء، إنّ هذا لعبرة للأوّلين والآخرين ! وقال: يا ياسر، أمّا ركوبي إليه وأخذي السيف ودخولي عليه، فإنّي ذاكر له، وخروجي عنه فلست أذكر شيئاً غيره،

ولا أذكر أيضاً انصرافي إلى مجلسي، فكيف كان أمري وذهابي إليه! لعن الله هذه الابنة لعناً وبيلاً، تقدّم إليها وقل لها يقول لك أبوك: واللهِ لئن جئتِني بعد هذا اليوم شكوتِ أو خرجت بغير إذنه لأنتقمنّ له منك، ثمّ سِرْ إلى ابن الرضا وأبلغه عنّي السلام واحمل إليه عشرين ألف دينار، وقدّم إليه الشهري الذي ركبته البارحة، ثمّ مُرْ بعد ذلك الهاشميين أن يدخلوا عليه بالسلام ويسلّموا عليه، قال ياسر: فأمرت لهم بذلك، ودخلت أنا أيضاً معهم وسلّمت عليه وأبلغت التسليم، ووضعت المال بين يديه وعرضت الشهري عليه، فنظر إليه ساعة ثمّ تبسّم فقال: يا ياسر، هكذا كان العهد بيننا وبينه حتّى يهجم علَيّ بالسيف ! أما علم أنّ لي ناصراً وحاجزاً يحجز بيني وبينه ! فقلت: يا سيّدي يا ابن رسول الله، دَعْ عنك هذا العتاب واصفح، واللهِ وحقّ جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله ما كان يعقل شيئاً من أمره، وما علم أين هو من أرض الله، وقد نذراً لله نذراً صادقاً، وحلف أن لا يسكر بعد ذلك أبداً، فإنّ ذلك من حبائل الشيطان، فإذا أنت - يا ابن رسول الله - أتيتَه فلا تذكر له شيئاً، ولا تعاتبه على ما كان منه، فقال عليه السلام: هكذا كان عزمي ورأيي والله.

ثمّ دعا بثيابه ولبس، ونهض وقام معه الناس أجمعون حتّى دخل على المأمون، فلمّا رآه المأمون قام إليه وضمّه إلى صدره ورحّب به، ولم يأذن لأحد في الدخول عليه، ولم يزل يحدّثه ويستأمره، فلمّا انقضى ذلك قال أبو جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام: يا أمير المؤمنين، قال: لبّيك وسعديك ! قال: لك عندي نصيحة فاقبلها، قال المأمون: بالحمد والشكر، فما ذاك يا ابن رسول الله ؟ قال: أحبّ لك أن لا تخرج بالليل، فإنّي لا آمن عليك هذا الخلق المنكوس، وعندي عقد تحصّن به نفسك، وتُحرز به من الشرور والبلايا والمكاره والآفات والعاهات، كما أنقذني الله منك البارحة، ولو لقيتَ به جيوش الروم والترك، واجتمع عليك وعلى غلبتك أهل الأرض جميعاً ما تهيّأ لهم منك شيء بإذن الله الجبّار، وإن أحببتَ بعثتُ به إليك

لتحترز به من جميع ما ذكرت لك، قال: نعم، فاكتب ذلك بخطّك وابعثه إليّ، قال: نعم.

قال ياسر: فلمّا أصبح أبو جعفرعليه السلام بعث إليّ فدعاني، فلمّا صرت إليه وجلست بين يديه دعا بِرَقٍّ ظبي من أرض تهامة ثمّ كتب بخطّه هذا العقد، ثمّ قال: يا ياسر، احمل هذا العقد إلى أمير المؤمنين، وقل له حتّى يصاغ له قصبة من فضّة منقوش عليها ما أذكره بعده، فإذا أراد شدّه على عضده فليشدّه على عضده الأيمن، وليتوضّأ وضوءاً حسناً سابغاً، وليصلِّ أربع ركعات، يقرأ في كلّ ركعة فاتحة الكتاب مرّة وسبع مرّات آية الكرسي وسبع مرّات شهد الله، وسبع مرّات والشمسِ وضحاها، وسبع مرّات والليلِ إذا يغشى، وسبع مرّات قل هو الله أحد، فإذا فرغ منها فَليشدَّه على عضده الأيمن عند الشدائد والنوائب، يسلم بحول الله وقوّته من كلّ شيء يخافه ويحذره، وينبغي أن لا يكون طلوع القمر في برج العقرب، ولو أنّه غزا أهل الروم وملكهم لغلبهم بإذن الله وبركة هذا الحرز. وروي أنّه لما سمع المأمون من أبي جعفرعليه السلام في أمر هذا الحرز هذه الصفات كلّها، غزا أهل الروم فنصره الله تعالى عليهم، ومنح منهم من المغنم ما شاء الله، ولم يفارق هذا الحرز عند كلّ غزاة ومحاربة، وكان ينصره الله عزّ وجلّ بفضله، ويرزقه الفتح بمشيئته، إنّه وليّ ذلك بحوله وقوّته [١].

وروى الشيخ المجلسيّ عن الشيخ رجب البُرسي قوله: روي عن أبي جعفر الثاني محمّد بن عليّعليه السلام أنّه جيء به إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد موت أبيه الرضاعليه السلام وهو طفل، فجاء إلى المنبر ورقى منه درجة ثمّ نطق فقال: أنا محمّد بن عليّ الرضا، أنا الجواد، أنا العالم بأنساب الناس في الأصلاب، وأنا أعلم بسرائركم

١- مهج الدعوات: ٣٦.

وظواهركم وما أنتم صائرون إليه، علمٌ مُنِحنا به مِن قَبل خَلق الخلق أجمعين، وبعد فناء السماوات والأرضين، ولولا تظاهر أهل الباطل، ودولة أهل الضلال، ووثوب أهل الشكّ، لقلتُ قولاً تعجّب منه الأوّلون والآخرون. ثمّ وضع يده الشريفة على فيه وقال: يا محمّدُ اصمت كما صمت آباؤك من قبل [١].

ورُويَ عن محمّد بن ميمون [٢] أنّه كان مع الرضا عليه السلام بمكّة قبل خروجه إلى خراسان، وقال: قلت له: إنّي أريد أن أتقدّم إلى المدينة فاكتب معي كتاباً إلى أبي جعفر عليه السلام . فتبسّم وكتب، و صرت إلى المدينة وقد كان ذهب بصري، فخرج الخادم بأبي جعفر عليه السلام إلينا فحمله في المهد فناولتُه الكتاب، فقال لموفّق الخادم: فُضَّهْ وانشره. ففضّه ونشره بين يديه، فنظر فيه ثمّ قال لي: يا محمّد ما حال بصرك؟قلت: يا ابن رسول الله، اعتلّت عيناي فذهب بصري كما ترى، قال: أُدنُ منّي. فدنوت منه، فمدّ يده فمسح بها على عيني فعاد إليّ بصري كأصحّ ما كان، فقبّلت يده ورجله وانصرفت من عنده وأنا بصير [٣].

وروى عليّ بن خالد قال: كنت بالعسكر، فبلغني أنّ هناك رجلاً محبوساً أُتي به من الشام مكبولاً وقالوا: إنّه تنبّأ، قال: فأتيت الباب ودفعت شيئاً للبوّابين حتّى وصلت إليه، فإذا رجل له فهم وعقل فقلت: يا هذا ما قضيّتك؟ قال: إنّي كنت رجلاً بالشام أعبد الله في الموضع الذي يقال أنّه نُصب فيه رأس الحسين عليه السلام ، فبينا أنا ذات ليلة في موضعي مقبل على المحراب أذكر الله تعالى إذ رأيت شخصاً بين

١- **بحار الأنوار** ٥٠: ١٠٨ / ح ٢٧.

٢- قال ابن داود: محمّد بن ميمون أبو نصر الزعفرانيّ عاميّ. **كتاب الرجال:** ٥١٢ / الرقم ٤٧٢.

٣- **حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار** عليهم السلام ٤: ٥٤٠، **بحار الأنوار** ٥٠: ٤٦ ح ٢٠ ـ عن : **الخرائج و الجرائح**.

يديّ، فنظرت إليه فقال لي: قم. فقمت معه، فمشى بي قليلاً فإذا أنا في مسجد الكوفة، فقال لي: تعرف هذا المسجد؟ فقلت: نعم هذا مسجد الكوفة، قال: فصلّى وصلّيت معه، ثمّ انصرف وانصرفت معه، ومشى قليلاً فإذا نحن بمسجد الرسول صلى الله عليه وآله فسلّم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصلّى وصلّيت معه، ثمّ خرج وخرجت معه، فمشى قليلاً وإذا نحن بمكّة، فطاف بالبيت وطفت معه، ثمّ خرج فمشى قليلاً فإذا أنا بموضعي الذي كنت فيه أعبد الله بالشام وغاب الشخص عنّي، فبقيت متعجّباً حولاً ممّا رأيت! فلمّا كان في العام المقبل رأيت ذلك الشخص فاستبشرت به، فدعاني فأجبته، ففعل كما فعل في العام الماضي، فلمّا أراد مفارقتي بالشام قلت له: سألتك بالحقّ الذي أَقْدَرَكَ على ما رأيتُ منك ألّا أخبرتني من أنت؟ فقال: أنا محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر. فحدّثت من كان يصيرإليّ بخبره فرقى [١] ذلك إلى محمّد بن عبد الملك الزيّات [٢]، فبعث إليّ من أخذني وكبّلني في الحديد وحملني إلى العراق، وجلست كما ترى وادّعى عليّ المُحال، فقلت له: فأرفع عنك قصّة إلى محمّد بن عبد الملك الزيّات؟ فقال: إفعل. فكتبت عنه قصّته وشرحت أمره فيها ودفعتها إلى محمّد بن عبد الملك الزيّات، فوقّع في ظهرها: قل للذي أخرجك من الشام في ليلة إلى الكوفة، ومنها إلى المدينة، ومنها إلى مكّة، وردّك

١- أي بلغ.

٢- محمّد بن عبد الملك الزيّات: كان كاتباً بليغاً، وله أشعار رائقة، وكان وزير المعتصم والواثق، هجا القاضي أحمد بن أبي دُؤاد. وكان الزيّات قد اتّخذ في أيّام وزارته تنوراً من حديد أطراف مساميره محدودة إلى الداخل، وكان يعذّب فيه المطلوبين بالأموال، وكان غافلاً عن غدر الأيّام، فلمّا ولي المتوكّل الحكم اعتقل ابن الزيّات وأمر بإدخاله نفس التنور الذي كان يعذّب فيه وقيّده، فأقام في التنّور أربعين يوماً ثمّ مات. ينظر: **الأعلام** للزركليّ ٧: ١٢٦، **الكنى والألقاب** للقمّيّ ١: ٢٢٩٥.

من مكّة إلى الشام، أن يخرجك من حبسك هذا. قال عليّ بن خالد: فغمّني ذلك من أمره ورققت له وانصرفت محزوناً عليه، فلمّا كان من الغد باكرت الحبس لأُعلمه بالحال وآمره بالصبر والعزاء، فوجدت الجند وأصحاب الحرس وصاحب السجن وخَلقاً عظيماً من الناس يهرجون، فسألت عن حالهم، فقيل لي: إنّ المحمول من الشام المتنبّئ افُتقِد البارحة من الحبس، فلا ندري، أخُسِفت به الأرض أو اختطفته الطير! [١]

١- نقل هذه المعجزة أكثر من مصدر منها: **كشف الغمّة في معرفة الأئمّة** ٢: ٣٥٩، **الإرشاد** للشيخ المفيد: ٣٢٤، **إعلام الورى**: ٣٣٢. وجاء في آخر الخبر في المصادر: وكان هذا الرجل –عليّ بن خالد –زيدياً فقال بالإمامة لِما رأى ذلك وحَسُن اعتقاده.

صاحب المعجزة والعلوم والعصمة

إذا كان الإلهام أو حصول الخارق من الأمر أو المعجزة أو نحوها هو من معالم الإمامة ـ عند الحاجة إلى إظهار بعضها أو ما يدلّ عليها ـ والتي يقول بها الشيعة، فالعصمة هنا لابدّ منها، والقول بها من لوازم الإمامة وتوابعها، حتّى قيل إنّه اضطُرّت فرق الشيعة إلى قبول بها لمواجهة تحدّيات الفرق الأخرى لها. والعصمة ضابط يؤدّي إلى حفظ شريعة الله تعالى نظريّاً وصيانتها من العبث تطبيقياً، وأساطين أهل السنّة يذهبون إلى مثل ذلك.. وجمهور أهل السنّة والجماعة يصححون الحديث المروي عن النبي ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيّهمُ اقتديتم اهتديتم»[1]، ولازم هذا الحديث عصمة الصحابة[2]. والعصمة بمعناها العام: لطف يمتنع صاحبه معه من

١- ينظر: **تحفة الأحوذيّ بشرح جامع الترمذيّ** ١٠: ١٧١ - ١٧٢.

٢- الشيخ أحمد الوائلي، **هوية التشيّع**: ١٤٨ و١٥٠. وقد قال الفخر الرازيّ في تفسير قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِى الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩). بأنّ الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً من الخطأ.. والشيعة يتّفقون مع الرازيّ في وجوب عصمة أولي الأمر، لاسيّما وقد قرن أولي الأمر بالله والرسول من ناحية إطاعتهم والتسليم لأمرهم، وبلا شكّ فإنّ النبيّ معصوم من الذنوب في جميع حالاته، فلابدّ وأن تكون لأولي الأمر هذه الميّزة على من سواهم من الناس، ومن غير المعقول أن يأمر الله بإطاعتهم بهذا الأسلوب ومن غير تقييد مع صدور الخطأ

الوقوع في القبائح والإخلال بالواجبات، لا على جهة الجبر، بل مع بقاء الاختيار [١].

يقول أبو الصلاح الحلبي في بحث الإمامة: لابدّ من أن يكون الرئيس معصوماً؛ لأنّ جهة وجوب الرئاسة كونها لطفاً في وقوع الحَسَن وارتفاع القبيح، ويعلّق هذا اللطف [٢] بكون المرؤوس غير معصوم، فوجب لذلك عصمة الرئيس أو من تنتهي إليه الرئاسات... [٣].

ويقول عماد الدين حسن بن علي الطبري من أعلام القرن السابع الهجري: العصمة عندنا عبارة عن كمال مرتبة الإنسانية، لأنّ الإنسان إنّما أصبح أشرف المخلوقات بالعقل. والعقل قوّة تردع عن ترك الواجب وفعل القَبيح، فمن زادت قوّته العقلية ندر وقوع القبح منه، بل قد يمتنع ذلك منه. والعقل عبارة عن المعرفة والإحاطة بقبح القبائح وحسن الأمور الحسنة، إذ لايأتي من الخَلّ غير الحموضة،

منهم، ومع أنّ الشيعة يتّفقون مع الرازيّ في النتيجة التي انتهى إليها من هذه الآية، ولكنّهم يختلفون معه في المراد من أولي الأمر، فهو يدّعي أنّ المراد من أولي الأمر المعصومين من الخطأ هم أهل الحلّ والعقد من المسلمين.. ينظر: هاشم معروف الحسنيّ، **سيرة الائمّة الاثني عشر** ١: ٢٢ **والتفسير الكبير** للفخر الرازيّ ١٠: ١٤٤.

١- ينظر: **الأنوار الجلالية في شرح الفصول النصيرية**: ١٤٩.

٢- اللطف في عرف المتكلّمين عبارة عمّا يدعو إلى فعل واجب، أو يصرف عن قبيح، وهو على ضربين: أحدهما أن يقع عنده الواجب، ولولاه لم يقع، فيسمّى توفيقاً، والآخر ما يكون عنده أقرب إلى فعل الواجب أو ترك القبيح وإن لم يقع عنده الواجب، ولا أن يقع القبيح ولايوصف بأكثر من أنّه لطف لا غير، وما كان المعلوم أنّه يرتفع عنده القبيح ولولاه لم يرتفع يسمّى عصمة، وإن كان عنده أقرب إلى أن لا يقع عنده القبيح يسمّى لطفاً لا غير. واللطف منفصل عن التمكين، ويوصف اللطف بأنّه صلاح وأصلح في الدين، فأمّا ما يدعو إلى فعل القبيح أو يقع عنده القبيح، ولولاه لم يقع فيسمّى مفسدة. **الاقتصاد** للشيخ الطوسيّ: ١٣٠.

٣- **الكافي في الفقه**: ٨٨.

ومن العسل غير الحلاوة، ومن المسك والعنبر غير الرائحة الطيّبة. العقل إذاً شجرة تُثمر الحُسن لا القبح، فإن بلغ العقل كماله في الإنسان استحال وقوع الزلّات منه. وبرهان هذا الكلام قول الغزالي حيث يقول: ليس المعصوم غير العقل. وعندنا كذلك أنّ المعصوم ليس إلّا العاقل المتّصف بكمال العقل[1].

والعصمة ليست كالمعجزة يمكن وقوعها أو حصولها أو مشاهدتها لمن أراد أن تبين له، و إنّما العصمة مَلَكة باطنية ترتبط بالتوحيد والكتاب والسنّة، ومن هذا الاعتبار جاء حديث الإمام علي بن الحسين السجّاد عليه السلام: الإمام منّا لايكون إلّا معصوماً، وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيُعَرف بها، ولذلك لايكون إلّا منصوصاً. وقال عليه السلام في المعصوم: هو المعتصم بحبل الله، وحبلُ الله هو القرآن، والقرآن والإمام لايفترقان إلى يوم القيامة، والإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي إلى الإمام.[2] وفسّر الإمام جعفر الصادق عليه السلام قوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[3] أي: يهدي إلى الإمام[4] فالاستقامة والهداية والكمال لابدّ منها هنا، لأنّ القرآن لايهدي إلّا الأمثل والأكمل، والبحث عن الشخص الأكمل والأمثل والأفضل يتطلّب توحيد مواقف الباحثين عن الكمال والمثال، وأن يجتمع الناس على مقياس لا يُختَلَف عليه.

وعلى العموم لايمكن بشكل عملي توحيد معيارهم وضبطه، لذا يكون من الضروري واللازم أن يكون هناك ترشيح سماوي لجماعة مؤهّلة، وقادرة على أن

١- **تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار**: ٤٠.

٢- **معاني الأخبار** للصدوق: ١٣٢.

٣- الإسراء: ٩.

٤- **الكافي** ١: ٢١٦ ـ كتاب الحجّة.

تـنهض بمهـام الإمامـة، دون أن تضـطرم وتحتـدم صـراعات البشـر لتعيـين هـؤلاء وتشخيصهم. ومن الطبيعي أن يتّصف هؤلاء المرشّحون بصفات غير متوفّرة في باقي النـاس، ولايحصـل هـذا إلّا للأوصياء الـذين اصطفاهم الله واختـارهم وعـرّفهم النبي صلى الله عليه وآله بنصوص صحيحة، وبهم تـتمّ الرسالة وتكمـل، ومن هنـا فهـذا التكامـل والتتميم لايمكن تحصيله إلّا بوجود شخص عالم كامل معصوم يحقق الانسجام والتواصل بين الأصول والفروع، وقد لا تكون هنـاك ضرورة للمعجزة يُثْبت بها دوره التشريعي، لذا يمكن أن يكتفي الإمام بالكتاب والسنّة فيحجب ما لديه من قدرة وخـوارق تعـدّ خارقـة لقواعـد العقـل البشـري لشـيعته أوغيـرهم، وفقـاً لمـا يـراه مـن مصالح العباد ومستواهم العقليّ.

ومن هنا جاء اعتقـاد الشـيعة بأنّ الأئمّة عليهم السلام لهم مقام تشريعي، بما تحصّـل لديهم من علوم ، شأنهم شأن الأنبيـاء والأوصيـاء الـذين خلفوا الرسل في زمانهم، وهـم فـي تشريعهم ودورهـم الرسـالي يُكملـون الكتـاب والسـنّة ولا يتجـاوزون ذلـك، واستنادهم في هذا الاعتقاد لأحاديث صحيحة رُوِيت عـن الأئمّة عليهم السلام ، ومن ذلك قول البـاقرعليه السلام لجابربن يزيد: يا جابر، لو كنّا نحدّثكم برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين، ولكنا نحدّثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله صلى الله عليه وآله كما يكنز هؤلاء ذهـبهم وورقهـم[١]. ولكـن لاشكّ ولاترديد لـدى الشـيعة بأنّ مقامهم عليهم السلام عظـيم، ودرجتهم ومنزلتهم لا تـنقص عـن درجـة ومنزلـة الأنبيـاء والمرسـلين، ولكـنّهم لـم يُخَصّـوا بمـا خُـصّ بـه النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكما جاء في حديث رواه محمّد بن مسلم عن الصـادق عليه السلام قولـه: الأئمّة

١- **الاختصاص** للمفيد: ٢٨٠. وربّما كان جابربن يزيد على حذر بعد سماعه حديث البـاقرعليه السلام هذا حين قال: عندي خمسون ألف حديث ما حدّثت منها بحديث. ثمّ حدّث يوماً بحديث فقال: هذا من الخمسين ألفاً. **ميزان الاعتدال** للذهبي ١: ٣٧٩ / الرقم ١٤٢٥.

بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله إلّا أنّهم ليسوا بأنبياء، ولايحلّ لهم من النساء ما يحلّ للنبي صلى الله عليه وآله، فأمّا ما خلا ذلك فهم فيه بمنزلة رسول الله صلى الله عليه وآله[١]. فيدخل المعجز والعلم في دائرة مقامهم ويكون في حوزتهم ومنالهم، وبذلك جاء في أخبار رويت عنهم عليهم السلام، منها قول الصادق عليه السلام: إنّ لله تبارك و تعالى عِلمَين، علماً أظهر عليه ملائكته وأنبياءه ورسله، فما أظهر عليه ملائكته ورسله وأنبياءه فقد علمناه. وعلماً استأثر به. ونحوه جاء خبر آخر روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّ لله عزّوجلّ علمين: علم مبذول، وعلم مكفوف، فأمّا المبذول فإنّه ليس من شيء تعلمه الملائكة والرسل إلّا نحن نعلمه، وأمّا المكفوف فهو الذي عند الله عزّوجلّ في أمّ الكتاب[٢]. والمكفوف من العلم قد يصل إلى علم الإمام المعصوم بفضل من الله وكرامة للإمام الذي نهض بهذه المهمّة الكبيرة والخطيرة.

وهذا العلم المتوارث، والذي عُرف به الأئمّة المعصومون، كان مضيئاً وشاخصاً يبصره الأعداء والأولياء، وتواترت الأخبار عن هذا العلم الذي ملأ الآفاق وغطّى على كلّ من ادّعى وتقوّل، وبذلك العلم تطاولت الثقافة الإسلامية وشمخت، يقول محمّد أبو زُهرة: في آخر القرن الأوّل الهجري ونصف القرن الثاني، كان البيت العلوي مصدر النور والعرفان بالمدينة المنوّرة. فإنّه منذ نكبة الإسلام بمقتل الشهيد وابن الشهيد وأبي الشهداء الحسين بن عليّ عليهما السلام انصرف آل عليّ عليهم السلام إلى العلم النبوي يتدارسونه، وفيهم ذكاء آبائهم، وهداية جدّهم، والشرف الهاشمي الذي علا بهم عن سفاسف الأمور، فاتّجهوا إلى معاليها وبعدوا عن السياسة، وتوارثوا ذلك الاتجاه العلميّ، فورثوا الإمامة فيه كابراً عن كابر، فعليّ زين

١- **الكافي** ١: ٢٧٠.

٢- **الكافي** ١: ٢٥٥ – ٢٥٦.

العابدين عليه السلام كان إمام المدينة نبلاً وعلماً، وكان ابنه محمّد الباقرعليه السلام وريثه في إمامة العلم ونبل الهداية، فكان مقصد العلماء من بلاد العالم الإسلامي، وما زار أحد المدينة إلّا عرّج على بيت محمّد الباقرعليه السلام يأخذ عنه[١].

وعلى هذا المنوال كانت الوفود والجماعات تترى على بيت الإمام جعفربن محمّد الصادق عليه السلام فاستنار المسلمون من علم الباقر والصادق عليهما السلام، وبدأت حركة تاسيس العلوم وتأصيلها، وتراءت للعيان بداية نهضة المسلمين الفكرية والعلمية. ومن الظاهر لدى الباحثين والمؤرّخين بأنّ الظروف التي تهيّأت للإمامين الباقر والصادق عليهما السلام لإظهار علمهما لم تتهيّأ لغيرهما من الأئمّة عليهم السلام، ذلك لأنّ سني إمامة الباقر عليه السلام قد رافقتها بوادر النقمة العارمة على سياسة الأمويين والدعوة في مختلف الأقطار إلى التخلّص منهم، وكان سوء صنيعتهم مع العلويين من أقوى الأسلحة بيد خصومهم الطامعين في الحكم، ممّا دعاهم إلى اتّخاذ موقف من الشيعة وأئمّتهم أكثر اعتدالاً ممّا كانوا عليه بالأمس، ولمّا جاء الإمام الصادق عليه السلام كانت الدولة الأموية تلفظ أنفاسها الأخيرة وتعاني من انتصارات أخصامها العبّاسيين هنا وهناك، وبالتالي تقلّص ظلّها وتمّ الأمر للعبّاسيين. وفي هذه الظروف الخاصّة انطلق الإمامان الباقر والصادق عليهما السلام لأداء رسالتهما[٢].

وكانت هذه الرسالة من السعة والشمول أن سطع شعاعها فعمّ الآفاق وترامى طلّابها في القرى والبلدان، وصارت الوفود والجماعات تتقاطر على أبواب هذه المدرسة الواسعة العظيمة لتنهل من صافي معينها الذي لاينضب. ويتوارث أبناء عليّ عليه السلام من هذا العلم الصادق الصافي، ليصل الدور إلى الإمام التاسع محمّد بن

١- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية: ٦٨٨.

٢- هاشم معروف الحسنيّ، سيرة الأئمّة الاثني عشر٢: ٢٠٢.

علي الجواد عليه السلام الذي برز في عصر العلوم والثقافة، وهو عصر المأمون الذي تأسّست فيه المدارس العلمية وظهرت فنون الترجمة والفلسفة والحكمة.

وعلى العموم كان العصر العبّاسي هو عصر الثقافة وازدهارها، ولعلّ تطوّر الصناعات الورقية ومستلزمات وأدوات الكتابة والتدوين من العوامل الدافعة والمشجّعة للرقي الحضاري الذي شهده هذا العصر. فالمسلمون في هذا العصر لمسوا بشكل جلي ازدهار الوراقة والورّاقين، فقد تيسّر الورق وعُرفت صناعته في سمرقند، ثمّ صُنّع في بغداد ورخص ثمنه، كما رخصت أثمان البردي. وقد كان من نتيجة ذلك أن شاع التصنيف والتأليف، وكثر المصنّفون من العلماء والأدباء، وظهرت الحاجة إلى الوراقة، فكثر الورّاقون في هذا العصر، وقد رافق ذلك حركةٌ علمية في أوّل العصر العبّاسي، تمثّلت في حركة التأليف والترجمة من اللغات الفارسيّة والسريانيّة واليونانيّة. وقد حرص المسلمون على نقل تراث اليونان والرومان وحضارة العالم القديم[١]. ولقد كانت الفلسفة اليونانية والمعارف العلمية هي أعظم ما حملت سيولُ الترجمة، وقد مضى العقل العربيّ يسيغهما ويتمثّلهما ويضيف إليهما إضافات باهرة.

والمتكلّمون ـ وعلى رأسهم المعتزلة ـ هم أكثر من تعمّقوا في الفلسفة بجميع شعبها ودقائقها، وقد عرضوها على بساط البحث، واستطاعوا أن ينفذوا إلى كثير من النظريات والأفكار والآراء التي لم يسبق إليها سابق[٢]، فاعتركت بغداد وازدحمت بالثقافات المتباينة والرؤى المتقابلة التي تتقابل مع بعضها وتتجالد في معارك كلامية، وربّما كان الحكّام والسلاطين وراء هذا التنوّع والتباين والتباعد

١- يحيى وهيب الجبوري، **الكتاب في الحضارة الإسلاميّة**: ٦٨.

٢- رشيد الجميلي، **حركة الترجمة في المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة**: ٣٧٦.

الثقافي والفلسفي والسياسي الذي حصل في بغداد؛ يقول ابن الفقيه الهمداني: من جميل أمر بغداد أنّ السلطان آمنٌ من أن يغلب عليها رئيس لبعض الآراء كغلبة الطالبيين كثيراً بالشيعة على أهل الكوفة، وذلك أنّ ببغداد من مخالفي الشيعة من يُقرَن بالشيعة، وبها من مخالفي المعتزلة من يقرن بالمعتزلة، وبها من مخالفي الخوارج من يقرن بالخوارج. فكلّ فريق يقاوم ضدّه ويدفعه عن أن يرأسه، فقد تركوا الرئاسة للسلطان، ورمحوا تسليط القنا والتفاني بالحرب، ولكنّه ربّما عرضت الآفات وهجمتهم، وذلك أنّه إذا اتّصلت المكاره عليهم ودام فيهم جور الولاة وعوملوا من التعنّت وطلب الرُّشى وما لايحتمله إلّا الذليل وذو المَعِدة القليل، تهايجوا وفزعوا إلى التطوّع، فحدث منهم مثل الذي حدث عند خروجهم مع سهل ابن سلامة في أرباض الحربية، فإنّه اجتمع ـ لمّا تطوّع ودعا إلى إنكار المنكر ـ زهاء خمسمائة إنسان[1].

وقد شاءت الإرادة السماوية أن يبزغ نجم الإمام الجوادعليه السلام وسط هذا الجوّ المفعم بالعلماء والفلاسفة والحكماء، وهو بعدُ في أوّل صباه وفتوته المملوءة بالعلم والمعرفة التي لم تكن تتهيّأ لأحد إلّا لمن لامس المعجزوداناه، وهومن أهله وأرومته، وليس المعجزعنه ببعيد وقد امتدّ إليه غصن من أبيه وجدّه[2] فأورق في

١- بغداد مدينة السلام: ٨٠.

٢-. يقول الكاتب كامل سليمان: فبحثُ علم الإمام وفضله، كالبحث في علم رسول الله صلى الله عليه وآله الذي كان أمّيّاً، وطلع على العالم بقرآن تحدّى الفصاحات والعبقريات، وأطلّ على الإنسانيّة بشريعة انمسحت وانمسخت أمامها جميع التشريعات، من غيرأن يكون له معلّم.. بل علّمه الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم.. فالنظرفي مصدر علمهم كالتنكيش بالأصابع رمضاء النار التي يكوي حرّها اليدين، ويُعمي رمادها العينين، لأنّ النبيّ و أهل بيته صلوات الله عليهم تمَّ تخريجهم من الكلّية الإلهيّة العليا.. والإمامة كالنبوّة رتبة ربّانية لا شأن فيها لأهل

عروقه، فظهر منه ما اشتهر وعلا، وقد اقترن العلم والإعجاز لديه عليه السلام في صورة تبدو وكأنّها غير مألوفة وغير مناسبة مع سنّه، ومع كلّ هذا فقد نقل عدد من مشاهير المؤرّخين والعلماء والمصنّفين بعضاً من معجزات أو كرامات الإمام الجواد عليه السلام، واخترنا رواية الشيخ عبد الله الشبراوي الشافعي الذي تناول جانباً منها، فيقول: لمّا تُوفّي أبوه علي الرضا وقام الخليفة المأمون إلى بغداد بعد وفاة علي الرضا بسنة اتّفق أنّ المأمون خرج يوماً يتصيّد فاجتاز في طريق فوجد فيه صبياناً يلعبون ومحمّد الجواد عليه السلام واقف عندهم، فلمّا أقبل المأمون فرّ الصبيان ووقف محمّد وعمره إذ ذاك تسع سنين، فلمّا قرب منه الخليفة نظر إليه، فكأنّ الله تعالى ألقى في قلبه محبّة وقبولاً، فقال له: يا غلام، ما منعك أن لا تفرّ كما فرّ أصحابك ؟! فقال له محمّد الجواد مسرعاً: يا أمير المؤمنين، فرّ أصحابي فَرَقاً، والظنّ بك أحسن أنّه لايفرق منك مَن لاذنب له، ولم يكن بالطريق ضيق فأتنحّى عن أمير المؤمنين!

فأعجب المأمونَ كلامُه وحسن صورته، فقال له: ما اسمك يا غلام ؟فقال: محمّد بن علي بن موسى الكاظم، فترحّم الخليفة على أبيه وساق جواده إلى نحو وُجهته، وكان معه بُزاة الصيد، فلمّا بَعُد عن العمارة أخذ الخليفة بازياً منهم وأرسله إلى درّاجة، فغاب البازي عنه قليلاً، ثمّ عاد وفي منقاره سمكة صغيرة وبها بقايا من الحياة، فتعجّب المأمون من ذلك غاية العجب، ثمّ إنّه أخذ السمكة في يده وكرّ راجعاً إلى داره وترك الصيد في ذلك اليوم وهو متفكّر فيما صاده البازي من الجوّ، فلمّا وصل موضع الصبيان وجدهم على حالهم ووجد محمّداً معهم ففرّوا على جاري عادتهم إلّا محمّداً، فلمّا دنا منه الخليفة قال له: يا محمّد، فقال له: لبّيك يا

الأرض، ولا يُسأل عن علم أحدهما كيف كان؟ ولا أنّ فضله كيف صار؟ ولا عن النبوّة والإمامة كيف جَرَتا؟ لأنَّ كلّاً من النبيّ ووصيّه يكون خليفة الله في الأرض وسفيره بين العباد، وهو الذي عنته الآية الكريمة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾، (البقرة: ٣٠)، أي خليفة عنه سبحانه على خلقه، ولايمكن أن يكون كلّ إنسان خليفه. **محمّد الجواد الإمام المعجزة**: ٢٠.

أمير المؤمنين، قال: انظر ما في يدي. وذكر له القصّة، فأنطقه الله بأن قال: إنّ الله خلق في بحر قدرته المستمسك في الجو ببديع حكمته سمكاً صغاراً تصيد منها بزاة الخلفاء كي يَختبر بها سلالة بيت المصطفى. فلمّا سمع المأمون كلامه تعجّب أكثر ممّا كان، وجعل يطيل النظر فيه وقال: أنت ابن الرضا حقّاً، ومن بيت المصطفى صدقاً! وأخذه معه وقرّبه وبالغ في إكرامه و إجلاله و إعظامه، ولم يزل مُقبلاً عليه لِما ظهر له أيضاً بعد ذلك من بركاته ومكاشفاته وكراماته[1].

١- **الإتحاف بحبّ الأشراف**: ١٦٨: وسجّل السيّد عبد الزهراء عثمان محمّد على هذه الرواية ملاحظات مبيّناً مواضع الخلل فيها: ١-إنّ القصّة تذكر أنَّ الإمام الجوادعليه السلام قد التقى لقاءه المزعوم بالمأمون في بغداد، وتوحي أنّ الإمام عليه السلام كان مقيماً فيها. مع أنّ الوقائع التاريخية تؤكّد أنّ الإمام عليه السلام كان مقيماً في المدينة المنوّرة ولم يغادرها إلى بغداد إلّا بعد استدعاء المأمون له، بل إنّ كتب التاريخ تشير إلى أنّ الإمام الجوادعليه السلام لم يصحب أباه حتّى في رحلته إلى خراسان. توحي القصّة أنّ الإمام الجوادعليه السلام قد شهد للمأمون بالعدالة وحسن السلوك. ٣- إنّ القصّة حين تفترض أنَّ سبب العلاقة المزعومة بين الإمام عليه السلام والمأمون قد تمخّضت عن هذا اللقاء المذكور تحاول أن تستبعد التخطيط السياسي وراء عملية تلك العلاقة و ما تلاها من أحداث بضمنها مسألة تزويج الإمام عليه السلام ببنت المأمون. ٤- إنّ القصّة محبوكة حبكاً جيداً، حتى إنّ البعض من المؤرخين عدّها في جملة معاجز الإمام عليه السلام، لاسيّما وأنّها ذكرت في النهاية أنّ الباز الذي كان مع المأمون قد اصطاد حيّة، وبعض قال: سمكةً، خضراء البطن رقطة الظهر، أدخلت الدهشة على المأمون فقفل راجعاً ولقي الإمام الجوادعليه السلام في موقفه السابق مع الصبيان، فقال له: ما عندك من أخبار السماوات؟ وتقول القصّة: إنّ الإمام عليه السلام أجابه نعم يا أمير المؤمنين حدّثني أبي، عن آبائه، عن النبيّ عن جبرئيل، عن ربّ العالمين أنّه قال: بين السماء والماء بحر عجاج يتلاطم به الأمواج فيه حيّات خضر البطون رقط الظهور، يصيدها الملوك بالبزاة الشهب يمتحن به العلماء ... أو قال له كما يذكر بعض المؤرخين. فيختبرون بها سلالة أهل بيت النبوّة. وأحسب أنّ حبك القصّة بهذا الشكل الموحي بأنّها مكرمة للإمام عليه السلام أريد منها أن تمرّر هدفاً سياسياً يتلخص بتبرئة ساحة المأمون و إظهاره بمظهر الإنسان الوديع الحسن النيّة، الذي لم يشأ من وراء دعوته للإمام الجوادعليه السلام وتقريبه له، ومن ثمّ تزويجه من ابنته إلّا الحسن الجميل. **الإمام محمّد بن عليّ الجواد تاسع أئمّة أهل البيت عليهم السلام**: ٧٥.

العلويون والموقف الجهاديّ

لـم يهـدأ أهـل الملـل والنحـل والفـرق والاتّجاهـات السياسـية والعقائديـة المختلفة، في سعيهم الحثيث من أجل استلام زمام السلطة والإمامة السياسية والدينية، لغرض ترجمة عقائدهم وأفكارهم ووضعها في ميزان التطبيق العمليّ والواقعيّ، فلم يكن أصحاب المعتقد الإمامي وحدهم الذين ناضلوا وجاهدوا من أجل الإمساك بخيوط الدولة وشدّها بعقائدهم ورؤاهم لتحقيق الأهداف والآمال التي كلّفتهم الدماء والأموال والأعراض، لذا تساير السيف مع المنطق والكلام والبحث العقلي لتحقيق وتوطيد ما يرون، وكان الشيعة يشكّلون الخط الأوّل والفصيل المتقدّم في ساحات الجهاد، والمشعل المتّقد في صفحات الثورة في أوقات لاحقة من تاريخ المسلمين السياسيّ والكفاحيّ، ولم تعدم أو تفتقد اللوحة الكبيرة للشيعة من فصول ومساحات بيضاء خلت من مناظر الدماء المراقة، وربّما وضحت لديهم صورة المسالمة و التقّية من أجل حقن دماء المسلمين وعدم التفريط بها في حياة ثاني أئمّة الشيعة الإمام الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام، وفي وقت مبكّر من خلافته وبدء إمامته.

ولم تكن مهادنة الإمام الحسن عليه السلام مع السلطة الأموية، وتوقيع ميثاق الصلح مع معاوية، تعني بالضرورة إسقاط الحقّ عن البيت الهاشمي بفرعه العلوي وتجريده من لياقته في تسلّم أمور الدولة الإسلامية، و إنّما كانت هناك شِبهُ ردّة، أو إنّما حصلت مقدّمات ارتداد جاهليّ كان يلوح في أفق المسلمين، فأبصره الإمام الحسن عليه السلام ببصيرته ورؤيته الثاقبة للأمور، فصالح حقناً للدماء و تضحية و إيثاراً

منه لغرض استمرار الرسالة وديمومتها، بعدما لمس التعب والإعياء في صفوف جنوده الذين ملّوا من الحروب، وضعضعتهم الفتن والخطوب، واخترقتهم الدعاية الأموية، وربّما تسرّبت وتغلغلت إلى صفوفهم موجة جديدة من موجات الأعاصير الجاهلية التي كانت كامنة في نفوسهم فاتّقدت، وهي غير منفصلة عن الدعاية الأمويّة التي كان يؤجّجها جماعة من أهل الردّة والجاهلية، فأغوتهم وضلّلتهم هذه الأجواء المضطربة والمائجة التي لايمكن دفعها أو السيطرة عليها، فآثر الإمام الحسن عليه السلام المصالحة لحين انكشاف الأمور واتّضاحها، ولربّما تمرّ العاصفة الجاهلية و تهدأ فيرى رأيه، أو يعدّ العدّة فيعيد الكرّة لمنازلة جديدة أخرى، لكنّ الأحداث والأمور لم تَسِر وفقاً لصالح المسلمين بعد تخاذلهم، فاختار الله له الشهادة، وبذلك انتهت مرحلة من مراحل الكفاح والمواجهة الصامتة التي كان يقودها الإمام الحسن عليه السلام [١].

و إذا كانت ظواهر الأمور توحي بنوع من الانسحاب السياسيّ والتراجع

١- لم يكن يدرك عامّة أصحابه عليه السلام أنّ ما جرى من مصالحة مع معاوية لم يكن له إلّا قراراً استثنائيّاً اضطراريّاً اتّخذه قائد مبتلى بجيش مفكك يتداعى بين لحظة وأخرى، و جمعٍ موزّع في أفكاره ورؤاه السياسية، ولو لم يكن قرار الحسن عليه السلام مناسباً في اللحظة الحاسمة لانهار هذا الجيش و قُتل قائده بفتنة. ومع كلّ تقديرات الإمام الحسن عليه السلام الصائبة، فقد كان لكلّ قائد، لو قُدّر له أن يواجه أوضاع الإمام الحسن عليه السلام وظروفه، أن يتّخذ نفس الموقف المُصالِح التوافقيّ منتظراً مراحل سياسية قادمة تتيح له اتّخاذ القرار النهائي بشأن معاوية لو عاد التاريخ بأحداثه. وربّما يستطيع من أوتي بصيرة سياسية أن يقرأ ما كان يخطط له الحسن عليه السلام، فما جاء هنا لدينا من استنتاج يمكن قراءته من خلال التمعّن في ما جاء في خطاب الإمام الحسن عليه السلام الذي قال لأصحابه فيه: إنّ معاوية نازعني حقّاً هو لي دونه، فنظرتُ لصلاح الأمّة وقطع الفتنة، وقد كنتم بايعتموني على أن تسالموا مَن سالمتُ، وتحاربوا من حاربت، فرأيت أن أسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه، ورأيت أنّ حقن الدماء خيرٌ من سفكها، ولم أُرد بذلك إلّا صلاحكم وبقاءكم، و إن أدري لعلّه فتنة لكم ومتاع إلى حين. **مطالب السَّؤول في مناقب آل الرسول:** ٢٤١.

للخصم، لكنّ مسارات الواقع والحقيقة تستبطن الموقف الشرعيّ والرساليّ الذي كان يكتمه الإمام المعصوم المأمور بتسلّم الحكم ووضع الأحكام الشرعية في مسارها الصحيح، لكن فقدان الوعي الرساليّ وضعف الجبهة السياسية للمسلمين أرجأ إعلان الموقف الحقيقي للحسن عليه السلام في تلك الحقبة. وقل عن ظروف وأزمان بقيّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فالسجّاد والباقر والصادق والكاظم عليهم السلام لم يجدوا مناخاً مساعداً، ولا عدّة يمكن النهوض بها للثورة، أو تنفيذ المشروع الإصلاحي الذي يكتمل به البناء الإسلامي الذي أسّسته النبوّة، فآثروا عليهم السلام التقيّة أو الجهاد العلميّ والمعرفيّ.

والتقيّة في حياة الأئمّة المعصومين عليهم السلام جهاد صامت، أو انسحاب من المشاركة السياسية، أو تعطيل للمشاركة السياسية لحين توفّر الظرف والمناخ المساعد لها. أو يكون في معناها إرجاء الجهاد لحين من الدهر، يستطيع أن يقدّر ويعيد الإمام حسابات وتوقيتات ما كان للمعارك السابقة من نقاط ضعف أو قوّة، حيث كان الفشل نصيب أكثر المعارك التي قام بها وانبرى لها العلويون. واختلف الأمر في حياة الإمام الرضا والجواد عليهما السلام، حيث بادرت السلطة العبّاسيّة إلى استثمار الموج العاطفيّ الهائل في صفوف المسلمين، والذي كان يرى أنّ آل البيت هم أَولى بسياسة الأمّة، فخطّطت السلطة لامتصاص زخم الجماهير الناقمة، والذين كانوا يرون ويعتقدون أنّ ضالّتهم المنشودة وتحقيق آمالهم لايتمّ إلّا بقيادة شخص علويّ من آل البيت يمسك بزمام الأمور، فاتّجهت سياسة المأمون نحو المدينة لاستقدام سيّد البيت العلويّ ومنعه من تحريك جماهير المسلمين، أو منع الالتفاف الجماهيريّ الكبير الذي قد يشكّل جيشاً عفويّاً قوياً طائعاً للإمام، ولربّما يتّخذ هذا الاتجاه الجماهيريّ العارم أو يؤول إلى مسير جارف لا يقوى أحد على منعه أو الوقوف بوجهه حين يسير نحو البلدان أو يتّجه نحو السلطان نفسه، بعد اضطراب الأمور التي ربّما تؤدّي إلى زوال الدولة العبّاسية وانمحاقها. ومع هذا فموقف الإمامين الرضا والجواد عليهما السلام هو صفحة من صفحات الكفاح والجهاد

السياسيّ الذي كان تكليفاً إلهيّاً في المرحلة السياسية آنذاك. ومن المؤكّد أنّ عدم وضوح رؤية الأمور الحاصلة لعموم المسلمين الذين يفتقرون إلى البصيرة والهداية، ربمّا يعود هذا إلى ما غَشِيَ المسلمين من سُحب ضلالة وعمى، ظهرت بفعل سياسة دولتين خبيثتين: الدولة الأمويّة والدولة العباسيّة.

وكانت أغلب سياسات بني أميّة وبني العبّاس تردّ الناس عن الهداية الحقيقية، وتضللهم وتدفع المسلمين نحو الضياع، لئلّا تنمحق مصالحهم وتنكشف غواياتهم، وكذلك يقال عن الوضع والظرف الاجتماعي الذي كان عليه المسلمون، مدّة التسلّط الأمويّ والعبّاسيّ على السلطة، من اضطراب الأوضاع، وظهور فتن متلاحقة مزلزلة امتدّت إلى زمان إمامتهماعليهما السلام، يضاف إلى هذا الاضطراب والتزلزل قوّة دعاية السلطة القائلة والفاشية بين الناس إلى أنها فرع من آل البيت، وأنّ الزعامة القرشية والقبلية كانت بيد الآباء والأجداد، فالحكومة الدينية والمدنيّة هي من نصيب بني العبّاس.

و كلّ هذه الأوضاع والدعايات والمناخات التي سادت العالم الإسلاميّ الذي كان يقوده البيت العبّاسيّ، لم تكن تسمح أو تساعد حتّى على كشف الحقائق وتوضيحها للمسلمين، وما كان للسلطة من أدوات وآلات ومقوّمات النفوذ وغيرها ومن وسائل القهروالسيطرة، لم تكن كلّها أو بعضها تسمح لهماعليهما السلام، ربّما بأيّ شكل كان من أشكال مجابهة ومقاومة السلطة العبّاسية، هذه السلطة المتشبّثة بالحكم كانت تتوسّل بأيّ وسيلة، دينية كانت بظاهرها أو غير دينية، فكانت السلطة وبيوت آل العبّاس تبحث وتتحرّى عن كلّ وسيلة جديدة تيسّر لهم البقاء على هرم السلطة.

وعلى العموم عاش أئمّة الشيعة وقادتهم في كفاح وجهاد تتباين صوره وأساليبه طبقاً للحكم الشرعي الذي يتناسب مع معطيات الظروف والأحوال، وربّما

كانت التقيّة والمداراة للسلاطين وغيرهم صورة منها. وقد صارت التقيّة لذلك من أبرز معالم التشيّع؛ يقول الإمام الصادق عليه السلام: عليكم بالتقيّة، فإنّه ليس منّا مَن لم يجعلها شعاره ودثاره مع من يأمنه، لتكون سجيّته مع من يحذره[١]. ويقول الشيخ الصدوق: التقيّة فريضة واجبة علينا في دولة الظالمين، فمن تركها فقد خالف دين الإماميّة وفارقه[٢].

ويبدو من تاريخ الشيعة السياسيّ والعقائديّ أنّ التقيّة لم تكد تفارق قادة الشيعة وأتباعهم ومن سار بهداهم منذ وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله، ينقل الكاتب جعفر البيّاتيّ عن آراء العلماء: أنّ التقيّة لا تخضع لزمن معيّن، بل هي حكم مقترن بالحال والظرف، إلّا أنّ التقيّة اقترنت بعد وفاة النبي الأعظم صلى الله عليه وآله باسم أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، حتّى لم تفارقهم أحكامها بشكل أو بآخر. فكان لابدّ من صيانة الأنفس وحفظها من الأخطار والمهالك، كما لابدّ من صيانة المبادئ الحقّة للدين من التشويه والضغط وموجات الاستخفاف.. فظهرت الضرورات للكتمان والمداراة، واستبطان الحقّ، والسكوت عن بعض الإجراءات، والتظاهر بخلاف ما تنطوي عليه القلوب المؤمنة المتّقية، وإلى ذلك جرى التبليغ بنحو من السرّية، وثُبّتت الحقائق بعيداً عن أسماع وأنظار الطغاة وأهل الشرّ والحقد، واتّخذت مواقع الدفاع، بل والهجوم في بعض الحالات، حماية للأرواح البريئة، ودحراً للمنحرفين، ومحافظةً على قيم الإسلام الحقّة، بعد أن كانت التقيّة وسيلة في مواطن وأزمان خاصّة. ولقد نقل لنا التاريخ، من الفجائع والنكبات والكوارث والآلام التي روّعت أهل البيت النبويّ ومواليهم ما يُذهل العقول، ويصدع القلوب، ويروّع النفوس..

١- أمالي الطوسيّ ١: ٢٩٩.

٢- الهداية: ٩.

حتّى ليتحيّر المرء كيف يفسّر استمرارَ العقيدة وحصانتها، وتتابُعَ الأجيال المؤمنة وتعاقدها على دينها، وحفاظها على ما جاء به القرآن المجيد والسنّة الطاهرة، فقد بلغ في بعض الظروف الخوفُ من ذكر اسم عليّ بن أبي طالب عليه السلام فُكنّيَ بأبي زينب إيهاماً لأعدائه، و إرواءً لأوليائه..[١]. فظهرت لذلك أساليب متعدّدة ومتباينة للحفاظ على كيان المذهب وأتباعه ضمن إطار التقيّة ومسوّغاتها، والتي كانت تسير جنباً إلى جنب خطوط الكفاح السياسيّ والجهادي للشيعة.

والصورة التاريخية المنظورة ـ التي يتبنّاها جمع من الباحثين ترى ـ أنّ مرحلة الجهاد والكفاح السياسيّ للشيعة وقادتهم تبدأ من عام توقيع الهدنة مع معاوية، أوكأنّه العام القريب المتاخم للعام الذي امتدّت فيه يد الغدر لتضرب رأس الهداية والاستقامة، هذا الرأس الذي رفعه الإمام الهادي والحقّ المنادي عليّعليه السلام، وقد أرادت قوى الضلالة والجاهلية أن تغيّبه من ساحة المسلمين بإقصاء آل البيت عليهم السلام عن الزعامة السياسية للمسلمين، ولذلك اعتقدت الباحثة سميرة مختار الليثيّ بأنّ كفاح العلويين من أجل الوصول إلى السلطة يعتبر من هذا التاريخ، فتقول: كافح العلويون كثيراً من أجل الوصول إلى الخلافة (٤٠هـ-١٣٢هـ)، وناهضهم الأمويون وتتبّعوهم بالقتل والتنكيل، حتّى لجؤوا إلى الكتمان والتقيّة، وركنوا في أواخر العصر الأمويّ إلى الهدوء والاشتغال بالتجارة، أو الانصراف إلى الدين بدلاً من الاشتغال بالسياسة والحرب، وتولّى أبناء عمومتهم العبّاسيون الكفاح والنضال، ونجحوا في القضاء على الدولة الأموية، وأقاموا الدولة العبّاسية، وبدأت حركة المعارضة ضدّ قيام الدولة العبّاسية، وحملت الشيعة الزيدية لواء المقاومة الإيجابية، وأصبح بيت عبد الله بن الحسن بن الحسن مركزاً للثورة ضدّ

١- نظرات في التقيّة: ٢٦.

العبّاسيين [١].

وفي رحاب هذا الجهاد والكفاح الذي يراه ويؤرّخه عدد من الباحثين والمؤرّخين للتاريخ السياسيّ للشيعة، رأى بعضهم أنّ جهاد الشيعة اتّخذ صبغة إقليمية أكثر ممّا هي عقائدية، وآثر ثابت إسماعيل الراويّ أن يطلق مصطلح الثورات العراقية على الثورات العلوية التي انتظمت في هذا الاصطلاح، وعدّ الثورات العلوية أوّل خمس ثورات عراقية نهضت، فقال: الثورات العلوية، والتي أساسها الحبّ لعليّ عليه السلام وأهل بيته، والتي سعت لإعادة الحقّ المغتصَب في الخلافة، ومن هذه الثورات ثورة حجر بن عَدِيّ الكندي... [٢].

ولم يكن الحال مختلفاً في العهد العبّاسي الجديد عن الحقبة الأموية المنصرمة في واقع الأمر، فعندما ظفر العبّاسيّون بالخلافة استمرّ العلويون في موقفهم المعارض الذي اتّخذوه أيّام الأمويين، لأنّهم عدّوا أنفسهم أحقّ بالخلافة من العبّاسيين، وأنّ العبّاسيين سلبوهم حقّاً كان حسب اعتقادهم لهم، فبدأوا دَور معارضة جديدة وشاقّة ضدّ العبّاسيين [٣]. لأنّ أصل الدعوة للرضا من آل محمّد كانت متّجهة باتّجاه البيت العلويّ ، وكان العبّاسيون يسيرون بهذا الظلّ على أمل أن يكونوا في أطراف الدولة الجديدة، وأن يعيشوا في أكناف آل عليّ عليهم السلام ، يقول القاضي أبو حنيفة النعمان التميميّ المغربيّ: كان قيام أبي مسلم [الخراسانيّ] على بني أميّة بدعوة إمام الهدى من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام ، وأظهر القيام بثأر الحسين عليه السلام وصبغ بالسواد

١- **جهاد الشيعة**: ٨٠.

٢- **العراق في العصر الأموي من الناحية الإدارية والسياسيّة**: ١٥٨.

٣- خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلامي**:٨١.

أعلامه وألبسه رجالَه إظهاراً للحزن على الحسينعليه السلام والدعوة إلى الإمام من ولده، وهو مستور لايظهر خبره، ومكتوم لا يُعلَم أمره. فلمّا فشت الدعوة وظهرت، وقام بها الدعاة وانتشرت، وانتقصت أطراف مروان بن محمّد وهزمت جيوشه موقفاً بعد موقف، وهو في ذلك على عزم قويّ وكفاح شديد ومكابرة عظيمة، اضطُرّ الدعاة إلى أمر خافوا الفتق من أجله أن يظهروا الإمام، ورأوا أنّهم إن لم يفعلوا ذلك فسد الأمر عليهم وخافوا انحرافه في أيديهم، فطالعه في ذلك من يتّصل به منهم، فامتنع من الظهور وسلطان أميّة قائم وأمر مروان على ما كان عليه، فلمّا لم يجدوا في ذلك حيلة دبّروا أن يقيموا رجلاً يظهرون أنّه الإمام الذي دعوا إليه، حتّىٰ إذا أتوا على ما يريدون أزالوه وأظهروا الإمام. وكان أبو العبّاس عبد الله بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس حينئذٍ مطلوباً مستتراً وعلموا موضعه، فرأوا من الرأي أن يُظهروه أنّه هو الذي دعوا إليه، ولأنّه أيضاً من بني هاشم، فإذا تمّ الأمر أخّروه وأظهروا الإمام، ففعلوا ذلك، فلمّا قتل مروان [الحمار] وأرادوا ذلك وجدوا عمومة أبي العبّاس وأهل بيته قد آزروه ومنعوه، فلم يمكنهم في ذلك الوقت. . ثمّ مات أبو العبّاس وولي أخوه أبو الدوانيق [أبو جعفر المنصور]، وأراد أبو مسلم إظهار الأمر فعاجله أبو جعفر فقتله[١].

والظاهر أنّ بعضاً كان يعتقد بصدق نوايا أبي مسلم تجاه البيت العلويّ، والحقيقة لم تكن رؤية أبي مسلم العقائديّة واضحة في تشخيص وتسمية الشخص المؤمّل من آل البيت في خلافة المسلمين، وأبو مسلم شأنه شأن المسلمين الآخرين الذين كانوا يرون أنّ الخلافة يجب أن تكون لشخص هاشميّ من بيت الإمام عليّعليه السلام، لكون هذا البيت أقرب إلى النبيّصلى الله عليه وآله من جهة الأمّ والأب، من دون معرفة التفاصيل العقائدية والنصوص التي جاءت في هذا المجال، وربّما يصحّ

١- المناقب والمثالب: ٣٨٨.

انتساب أبي مسلم إلى فرقة هامشية من فرق الشيعة التي تعدّدت في زمن الإمام الصادق عليه السلام.

وقد ذكر بعض مؤرّخي التاريخ السياسي أنّه كانت أهم مبادئ المشروع العبّاسيّ وشعاراته آنذاك هو:

الدعوة إلى الإصلاح، أو الدعوة إلى الكتاب والسنّة. وهو شعار عامّ، وهو أشمل شعارات الدعوة العبّاسية. والواقع أنّ أحداثاً كثيرة تركت في النفوس آثاراً مريرة، مثل حصار الكعبة وانتهاك حرمة المدينة المنوّرة في واقعة الحَرّة، وسفك دماء أهل البيت، وسياسة القهر واضطهاد المعارضة، والابتعاد عن سيرة السلف الصالح، وحبّ الترف واللهو وكثرة مظاهره، وكثرة المذاهب وتصارعها، وظهور أقوال كثيرة غير مألوفة من قبل، والاعتماد على العصبية في الحكم.

و شعار المساواة بين الشعوب، وهو شعار ساهم في إنجاح الثورة العبّاسيّة و إنصاف الشعوب التي أسلمت واندمجت في الحضارة الإسلامية وصارت تتطلّع إلى المساواة، وهذا الشعار في ذاته مبدأ إنساني جليل لاتزال الأجيال تتعلّق به منذ القدم وتتخذه مثلاً أعلى، وهو شعار له معنى خاصّ في ديننا، وهو عدم التفرقة بين الناس بحسب ألوانهم أو دمائهم أو تاريخهم، وبيان أنّ أكرم الناس عند الله أتقاهم، وقد تستّر خلف هذا المبدأ دعاة العبّاسيين وشنّعوا به على بني أميّة وزعموا أنّهم انحرفوا عن هذا المبدأ الإسلاميّ الأصيل.

الإمامة للرضا من آل محمّد، وهذا الشعار رضيت عنه مجموعة كبيرة من الناس، سواء من الشيعة أو السنّة، وهو أنّ المبايعة للرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله بدون تعيين اسم ولا تعيين هل هو من من البيت العبّاسيّ أم من الطالبيين. وانتبه الشيعة بعد حين إلى أنّ العبّاسيين كانوا يخطّطون لأنفسهم، انتبهوا ولكن بعد

فوات الأوان [١].

واعتبر بعض المؤرّخين الانتصار العبّاسيّ على الأمويين أنّه انتصار أهل العراق ـ بعد الكفاح الطويل الذي دام قرابة القرن ـ على أهل الشام، ولذلك فقد نقل العبّاسيون مركزهم إلى العراق، ذلك الانتقال التاريخيّ الذي إن دلّ على شيء، فإنّما يدلّ على مدى الأهمّية التي علّقها العبّاسيون على القبائل العربيّة العراقيّة والخراسانيّة، خاصّة إذا علمنا أنّ أغلبية القبائل العربية الخراسانية تعود في الأصل إلى البصرة والكوفة، باعتبار أنّ العراق كان قاعدة الفتوحات العربية الإسلامية في بلاد إيران [٢]، وبالتالي وجود تيّار وهوى علويّ يغمر هذه القبائل المنحدرة من بيئة كانت محسوبة على الشيعة، وكانت هذه القبائل مشبّعة بأفكار قائلة بأنّ الخلافة هي من نصيب العلويين دون غيرهم من بني هاشم. وإلى ذلك أشار رياح بن عثمان بن حيّان المرّيّ حين ولّي المدينة، في حوار له مع الحاكم العبّاسيّ أبي جعفر المنصور فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا أهل خراسان فشيعتك، وأمّا أهل العراق فشيعة آل أبي طالب [٣]. وإن كانت هناك أفكار ورؤى متباينة لأهل العراق في تعيين الشخص المقصود والمسمّى لخلافة المسلمين، كما ظهر ذلك واضحاً في فرق الزيدية التي انقسمت على نفسها في تسمية الشخص العلويّ الممثِّل لآل البيت.

وظلّ هذا الانقسام والتأرجح بين فرق الشيعة في تسمية الإمام الخليفة حتّى امتدّ إلى حياة الإمام موسى الكاظم والرضا عليهما السلام، وقد راهن العبّاسيون على هذا

١- عيسى الحسن، **الدولة العبّاسية تكامل البناء الحضاري**: ١٨.

٢- فاروق عمر، **الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية**: ٧.

٣- **الكامل في التاريخ** ٥: ١٤٥.

التباين والانقسام الذي ظهر في صفوف الشيعة والذي صار سمة بارزة لهم في عصور بني العبّاس، وربّما كان للسلطة العبّاسية بعض الأثر في هذا الانقسام. ومن هنا قد يعدّ أو يكون متصوَّراً أنّ تاريخ بداية تشكّل الدولة العبّاسية ربّما يكون شاخصاً واضحاً لهم يؤشّر إلى مرحلة مهمّة، أو يفتح صفحة كبيرة من صفحات كتاب الكفاح الجهاديّ والسياسيّ للشيعة، والذي أرّخته الباحثة سميرة الليثيّ، وكما يظهر أثر هذا الاتجاه في تقسيم الشيخ الخضريّ لساحة المعارضة الشيعية، وهذا التقسيم موافق لتصوّرهما الخارجيّ عن الصورة الواقعية لحركة المعارضة الشيعية والتي توفّرت للباحثين والمؤرّخين بشكل إجماليّ وعموميّ، وربّما هو تقسيم درسيّ أكثر ممّا هو حقيقيّ واقعيّ.

فالملاحظ أنّ فرق الشيعة ـ بما في ذلك الفرقة الزيدية التي انخرطت في أغلب الحركات المسلّحة ـ لم تكن سوى فصيل ثائر ينتظر الانقضاض على السلطة. وعامّة الثورات والحركات الجهادية، والتي كانت تقلق الأمويين ومن ثمّ العبّاسيين من بعدهم، كانت ذات أطياف ورؤى ومسارات ومذاهب شتّى، فالزبيريون والخوارج وأصحاب النحل الأخرى والمصالح والأغراض المتعدّدة كان لهم نصيب كبير في إشعال لهيب الثورة وتأجيج حركة التمرّد على الدولتين الأموية والعبّاسية، فالساحة السياسية شهدت تحرّك فصائل غير منسجمة في رؤاها وفلسفتها وانحداراتها القبلية ، ولكنّها تآلفت في توسيع رقعة المعارضة السياسية التي كانت تشكّل خطراً مستديماً على السلطة الأموية والعبّاسية من بعدها.

وكانت أخطر ثورة وأوسعها واجهت الأمويين بعد نهضة الإمام الحسين عليه السلام هي ثورة عبد الرحمن بن الأشعث، وهي ثورة تعدّ بأنها كانت خارج نطاق المدار العلويّ، لكنّها لم تكن خالية من نثارات وخطوط علوية ساقتها مظالم الحجّاج إلى الانضواء تحت مظلّة ابن الأشعث، وكان لهذه الثورة من القوّة والتأثير أن انضمّ إليها

التابعيّ الجليل سعيد بن جبير[1] الذي كان حضوره في صفوف الثائرين أبلغ الأثر في انجذاب الفقهاء الكبار للثورة، كالشعبيّ[2] وغيره، ممّا دفع جمعاً غفيراً من الفقهاء والقرّاء إلى صفوف ابن الأشعث، و كان يتقدّمهم فقهاء أهل العراق، وكان ابتداء هذه الثورة سنة إحدى وثمانين، وبرواية الواقديّ سنة اثنتين وثمانين، وكان

---

١ - سعيد بن جبير بن هشام الوالبيّ الأسديّ، مولاهم، أبو محمّد، ويقال: أبو عبد الله الكوفيّ. روى عن ابن عبّاس وابن عمر وغيرهم، كان مشهوراً بالفقه والزهد والعبادة وعلم تفسير القرآن. وذكروا أنه كان يأتمّ بعلي بن الحسين السجّادعليه السلام، وكان عليّ بن الحسينعليه السلام يثني عليه، وذكر أنّه لمّا دخل على الحجّاج قال له: أنت شقيُّ بن كُسَير؟! قال: أمّي كانت أعرف باسمي، سمّتني سعيد بن جبير! قال: ما تقول في أبي بكر وعمر، هما في الجنّة أو في النار؟ قال: لو دخلت الجنّة ورأيت أهلها لعلمت من فيها، ولو دخلت النار ورأيت أهلها لعلمت من فيها. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: أيّهم أحبّ إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيّهم أرضى للخالق؟ قال: علمُ ذلك عند الذي يعلم سرّهم ونجواهم. قال: أبيتَ أن تصدقني! قال: بل لم أحبّ أن أكذبك. قتله الحجّاج سنة ٩٥ للهجرة وله تسع وأربعون سنة، ولم يبق بعده الحجّاج إلّا خمس عشرة ليلة، وحكي أنّ الحجّاج لم يقتل بعده أحداً لدعاء سعيدٍ عليه بقوله: اللهمّ لا تسلّطه على أحد يقتله بعدي. وحكى عمر بن عبد العزيز أنّه رأى الحجّاج في المنام بعد مدّة من موته، فقال: رأيته على شكل رماد على وجه الأرض، فقلت له: أحجّاج؟ قال: نعم، قلت: ما فعل الله بك؟ قال: قتلني بكلّ من قتلتُه مرّة مرّة، وبسعيد بن جبير سبعين مرّة، وأنا أرجو ما يرجوه الموحّدون. ينظر: **تهذيب التهذيب** ٤: ١١، **رجال الكشّي**: ١١٥، **روضة الواعظين** للنيسابوريّ ٢: ٧٦، **تنقيح المقال** للمامقانيّ ـ ط الحجرية ٢: ٢٥، **مناقب آل أبي طالب** لابن شهرآشوب ـ ط الحجرية ٢: ٢٧٠، **آثار البلاد وأخبار العباد** للقزوينيّ: ١٠٠.

٢- الشعبيّ هو أبو عمرو عامر بن شراحيل بن معبد الشعبيّ الحِميريّ، كوفي من شِعب هَمدان ينسب إليها، وقيل لمن كان منهم: شعبيون. روى عن أمير المؤمنين عليّعليه السلام وعن ابن عبّاس وأبي هريرة، وروى عنه إسماعيل بن أبي خالد والأعمش وأبو حنيفة. توفّي سنة ١٠٣ أو ١٠٤ للهجرة. ينظر: **تذكرة الحفّاظ** للذهبيّ ١: ١٧٩، **العِبر**: ٩٦.

سببها أنّ الحجّاج في سنة ثمانين جهّز الجيوش من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رتبيل ملك الترك، ليقضوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبي بكرة في السنة الماضية، فجهّز أربعين ألفاً، من كلّ من المِصرَين عشرين ألفاً، وأمّر على الجميع عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث، مع أنّ كان الحجّاج يبغضه، حتّى قال: ما رأيته قط إلّا هممت بقتله. ودخل ابن الأشعث يوماً على الحجّاج وعنده عامر الشعبيّ فقال: انظر إلى مشيته، واللهِ لقد هممت أن أضرب عنقه! فأسرّها الشعبيّ إلى ابن الأشعث، فقال ابن الأشعث: وأنا والله، لأجهدت أن أزيله عن سلطانه إن طال بي وبه المقام [١].

يقول أحمد بن داود الدينوريّ: ثمّ إنّ عبد الرحمن دبّ في عُبّاد أهل الكوفة وقرّائهم فقال: أيّها الناس، ألا ترون هذا الجبّار - يعني الحجّاج - وما يصنع بالناس! ألا تغضبون لله ؟ ألا ترون أنّ السنّة قد أُميتت، والأحكام قد عُطّلت، والمنكر قد أُعلن، والقتل قد فشا ؟ اغضبوا لله واخرجوا معي، فما يحلّ لكم السكوت. فلم يزل يدبّ في الناس في هذا وشبهه حتّى استجاب له القرّاء والعبّاد، وواعدهم يوماً يخرجون فيه... [٢].

وكانت سياسة الحجّاج تجريد مدينتي الكوفة والبصرة من العسكر. ورأى أنّ أحسن سبيل لاستقرار العراق وهدوئه هو إرسال أفراد القبائل القدامى في الكوفة والبصرة إلى سجستان، وإقناعهم تدريجيّاً بالمكوث والتوطّن هناك، وكان الكثير من هؤلاء من أبناء أو أحفاد أشراف ومؤسّسي هذين المصرين، ولكن لم يعجبهم قراره في إبقاء الجند السوريّ في العراق على الدوام، وحتّى ابن الأشعث قائد الجيش نفسه، فقد كان حفيد الأشعث بن قيس الكنديّ الذي كان بلا نزاع من أقوى رؤساء القبائل في الكوفة وأشهرها اسماً، لذلك فقد رأى الحجّاج أنّ التخلّص

١- **البداية والنهاية** لابن كثير ٩: ٣٩ و٤٣.

٢- **الأخبار الطوال**: ٣١٧.

من وجود هذه القومية المدلّة بأحسابها وتاريخها في العراق يخدم غرضين اثنين، هما: نشر الاستقرار في القطر العراقي، ودفع العرب إلى المزيد من الفتوح في المشرق[١].

وكان ابن الأشعث واعياً ومتفهّماً لغايات الحجّاج الذي دفعه وأمّره لقيادة هذا الجيش الكبير، فأعدّ العدّة للثورة ومنازلة الحجّاج، يقول الذهبيّ: في سنة إحدى وثمانين قام مع ابن الأشعث عامّة أهل البصرة مع العلماء والعبّاد فاجتمع له جيش عظيم، والتقوا عسكر الحجّاج يوم الأضحى، فانكشف عسكر الحجّاج وانهزم هو، وتمّت بينهما بعد ذلك عدّة وقعات، حتّى قيل: كان بينهما أربع وثمانون وقعة على الحجّاج والآخرة كانت له[٢]، فأشعلت نوايا الحجّاج وما كان يعتمل في ذهن ابن

١- محمّد عبد الحي شعبان، **الثورة العبّاسية**: ١٢٦.

٢- **العبر**١: ٦٨. وأمّا ساحة ومكان هذه الوقعات فلم تكن تتجاوز أربع مناطق، وأشهرها من بين هذه المناطق دير الجماجم، التي كانت تقع على سبعة فراسخ من الكوفة، كما ذكر الزمخشريّ في **الجبال والأمكنة**: ٥٥. و قال ابن قتيبة: حدّثني سهل بن محمّد عن الأصمعيّ قال: كان لابن الأشعث أربع وقعات، وقعة بالأهواز، ووقعة بالزاوية، ووقعة بدير الجماجم، ووقعة بدجيل. قال: وقال أبو عبيدة: إنّما قيل: دير الجماجم، لأنّه كان يعمل فيه الأقداح من خشب. **المعارف**: ٣٥٧. والجمجمة: قدح من خشب، والجمع الجماجم. وقيل: سمّي دير الجماجم، لأنّه بُني من جماجم القتلى لكثرة من قُتل به. ينظر: **لسان العرب** (جمم). وقال البكريّ: سمّي دير الجماجم بوقعة إياد على أعاجم كسرى بشاطئ الفرات الغربي، قتل جيشه فلم يفلت منهم إلّا الشريد. وجمعوا جماجمهم فجعلوها كالكوم، فسمّي ذلك المكان دير الجماجم.. وقال أبو الفرج: هو دير بظاهر الكوفة على طريق البرّ الذي يسلك إلى البصرة، وفيه كانت الوقعة بين الحجّاج بن يوسف وبين عبد الرحمن بن الأشعث، وذلك أنّ ابن الأشعث لمّا رأى كثرة من معه من الجيش بالبصرة، وقد نازله الحجّاج بها، خرج يريد الكوفة، ورأى أنّ أهلها أطوع له من أهل البصرة، لبغضهم للحجّاج، ولأنّه يجد بها من عشائره ومواليه أنصاراً كثيرة، فسار إليها وسايره الحجّاج، فنزل ابن الأشعث دير الجماجم ونزل الحجّاج بإزائه بدير قرّة، ووقعت الحرب بينهما ثمّ انهزم ابن الأشعث فعاد إلى البصرة. **معجم ما استُعجم من أسماء البلاد والمواضع** ٢: ١٨٨.

الأشعث، ومن ضمنها الخلافات الشخصية العارمة بينهما[١] ثورة كادت أن تزيل الدولة الأموية وتطمرها في مقبرة التاريخ، لولا ما كان لها من تقدير في أن تواصل أمدها الزمنيّ المحدود ثمّ تندثر.

وحملت أحداث سنة اثنتين وعشرين ومائة أضخم ثورة علوية قادها زيد بن

١- اختلف المؤرّخون في تعليل أسباب العداوة التي كانت قائمة بين الحجّاج وعبد الرحمن بن الأشعث، قال ابن قتيبة: ذكروا أنّ الحجّاج لمّا قدم العراق أميراً، زوّج ابنه محمّداً ميمونة بنت محمّد بن الأشعث بن قيس الكنديّ، رغبة في معروفيّتها، مع ما كانت عليه من جمالها وفضلها في جميل حالاتها، وأراد من ذلك استمالة جميع أهلها وقومها إلى مصافاته ليكونوا له يداً على من ناوأه، وكان لها أخ يقال له عبد الرحمن بن محمّد بن الأشعث الكنديّ. له أبّهة في نفسه، وكان جميلاً بهيّاً منطيقاً، فازدهاه ذلك وملأه كِبراً وفخراً وتطاولاً، فألزمه بنفسه وألحقه بأفاضل أصحابه وخاصّته وأهل سرّه، وأجرى عليه العطايا الواسعة صلة لصهره وحبّاً لإتمام الصنيعة إليه وإلى جميع أهله. فأقام عبد الرحمن كذلك حيناً مع الحجّاج لايزيده الحجّاج إلّا إكراماً ولايظهر له إلّا قبولاً، وفي نفس الحجّاج من عجبه ما فيها لتشمّخه زاهياً بأنفه. حتّى إنّه كان ليقول إذا رآه مقبلاً: أما والله يا عبد الرحمن، إنك لَتُقبل علَيّ بوجه فاجر، وتدبر عنّي بقفاء غادر، وأيم الله، لتبتلينّ حقيقة أمرك على ذلك. فمكث بهذا القول منه دهراً، حتّى إذا عيل صبر الحجّاج على ما يتطلّع من عبد الرحمن، أراد أن يبتلي حقيقة ما يتفرّس فيه من الغدر والفجور، وأن يبدي منه ما يكتم من غائلته، فكتب إليه عهده إلى سجستان. فلمّا بلغ ذلك أهل بيت عبد الرحمن فزعوا من ذلك فزعاً شديداً، فأتوا الحجّاج فقالوا له: أصلح الله الأمير، إنّا أعلم به منك، فإنّك به غير عالم، ولقد أدّبته بكلّ أدب فأبى أن ينتهي من عجبه بنفسه، ونحن نتخوّف أن يفتق فتقاً أو يُحدث حدثاً، يصيبنا فيه منك ما يسوؤنا، فقال الحجّاج: القول كما قلتم، والرأي كالذي رأيتم، ولقد استعملته على بصيرة، فإن يستقم فلنفسه نظر، وإن يفترج سبيله عن بصائر الحقّ يُهدَ إليها إن شاء الله. فلمّا توجّه عبد الرحمن إلى عمله توجّه وهو مصرّ لخلع طاعة الحجّاج.. ينظر: **الإمامة والسياسة** ٢: ٤٤.

علي بن الحسين عليهما السلام في الكوفة[١] لمّا أحسّ زيد بظلم وعسف هشام بن عبد الملك

١- كان الأئمّة المعصومون عليهم السلام متفهّمين لقيام زيد ونهضته، فيروى عن الصادق عليه السلام قوله: إنّ عمّي كان رجلاً لدنيانا وآخرتنا، مضى والله عمّي شهيداً كالشهداء.. ورُوي عنه عليه السلام أيضاً قوله: ما مضى واللهِ زيد عمّي وأصحابه إلّا شهداء مثل ما مضى عليه عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأصحابه. كما جاء في **عيون أخبار الرضا** ١: ٢٥٢. لكنّ مسيرة الحركة الزيدية وأتباعها الذين تفرّقوا بعد إخفاق حركتهم لم يكونوا بمستوى تفكير صاحب الحركة، فتعرّضت لانحرافات وتشققت إلى كتل غير واعية لم تكن تعي أهداف الحركة وبرامجها الأصلية، لذا لم تجد تفاعلاً وانسجاماً مع الإمام المعصوم، فتباعدت كثيراً عن فلسفة و رؤية الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فاستاء منها الإمام الصادق عليه السلام ولم يفتح لها أبوابه، فظلّت تتخبّط على غير هدى. يروي الكلينيّ بإسناده عن عمرو بن عثمان عن أبي شبل قال: دخلت أنا وسليمان بن خالد على أبي عبد الله عليه السلام فقال له سليمان بن خالد: إنّ الزيدية قوم قد عرفوا وجرّبوا وشهرهم الناس، وما في الأرض محمّديّ أحبّ إليهم منك، فإن رأيت أن تُدنيَهم وتقرّبهم منك فافعل، فقال: يا سليمان بن خالد، إن كان هؤلاء السفهاء يريدون أن يصدّونا عن علمنا إلى جهلهم فلا مرحباً بهم ولا أهلاً، و إن كانوا يسمعون قولنا وينتظرون أمرنا فلا بأس. **الكافي** ٨: ١٥٩ - ١٦٠ / ح١٥٨. والأئمّة المعصومون عليهم السلام بما توفّر لديهم من علم ربّاني لم يتعجّلوا في اتّخاذ أيّ قرار سياسي أو جهادي لا جدوى فيه، وكان زيد وابنه يحيى يصدّقانِ مجمل ما يقوله الإمام المعصوم، ولكنّهما وجدا أنّهما في موقفٍ يقتضي النهوض و الشهادة . وفي خبر أسند إلى عمير بن متوكّل البلخيّ عن أبيه المتوكّل بن هارون قال: لقيت يحيى بن زيد بن عليّ بن الحسين عليهما السلام، وهو متوجّه إلى خراسان، فسلّمت عليه، فقال لي: من أين أقبلت؟ فقلت: من الحجّ. فسألني عن أهله وبني عمّه بالمدينة، وأحفى السؤال عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، فأخبرته بخبرهم وخبره، وحزنهم على أبيه زيد بن عليّ، فقال لي: قد كان عمّي محمّد بن عليّ [الباقر] عليه السلام أشار على أبي بترك الخروج، وعرّفه إن هو خرج وفارق المدينة مايكون إليه مصيره، فهل لقيتَ ابن عمّي جعفر بن محمّد عليه السلام؟ قلت: نعم، قال: أسمعتَه يذكر شيئاً من أمري؟ قلت: نعم، قال: بما ذكرني أخبِرني؟ قلت: جُعلت، فداك، ما أُحبّ أن أستقبلك بما سمعته منه، قال: أبالموت

ابن مروان على الرعية وإهانته له في مجلس ضمّ زيداً معه؛ قالوا: كان ملوك بني أُميّة تكتب إلى صاحب العراق: أن امنع أهل الكوفة من حضور مجلس زيد بن عليّ، فإنّ له لساناً أقطع من ظُبّة السيف، وأحدّ من شبا الأسنّة، وأبلغ من السحر والكهانة ومن النفث في العُقَد. قال له يوماً هشام بن عبد الملك: بلغني أنّك تروم الخلافة؛ وأنّك لا تصلح لها، لأنّك ابن أَمَة، فقال له زيد: قد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمة وإسحاق ابن حُرّة، فأخرج الله من صلب إسماعيل خيرَ وُلد آدم، فقال له: قم، فقال: إذاً لاتراني إلّا حيث تكره. فلمّا خرج من الدار قال: ما أحبَّ أحدٌ الحياة إلّا ذلّ، فقال له سالم مولى هشام: بالله لايسمعنّ منك هذا الكلام أحد[1].

وقيل: من أسباب قيام زيد على هشام أنّ هشاماً طالبه وأمر بالقبض عليه، وذلك لمّا عزل خالد بن عبد الله القسري عن الكوفة. وقد تسارعت أحداث أخرى عجّلت بقيام زيد حين أخذه يوسف بن عمر الثقفيّ بمكّة، واتّهمه أن يكون عنده مال خالد بن عبد الله، وأخذ معه داود بن عليّ، ثمّ أطلقه يوسف بن عمر، فغضبت له الشيعة، وأتوه فسألوه القيام معهم. وقيل: إنّ سبب قيامه رؤيا رآها، وأنّه أُمر بالقيام

تخوّفني، هاتِ فأسمِعنيه، قلت: سمعته يقول: إنّك تُقتل وتُصلب كما قتل أبوك وصلب! فتغيّروجهه، وقال: يمحو الله ما يشاء ويُثبت وعنده أمّ الكتاب، يا متوكّل، إنّ الله أيّد هذا الأمر بنا، وجمع لنا العلم والسيف، وخصّ بني عمّنا بالعلم وحده، فقلت: جعلت فداك، إنّي رأيت الناس إلى ابن عمّك جعفربن محمّد عليه‌السلام أميلَ منهم إليك وإلى أبيك! فقال: نعم، عمّي محمّد بن عليّ عليه‌السلام وابنه جعفر عليه‌السلام دَعَوا الناس إلى الحياة، ونحن دعوناهم إلى الموت، فقلت: يا ابن رسول الله، أهم أعلم أم أنتم؟ فأطرق إلى الأرض مليّاً، ثمّ رفع رأسه وقال: كلّنا لنا علم، إلّا أنّهم يعلمون ما نعلم، ولا نعلم كلَّ ما يعلمون. **عيون الأخبار وفنون الآثار** للقرشي - السبع الرابع: ٢٩٣.

١- **نور الأبصار** للشبلنجيّ: ٤٠٢.

على هشام[١]. وكادت هذه الثورة أن تطيح بكيان الدولة الأموية، لكن لم يقدّر لها النصر لظروف وملابسات أحاطت بها بعد مباغتتها مِن قِبل النظام الأمويّ.

وكانت مقدّمات انهيار البناء الأمويّ قد بدت في الأفق، فلم تمضِ مدّة مديدة على دويلتهم حتّى آلت الأوضاع السياسية للأمويين على غير ما يريدون، فقد شهدت الأطراف الشرقية من الدولة الأموية في عهد هشام حركتين: إحداهما حركة عبّاسية سرّية تقوم على الدعوة وتتجسّس الخطى وتمضي في رويّة متجنّبة المسالك الوعرة، والأخرى حركة علوية اتّخذت شكلاً ثورياً علنياً، تحشّد الجيوش وتواجه القوّات الأموية في ساحات القتال. وقد قدم أهل العراق على زيد بن علي ابن الحسين عليه السلام يستحثّونه على البقاء في الكوفة، وكان الحاكم الأمويّ هشام قد أمر واليه بإبعاد زيد عن الكوفة إلى المدينة، فقالوا له: أين تخرج ـ رحمك الله ـ ومعك مائتا ألف سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان يضربون بني أميّة بها دونك، وليس قِبلَنا من أهل الشام إلّا عدّة؟![٢] فاستجاب زيد لطلبهم ومكث في الكوفة بانتظار إعلان الثورة من هناك، ولكنّه تعجّل في أمره لأسباب، وربّما كانت المهاترات واللجاجات الفكرية والسياسية سبباً في إضعاف حركة زيد وتفرّق أتباعها، ومع هذا الانعطاف والتفرّق في الرأي لم يمنع إرادة زيد في المضيّ في طريق الثورة ومجاهدة الحكّام الأمويين، ولكن لم يكتب لهذه الحركة النجاح المرجوّ آنذاك، ولو قُدّر له ولأصحابه التأنّي و دراسة الأوضاع السياسية والعسكرية واستيعابها لأثّرت في قلب الأوضاع وتحويلها لصالح الثائرين.

و إذا كان الحاكم الأمويّ قد استراح وأمن من حركة ثورة زيد وأتباعه، فإنّ هذا

١- **عيون الأخبار وفنون الآثار** للقرشيّ، السبع الرابع: ٢٣١.

٢- سميرة الليثي، **جهاد الشيعة**: ٤٩.

لايعني في منطق الثورات أن لاتقوم حركة أو نهضة أخرى تشاكلها أوربّما تكون أخطرأو أقوى منها، كما ولا يعني أنّ هذه الحركة قد اندثرت أو تلاشت، فما زالت دوافع ومبررات الثورة قائمة، فغياب هشام وظهور رأس جديد يسوس الأمّة أسوأ من سابقه يعني قيام ثورة وحركة جديدة تتّخذ مكاناً آخر وزمناً لايبعد كثيراً عن زمن الثورة الأولى، ومن هنا فقد ظهر في أيّام الوليد بن يزيد بن عبد الملك علويّ آخر من بقايا زيد، هو يحيى ابن زيد ابن عليّ بن الحسين عليهم السلام بالجُوزَجان من بلاد خراسان، ثائراً لدم أبيه، ومستنكراً للظلم الوخيم وما عمّ الناسَ من الجور، فسيّر إليه نصر بن سيّار سلم بن أحوز، فقتل يحيى في المعركة بقرية يقال لها أرغونة [1]، وُدفن هناك، وقبره مشهور مزور إلى هذه الغاية. وكان ليحيى وقائع كثيرة، وقد قُتل يحيى في المعركة بسهم أصابه في صدغه، فولّى أصحابه عنه يومئذ واحتُزّ رأسه فحُمل إلى الوليد، وصلب جسده بالجوزجان، فلم يزل مصلوباً إلى أن خرج أبو مسلم الخراسانيّ صاحب الدولة العبّاسية، فقتل أبو مسلم سلم بن أحوز، وأنزل جثّة يحيى فصلّى عليها في جماعة أصحابه، ودفنت هنالك [2].

١- جاء في رواية ابن عنبة أنّ يحيى بن زيد قُتل يوم الجمعة وقت العصر بقرية يقال لها: أرغوى سنة خمس وعشرين ومائة، واحتزّ رأسه سورة بن محمّد، وأخذ العنزيّ (خ ل: الغنوي) سلبه، وهذان أخذهما أبو مسلم المروزيّ فقطع أيديهما وأرجلهما وصلبهما. قُتل يحيى وله ثماني عشرة سنة، وبُعث برأسه إلى الوليد بن يزيد، فبعث به الوليد بن يزيد إلى المدينة، فجُعل في حجر أمّه ريطة بنت أبي هاشم عبد الله بن محمّد ابن الحنفية، فنظرت إليه فقالت: شرّدتموه عنّي طويلاً، وأهديتموه إليّ قتيلاً. فلمّا قتل عبدُ الله بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس مروانَ بن محمّد بن مروان، بُعث برأسه حتّى وضع في حجر أمّه، فقالت: هذا بيحيى بن زيد. **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب:** ٣١٨ ـ ٣١٩.

٢- **مروج الذهب** للمسعوديّ ٤: ٤٩.

ولم تكن ثورة يحيى بن زيد خاتمة أو نهاية في تاريخ الثورات، علوية كانت أو هاشمية أو غيرها من الثورات، بل جاءت ثورة هاشمية جديدة لم يكن يُحسَب لها حساب، ففي هذه المرّة كانت هناك ثورة هاشمية لم يكن للبيت العلويّ فيها نصيب من القيادة، هي ثورة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفربن أبي طالب، الذي نهض عام ١٢٧هـ في السنين الأخيرة للدولة الأموية، وذلك حين رأى جمع من الشيعة ضعف عبد الله بن عمربن عبدالعزيزوالي الكوفة، فطمعوا فيه ودعوا إلى عبد الله بن معاوية، واجتمعوا في المسجد وثاروا، وأتوا عبد الله بن معاوية وأخرجوه من داره وأدخلوه القصر-أي قصر الوالي الأمويّ - ومنعوا عاصم بن عمر أخ عبد الله ابن عمرعن القصر، فلحق بأخيه في بالحيرة، وجاء ابنَ معاوية الكوفيون فبايعوه، فيهم: عمربن الغضبان، ومنصور بن جمهور، و إسماعيل بن عبد الله القسري أخو خالد القسري، وأقام أيّاماً يبايعه الناس، وأتته البيعة من المدائن وفم النيل واجتمع إليه الناس [1].

وقيل بأنّ حركة عبد الله بن معاوية كانت في سنة تسع وعشرين ومائة من هجرة النبيّ محمّدصلى الله عليه وآله، فظهر بالكوفة وأجابه جماعة بها، ثمّ قال له رجال من أهل الكوفة: قد مُني رجال منّا بسببكم، وقتل أكثرنا معكم، فاخرج إلى فارس فإنّ بها أهل مودّة لكم. فخرج إلى أصبهان ودعا إلى نفسه، فأجابه ناس كثيرمن العرب والعجم، فاستخرج الأموال واستولى على أرض فارس كلّها وأصبهان وما والاها من البلاد، واستعمل: أخاه الحسن بن معاوية على اصطخر، وأخاه يزيد بن معاوية على شيراز، وعليّ بن معاوية على كرمان، وصالح بن معاوية على قمّ. وجاءه بنو هاشم، فمن أراد منهم عملاً استعمله، ومن أراد صلة وصله، وقدم عليه معهم أبو جعفر

١- الكامل في التاريخ ٥: ٦.

المنصور وأبو العبّاس السفّاح ابنا محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلب فولّاهما بعض الكُوَر[١]. وكانت لابن معاوية جولة و دولة في هذه الأماكن، و إن لم تطل أيّامه كثيراً.

وهناك رواية أخرى في حركته باتّجاه هذه المناطق تقول: بعد أن مُني بهزيمة هناك ـ أي في الكوفة ـ سار ابن معاوية من الكوفة فنزل المدائن، فأتاه قوم من أهل الكوفة فخرج بهم فغلب على حلوان والجبال وهمدان وأصبهان والري، وخرج إليه عبيد أهل الكوفة، فلمّا غلب على ذلك أقام بأصبهان، فأتاه الناس، بنو هاشم وغيرهم، وجبى المال وبعث العمّال، وكان معه منصور بن جمهور، وسليمان بن هشام بن عبد الملك، وشيبان بن الحلس بن عبد العزيز الشيباني الخارجيّ، وأتاه أبو جعفر عبد الله المنصور وعبد الله وعيسى ابنا عليّ العبّاسيّ. .[٢]، فتجدّد به الأمل على أن يسير بهؤلاء قُدماً، لاستكمال تأسيس دولته الهاشمية على أنقاض الصرح الأموي، وتحقيق أحلام الدولة الكبيرة التي كان يأمل فيها من تحقيق أهداف حركته والمبادئ التي يحملها بين جنبيه والتي نسبت إليه، إلّا أنّ الهزائم سرعان ما حلّت بمجموعته غير المتآلفة، ففرّ بجمع من أصحابه ومعه أخواه الحسن ويزيد مؤمّلاً صوب خراسان، لعلّه يجد ملاذاً له ولآماله العريضة، إلّا أنّ الدعاية العبّاسية خذلته وبدّدت آماله، ففتيان بني العبّاس وأتباعهم وجماعاتهم وفرقهم التي كانت قد اتّخذت لها مواقع في أرض خراسان وما أحاط بها قد سبقته ووأدت آمال حركته، فحين وصل عبد الله بن معاوية إلى نواحي هراة تلقّاه مالك بن الهيثم الخزاعيّ، فأرسل إلى عبد الله بن معاوية يسأله عن قدومه، فقال له ابن معاوية: بلغني أنّكم

١- عيون الأخبار وفنون الآثار السبع الرابع: ٢٩٧.

٢- تاريخ الطبري ٦: ٣٨ ـ ٣٩.

تدعون إلى الرضا من آل محمّد فأتيتكم. فأرسل إليه مالك: انتسب نعرفك. فانتسب له، فقال: أمّا عبد الله وجعفر فمن أسماء آل رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمّا معاوية فلا نعرفه في أسمائهم! فقال عبد الله: إنّ جدّي كان عند معاوية لمّا وُلد له أبي، فطلب إليه أن يسمّي ابنه باسمه ففعل، فأرسل إليه معاوية بمائة ألف درهم. فأرسل إليه مالك: لقد اشتريتم الاسم الخبيث بالثمن اليسير، ولا نرى لك حقّاً فيما تدعو إليه. ثمّ أرسل إلى أبي مسلم يعرّفه خبره، فأمره أبو مسلم بالقبض عليه وعلى من معه، فقبض عليهم وحبسهم، ثمّ ورد عليه كتاب أبي مسلم يأمره بإطلاق الحسن ويزيد ابني معاوية، وقتل عبد الله بن معاوية، فأمر مَن وضع فراشاً على وجهه فمات، وأُخرج فصُلّي عليه ودُفن، وقبره بهراة معروف[١].

وهناك من يعتبر حركة عبد الله بن معاوية أقلّ تأثيراً من ثورات الخوارج، ويعتبر إنجازاتها العسكريّة أدنى وأقلّ من حركات الخوارج، إلّا أنّ ذلك لايقلل من أهمّية هذه الحركة الكامنة في قدرتها الكبيرة على جمع اتّجاهات وقوى سياسية متنافرة ومتصارعة تحت مظلّة واحدة، بحيث مثّلت هذه الحركة نوعاً من جبهة وطنية متّحدة، حسب قول وتعبير الكاتب عصام سخنينيّ[٢].

فهذه الحركة ربّما كانت من الثورات الخطيرة، ولكنّها لم تتواصل في أتباعها أو تتفاعل في تأثيراتها في ثورات وجماعات تنتسب إليها فتتجدّد أفكارها وأتباعها، كما جرى للثورة التي أشعلها زيد بن عليّ عليه السلام، والتي سجّلها التاريخ في تلك الحقبة، فظلّت منابرها قائمة، وما زال فقهاء الزيدية يتوارثون أحكام الأجداد ويستلهمون دروسهم، وكأنَّ لو قُدّر لحركة عبد الله بن معاوية النجاح لكان لها لون

١- الكامل في التاريخ ٥: ٣٨.

٢ - العبّاسيون في سنوات التأسيس: ٣٣.

هاشمي آخر، ربّما ضاهى دولة بني العبّاس في تركيبتها الإدارية والسياسية. وكأنّ ثورة كبرى وواسعة غمرت الشرق وزلزلته، و قد تحرّكت من بلاد خراسان البعيدة، والتي كان دعاة بني العبّاس تقدّموا لركوبها ليمهّدوا لبني العبّاس الحكم و السلطة باسم آل النبيّ صلى الله عليه وآله وظلامة آل عليّ عليه السلام، هي أهمّ الحركات والثورات وأقواها وأوسعها فقلبت كلّ المعايير. وكأنّ الآمال والأحلام الكبيرة ـ والتي كان المسلمون ينتظرون تحقّقها ـ قد تبخّرت وذابت بانفراد بني العبّاس بالزعامة الهاشميّة، دون آل عليّ عليه السلام الذين كانوا يشاركونهم في الكفاح والنضال ضدّ الحكم الأموي، ممّا خلق جوّاً ومناخاً باعثاً على تجدّد شعلة الثورة والانتفاضة ضدّ الحكّام الجدد من بني العبّاس.

وقد أدرك العبّاسيون بأنّ الحسنيّين كانوا أكثر إلحاحاً ومجالدة في المطالبة بحقوقهم، في حين سلّم الحسينيون أمرهم إلى الصبر وانتظار دولة الحقّ والعدل الإلهيّ التي بشّر بها النبيّ صلى الله عليه وآله، وذلك حين يأذن الله لها، وتظهر دعوة الحقّ على يد الإمام المنقذ والخلف الصالح الإمام محمّد بن الحسن المهدي عليه السلام، الذي علّق عليه أتباع أهل البيت عليهم السلام آمالهم، فصبروا وآثروا الانتظار والموادعة لحين ظهوره عليه السلام وتحقّق الفَرَج.

وقد تعرّض أوّل حاكمٍ عبّاسيّ لامتحان واختبار بالصوت الحسنيّ الجهير، وذلك حين ولج عبد الله بن حسن المثنّى بن الحسن بن عليّ عليهما السلام على السفّاح في أوّل حكومته ـ ومعه مصحف ـ وعند السفّاح وجوه بني هاشم من أهل بيته وغيرهم، فقال: يا أمير المؤمنين، أعطنا حقّنا الذي جعله الله لنا في هذا المصحف... فأقبل السفّاح عليه غير مغضب ولا منزعج، فقال: إنّ جدّك عليّاً كان خيراً منّي وأعدل، وقد وليَ هذا الأمر فأعطى جدَّيك الحسن والحسين عليهما السلام شيئاً ؟ وكانا خيراً منك، قد أعطيتكه وزدتك عليه، فما كان هذا جزائي منك ! فما

ردّ عليه عبد الله بن الحسن جواباً [١].

وكأنّ هذه المحاورة هي بداية المواجهة والمنازلة التي أفضت إلى ثورة قويّة كادت أن تنجح فتغيّر موازين القوى في التاريخ السياسي للمسلمين، وقد تعاطف جمع كبير من الفقهاء وعامّة المسلمين مع هذه الحركة في بدء الدولة العبّاسيّة، إلّا أنّ قادة الفرع الحسنيّ من البيت العلويّ لم يتّخذوا الدروس الكافية من الثورات السابقة، ولم يحصّنوا مواقعهم تحصيناً جيّداً، فتسلّلت بين أتباعهم قوى جندها العبّاسيون، كما وأنّ جيشاً لايمتلك العدّة والمال الكافي لايمكنه الصمود طويلاً في مقارعة دولة لها إمكانيات هائلة، والذي يبدو لم تكن هذه الصورة إلّا صفحة من صفحات المجالدة والاحتراب بين البيتين العبّاسيّ والعلويّ الذي رافق تاريخ الدولة العبّاسية بعصورها وأدوارها المختلفة [٢].

١- البداية والنهاية ١٠: ٦٣.

٢- لم يكن الفرعان الحسنيّ والحسينيّ وحدهما في دائرة الصراع والمجالدة التي رافقت تاريخ العبّاسيين في عصورهم المختلفة، فالمنسوبون إلى الإمام عليّ عليه السلام كلّهم يعدّون في عداد قائمة الأعداء والمعارضين لإمارة بني العبّاس، وهناك محاورة جرت بين المتوكّل العبّاسي وأحد أحفاد محمّد ابن الحنفية تحكي هذا الوضع، فيروي ابن قولويه بإسناده إلى محمّد بن العلاء السرّاج قال: أخبرني البختريّ: كنت بمنبج بحضرة المتوكّل إذ دخل عليه رجل من أولاد محمّد ابن الحنفية حلو العينين، حسن الثياب، قد قرف بشيء، فوقف بين يديه والمتوكّل مقبل على الفتح بن خاقان يحدّثه، فلمّا طال وقوف الفتى بين يديه وهو لاينظر إليه، قال له: يا أمير المؤمنين. إن كنتَ أحضرتني لتأديبي فقد أسأت الأدب، وإن كنت قد أحضرتني ليعرف من بحضرتك من أوباش الناس استهانتك بأهلي، فقد عرفوا، فقال له المتوكّل: والله يا حنفي لولا ما يثنيني عليك من أوصال الرحم ويعطفني عليك من مواطن الحلم، لانتزعتُ لسانك بيدي، ولفرّقت بين رأسك وجسدك، ولو كان بمكانك محمّد أبوك! ثمّ التفت إلى الفتح فقال: أما ترى ما نلقاه من آل أبي طالب، إمّا حسنيّ يجذب إلى نفسه تاج عزّ نقله الله إلينا قبله، أو

كما و يبدو وكأنّ درجة ومستوى هذه المواجهات تتراوح شدّة وضعفاً، حتّى صارت ديدناً ومَعلماً لتاريخ الحقبة العبّاسية، ممّا دفع بعض حكّامهم إلى تخفيف وتلطيف أجواء هذه الحروب المستعرة، أوكانت هناك محاولة لقلب صفحة الحروب، كما حاول المأمون العبّاسيّ السير في هذا الاتّجاه. وربّما كانت هناك محاولة تطبيع العلاقات تخامر ذهن عبد الله بن المعتزّ بالله، ولكن لم تجد لها طريقاً أو متنفّساً في الواقع السياسيّ، وكما يروي أبوبكر الصوليّ عن جماعة أسندوا الرواية إلى محمّد بن الحسن العلوي المعروف بابن البصري، قال: كنت أجالس عبد الله بن المعتزّ وكان يحلف لي بالله: لئن ملك هذا الأمر شيئاً ليجعلن البطنين[١] بطناً واحداً، وليزوّجن هؤلاء من هؤلاء، وهؤلاء من هؤلاء. وقال: لا أدع طالبياً يتزوّج بغير عبّاسيّة، ولا عبّاسيّاً يتزوّج بغير طالبية، حتّى يصيروا شيئاً واحداً،

حسينيّ يسعى في نقض ما أنزل الله إلينا قبله، أو حنفيّ يدلّ بجهله أسيافنا على سفك دمه. فقال له الفتى: وأيّ حلم تركَته لك الخمور و إدمانها، أم العيدان وفتيانها؟! ومتى عطفك الرحم على أهلي وقد ابتززتهم فدكاً إرثَهم من رسول الله فورثها أبو حرملة! وأمّا ذِكرُك محمَداً أبي فقد طفقت تضع عن عزٍ رفعه الله ورسوله، وتطاول شرفاً تقصر عنه ولاتطاوله، فأنت كما قال الشاعر:

فَغُضَّ الطَّرفَ إنّك مِن نُمَير ... فلا كعباً بلغتَ ولا كلابا

ثمّ ها أنت تشكو علجك هذا ما تلقاه من الحسنيّ والحسينيّ والحنفيّ، فلبئس المولى ولبئس العشير! ثمّ مدّ رجليه ثمّ قال: هاتان رجلاي لقيدك، وهذه عنقي لسيفك، فبُؤ بإثمي، وتحمّل ظلمي.. فليس هذا أوّل مكروه أوقعتَه أنت وسلفُك.. **بحار الأنوار** ٥٠: ٢١٣.

١- أي البطن العلويّ والبطن العبّاسيّ. ونُسب له شعر يقول فيه:

رثيت الحجيج فقال العداة ... سُبّ عليّاً وبنتَ النبي

أآكل لحمي وأحسو دمي ... فيا قومُ للعجَبِ الأعجبِ

علَيّ يظنّون بي بُغضَه ... فهلاّ سوى الكفر ظنّوه بي!

إذاً لا سقَتني غداً كفُّه ... من الحوض والمشربِ الأغلبِ

الأوراق ٣: ١٠٩.

وأجري على كلّ رجل منهم عشرة دنانير في الشهر، وعلى كلّ امرأة خمسة دنانير، وأجعل لهم من الدنيا ناحية تفي بذلك[١]. وكانت هذه كلّها أحلام شخص وتمنّيات لم تجد لها متنفساً في الواقع، فتناثرت مع تناثر عزائم الليل وتشعّب الأحداث، ومستجدّات الواقع السياسيّ العبّاسيّ المليء بالمتغيّرات والانقلابات.

وعلى العموم تُعَدّ مجمل حركات العلويين خطراً كبيراً على الدولة العبّاسية، وكانت حركة محمّد ذي النفس الزكية وأخيه إبراهيم من أقوى الحركات المناهضة للعبّاسيين في بدء تأسيس دولتهم. ولم يكن في حسبان السلطة العبّاسية أنّ ثورة هاشمية ستواجه العبّاسيين الذين يرون أنفسهم أنّهم هم أعلام هذا البيت وأولياؤه والذابّون عنه[٢]. ففي سنة خمس وأربعين ومائة ظهر محمّد بن عبد الله بن الحسن فخرج في مئتين وخمسين نفراً بالمدينة، وهو على حمارٍ له، وذلك في أوّل رجب، فوثب على متولّي المدينة رياح وسجنه، لتتقد هناك ثورة علوية كانت بانتظارها

١- **الأوراق ٣: ١٠٩.**

٢- كان عبد الله بن عبّاس من أبرز أعلام البيت العبّاسي الذي جاهر بحقّ الهاشميين بالسلطة أو الخلافة الدينية والسياسية. وكانت له مناظرات واحتجاجات لاءمت عصره وبيئته، ولم تكن مطالبة عبد الله بن العبّاس بالخلافة تعني تجاهل حقّ البيت العلوي أو آل البيت المنصوص عليهم. وإنّما كانت تصريحاته وتلميحاته تصبّ في اتجاه إعلاميّ عام، هو تبيين جهة الحق المغصوب، التي كانت تضمّ كلّ الهاشميين. وقد أدرك معاوية ما كان يلمّح ويصرّح به ابن عبّاس في هذا المجال، فقال له: يا بني هاشم، إنكم تريدون أن تستحقّوا الخلافة كما استحققتم النبوّة. ولايجتمعان لأحد، وتزعمون أنّ لكم مُلكاً! فقال ابن عبّاس: أمّا قولك: إنا نستحقّ الخلافة بالنبوّة! فإن لم نستحقّها بالنبوّة فبم نستحقّها؟ وأمّا قولك: إنّ الخلافة والنبوّة لايجتمعان لأحد! فإنّ قول الله: ﴿فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء: ٥٤). فالكتاب النبوّة، والحكمة السنّة، والملك الخلافة. نحن آل إبراهيم أمرُ الله فينا وفيهم واحد، والسنّة لنا ولهم جارية. وأمّا قولك: زعمنا أنّ لنا ملكاً! فالزعم في كتاب الله شكّ، وكلّ يشهد أنّ لنا ملكاً، لاتملكون يوماً إلّا ملكنا يومين، ولا شهراً إلّا ملكنا شهرين، ولا حولاً إلّا ملكنا حولين. **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور ٢: ١٧٣.**

ثورة أخرى في أرض العراق تأمل في تقويض الحكم العبّاسيّ.

ولم يطل انتظار الثائر الآخر، ففي البصرة خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله..[١] وكان إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام قد دعا إلى أخيه محمّد ابن عبد الله المتسمّي بالنفس الزكيّة، وهناك أقوال وروايات تُنسَب بأنه كان هناك من يرى أنّ محمّداً هو المهديّ[٢]، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد قال: المهديّ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي. فلمّا وافق الاسم زعموا أنّه المهدي[٣]، وأنه الذي يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً[٤]، و كانت يد التحريف أو عين الخطأ قد أبدلت (ابني) بـ (أبي)، فالمسمّى في حديث رسول الله صلى الله عليه وآله هو: محمّد بن الحسن، و هو المهديّ الموعود صلوات الله عليه.

١- **العبر** ١: ١٥٢.

٢- ينظر: **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب** لابن عنبة: ١٢٢.

٣- قال الشيخ الخضريّ: كان محمّد يتحلّى بالخصال التي كانت ترفعه في أعين أهل المدينة على أبي جعفر المنصور، فإنّهم كانوا لا يرون فيه غشم أبي جعفر ولا ميله للعسف والظلم، بل كان يكره سفك الدماء ويتجنّبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً، ويحبّ الخير للناس، وكان لذلك يلقّب عندهم النفس الزكيّة والمهديّ. **الدولة العبّاسيّة**: ٥٩.

٤- روى الشيخ المفيد أنّ جماعة من بني هاشم اجتمعوا بالأبواء وفيهم إبراهيم بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس، وأبو جعفر المنصور، وصالح بن عليّ، وعبد الله بن الحسن وابناه محمّد و إبراهيم، ومحمّد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، فقال صالح بن عليّ: قد علمتم أنكم الذين يمدّ الناس إليهم أعينهم، وقد جمعكم الله في هذا الموضع، فاعقدوا بيعة لرجل منكم تعطونه إيّاها من أنفسكم، وتواثقوا على ذلك حتّى يفتح الله وهو خير الفاتحين. فحمد عبدالله ابن الحسن وأثنى عليه، ثمّ قال: قد علمتم أنّ ابني هذا هو المهديّ فهلمّ فلنبايعه، قال أبو جعفر المنصور: لأيّ شيء تخدعون أنفسكم! والله لقد علمتم ما الناس إلى أحد أصور أعناقاً، ولا أسرع إجابة منهم إلى هذا الفتى! يريد به محمّد بن عبد الله. **الإرشاد**: ٢٧٦.

ولم يتمكّن لإبراهيم أمر فيما دعا إليه في أواخر دولة بني أميّة على ما يقولون، حتّى غلب أبو مسلم على مروان بن محمّد، وتغلّب السفّاح العبّاسيّ على الأمر، فأحفى السؤال عن محمّد و إبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن فاختفيا، ووفد عليه فيمن وفد من بني هاشم أبوهما عبد الله بن الحسن بن الحسن فقرّبه السفّاح وأدناه وسأله عن ابنيه، فذكر أنّه لايدري أين توجّها، وجعل يكرّر عليه السؤال عنهما وقتاً بعد وقت، وفي كلّ ذلك ينكر أن يكون يعلم حيث هما، وذكر ذلك لأخيه الحسن فقال: يا أمير المؤمنين، أكلّمك على هيئة الخلافة، أو كما يكلّم الرجل ابن عمّه؟ فقال له أبو العبّاس: بل كما يكلّم الرجل ابن عمّه، فقال له الحسن: أناشدك الله ياأمير المؤمنين، إن كان الله تعالى قد قدّر لمحمّد و إبراهيم أن يليا من هذا الأمر شيئاً فجهدتَ وجهد أهل الأرض معك، أن يردّوا ما قدّر الله لهما، أتردّونه؟ قال: لا، قال: فأناشدك الله، إن كان الله عزّوجلّ لم يقدّر لهما شيئاً منه فجهدا وجهد أهل الأرض معهما على أن ينالا ما لم يُقدَّر لهما، أينالانِه؟ قال: لا، قال: فما تنغيصك على هذا الشيخ النعمة التي أنعمت بها عليه! قال أبو العبّاس: لا أذكرهما بعد اليوم. فما ذكرهما حتّى مات، فلمّا وليَ أخوه أبو جعفر في جمادى الآخرة سنة ستّ وثلاثين ومائة أمر أبو جعفر زياد بن عبد الله بن الحارث بطلب محمّد و إبراهيم ابني عبد الله بن الحسن.

قال علماء السِّيَر: كان لعبد الله بن الحسن عدّة أولاد، وكان محمّد و إبراهيم يدّعيان الخلافة ويرشّحان أنفسهما لها، وكان أبو جعفر المسمّى المنصور يخافهما، لما يعلم فيهما من رجائهما لذلك، وكان قبل قيام دولة بني العبّاس وقيام أبي مسلم قد اجتمع من بني هاشم جماعة في منزل، منهم أبو العبّاس وأبو جعفر ابنا محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس، وفيهم جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، وحضرهم محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، فخطبهم محمّد بن عبد الله

فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ ﷺ، ثمّ قال: إنكم ـ أهلَ البيت ـ قد فضّلكم الله تعالى بالرسالة واختاركم لها، وأكثركم ذرّية محمّد ﷺ، وسائركم بنو عمّه وعترته، وأَولى الناس بالمخافة من الله عزّوجلّ إن ضيّعتم أَمره أن ينزع عنكم ما أعطاكم، كما انتزع ذلك من بني إسرائيل بعد أن كانوا أحبّ الخلق إليه لمّا ضيّعوا أمره، وقد ترون كتاب الله معطّلاً، وسنّة نبيّه متروكة، والباطل حيّاً، والحقّ ميّتاً، فأيّكم يرى نفسه للقيام بحقّ الله أهلاً فنحن نراه لذلك، هذه يدي مبسوطة لبيعته، ومن أحسّ من نفسه عجزاً أو خاف وهناً فلا يحلّ له التولّي على الأمّة، وليس بأفقهها في الدين ولا أعلمها بالتأويل، مع ما يعرف ممّا نحن به جاهلون، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. فلم يجبه أحد بشيء إلّا أبو جعفر العبّاسيّ فإنّه قال: أمتع الله بك قومك، فلن يزال فينا من يسمو إلى خير ويُرجى لدفع ضرّ ما دمتَ حيّاً. ثمّ حضرت صلاة العصر فخرجوا إلى الصلاة، وفشا ذلك عن محمّد وظهرت دعوته إلى نفسه، فاستخفى وأخوه إبراهيم. وكانا يسكنان البوادي خوفاً، ثمّ يتنقّلان في الأمصار من الحجاز إلى اليمن، ثمّ إلى البصرة، ثمّ إلى الهند، ثمّ إلى السند، لا يكادان يقفان في مكان واحد.

فلمّا حجّ المنصور أيّام حكومته سنة أربع وأربعين ومائة اجتمع بعبد الله بن الحسن بن الحسن فسأله عن ولديه، فقال: لا أعلم أين هما، فأغلظ له أبو جعفر في القول وقال: يا ماصّ بَظرِ أمّه، فقال له عبد الله: يا أبا جعفر، بأيّ أمّهاتي تمصّني ؟ أبفاطمة بنت رسول الله ﷺ !أم بفاطمة بنت الحسين !أم بأمّ إسحاق بنت طلحة !أم بخديجة بنت خويلد ! وقال له: والله، لو كان محمّد وإبراهيم تحت قدمَيّ لما رفعتهما عنهما. وأمر أبو الدوانيق بحبس عبد الله بن الحسن، فأقام في المدينة محبوساً ثلاث سنين، ثمّ حبس معه جماعة، منهم الحسن وإبراهيم ابنا الحسن أخوا عبد الله بن الحسن، وحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن، وأبو بكر بن

الحسن بن الحسن، ومحمّد و إسحاق ابنا إبراهيم بن الحسن بن الحسن أخذوه وهو قاعد على بابه، فنادت أمّه عائشة بنت طلحة: بالله دعوني أشمّه. فلم يفعلوا، وعليّ بن الحسن بن حسن العائد، وموسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، وعليّ بن محمّد بن الحسن بن الحسن، وهؤلاء هم إخوة عبد الله بن الحسن، وأبناء إخوته وأبناء أبنائه، وكان الذي حبسهم رياح بن عثمان، ولّاه أبو جعفر المدينة فقيّدهم وضيّق عليهم.

وحجّ أبو جعفر العبّاسي مرّة أخرى، فلمّا فصل من مكّة بعث إلى رياح بن عثمان، فحملهم وحمل معهم محمّد بن عبد الله بن عمر بن عثمان، وهو أخو عبد الله بن الحسن لأمّه، وأمّهم فاطمة ابنة الحسين بن عليّ عليهما السلام، فأخذهم رياح فزادهم قيوداً وأغلالاً، وضيّق عليهم حلق القيود فأثّرت في أرجلهم، وجاء بهم إلى الربذة وأبو جعفر العبّاسي مقيم بها، لأنّ أبا جعفر لم يدخل تلك المرّة المدينة، بل انتظرهم في الربذة، حتّى وصلوا في المحامل عراة ليس تحتهم وطاء ولا فوقهم غطاء، وأبو جعفر ينظر إليهم ومعهم أربعمائة من جهينة وغيرهم، وقد وُكّلوا بهم يحفظونهم، ولمّا خرجوا من المدينة على الجمال وكلّ واحد منهم يعادله جنديّ.

فلمّا وصلوا إلى أبي جعفر في الربذة دعا بمحمّد الديباج بن عبد الله بن عمر ابن عثمان بن عفّان، وهو أخو عبد الله بن الحسن من أمّه، فقال: أخبرني أين الفاسقان الكذّابان ؟ يعني محمّداً و إبراهيم ابني عبد الله بن الحسن، فقال الديباج: والله ما أدري. فضربه أربعمائة سوط، ثمّ ألقى عليه قميصاً غليظاً، ثمّ نزعه فخرج جلده معه، وكان من أجمل الناس، ولذلك سمّي بالديباج، وأصاب عينَه سوط فذهبت عينَه، وحُمل مكبّلاً مع أخيه عبد الله بن الحسن وهو عطشان، فلم يتجاسر أحد أن يسقيه ماء، فصاح عبد الله: يا معاشر المسلمين، أيموت أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله عُطاشى! ثمّ ركب العبّاسي أبو جعفر في محمل والربيع معادل له في الشقّ

الآخر، وحُمل بنو الحسن على أقتاب الجمال مكشوفة رؤوسهم والشمس تقرعها، وليس فوقهم غطاء ولا تحتهم وطاء، عطاشى جياعى، فمرّ بهم أبو جعفر وهو في محمله قد غطّاه بالحبر والديباج، فناداه عبد الله بن الحسن: يا أبا جعفر، أهكذا فعلنا بكم يوم بدر! يشير إلى فعل النبيّ صلى الله عليه وآله بالعبّاس لمّا أُسر يوم بدر، وبات العبّاس يئنّ في القيد فقال النبيّ صلى الله عليه وآله: لقد منعني أنين العبّاس الليلة أن أنام. ثمّ قال النبيّ صلى الله عليه وآله: خلّوا عنه. وقدم بهم أبو جعفر الكوفة وهم أسرى بأسوأ حال.

قال الواقدي: وكانوا عشرين من أولاد الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فحبسهم أبو جعفر بالكوفة. وقيل: حبسهم في سرداب تحت الأرض لا يعرفون ليلاً ولا نهاراً، وما كانوا يعرفون أوقات الصلاة إلّا بالحزر والتقدير. وكانوا يتغوّطون في مواضعهم، فاشتدّت عليهم الرائحة، فكان الورم يبدو في أقدامهم. وكان إذا مات ميّت عندهم لم يُدفَن بل يَبلى وهم ينظرون إليه حتّى هلكوا جميعاً. وقيل: ردم عليهم الحبس فماتوا[1].

وربّما كانت هناك مشاهد أكثر ألماً في حكم الأخوين العباسيَّين السفّاح والمنصور الدوانيقيّ الذين كانا يتصدّران الدعاية السياسية للبيت الهاشمي ويدّعيان مقولة أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله بحجّة جدّهما العبّاس بن عبد المطّلب، فتقدّم أبو العبّاس السفّاح الهاشميين جميعهم ليجلس على الكرسيّ الذي كان يحلم به الهاشميون بسبب القرابة للنبيّ صلى الله عليه وآله، وفاتَه أنّ الحسنيين كانت أفئدتهم تخفق منتظرة نهاية الأمويين لتخطو نحو هذا الموقع قبل أن تدنو أقدام الآخرين بهذه الحجّة. ومهما كانت المبرّرات والتعليلات، فإنّ السيادة والحكومة القرشية قد اختزلت وانتهت إلى مجموعة من ولد العبّاس، أمسكت حكم المسلمين باسم

١- ينظر: **عيون الأخبار وفنون الآثار** السبع الرابع: ٣١٣ -٣١٨.

لا يمكن مقاومته أو انتزاعه بسهولة، وهو الدين الذي تبجّح به الثائرون، والانتساب إلى قريش، والصلة بالبيت النبوي الذي كان الهاشميون يرفعون رأسهم وطماحهم به، بصفته أرفع وأشرف بيت في قريش.[١]

ومن الجدير بالذكر ـ كما أشار الشيخ الخضري ـ هنا عندما بويع أبوالعبّاس بالخلافة لم يحضر عبد الله بن الحسن مبرّراً ذلك بمرضه، ممّا يدلّ على أنّه كان مصمّماً على العمل على إسناد الخلافة إلى ابنه محمّد، ثمّ إنّ ابنه محمّداً وإبراهيم امتنعا عن مبايعة أبي العبّاس[٢]، رغبةً في نيل الحكم والسلطة وانتزاعها من أيدي العبّاسيين في بدء حكمهم. . ولم تكن حركة محمّد بن عبد الله وأخيه

١- يصف سعيد ناشيد تاريخ الصراع السياسيّ بين البيوت الكبيرة من قريش فيقول: بعد ظهور النبوّة في البيت الهاشمي قاد أبوسفيان البيت الأموي في مواجهة البيت الهاشمي. وبعد انقضاء فترة النبوّة وخلافة كلّ من أبي بكر وعمر عاد التدافع بين البيتين الهاشمي والأموي إلى الواجهة، من خلال المواجهة الكبرى بين عليّ بن أبي طالب الهاشمي ومعاوية بن أبي سفيان الأموي. بعد ذلك حدث انقلاب داخل البيت الأموي، إذ إنّه وفي خطاب تولّيه الخلافة فاجأ الخليفة الأموي الثالث معاوية بن يزيد الجميع، عندما قام ليدين استيلاء آبائه على السلطة، معلنا براءته منهم وانسحابه وتخلّيه عن كرسيّ الخلافة، وداعياً إلى جعل الأمر شورى بين المسلمين، ممّا أوجد فراغاً مفاجئاً في أعلى هرم السلطة. وهكذا استغلّ بنو مروان، وهم فرع من فروع البيت الأموي، فملأوا ذلك الفراغ ليقفزوا إلى قيادة البيت الأموي، بل والخلافة الإسلاميّة برمّتها. وقد شهد البيت الهاشمي في المقابل انقلاباً مماثلاً، إذ قفز بنو العبّاس، وهم من أقوى فروع البيت الهاشمي إلى موقع قيادة البيت الهاشميّ، مدشّنين بذلك عهد الخلافة العبّاسيّة، والتي كانت بمثابة مرحلة جديدة من الجرح الغائر في التاريخ السياسي للإسلام. **الاختيار العلمانيّ وأسطورة النموذج**: ١٣٢.

٢- ينظر: الشيخ محمّد الخضريّ، **الدولة العباسية**: ٥٢ و٥٧، خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلاميّ، العصر العبّاسيّ**:٨٣.

التي أخفقت نهاية للأفكار المطالبة بالحقّ المغتصب، فقد كانت هناك وثبات مماثلة للعلويين أزعجت النظام العبّاسيّ وأضعفته، ففي إمرة الرشيد وأخيه الهادي قام يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنّى وبثّ دعاته في الأرض وبايعه كثيرون من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقَين، وبايعه من العلماء: محمّد بن إدريس الشافعيّ، وعبد ربّه بن علقمة، وسليمان بن جرير، وبشر بن المعتمر، والحسن بن صالح، وغيرهم.

وكان هذا في زمن الهادي، فلمّا فتّش عنه الرشيد وأخذ عليه بالرصد والطلب وأمعن في ذلك، لحق يحيى بخاقان ملك الترك وأقام عنده سنتين وستّة أشهر والكتب ترد عليه من هارون وعمّاله يسألونه تسليم يحيى فأبى وقال: لا أرى في ديني الغدر، وهو رجل من ولد نبيّكم شيخ عالم !وقيل: إنّه أسلم على يديه سرّاً. ثمّ رحل يحيى من عنده إلى طبرستان، ثمّ إلى الديلم، فأنفذ هارون في طلبه الفضل ابن يحيى البرمكي في ثمانين ألف رجل، وكاتبه ملك الديلم من الري وبذلوا له الأموال حتّى انخدع. ولمّا فهم يحيى فشله قَبِل أمان الرشيد بالأيمان المغلّظة، وكتب له بذلك بنسختين، نسخة عنده ونسخة عند يحيى البرمكيّ.

فلمّا قدم عليه أكرمه وأعطاه مالاً جزيلاً ثمّ خرج إلى المدينة بإذنه، وقيل بإذن الفضل. . ولم يزل آمناً حتّى وَشِي به عبد الله بن مصعب الزبيري فاستدعاه الرشيد.[١] ثمّ دعا به وجمع بينه وبين عبد الله بن مصعب الزبيري ليناظره فيما رفع إليه فجبهه ابن مصعب بحضرة الرشيد وقال له: نعم يا أمير المؤمنين، إنّ هذا دعاني إلى بيعته.

قال له يحيى: يا أمير المؤمنين، أتصدّق هذا وتستنصحه ؟وهو ابن عبد الله بن

١- شذرات الذهب ١: ٣٣٨.

الزبير الذي أدخل أباك ووُلدَه الشِّعب وأضرم عليهم النار حتّى خلّصه أبو عبد الله الجدليّ صاحب عليّ بن أبي طالب منه عنوة، وهو الذي بقي أربعين جمعة لايصلّي على النبيّ في خطبته حتّى التاث عليه الناس، فقال: إنّ له أهلَ بيت سوء، إذا صلّيت عليه أو ذكرته أتلعوا أعناقهم واشرأبّوا لذِكره وفرحوا بذلك، فلا أحبّ أن أقرّ عينهم بذكره.

وهو الذي فعل بعبد الله بن العبّاس ما لا خفاء به عليك، حتّى لقد ذُبحت يوماً عنده بقرة فوجد كبدها قد نقبت، فقال ابنه عليّ بن عبد الله: يا أبه، أما ترى كبد هذه البقرة ؟فقال: يا بني، هكذا ترك ابن الزبير كبد أبيك. ثمّ نفاه إلى الطائف، فلمّا حضرته الوفاة قال لعليّ ابنه: يا بني، إلحقْ بقومك من بني عبد مَناف بالشام، ولا تُقم في بلد لابن الزبير فيه إمرة. فاختار له صحبة يزيد بن معاوية على صحبة عبد الله بن الزبير.

ووالله إنّ عداوة هذا ـ يا أمير المؤمنين ـ لنا جميعاً بمنزلة سواء، ولكنّه قوي بك علَيّ وضعفتُ عنه، فتقرّبَ بي إليك ليظفر منك بما يريد، إذ لم يقدر على مثله منك، وما ينبغي أن تسوّغه ذلك فإنّ معاوية بن أبي سفيان، وهو أبعد نسباً منك إلينا، ذكر يوماً الحسن بن عليّ فسفّهه فساعده عبد الله بن الزبير على ذلك، فزجره معاوية وانتهره، فقال: إنّما ساعدتك يا أمير المؤمنين !فقال: إنّ الحسن لحمي آكله ولا أُوكِله.

فقال عبد الله بن مصعب: إنّ عبد الله بن الزبير طلب أمراً فأدرَكَه، و إنّ الحسن باع الخلافة من معاوية بالدراهم، أتقول هذا في عبد الله بن الزبير وهو ابن صفيّة بنت عبد المطّلب !

فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، ما أنصفنا أن يفخر علينا بامرأة من نسائنا وامرأة منّا، فهلّا فخر بهذا على قومه من النوبيات والأساميات والحمديات !

فقال عبد الله بن مصعب: ما تَدَعون بغيكم علينا وتوثّبكم في سلطاننا !

فرفع يحيى رأسه إليه، ولم يكن يكلّمه قبل ذلك، وإنّما كان يخاطب الرشيد بجوابه لكلام عبد الله، فقال له: أتوثّبنا في سلطانكم ؟! ومن أنتم أصلحك الله ؟ عرّفني! فلست أعرفكم . فرفع الرشيد رأسه إلى السقف يجيله فيه ليستر ما عراه من الضحك، ثمّ غلب عليه الضحك ساعة، وخجل ابن مصعب.

ثمّ التفت يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، ومع هذا فهو الخارج مع أخي على أبيك والقائل له:

إنَ الحمامة يومَ الشِّعب مِن دَنَن   هاجَت فؤادَ مُحبٍ دائمِ الحَزَنِ

إلى آخر الأبيات.

فتغيّر وجه الرشيد عند استماع هذا الشعر، فابتدأ ابن مصعب يحلف بالله الذي لا إله إلّا هو، وبأيمان البيعة أنّ هذا الشعر ليس له وأنّه لِسديف.

فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين، ما قاله غيره، وما حلفت كاذباً ولاصادقاً بالله قبل هذا، وإنّ الله إذا مجّده العبد في يمينه بقوله: الرحمن الرحيم، الطالب الغالب، استحيا أن يعاقبه، فدعني أحلّفه بيمين ما حلف بها أحد قطُّ كاذباً إلّا عوجل. قال: حلّفه، قال: قل: برئت من حول الله وقوّته، واعتصمت بحولي وقوّتي، وتقلّدت الحول والقوّة من دون الله، استكباراً على الله واستغناءً عنه واستعلاءً عليه إن قلتُ هذا الشعر، فامتنع عبد الله من الحلف بذلك.

فغضب الرشيد وقال للفضل بن الربيع: يا عبّاسيّ، ما له لايحلف إن كان صادقاً ؟ هذا طيلساني علَيّ، وهذه ثيابي، لو حلّفني أنّها لي لحلفت. فرفس الفضل بن الربيع عبد الله بن مصعب برجله وصاح به: إحلف ويحك !وكان له فيه هوى، فحلف باليمين ووجهه متغيّر وهو يرعد، فضرب يحيى بين كتفيه ثمّ قال:

يا ابن مصعب، قطعتَ -والله- عمرك، والله، لا تُفلح بعدها. فما برح من موضعه حتّى أصابه الجذام فتقطّع ومات في اليوم الثالث.

ثمّ جمع له الرشيد الفقهاء وفيهم: محمّد بن الحسن صاحب أبي يوسف القاضي، والحسن بن زياد اللؤلؤيّ، وأبو البختريّ وهب بن وهب، فجُمعوا في مجلس وخرج إليهم مسرور الكبير بالأمان، فبدأ محمّد بن الحسن فنظر إليه فقال: هذا أمان مؤكّد لا حيلة فيه. وكان يحيى قد عرضه على مالك وابن الدراورديّ وغيرهم، فعرّفوه أنّه مؤكّد لا علّة فيه، فصاح عليه مسرور وقال: هاته. فدفعه إلى الحسن بن زياد اللؤلؤيّ، فقال بصوت ضعيف: هو أمان. واستلبه أبو البختريّ وهب ابن وهب فقال: هذا باطل منتقض، قد شقّ عصا الطاعة وسفك الدم، فاقتله ودمه في عنقي. فدخل مسرور إلى الرشيد فأخبره، فقال له: اذهب فقل له: خرّقه إن كان باطلاً بيدك. فجاءه مسرور فقال له ذلك، فقال: شقّه يا أبا هاشم، فقال له مسرور: بل شقّه أنت إن كان منتقضاً. فأخذ سكّيناً وجعل يشقّه ويده ترتعد حتّى صيّره سيوراً، فأدخله مسرور على الرشيد فوثب فأخذه من يده وهو فرح وهو يقول له: يا مبارك يا مبارك! ووهب لأبي البختري ألف ألف وستمائة ألف، وولّاه القضاء، وصرف الآخرين ومنع محمّد بن الحسن من الفتيا مدّة طويلة، وأجمع على إنفاذ ما أراده في يحيى بن عبد الله..[1]، وفي رواية ابن الأثير: ثمّ إنّ الرشيد حبسه فمات في الحبس[2].

وذهب عدد من المؤرّخين إلى الإشارة إلى حركة محمّد بن القاسم بن عليّ بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي كان من أهل العلم والفقه والدين والزهد وحسن المذهب، وكان ناقماً على الدولة العبّاسية، فنهض ثائراً

١- مقاتل الطالبيين: ٣١٥.

٢- الكامل في التاريخ ٥: ٢٩١.

وخرج أيّام المعتصم بالطالقان، فأخذه عبد الله بن طاهر ووجّه به إلى المعتصم بعد وقائع كانت بينه وبينه.

ويصف أبو الفرج الأصفهانيّ حركته على لسان إبراهيم بن عبد الله العطّار، وكان مع أبي جعفر محمّد بن القاسم بالطالقان، وفي أحوال تنقّله بخراسان قال: نزل بمرو وكنّا معه من الكوفيين بضعة عشر رجلاً، وكان قبل ذلك قد خرج إلى ناحية الرقّة، وإلى ناحية الروز، ومعه جماعة من وجوه الزيدية، منهم: يحيى بن الحسن بن فرات القزاز، وعبّاد بن يعقوب الرواجنيّ، فسمعوه يتكلّم مع أحدهم بشيء من مذهب المعتزلة، فتفرّق الكوفيون جميعاً عنه، وبقينا معه بضعة عشر رجلاً. فتفرّقنا في الناس ندعوهم إليه، فلم نلبث إلّا يسيراً حتّى استجاب له أربعون ألفاً. وأخذنا عليهم البيعة، وكنّا أنزلناه في رستاق من رساتيق (مَرْو)، وأهله شيعة كلّهم. فأحلّوه في قلعة لايبلغها الطير في جبل حريز، فلمّا اجتمع أمره وَعَدهم لليلة بعينها، فاجتمعوا إليه ونزل من القلعة إليهم، فبينا نحن عنده إذ سمع بكاء رجل واستغاثته، فقال لي: يا إبراهيم، قم فانظر ما هذا البكاء. فأتيت الموضع فوقفت فيه فاستقربت البكاء حتّى انتهيت إلى رجل حائك، قد أخذ منه رجل من أصحابنا ممّن بايعنا لِبداً[١]، وهو متعلّق به، فقلت: ما هذا، وما شأنك؟ فقال: أخذ صاحبكم هذا لبدي، فقلت: اردد عليه لبده، فقد سمع أبو جعفر بكاءه، فقال لي الرجل: إنّما خرجنا معكم لنكتسب وننتفع ونأخذ ما نحتاج إليه. فلم أزل أرفق به حتّى أخذت منه اللبد ورددته إلى صاحبه، ورجعت إلى محمّد بن القاسم فأخبرته بخبره، وأنّي قد انتزعت منه اللبد ورددته على صاحبه. فقال: يا إبراهيم، أبمثل هذا يُنصَر دين الله؟ ثمّ قال لنا: فرّقوا الناس عنّي حتّى أرى رأيي. فخرجنا إلى الناس فقلنا لهم: إنّ

١- جمعه لُبُود و ألباد: البساط من الصوف، و ما يُجعَل على ظهر الفرس تحت السرج.

صورة الأمر قد أوجبت أن تتفرّقوا في هذا الوقت، فتفرّقوا.

ورحل محمّد بن القاسم من وقته إلى الطالقان، وبينها وبين مرو أربعون فرسخاً، فنزلها وتفرّقنا ندعو الناس، فاجتمع عليه عالَم، وجئنا إليه فقلنا له: إن أتممت على أمرك وخرجت فنابذت القوم، رجونا أن ينصرك الله، فإذا ظفرت اخترت حينئذٍ من ترضاه من جندك، وإن فعلت كما فعلت بمرو أخذ عبد الله بن طاهر بعقبك، فأصلح من إسلامك إيّانا ونفسك إليه، أن تجلس في بيتك ويسعك ما يسع سائر أهل بيتك. فأتمّ عزمه وخرج في الناس.

وبلغ خبرُه عبد الله بن طاهر، فوجّه إليه رجلاً يقال له: الحسين بن نوح، وكان صاحب شرطته، فلقيناه وقاتلناه فهزمناه هزيمة قبيحة، ولمّا اتّصل خبره بعبد الله قامت قيامته، فجرّد قائداً من أصحابه يقال له: نوح بن حبّان بن جبلة، أو قال: حبّان بن نوح بن جبلة، فلقيناه فهزمناه أقبح من هزيمتنا للحسين بن نوح، وانحاز إلى بعض النواحي ولم يرجع إلى عبد الله بن طاهر، وكتب إليه يعتذر ويحلف أنّه لايرجع إلّا أن يظفر أو يُقتل. فأمدّه عبد الله بن طاهر بجيش آخر ضخم، فسار إليه متمهّلاً ونازله، وكمن لنا كمناء في عدّة مواضع، فلمّا التقينا قاتلنا ساعة ثمّ انهزم متطارداً لنا فاتّبعه أصحابنا، فلمّا تفرّقنا في طلبه خرجت الكمناء على أصحابنا من كلّ وجه فانهزمنا، وأفلت محمّد بن القاسم وصار إلى (نسا) مستتراً، وثبتنا في النواحي ندعو إليه[1].

و جاء في رواية المسعوديّ بأنّه كان يتنقّل في مواضع كثيرة من كور خراسان، كمرو وسرخس والطالقان ونسا، فكانت له هنالك حروب وكوائن، وانقاد إليه و إلى إمامته خلق كثير من الناس، ثمّ حمله عبد الله بن طاهر إلى المعتصم فحبسه في

١- مقاتل الطالبيين: ٣٨٤.

أزجٍ.[١] اتّخذه في بستان بسُرّمَن رأى.

وقد تُنوزع في محمّد بن القاسم، فمن قائل يقول: إنّه قتل بالسمّ، ومنهم من يقول: إنّ ناساً من شيعته من الطالقان أتوا ذلك البستان فتأتّوا للخدمة فيه من غرس وزراعة، واتّخذوا سلالم من الحبال واللبود الطالقانية ونقبوا الأزج وأخرجوه فذهبوا به. وقد ذكر المسعوديّ بأنّه انقاد إلى إمامته خلق كثير من الزيدية في ذلك الوقت -وهو يشير إلى أحداث تلك السنة- وقال: منهم خلق كثير يزعمون أنّ محمّداً لم يمت، وأنّه حيّ يرزق، وأنّه يخرج فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، وأنّه مهديّ هذه الأمّة، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وجبال طبرستان والديلم وكثير من كور خراسان. وقول هؤلاء في محمّد بن القاسم نحو قول رافضة الكيسانية في محمّد بن الحنفيّة، ونحو من قول الواقفيّة في موسى بن جعفر، وهم الممطورة، بهذا تعرف هذه الطائفة من بين فرق الشيعة[٢].

فيظهر ممّا تقدّم في هذا الفصل أنّ شعلة الثورة التي أوقدها الطالبيون لم تكن تهدأ أو تخبو نارها الذي كان يقلق العبّاسيين، وربّما كان القمع والاضطهاد يزيد اتّقاد هذه الشعلة أو يجدد اتقادها بين الحين والآخر، وقد كان الانفعال و الغضب الذي تثيره هذه الحركات والثورات ينعكس على حياة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، فاتّخذ كلّ حاكمٍ من بني العبّاس جملة من القرارات، لمواجهة الأئمّة المعصومين، والحدّ من تأثيرهم السياسيّ، والفكريّ في أوساط المسلمين، وقد بدأت هذه السياسة من زمان المنصور الدوانيقيّ الذي كان يترصّد كلّ حركة وموقف للإمام جعفر الصادق عليه السلام، و تبعه حكّام الجور الذين تعاقبوا على السلطة

١- الأزج: بيت يبنى طولاً. **لسان العرب** (أزج).

٢- **مروج الذهب** ٤: ٣٥٠.

من بعد ظنّاً منهم أنَّ الإمام المعصوم هو المحرّك لهذه الثورات و الانتفاضات. وربّما كان المعتصم العبّاسيّ يظنّ أنّ محمّد بن القاسم هو ناتج وحصيلة من شعاع أفكار الإمام المعصوم الذي يغذّي مثل هذه الثورات أو يقف وراءها، فارتاب من الإمام محمّد الجوادعليه السلام ومن جاء من بعده من سلالة الأئمّة المعصومين الذين يشكّلون عنصر إزعاج يقلق استقرار الحكم العبّاسي، فتكرّر هذا الإحساس المستديم لديهم في تعاملهم مع الإمام عليّ الهادي عليه السلام الذي كان له مع المتوكّل معاناة قاسية حين استدعاه من المدينة إلى سامراء ليكون تحت نظره ، وظنّاً منهم أنَّ حبس الإمام المعصوم أو تقييده سيمنع انطلاق شرارات الثورة و اتّقادها.

بغداد من عصور التاريخ إلى عصور بني العباس

لم تكن صورة بغداد صورة مدينة قديمة لها عمق في تاريخ الحضارات والدول التي كانت قائمة في بلاد الرافدين، فهي لم تكن موجودة في ذهن الباحثين في جغرافية العراق القديم كمدينة لها عمق حضاريّ وسياسيّ، كبابل وأور والمدائن ونحوها من دول ومدن العراق التاريخية. ولكنّها احتلّت موضعاً فريداً في حوض الرافدين، وقامت حيث يكون اقتراب النهرين بعضهما من بعض على أشدّه، ممّا سهّل تبادل المياه بينهما، وانتشار شبكة من الشرايين المائيّة التي سهّلت قيام عدد من القرى ممّا يدلّ على أنّ أرض بغداد كانت عريقة في القدم، بل وتذهب المصادر التي بحثت في اسم بغداد إلى أنّه اسم لقرية قديمة، وبعضها يشير إلى أنّه اسم فارسي الأصل، فيما تقول مصادر أخرى بأصله الآراميّ. إلّا أنّ المنصور رفض تسمية المدينة باسمها القديم وسمّاها مدينة السلام تيمّناً بجنّة الخلد، وكان هذا هو الاسم الرسميّ الذي يذكر في الوثائق وعلى المسكوكات والأوزان.

ويروي المصنّفون أنّ المنصور أقام مدينته في موضع كانت تقوم فيه قرية للفرس عُرفت بسوق بغداد يقام بها في كلّ سنة سوق عظيمة، يجتمع بها التجّار في ذلك الموسم. وإذا كانت بغداد محدثة في الإسلام، إلّا أنّها قامت في منطقة عامرة بالقرى، وقُدّر لها أن ترث عواصم العراق القديمة التي قامت في تلك المنطقة

من بابل إلى طيسفون وإلى سلوقية[١]، فتألقّت من جديد لابسة ثوب عاصمة العراق ومركزه الثقافيّ والسياسيّ لترفع رأسها شامخة في هذا البلد العريق الذي شهد أوّل حضارة في العالم قامت هناك وامتزجت مع تسبيحات نوح عليه السلام ودعوات إبراهيم عليه السلام، وربّما كان لها سؤال مع تساؤلات العُزَير عليه السلام الذي أحياه الله بعد سبات من السنين ليريه جواب سؤاله الذي لم يجد له جواباً حين حدّثته نفسه بهذا السؤال.

وقد اختلفت الروايات في الذي مرّ على القرية ـ التي كانت تأخذ حيّزاً من تراب وسهول العراق اليانعة ـ وأحياه الله بعد أن أماته مائة سنة، فقيل: هو العزير، وهو المروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، وقيل أرميا، وهو المروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام[٢]، وكأنّ العزير وأرميا عليهما السلام كانا في زمان واحد ومحنة واحدة في تراب العراق، هذا التراب الذي تلطّخ بدماء بني إسرائيل الذين ساقهم بَخْت نُصَّر إلى أرض بابل أسارى متجلببين بجلباب الذلّ والهوان، ففرّا مذعورَين إلى ما شاء الله لهما، يقول الشيخ عليّ بن إبراهيم: فخرج أرميا على حماره ومعه تين قد تزوّده وشيء من عصير ـ كان هذا التين والعصير الذي اعتصره من فاكهة العراق الذي تروّى من ماء وطين دجلة والفرات ـ فنظر إلى سباع البرّ وسباع الجوّ تأكل تلك الجِيَف، ففكر في نفسه ساعة، ثمّ قال: أنّى يحيي هذه اللهُ بعد موتها وقد أكلتها السباع فأماته الله مكانه، وهو قول الله تعالى: **﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ**

١- ينظر: فهمي سعد، **العامّة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة**: ١٧ و١٩ و٢١.

٢- ينظر: **بحار الأنوار** ١٤: ٣٦٠.

﴿وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾[١] أي أحياه، فلمّا رحم الله بني إسرائيل وأهلك بخت نصّر، ردّ بني إسرائيل إلى الدنيا، وكان عزير لمّا سلّط الله بخت نصّر على بني إسرائيل هرب ودخل في عين وغاب فيها، وبقي أرميا ميّتاً مائة سنة ثمّ أحياه الله تعالى[٢].

وسواء كانت الأنفاس التي أبطلها الله مائة سنة هي أنفاس العزير عليه السلام[٣] أو

١- البقرة: ٢٥٩. وكان المعنيّ بهذه الآية هو العزير عليه السلام دون أرميا عليه السلام. ينظر: **إكمال الدين** للصدوق: ٤١.

٢- **تفسير القمّيّ** ١: ٩٧.

٣- قال السيّد محمد حسين الطباطبائيّ: عزيز هو الذي يسمّيه اليهود عزرا غيّرت اللفظة عند التعريب كما غيّر اللفظ يسوع فصار بالتعريب عيس ولفظ يوحنا فصار كما قيل يحيى: و عزرا هذا هو الذي جدّد دين اليهود و جمع أسفار التوراة و كتبها بعدما افتقدت في غائلة بخت نصّر ملك بابل الذي فتح بلادهم و ضرّب هيكلهم وأحرق كتبهم و قتل رجالهم و سبى نساءهم وذراريهم و الباقين من ضعفائهم و سيّرهم معه إلى بابل فبقوا هناك ما يقرب من قرن **الميزان في تفسير القرآن** ٩: ٢٤٣، و لذا كان للعزير عليه السلام أهمّية كبيرة في تاريخ اليهود. فحين ضاعت التوراة الأصلية ومعها التابوت المقدّس لم يظهرا إلّا في زمان داود عليه السلام وسليمان عليه السلام، فبعد ما ملك سليمان عليه السلام فتحوا التابوت فوُجد فيه نسخة التوراة التي وضعها موسى عليه السلام فيه. ثمّ اختفت هذه التوراة وضاعت، ولم يبق لها ذكر إلّا اسمها، حتّى جاء العزير عليه السلام وأخرج لهم كتاباً قال عنه هو التوراة في حدود سنة ٣٩٢ قبل الميلاد، فعظّمه بنو إسرائيل كثيراً.. ولمّا دبّ الشقاق بين السامريين والعبرانيين، وتمكّن الكره من القلوب، قام السامريون ومعهم العبرانيون بتغيير كلمات في توراة عزرا أو العزير عليه السلام. وذكر السيوطي رواية مفادها أنّ التوراة كانت مدفونة مع والد عزير، ولم يكن أحد يعلم بها أحد سواه، فلمّا جاؤوا يسألونه أن يكتب لهم انطلق بهم إلى قبر أبيه واستخرجها منه. ينظر: **الأديان الكبرى قبل الإسلام** لحاتم إسماعيل: ١٤٨ -١٥٠، **تفسير الدرّ المنثور** ٣: ٢٧٠.

أنفاس إرمياعليه السلام ، فهي أنفاس وزفرات كانت تعلو وتهبط في مناخ العراق وسهوله وهضابه التي نشأ بها وخطا عليها العلماء والأمراء والأدباء وأرباب الصناعة والحرف، وأهل الحرث والزراعة والتجارة الذين زهت بهم أرض الرافدين وتزيّنت فامتلأت عيون العباد بهم فتنة وغروراً، فأماته الله وبعثه ليريه عباد الله الذين تأكلهم الديدان كيف يُبعثَون من جديد أحياءً يرزقون لاينقصون ولايزيدون عمّا كانوا عليه، وسبقت هؤلاء وتلتهم أنبياء وأولياء كانوا شهداءَ على عصورهم التي تعاورت عليها مدن وحضارات زهت واخضرّت أيّامهم بنعم الله الوافرة، هذه النعم التي أطغتهم وأسكرتهم وأبكت عيون عباد عاشوا معهم في زهد وكفاف وشظف، ما رضوا لأنفسهم بهذا إلّا فراراً بدينهم، نائين عن الفجور والشرك والعدوان والطغيان الذي هدّ هذه الحضارات وقوّض مدنها، فلم تترك لنا هذه المدن والحواضر إلّا أطلالاً وبقايا من أحجار ودمى، وربّما تركوا مسكوكات كانوا يتداولونها فاستدام بقاؤها لتقلّبها عيون الدارسين والباحثين، وكأنّ عيونهم تستلهم منها حكايات الأسياد المترفين، وطمع العبيد الضعفاء الذين كانت عيونهم تتطلّع نحو الأسياد الأشقياء الذين ملكوا العباد والبلاد، ولكنهم بادوا مع ديار ظنّوا أنّها لا تبيد.

وهكذا دارَ الزمانُ دورته من جديد مع بلاد الرافدين أو النهرين، لكن ليبتعد قليلاً في هذه الدورة من بابل وأور وآشور، ليكون على مقربة مع أطلال وبقايا مدائن الساسانيين، فيحرّك هذه المرّة الفتى العبّاسيّ الهاشميّ المنصور الدوانيقيّ الذي أزعجته الهاشمية، وأرعبته وأخاه السفّاح نسائمُ الكوفة الثائرة مع ثوران الأحداث وتعاقب رجالها عليها[١]، ليعيد ويجدّد موقع بغداد، أو ليؤسّس بغداد دار السلام،

١- يبدو أنّ أبا العبّاس السفّاح أعرض عن الكوفة وآثر أن يعيش بين جنده في معسكر حمّام أعين، وذلك لأنّه عاصر الدعوة العبّاسيّة بطورها السرّيّ والعلنيّ، واكتسب مع مرور السنين

كما يقولون.

وكان هدف المنصور من بناء مدينة بغداد سنة ١٤٥ للهجرة جعلَها مركزاً عسكرياً و إدارياً، ولكن الاستقرار النسبيّ والرفاه الاقتصادي وما نتج عنه من ترف ماديّ شهدته بغداد، على عهدَيِ المهديّ والرشيد، أدّى إلى تغيّرات مهمّة، وقد حلّ محلّ طبقة المحاربين طبقة متنفّذة جديدة من أصحاب الأراضي والموظّفين والتجّار والكتّاب، كما أوجد الرفاه الاقتصاديّ طبقة من المثقّفين الذين يمتلكون الوقت والذوق وحبّ الاطّلاع والرغبة في التتبّع. فكانت الحركة العلمية التي ابتدأت بالترجمة، وكان كذلك جماعات الشُّكّاك والمُجّان والزنادقة والشعوبيين[١].

معرفة بالنوايا الحسنة والسيّئة لأهل الكوفة، كلّ هذه الأمور جعلته يدرك بأنّ الكوفة تشكّل مصدر خطر على السلطة العبّاسيّة، لأنّها ذات ميول علويّة، وأنّ عواطف غالبية سكّانها ليست مع العبّاسيين. فبدأ أبو العبّاس بتأسيس مدينة لاتّخاذها عاصمة جديدة له، وقد اختار نفس المكان الذي كان أمير العراق الأموي يزيد بن هبيرة قد بنى فيه مدينته، وقد سمّى المدينة الجديدة بالهاشميّة، ولم يمكث أبو العبّاس كثيراً في هذه المدينة إذ يذكر البلاذريَ بأنّ أبا العبّاس قد ضاق ذرعاً بالتسمية التي انتشرت بين الناس إذ استمرّوا على تسميتها القديمة مدينة ابن هبيرة، وهذا ما أزعج أبا العبّاس وجعله يقول: ما أرى ذكر ابن هبيرة يسقط عنها! فرفضها، واضطرّ أبو العبّاس إلى تركها، وبنى حيالها مكاناً في ضواحي الكوفة أيضاً سمّاه الهاشميّة، والتي تعرف بهاشميّة الكوفة، وكان ذلك عام ١٣٢ للهجرة، ثمّ تحوّل من الهاشميّة إلى الحيرة، ولكن يبدو أنّ الحيرة لم تكن إلّا مكاناً مؤقّتاً نزل به العبّاسيون ليفكّروا في اختيار عاصمة دائمة بحيث تكون أكثر أمناً وصلاحية من الكوفة، إذ أجمعت الروايات التاريخية على أنّه بعد مدّة من الوقت، وبالتحديد في سنة ١٣٤ للهجرة انتقل أبو العبّاس من الحيرة إلى الأنبار، وهي مدينة تقع على الفرات في غربيّ بغداد بينهما عشرة فراسخ. خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلاميّ، العصر العبّاسيّ**: ١٠٢.

١- فاروق عمر، **الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية**: ٢١.

وبذلك ظهرت بغداد في وجهَيها أو صورتيها المشرقة والمظلمة، وكأنّ المنصور [١] كان على موعد من جديد مع دورات الزمان الذي دفعه ورماه باتجاه بغداد [٢] ذات السحر والبهاء، وهي المدينة اللعوب التي تزيّنت له ولأولاده ببهجتها وغنجها في فصول من فصول الفتنة والغرور بثوب مشرقيّ حاك خيوطه عمّال مهروا في حبك ثوب بغداد الجديد الذي لوّنته الخطوب، فبرق هذا الثوب الذي لبسته بغداد في أعصرها الزاهية، ولكأنّ سداه كان الفتنة ولحمته الفجور. وكأنّ طين بغداد، الذي تحرّك مع طمى دجلة فأينع جنانهم وبنى قصورهم، هو الذي زيّن لسلاطين الدنيا أن يمخروا عباب الشهوات سادرين في الغي والضلالة. ولكن لم تنس بغداد العلماء والأدباء والفلاسفة الذين حطّوا رحالهم فيها، فتزيّنت بهم وبالأولياء الذين ساقهم القضاء إلى أرض بغداد فصارت قبلة بهم ييمّمها العباد على مختلف طبقاتهم وعقولهم، من كلّ حدب وصوب، فأحبّوها وفُتنوا بها،

١- كان المنصور الرجل الأوّل وراء بناء هذه المدينة، وكان مؤهّلاً لهذه المهمّة، فلم يبدأ العمل إلّا وبين يديه مائة ألف من المهندسين والفنّيّين والفعلة، على اختلاف أجناسهم وأوطانهم، وبهذا جمع المنصور آلاف الأذواق والخبرات والمهارات و أساليب البناء، وكان يشرف بنفسه على تخطيط مدينته المدوّرة ويتدخّل في اختيار طرز البناء لها. وكانت العادة أن يشيّد أوّل ما يشيّد المسجد الجامع في المدن الجديدة، ولكنّ المنصور شيّد قصره - قصر باب الذهب - أوّلاً، ثمّ شيّد الجامع.. ينظر: **قصور العراق العربيّة والإسلاميّة حتّى نهاية العصر العبّاسي** للشرقي: ١٥٧.

٢- روى المؤرّخون أنّ المنصور الدوانيقيّ لمّا أراد بناء بغداد مكث سنة يتردّد، فقال له راهب كان هناك: ما تريد؟ قال المنصور: أريد أن أبني هاهنا مدينة، فقال الراهب: إنّ صاحبها يقال له: مقلاص، فقال المنصور: وأنا ـ والله ـ كنت أُدعى بذلك! **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ١: ٢٤٤.

فصارت لهم معشوقة يتغنّون بها وبفتنتها[١]. يقول تاج الدين السبكيّ في وصفها: محلّة العلماء إذ ذاك، ودار الدنيا، وحاضرة الربع العامر، ومركز الخلافة[٢].

وقال القزوينيّ في وصفها: بغداد أُمّ الدنيا وسيّدة البلاد وجنّة الأرض ومدينة السلام، وقبّة الإسلام ومجمع الرافدين، ومعدن الطرائف ومنشأ أرباب الغايات، هواؤها ألطف من كلّ هواء، وماؤها أعذب من كلّ ماء، وتربتها أطيب من كلّ تربة، ونسيمها أرقّ من كلّ نسيم[٣].

وقال ابن بطّوطة في وصفها: مدينة دار السلام، وحضرة الإسلام، ذات القَدر الشريف، والفضل المنيف، مثوى الخلفاء، ومقرّ العلماء[٤]. وقد يكون من الجدير بالذكر هنا أنّ نقول بأنّ التاريخ القديم لم يهمل بغداد التي كانت بستاناً وجنّة يانعة تداولها رجال فعمروها، فلم تمنع الأيّام المنصور من أن يمدّ يده ويخطفها من أيدي

١- يروي أبو حيّان التوحيديّ عن واحد من قطّان بغداد الذي سحرته هذه المدينة وخلبت لبّه فيقول: واللهِ ما أنسى بلدتي وتربتي، ولا أرضى ببغداد جنّة الخلد ولوُعُجّلت لي. بلدة هي الأمل والمنى، والغاية القصوى، معشوقة السكنى، جوّها عريان، وكوكبها يقظان، وحصباؤها جوهر، ونسيمها عنبر، وترابها مسك أذفر، يومها غداة، وليلها سَحَر، وطعامها هنيّ، وشرابها مريّ، وجوّها مضيّ، لا والله، ترابها عنبر، وحصاها عقيق، وهواؤها نسيم، وماؤها رحيق. واسعة الرقعة، طيّبة البقعة، كأنّ محاسن الدنيا فيها مفروشة، وصورة الجنّة بها منقوشة. واسطة البلاد وسرّتها، ووجهها وغرّتها.. **الرسالة البغداديّة**: ٩٠.

٢- **طبقات الشافعية الكبرى** ١: ١٧٢.

٣- **آثار البلاد وأخبار العباد**: ٣١٣.

٤- **رحلة ابن بطّوطة**: ٢١٥.

عمّارها [١].

ولم تكن البراعم الخضراء التي كانت مبسوطة في أطراف بغداد تسمح للتاريخ بأن ينساها أو يتناساها، فقد لامس عبق المدائن روابي بغداد وتلولها وكان معها في لقاء ربّما لم يكن بعيداً عن بستان بغداد وهوائها العابق بشذى الأزهار والرياحين الطيّبة، الذي هبّ على المدائن (طيسفون)، والتي هي الآن ناحية من نواحي بغداد، وطرف من أطرافها الجميلة، وللمؤرّخين والباحثين مقولة تقول: قد تعرّف المسلمون الأوائل على جناح من أجنحة طاووس بغداد الجميل الذي يعرف بالمدائن أو (سلمان پاك)، وذلك لمّا فتح المسلمون العراق في خلال النصف الأوّل من المائة الأولى للهجرة (السابع للميلاد) عندها كانت طيسفون، وهي على دجلة، وقد سمّوها المدائن، أجلّ مدن هذا الإقليم والعاصمة الشتائية للملوك الساسانيين.

والمدائن هو الاسم الذي أطلقه العرب على أطلال العاصمتين التوأمين: قطيسفون، وسلوقية التي أسسها السلوقيون الأوّلون قبل الميلاد بثلاثة قرون، وسلوقية وهي في الجانب الغربي قد سُمّيت باسم سلوقس نقطور، أمّا قطيسفون،

١- يقول الخطيب البغداديّ بإسناده إلى أحمد بن حميد بن جَبَلة قال: حدّثني أبي عن جدّي جبلة قال: كانت مدينة أبي جعفر قبل بنائها مزرعة للبغداديين يقال لها: المباركة، وكانت لستّين نفساً من البغداديين، فعوّضهم منها عوضاً أرضاهم.. **تاريخ مدينة السلام** ١: ٣١٧.
ومنهم من زعم بأنّ المنصور ابتاع منه ما بين قنطرة البردان إلى الجسر، وأنّه لم يقبض ثمن ذلك منه. وأنّ حدّ أرضه من الجسر حتّى ينتهي إلى قرية تعرف بالأثلة على فرسخ من الجانب الشرقيّ، ومنزله بالحطمية على ميلين من بغداد، ورفع ذلك إلى الرشيد وإلى المأمون فلم يعطياه. المصدر نفسه.

وقد اختصر العرب اسمها فقالوا: طيسفون[١] فلا يعرف أصل اشتقاقه، وهو وإن بدا أغريقيّاً، فقد يكون تصحيفاً لاسم المدينة الفارسيّ القديم، إذ لسنا نعلم ما كان يسمّي به الساسانيون عاصمة دولتهم هذه، وفي سنة٥٤٠ للميلاد استولى أنوشروان العادل على أنطاكية الشام، وسلوقية نهر الكلب، وأجلى أهل سلوقية هذه إلى عاصمته طيسفون، على عادة ملوك الفرس، فأنزلهم فيها في ربض[٢] جديد في جانب دجلة الشرقيّ، أي بإزاء موضع سلوقية العراق. وكان هذا الربض باقياً حين فتح العرب العراق بعد ذلك بقرن، وكان ما زال يعرف بروميّة، أي المدينة الرومية (اليونانية). وقد ذكر بعضهم أنّها بُنيت على غرار أنطاكية.

وكانت المدائن ـ على ما ذكر المصنّفون المسلمون ـ تتألّف من سبع مدن ذات أسماء معروفة على اختلاف في قراءتها، والظاهر أنّ خمساً من هذه المدن فقط كانت قائمة عامرة حينما كتب اليعقوبيّ في المائة الثالثة (التاسعة للميلاد)كتابه، وهي: المدينة العتيقة، أي طيسفون، وعلى ميل من جنوبها اسبانبر، وبجوارها رومية، وهذه المدن في الجانب الشرقيّ، وفي الجانب الآخر من دجلة كانت بهرسير، وهي تصحيف (به أردشير)، أي بلدة الملك أردشير الطيّبة، وعلى فرسخ من أسفلها ساباط، وكان الفرس ـ على ما ذكر ياقوت ـ يسمّونها بلاس أباذ. والقصر الساسانيّ الفخم الذي ما زالت بقاياه قائمة في الجانب الشرقيّ من دجلة سمّاه العرب إيوان كسرى. ولرغبة العرب في مدن يسكنونها ويعسكرون فيها،

١- قال ياقوت: أصلها طوسفون فعُرّبت على طَيسَفون، بفتح أوّله وسكون ثانيه وسين وفاء وآخره نون، هي مدينة كسرى التي فيها الإيوان، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ. **معجم البلدان** ٤: ٥٥.

٢- الربض، بفتح الراء والباء: ما حول المدينة، وقيل: هو الفضاء حول المدينة. وقال ابن خالويه: ربض المدينة، بضمّ الراء والباء أساسها، وبفتحهما ما حولها. **لسان العرب** (ربض).

أسّسوا في زمن قصير مدناً ثلاثاً: الكوفة والبصرة وواسط، سرعان ما نمت وصارت أهمّ مدن هذا الإقليم الإسلاميّ الجديد. وكانت الكوفة والبصرة بوجه خاصّ عاصمتي العراق الشقيقتين في أيّام بني أميّة.

ولمّا انتقل الأمر من الأمويين إلى العبّاسيين اقتضى الحال اتّخاذ عاصمة جديدة لدولتهم الجديدة، فأسّس ثاني حكّام بني العبّاس بغداد على دجلة فوق طيسفون (المدائن) ببضعة أميال، وما عتمت بغداد أن غطّت على ما اتّصفت به دمشق من مفاخر في العهد الأمويّ وأصبحت قاعدة الخلافة العبّاسية وعاصمة العراق أيضاً بطبيعة الحال، وعلا شأن إقليم العراق فصار قلب الدولة الإسلامية ومركزها في الشرق [١].

يتحدّث الباحث الجغرافي يعقوب ليسنر عن نهضة بغداد ونموّها السريع فيقول: وكان المجموع الكلّي للبناء في العهد الإسلاميّ، ما عدا المراكز الدولية، أكبر ممّا كان في العهد البارثيّ، غير أنّه أقلّ بصورة ملحوظة أيضاً ممّا في العصور الساسانية، أمّا إذا دخلت بغداد في الحساب، فإنّ البناء الإسلامي كان أكبر مرّتين ونصف ممّا كان في الفترة الساسانية، فإذا أُضيفت سامراء فإنّه يصبح أربعة أضعاف مجموع المستوطنات. ومن الواضح أنّ النموّ السريع للعواصم العبّاسية لم يكن مسبوقاً في التطوّر التاريخي للمنطقة، ولابدّ أنّه أثارته تطعيمات من المصادر البشرية والطبيعية من خارج سهول ديالى.

ثمّ يتحدّث عن المدائن فيقول: ليس في الأدلّة الأدبية ما يشير إلى أنّ طيسفون والمستوطنات المحيطة بها في سهول ديالى حققت أيّة أهمّية تجارية أو سياسية في العهود السابقة للعبّاسيين، يتجلّى بعض هذا الانطباع من مسح

١- ينظر: كي لسترنج، **بلدان الخلافة الشرقية**: ٤٢ و٥١.

شيكاغو، وأنّ الأحوال العامّة التي وصفها استمرّت إلى أن تأسّست عاصمة المنصور، وبذلك ظهرت لأوّل مرّة منذ القرن الرابع قبل الميلاد مدينة ذات أهمّية كبيرة في المنطقة، فالانحطاط الحضريّ والعامّ لسهول ديالى ترجع بعض أسبابه إلى تحطّم السلطة المركزيّة الناجم عن التدهور ثمّ الانهيار الواقعيّ للحكم الساسانيّ، غير أنّ استعادة السلطة في العصور الإسلامية لم ينتج حالاً في استعادة الحيوية الاقتصادية والسياسية الكاملة للمنطقة، لأنّ سيطرة طيسفون كان يتحكّم فيها مكانتها كمركز إداريّ للدولة، ولم تستعد سهول ديالى مكانتها كمناطق حافّة لمركز دولي إلّا بعد ظهور العبّاسيين وبناء بغداد، فالعبّاسيون كانوا يختلفون عن أسلافهم الذين كانوا ينظرون جنوباً وغرباً إلى المدينة أوّلاً، ثمّ إلى دمشق للتوجيه السياسيّ، إذ إنّ العبّاسيين جاؤوا إلى الخلافة من الأقاليم الشرقية الغنيّة، وأقاموا حكمهم على تكتيل العناصر اليائسة التي كانت تكوّن الإمبراطوريتين البزنطية والفارسيّة من قبل، فكانت بغداد التي تقع في مركز الدائرة الجغرافية، هي المكان المنطقي لتغذية مثل هذه الطموحات الإمبراطورية[١].

ومن هنا يمكن أن نقول: من معطيات الفتح الإسلاميّ الكبير، وببريق سيوف المجاهدين التي زهت وأشرقت على أرض السواد سمت بغداد بعزّها الإسلاميّ، وتزيّنت بجمالها الحضاري، ولكن ربّما كانت بغداد جميلة وطائعة لفتيانها الأغنياء الذين شغلتهم الدنيا بزخارفها وفتنتها التي أشغلتهم وألهتهم. أمّا الصورة الأخرى فهي مغايرة لأهل بغداد الطيّبين الذين أزعجهم فجور الطغاة والبطرين، فهم كانوا يرون شقاءها وسوادها وشؤمها الذي يزداد حلكة وظلاماً في عيونهم، وذلك حين يخيّم ويجثم ليل المجون والعربدة والفسق، على قصور وأروقة بغداد

١- **خطط بغداد في العهود العبّاسية الأولى**: ٢٨٣.

ودروبها الملأى بالجواري والغلمان اللاهين الغافلين. وربّما كان فقراء بغداد وضعفاؤها الصابرون يسمعون نغمات التخمة والامتلاء التي تعزفها تلاحين الجواري المغنّيات، فأشعرهم هذا اللحن في أطراف السحر الناعس بمرارة فقرهم وبؤسهم، فتداعت إلى مخيلتهم صور القصور المنيفة التي ازدحمت بها بغداد، ولكن لم تكن هذه القصور لهم، وكأنّها لم تكن جدرانها أو ظلالها مباحة لسائر العباد، أوكأنّه لم يسمح لهم حتّى برؤيتها، وربّما ظلّت محجوبة وبعيدة عن أعين الفقراء والعوامّ والمعدمين، وكأنّ بغداد الواسعة السخيّة قد ضاقت برحبها على هؤلاء الفقراء الذين استبدّ بهم اليأس، وكأنّهم لم يركبوا قافلة الذين كانوا يأملون برّها وعطاءها، والذي كان مبذولاً للشرق والغرب. وشاهد حالها شاعريصف حاله وحال أهل عصره و زمانه حين يقول:

بغدادُ دارٌ لأهل المال واسعةٌ
وللصعاليكِ دارُ الضَّنكِ والضِّيقِ
ظللتُ أمشي مضافاً في أزقّتِها
كأنّني مِصحفٌ في بيتِ زِنديقِ[١]

وتناهبت ساحات بغداد وبساتينها ورياضها صبيانُ بني العبّاس وغلمانهم وجواريهم، فقد توزّعت أرض بغداد قطعاً وقصوراً ومتنزهات يلهو بها سلاطين بني العبّاس مع خواصّهم، فكان للمأمون قصر وللمعتصم قصر، ولوزرائهم كالحسن بن سهل وبعض الهاشميين قصور، ولمّا كانت قصور الحكّام أحيطت بسور خاصّ أُطلق عليها اسم حريم دار الخلافة، وأصبحت مقرّ الحكّام طوال عمر الدولة العبّاسية باستثناء الفترة الممتدّة ما بين عام ٢٢١ ـ ٢٧٩ هـ/ الموافقة لعام ٨٣٥ـ

١- رحلة ابن بطّوطة: ٢١٧.

٨٩٢ لميلاد المسيح عليه السلام، والتي اتّخذت فيها سامراء [١] عاصمة، وعاش فيها:

١- يبدو أن بغداد قد لفظت ملوك بني العبّاس من ترابها وألقت بهم في سامراء بعد أن ضاقت بهم وبغلمانهم الذين آذوا أهلها الطيّبين. وأجمع جلّ المؤرّخين القدامى على أنّ انتقال المعتصم من بغداد واختياره سامراء كان لأسباب عسكريّة، ذلك لأنّ وجود الفرق التركيّة الجديدة وغيرها في بغداد، خلق مشاكل مع أهل بغداد لكون هؤلاء الأتراك كانوا من البدو، وكانوا يحترفون الفروسيّة فيتراكضون في طرقات بغداد، فيتأذّى الناس منهم، فيُضطرّ بعضهم إلى قتل بعض الجند أو ضربهم لهذا السبب، فاشتكى الجند من تصرّف أهل بغداد، واشتكى أهل بغداد أيضاً من وجودهم، عندها قرّر المعتصم الابتعاد عن بغداد واختيار سامراء ونقل إليها جنده، ولذلك سمّيت سامراء في أوّل أمرها بالعسكر. ينظر: خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلاميّ، العصر العبّاسيّ:** ص١٤٩. وأمّا التأكيد على هؤلاء الجند الذين كانوا سبباً لتذمّر البغداديين منهم، فيعزيه الكاتب طاهر مظفّر العميد إلى أنّ الجند كانوا في الواقع إضافة جديدة للجيش ظهرت خلال فترة حكم المعتصم، ولقد كانت هناك عوامل وظروف كثيرة أثّرت في تصميم المعتصم في استخدام الأتراك والجنود الأتراك والجنود الجدد الآخرين، بعض تلك العوامل موجودة قبل قيام الدولة العبّاسيّة، والبعض الآخر ظهر بعد موت والد المعتصم واستمرّت أثناء عهد أخيه المأمون. ومن تلك العوامل عامل الخوف من تعاظم قوّة الفرس الذين أخذت آراؤهم السياسية والاجتماعية تنتشر بالتدريج في كلّ مكان من الإمبراطورية. ولقد كانت حاجة المعتصم إلى هؤلاء الأتراك وغيرهم من الجند بسبب مقدرتهم العسكرية التي اكتسبوها في موطنهم، كما رغب فيهم أيضاً لكي يقفوا في وجه العديد من الثورات والانتفاضات، مثل تلك التي أزعجت أخاه الحاكم والتي سوف تجابهه هو أيضاً. **العمارة العبّاسيّة في سامراء:** ٥٢. فكان قرار الانتقال في سنة ٢٢٠ للهجرة، حيث خرج المعتصم إلى سامراء لبنائها، وكان سبب ذلك ـ كما ذكر ابن الأثير ـ أنّه قال: إنّي أتخوّف هؤلاء الحربية أن يصيحوا صيحة فيقتلوا غلمانيّ، فأريد أن أكون فوقهم إن رابني منهم شيء أتيتهم في البرّ والماء حتّى آتي عليهم. فخرج إليها فأعجبه مكانها. وقيل: كان سبب ذلك أنّ المعتصم كان قد أكثر من الغلمان الأتراك، فكانوا لايزالون يرون الواحد بعد الواحد قتيلاً، وذلك أنّهم كانوا

المعتصم والواثق والمتوكّل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد، وبنوا فيها القصور، وشاركهم في البناء أتباعهم ونساؤهم وأمّهاتهم.

وكان المتوكّل من بين هؤلاء الحكّام أكثرهم ولوعاً بالبناء، لذلك بنى في سامراء جملة قصور، ووسّع ما ورثه منها عن أسلافه، وكانت تلك القصور مزدانة بنقوشها وهيئتها الفنّية وما يحيط بها من بساتين تتخلّلها أحواض المياه، وهي: البركة، والوحيد، والبهو، والقلائد، والقصر، والجوسق، والتلّ، والغريب، والمليح،

جفاة يركبون الدوابّ فيُركضونها إلى الشوارع فيصدمون الرجل والمرأة والصبيّ، فيأخذهم الأبناء من دوابّهم ويضربونهم، وربّما هلك أحدهم فتأذّى بهم الناس. ثمّ إنّ المعتصم ركب يوم عيد فقام إليه شيخ فقال له: يا أبا إسحاق! فأراد الجند ضربه فمنعهم، فقال: يا شيخ، ما لك ما لك؟! قال: لاجزاك الله عن الجوار خيراً، جاورتَنا وجئت بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك فأسكنتهم بيننا، فأيتمت صبياننا وأرملت بهم نسواننا وقتلت رجالنا! والمعتصم يسمع ذلك، فدخل منزله ولم يُرَ راكباً إلى مثل ذلك اليوم، فخرج فصلّى بالناس العيد، ولم يدخل بغداد، بل سار إلى ناحية القاطول ولم يرجع إلى بغداد. قال مسرور الكبير: سألني المعتصم: أين كان الرشيد يتنزّه إذا ضجر من المقام ببغداد؟ قلت: بالقاطول، وكان قد بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم، وكان قد خاف من الجند ما خاف المعتصم، فلمّا وثب أهل الشام بالشام وعصوا خرج إلى الرقّة فأقام بها، وبقيت مدينة القاطول لم تستتمّ. ولمّا خرج المعتصم إلى القاطول استخلف ببغداد ابنه الواثق. وكان ابتداء العمارة بسامراء سنة إحدى وعشرين ومائتين. **الكامل في التاريخ** ٦: ٢١. فبنى هناك قصراً في الموضع المعروف بالقاطول، فاستطاب الموضع، وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة، فنادى بالناس وانتقلوا عن مدينة السلام وخلت من السكّان إلّا اليسير، وكان فيما قاله بعض العيّارين في ذلك معيّراً للمعتصم بانتقاله عنهم:

أيا ساكنَ القاطول بينَ الجرامقة ... تركتَ ببغدادَ الكباشَ البطارقة!

ينظر: **مروج الذهب** ٤: ٣٥١.

واللؤلؤة، والشاه، والعروس، والبديع، والشبدار، والمختار، والبرج، والفرد، وكور، والحير، والصبيح، وقصر الإيتاخية (في المحمّدية)، والجعفريّ، والجعفريّ المحدث، ومدينة المتوكّلية. وقد صرف المتوكّل على بناء قصوره الجديدة، أو التي قام بتوسيعها وتزيينها، أموالاً خيالية. وقد اختار المتوكّل لسكناه قصر الهارونيّ من بين قصور المعتصم، وفضّله عليها جميعاً، وأسكن ابنه المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق الخاقاني، وابنه إبراهيم المؤيّد في المطيرة، وابنه المعتزّ في بكورا. وقد انتقلت هذه القصور من حاكمٍ إلى حاكم بالوراثة مع الحكم. وقد أطنب الشعراء في وصف تلك القصور. وقد طليت سقوف بعضها بالذهب، وبلّطت أرضها بالرخام، وازدانت جدرانها بالزجاج، وزيّنت بركها بالتماثيل والصور[١].

وإلى جانب هذه القصور الخاصّة بسلاطين بني العبّاس، كانت هناك معالم حضارية تعود إلى عامّة الناس، ينقل لنا الصابئ عن كتاب فضائل بغداد العراق من تأليف يزدجرد بن مهبندار الفارسيّ صورة عن هذه المعالم فيقول: قد أكثر الناس في بغداد العراق إكثاراً، لم يعطونا فيه دليلاً، ولا أفادونا به محصولاً، واقتصروا على أن يقولوا: بلد لا يشبه البلدان، ولاكان مثله في قديم الأزمان، فإنّ أقلّ ما فيه أنّه يشتمل على مائتي ألف حمّام، إلى الضعف، ومن المساجد والطرازات كذلك إلى ما هو متضاعف[٢].

قال المحقّق صالح أحمد العليّ في مقدّمته لكتاب ابن الفقيه الهمدانيّ معلّقاً على ما يقوله يزدجرد: أبرز ما في كتاب يزدجرد هو محاولته استنباط عدد سكّان بغداد من عدد الحمّامات فيها، وهو يذكر أنّ بعضاً قدّر عدد حمّامات بغداد

١- بدري محمّد فهد، **المجتمع العراقي في العصر العبّاسي**، **حضارة العراق** ٥: ٥٧.

٢- **رسوم دار الخلافة**: ١٨.

مائتي ألف، وقدّرها آخرون مائة ألف، وأنّه شخصيّاً افترض أنّ عددها ستّون ألفاً، وهو تقدير شخصيّ غير قائم على إحصاء رسمي أو دقيق، ثمّ خرّج منه تخريجات عن عدد سكّان بغداد وتقدير السلع التي يستهلكونها. ويلاحظ أنّ كثرة الحمّامات ببغداد كانت من المظاهر التي اهتمّ الكتّاب بتدوينها، ولعلّ هذا الاهتمام لايرجع إلى كثرة الحمّامات فقط، بل إلى إباحة الدولة للناس إقامتها بعد أن كانت في العصر الأمويّ لاتقام في الأمصار العراقية إلّا بإجازة من الحاكم الأمويّ، ممّا أدّى إلى تحديد عددها بحيث لم تكن تزيد في البصرة على خمسة حمّامات، ولعلّ الأمويين تابعوا في ذلك تقليداً ساسانياً قديماً[1].

ومن المظنون في تفسير هذا العدد القليل من الحمّامات التي كانت قائمة في مدن العراق، يعود إلى أنّ الحكام الأمويين كانوا يخشون الأمصار العراقية، لما تعني الأمكنة والنوادي العامّة فيها لهم تجمهراً واجتماعاً غير مرغوب فيه، وقد يؤول بالنهاية إلى تأسيس مكان وتجمهر معارض، قد يشكّل نقطة انطلاق للثورة والتمرّد ضدّ الدولة الأموية التي اضطهدت أهل العراق وقمعتهم، وربّما يؤدّي الهيجان والغضب الذي كان يستعر في نفوس أهل العراق إلى الزحف بالثائرين نحو دمشق، فباعتقاد الأمويين أنّ أيّ تجمّع يقوم به أهل العراق يهدّد أمن الدولة الأموية ويشكّل لها خطراً لايمكن السيطرة عليه، حتّى ولو كان بعيداً عن دمشق، وتاريخ الحروب الشرسة التي خاضها العراقيون في صفّين، ربّما تركت ذكريات مريرة عن بأس العراقيين وشدّتهم نقلها الآباء لهم. ولكن قد تغيّر الوضع في عصور بني العبّاس، والتي انقلبت فيها الموازين وتغيّرت، وخاصّة بعد تأسيس بغداد وظهورها في خريطة الدولة الإسلامية الفتية كعاصمة ومركز حضاريّ وسياسيّ جديد.

١- بغداد مدينة السلام: ٢٢.

وعندما نقف على مسافة قريبة من تاريخ بغداد تتوفّر لنا صورة تقريبية عن هذه المدينة الفاتنة، فيقصّ لنا المؤرّخون حكايات عن عهد الناس ببغداد، وكأنّه ارتبط بعصور التأسيس العبّاسية الأولى، تلك العصور التي ولدت وتبرعمت في هذه المدينة الفتيّة الغضّة، والتي رافقت الحكّام الأوائل وسارت معهم وسامرتهم، وأطربتهم بلياليها الصاخبة، وسحرتهم بفتنتها، فألبستهم حلية وزينة الفتاة اللعوب التي دارت في مخيلة الزمان وتحرّكت بها شفاه الشعراء وداعبت أحلامهم وآمالهم، تلك المدينة التي كانت تغوي عاشقيها بوصالهم، فكانت تتّسع أحلامهم وآمالهم مع اتّساع أرض بغداد واتساع بنائها الذي سابق البلدان وبزّها وعلاها، وتضاحك الزمن مع هذه المدينة الصاعدة، وأشبعها وأغراها بمحاسن أيّامه، وأقبل سعدها وحظّها حتّى درّت لها أخلاف الدنيا[١].

ومع هذا الأمل الجديد الذي كان يحلم به العرب والمسلمون في هذه العاصمة البديلة عن دمشق، فإنّ الملوك العبّاسيين بددوا هذا الحلم العريض، فلم يكن هؤلاء يعجبهم الاختلاط بالعوامّ، وقد أشار المؤرّخ الألمانيّ كارل بروكلمان إلى ظاهرة التعالي على الرعيّة بالقول: كانت روح العاصمة الجديدة تختلف، منذ

١- لقد بلغ عزّ بغداد وسموّها وتطاولها على البلدان في عهد هارون الرشيد أن صارت الدنيا بشرقها وغربها لقمة سائغة بيد خليفة بغداد، فيحكى أنّ هارون الرشيد كان يستلقي على قفاه وينظر إلى السحابة الحاملة للمطر ويقول: اذهبي إلى حيث شئت يأتيني خراجك. **مآثر الإنافة في معالم الخلافة** للقلقشنديّ ١: ١٩٤. ومع تقادم الأيّام خملت بغداد وانزوت في زاوية من زوايا التاريخ بعد أن دبّ بها الخراب وتمزّقت أشلاؤها وفرّ علماؤها حين دخلتها جموع المغول في أواخر دولة بني العبّاس بعد ما كان من انقضاء شبابها وأفول نجمها، يقول رونلدسن: فلمّا قضى المغول على الخلافة العبّاسية وأزالوا أثرها أصبحت بغداد مدينة ثانوية صغيرة، وأُهملت منظومة الري البديعة التي كانت تروي المناطق المحيطة بها. **عقيدة الشيعة**: ٧٥.

البدء، اختلافاً كلّياً عن روح دمشق، فعلى الرغم من أنّ العرب ظلّوا يتوافدون على بلاط المنصور أيضاً، فالواقع أنّه لم يعد في ميسورهم أن يقربوا الخليفة، كما كانوا يفعلون زمن عبد الملك. . فخليفة بغداد لم يكن، بأيّ حال، شيخاً من شيوخ القبائل، بل خَلَفٌ لملوك الفرس الكبار.

وفي السنوات التوالي نشأ عند خلفاء بغداد شوق إلى استطلاع الكتب الفارسيّة عن أسلوب التشريفات الذي كان يتبعه الساسانيون، ورغبة في محاكاته وتقليده، فلم يعد التقدّم في البلاط والمكانة في الحكومة امتيازاً وراثيّاً مقصوراً على الأشراف، بل أصبح الخليفة يقدّم من يشاء ويؤخّر من يشاء. وانتهت الخلعة، ولم تكن معروفة زمن الأمويين، إلى أن تكون آية على الحظوة عند الخلائف من بني العبّاس. وبينا كان الأمويون يكتفون، في أغلب الأحيان، بحاجب ينيطون به أمر إدخال الناس عليهم، نجد أنّ عدد الحجّاب والخدم في البلاط العبّاسي يزداد في اطّراد، ولا عمل لهم إلّا الحَؤول بين الخليفة وأفراد الشعب وإقامة العقبات بينه وبينهم. والواقع أنّ الخلفاء العبّاسيين نفضوا أيديهم، أو كادوا، من تصريف شؤون الدولة، مُلقين عبء ذلك على غارب الوزراء، ولكنّهم تصرّفوا في ما يتّصل بالموت والحياة مباشرة، فقد كان الجلّاد ـ وهو ظاهرة لم تكن تعرفها الحضارة قبل ذلك العهد ـ يلازم الخليفة دائماً، وكان النطع حاضراً أبداً، قرب العرش، لاستقبال الرؤوس المغضوب عليها[١].

ينقل عماد الدين إسماعيل أبو الفداء حكاية للمنصور العبّاسيّ جرت في حجّه الأخير، وربّما تعكس وتبيّن هذه الحكاية بعض ما نقله بروكلمان، فقال: بينا الخليفة المنصور يطوف بالكعبة ليلاً إذ سمع قائلاً يقول: اللّهمّ إنّي أشكو إليك

١- **تاريخ الشعوب الإسلامية**: ١٧٨.

ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحقّ وأهله من الطمع. فخرج المنصور إلى ناحية من المسجد ودعا القائل وسأله عن قوله، فقال: يا أمير المؤمنين، إن آمنتَني أنبأتك بالأمور على جليتها وأصولها. فآمنه، فقال: إنّ الذي دخله الطمع حتّى حال بين الحقّ وأهله هو أنت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: ويحك! وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي، والحلو والحامض عندي! فقال الرجل: لأنّ الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم، فجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجرّ وأبواباً من الحديد، وحجّاباً معهم الأسلحة وأمرتهم أن لايدخل عليك إلّا فلان وفلان، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف، ولا الجائع والعاري، ولا الضعيف والفقير، ولا أحد إلّا وله من هذا المال حقّ، فلمّا رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك، تجبي الأموال فلا تعطيها وتجمعها ولاتقسمها، قالوا: هذا قد خان الله تعالى، فما لنا لا نخونه وقد سخّر لنا نفسه! فاتّفقوا على أن لايصل إليك من أخبار الناس إلّا ما أرادوا، ولايخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلّا أقصوه ونفوه حتّى تسقط منزلته ويصغر قدره، فلمّا انتشر ذلك عنك وعنهم عظّمهم الناس وهابوهم، فكان أوّل من صانعهم عمّالك بالهدايا ليتقوّوا بهم على ظلم رعيتك، ثمّ فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلماً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلّم حيل بينه وبين الدخول إليك، فإن أراد رفع قصّة إليك وجدك قد منعت من ذلك، وجعلت رجلاً ينظر في المظالم، فلا يزال المظلوم يختلف إليه وهو يدافعه خوفاً من بطانتك، فإذا صرخ بين يديك ضُرب ضرباً شديداً، ليكون نكالاً لغيره، وأنت تنظر ولا تُنكر، فما بقاء الإسلام على هذا؟!

فإن قلتَ: إنّما تجمع المال لولدك فقد أراك الله في الطفل يسقط من بطن أمّه

وما لَه في الأرض مال، وما من مال إلّا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتّى يعظّم رغبة الناس إليه، ولست الذي يعطي، وإنّما الله عزّوجلّ يعطي من يشاء بغير حساب.

وإن قلت: إنّما أجمع المال لتسديد الملك وتقويته، فقد أراك الله في بني أميّة ما أغنى عنهم ما جمعوه من الذهب والفضّة، وما أعدّوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله تعالى لهم ما أراد.

وإن قلت: إنّما أجمعه لطلب غاية هي أجسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق الذي أنت فيه منزلة إلّا منزلة ما تنال إلّا بخلاف ما أنت عليه[١].

وقد أورد الشيخ الأزهريّ محمّد الخضريّ على المنصور ما سجّل عليه من صور الغدر في صفحات كتاب سلطته، فقال: يؤخذ عليه ويحطّ من شأنه غدراته الثلاث التي عُرفت عنه: فقد غدر بابن هبيرة بعد أن أعطاه الأمان ولم يَبدُ من الرجل شيء يرتب به، وغدر بعمّه عبد الله بن علي بعد أن أعطاه الأمان، وغدر بأبي مسلم، وربّما تكون له شبهة في القضاء على عمّه وعلى أبي مسلم، ولكن الذي لايليق بخليفة المسلمين وإمامهم أن يستعمل الأيمان والعهود وسيلة لاستنزال أعدائه ثمّ يغدر بهم.

ومن غريب أمره أنّه كان تزوّج أروى بنت منصور الحميريّ، وهي أم ولديه محمّد وجعفر الأكبر، وكان شرط لها أن لايتزوّج عليها ولايتسرّى، وكتب عليه بذلك كتاباً أكّدته وأشهدت عليه شهوداً، فعزب بها عشر سنين في سلطانه، فكان يكتب إلى الفقيه بعد الفقيه من أهل الحجاز يستفتيه، ويحمل إليه الفقيه من أهل الحجاز وأهل العراق فيعرض عليه الكتاب ليفتيه فيه برخصة، فكانت أروى إذا

١- المختصر في أخبار البشر ٢: ٧.

علمت بمكانه بادرته فأرسلت إليه بمال جزيل، فإذا عرض عليه أبو جعفر الكتاب لم يُفتِه فيه برخصة حتّى ماتت بعد عشر سنين من سلطانه ببغداد. فانظروا كيف كان يحاول الخلاص من عقد عقَدَه على نفسه ويريد أن يلقي تبعته على غيره من الفقهاء ويعرّضهم لمخالفة الضمائر والذمم![١]

وكذلك الحال بالنسبة إلى عمّاله وولاته الذين نصبهم من صميم الأسرة العبّاسية، فهم بارعون في غدرهم، فداود بن علي الذي كان والي المدينة زمان المنصور لم يكن متوانياً في الفتك والغدر بمن كانوا أعمدة وأوتاداً للسلطة العبّاسيّة، وحتّى للأيادي التي كانت في طوع خدمته وبين يديه، ففي رواية للكشّيّ يظهر دناءته في الغدر فيقول: روي عن إسماعيل بن جابر[٢] قال: قدم أبو إسحاق عليه السلام ـ المراد هو الصادق عليه السلام ـ من مكّة فذُكر له قتل المعلّى بن خنيس[٣]، فقام مغضباً يجرّ ثوبه، فقال له إسماعيل ابنه: يا أبه، أين تذهب؟ قال: لو كانت نازلة لأقدمتُ عليها! فجاء حتّى دخل على داود بن عليّ، فقال له: يا داود، لقد أتيتَ ذنباً لا يغفره الله لك! قال: وماذاك الذنب؟ قال: قتلتَ رجلاً من أهل الجنّة! ثمّ مكث ساعة، ثمّ قال: إن شاء الله. قال داود: ما أنا قتلته، قال: فمن قتله؟ قال: قتله السيرافي، قال: فأقدنا منه. فلمّا كان من الغد غدا إلى السيرافي فأخذه فقتله، فجعل السيرافي يصيح: يا عباد الله، يأمروني أن أقتل لهم الناس ويقتلوني![٤]

١- **الدولة العبّاسية، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**: ٧٧.

٢- إسماعيل بن جابر الجعفيّ، قالوا: ثقة جيّد. ينظر: **فائق الرجال**: ٨٩ / الرقم ١٣٩.

٣- كان المعلّى بن خنيس من المقرّبين للإمام الصادق عليه السلام، ومن المحمودين في كتب الرجال. وقد أطلعه الإمام الصادق عليه السلام على بعض الأسرار فأذاعها، ولم يعمل بالتقيّة فقُتل. ينظر: **الغَيبة** الشيخ الطوسيّ: ٢١٠، **الكافي** ٢: ٢٢٣/ ح ٨، **بحار الأنوار** ٢٥: ٣٨١ / ح ٣٤ و٤٧: ٨٧ و٣٦٣.

٤- **رجال الكشّيّ**: ٦٧٧ ـ ٦٧٨ / الرقم ٣٧٩.

وكأنّ السيرافي وغيره من رجال الدولة العبّاسيّة كان كبش فداء بين أيديهم، فحين تصله نوبة السكّين يُذبح في محرابهم وبلاطهم متى كانت هناك ضرورة أو حاجة لكي يراق دمه، وربّما لم يكن هناك سبب أو مبرّر لذبح كباشهم، حتّى إنّ عليّة بنت المهديّ أخت هارون الرشيد، التي عاشت تفصيلات حياتهم ودقائقها، لم تفهم سرّ المذابح العبّاسيّة التي كانت تقام لوزراء ولخدّام الدولة العبّاسية، لذا تساءلت متعجّبة عن سبب قتل الرشيد البرامكة الذين كان لهم باع طويل ومميّز في خدمة البيت والقصر العبّاسيّ، فقالت للرشيد بعد إيقاعه بالبرامكة: مارأيتُ لك يوم سرور تامّ منذ قتلت جعفراً، فلأيّ شيء قتلته ؟ فقال: ياحياتي، لو علمتِ أنّ قميصي يعلم السبب الذي قتلتُ له جعفراً لأحرقتُه! [١]

وهكذا تمضي سنون حكمهم بين دم يُسفَك، ولذّات متجدّدة يتداول بنو العبّاس فيها كؤوس الدم المراق في زوايا بيوتهم، وعلى فراش شهواتهم، ويتعبّدون بمحراب مغنّياتهم، ويرتّلون أناشيد انتصاراتهم في ميادين الرقص والعربدة. وربّما كان سعيهم الدائب الحثيث الذي لا ينقطع، للإبقاء على عرش المُلك الذي وطّأه لهم أبو جعفر المنصور الذي يلهج باسمه صبيانهم وفتيانهم داعين له بالشكر والعرفان، و كان بنو العبّاس يستذكرون بطولات مؤسّس دولتهم ـ أبو جعفر المنصور ـ الذي أفزع أصحابه وأعداءه بحزمه، فقد كان يجمع إلى الجرأة وبعد الهمّة المكرَ والدهاء، فعزم أن يضرب أعداءه بعضهم ببعض حتّى يستريح منهم جميعاً. . ولربّ قائل يقول: إنّ افتخار بني العبّاس بالمنصور يعود إلى أنّه أمسك لهم دولة كادت أن تطير من أيديهم، يقول عيسى الحسن: ويكفيه فخراً أنّه قام في وجه معانديه ومخالفيه، وهم كثيرون في جهات شتّى فقهرهم جميعاً، ووطّد دعائم

١- **الأوراق** لأبي بكر الصوليّ ٣: ٥٧.

الملك بعد أن كاد يذهب من آل العبّاس قبل أن يستقرّ[١]. ولم يكن وضع المسلمين بعد رحيل المنصور عنهم أحسن حالاً وأكثر اطمئناناً، وبالأخصّ لعهود مَن جاء بعده منهم، أو كأنّ الأبناء كانوا أوفى في مواثيقهم، أوكانوا أقلّ غدراً وفتكاً بهم من أبيهم، ففي زمن الحكّام الذين جاؤوا بعد المنصوركانت هناك مشاهد للغدر ربّما لم تكن منظورة، وربّما ساء وضع المسلمين أكثر ممّا مضى، ففي إمرة الرشيد وأخيه الهادي قام يحيى بن عبد الله بن الحسن المثنّى وبثّ دعاته في الأرض، وبايعه كثيرون من أهل الحرمين، واليمن، ومصر، والعراقين، وبايعه من العلماء محمّد بن إدريس الشافعيّ، وعبد ربّه بن علقمة، وسليمان بن جرير، وبشر بن المعتمر، والحسن بن صالح وغيرهم. وكان هذا في زمن الهادي، فلمّا فتّش عنه الرشيد، وأخذ عليه بالرصد والطلب، وأمعن في ذلك، لحق يحيى بخاقان ملك الترك وأقام عنده سنتين وستّة أشهر، والكتب ترد عليه من هارون، وعمّاله يسألونه تسليم يحيى، فأبى وقال: لا أرى في ديني الغدر. وهورجل من ولد نبيّكم شيخ عالم!

و جاء في رواية أبي الفرج الأصفهاني : وولّى الرشيد الفضل بن يحيى جميع كور المشرق و خراسان و أمره بقصد يحيى و الخديعة به، و بذل له الأموال و الصلة إن قبل ذلك ، فمضى الفضل فيمن ندب معه، و راسل يحيى بن عبد الله فأجابه إلى قبوله لمّا رأى من تفرّق أصحابه ، و سوء رأيهم فيه، و كثرة خلافهم عليه، إلّا أنّه لم يعرض الشرائط التي شرطت له، و لا الشهود الذين شهدوا عليه، و كتب لنفسه شروطاً و سمّى شهوداً و بعث بالكتاب إلى الفضل فبعث به إلى الرشيد فكتب له على[٢] ما أراد[١].

١- **الدولة العبّاسية تكامل البناء الحضاري**: ٥٨ و٧٨. وأشرنا إلى نحو هذا عن الشيخ الخضريّ.

٢- **شذرات الذهب في أخبار من ذهب** ١: ٣٣٨.

وكأنّ الرشيد نسي العهود والمواثيق التي عاهد الله بها فاستدعاه ليغدر به مستعيناً بعلماء السوء، فخطّط لنقض كتاب الأمان الذي اطمأنّ به وركن إليه يحيى بن عبد الله بعد ما كان الرشيد وأصحابه يقسمون له بالمقدّسات التي أوصلتهم إلى عرش السلطة، هذه السلطة التي أنستهم دينهم وأسكرتهم وأطغتهم، يقول ابن الأثير: وكان الرشيد قد عرض كتاب أمان يحيى على محمّد بن الحسن الفقيه، وعلى أبي البختريّ القاضي[٢]، فقال محمّد: الأمان صحيح. فحاجّه الرشيد، فقال محمّد: وما تصنع بالأمان ! لو كان محارباً ثمّ ولي كان آمناً. وقال أبو البختريّ: هذا أمان منتقض من وجه كذا، فمزّقه الرشيد[٣].

وأمر بيحيى إلى السجن، فمكث أيّاماً، ثمّ أحضره القضاة والشهود ليشهدوا على أنّه صحيح لابأس به، ويحيى ساكت لايتكلّم، فقال له بعضهم: ما لك لاتتكلّم ؟فأومأ إلى فيه أنّه لايطيق الكلام، فأخرج لسانه وقد اسودّ، فقال الرشيد: هو ذا يوهمكم أنّه مسموم. ثمّ أعاده إلى السجن، فلم يُعرف بعد ذلك خبره، فقيل: قتله جوعاً، وأنّه وُجد في بركة عاضّاً على حمئة وطين، وقيل: بنى الرشيد عليه أُسطوانة، وقيل: حبسه في دار السنديّ بن شاهَك في بيت نتن. وردم عليه الباب حتّى مات، ويقال: أُلقي في بركة فيها سباع قد جوّعت فلاذت به وهابت الدنوّ منه، فبُني

١- **مقاتل الطالبيين** ٤٦٨، ط دار المعرفة بيروت بتحقيق السيّد أحمد صقر.

٢- أبوالبختريّ هووهب بن وهب بن كثيربن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطّلب القرشيّ، كان فقيها وولّاه الرشيد القضاء، و قيل: كان ضعيف الحديث، فلربّما كان هذا وراء تولّيه القضاء ثمّ عزله. ينظر: **فهرست ابن النديم**: ١٤٦، **سفينة البحار**١: ١٥٦ (بختر)، **مستدرك الوسائل** ٣: ٨٥٤ ط ـ الحجريّة.

٣- **الكامل في التاريخ** ٥: ٢٩١.

عليه ركن بالجصّ والحجر وهو حيّ[1]. ولعلّ أقلّ ما يقال عنه أنّه مات مسموماً بما تيسّر له من سمّ الملوك، ومهما كان الطريق الذي اختاره له السلطان العبّاسيّ ليسلك به نحو الموت والفناء، فهو غدر بيّته له الرشيد وسقاه بأمره كأس المنيّة، فالتحق بركب الشهداء شاكياً مخاصماً. وربّما كانت بغداد تبكي و تئنّ له، فإنَّ ثرى بغداد أَلِفَ دماء آل أبي طالب الذين كُتب لهم أن ينالوا حظّهم من الغدر والقتل.

١- **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب**: ١٨٨.

تفكّك الدولة العبّاسيّة ومصائب بغداد منها

لم تزل بغداد قويّة ومتماسكة في سنينها الأولى، بل كانت تزداد قوّة وشباباً مع تجدّد الأيّام والليالي، ومع انبطاح مياه نهر دجلة العظيم الذي يفيض بالخير والعطاء بين بساتينها ورياضها ودروبها العامرة التي رفلت بزينة هذا النهر البديع الذي خطّه جبرئيل عليه السلام بأمر من السماء[1] و التي لحظت هذه البقعة برحمة منها وباركتها بمائها الدافق فلم تظمأ أو تجوع ما دام النهر في جريته، فيورق شطآنه بالخضرة والحياة والأمل، فكانت النعم تترى عليها، فامتلأت وفاضت بيوتها بالخير الذي صوّب لها عيون الشرق والغرب، حتى نالت بغداد حظّها ونصيبها المقدّر لها من عصور العزّ والألق والوهج من بين بلدان الشرق حتّى فاقتها، واقترن بهاء بغداد وعزّها بعزّ الدولة العبّاسيّة وبهائها، و إقبال دولتهم، وهناك من قال: بأنّها وُلدت على يد السفّاح، واكتمل شبابها بعهد الرشيد، وتجاوزت كهولتها في عهد

١- روى الكلينيّ بإسناده إلى يونس بن ظبيان، أو المعلّى بن خنيس، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى بعث جبرئيل عليه السلام وأمَرَه أن يخرق بإبهامه ثمانية أنهار في الأرض، منها سيحان، وجيحان وهو نهر بلخ، والخشوع وهو نهر الشاش، ومهران وهو نهر الهند، ونيل مصر، ودجلة والفرات. **الكافي** ١: ٤٠٩ ح ٥ .باب أنّ الأرض كلّها للإمام عليه السلام. وروي عن كعب أنه قال: النيل نهر العسل في الجنّة، ودجلة نهر اللبن، والفرات نهر الخمر، وسيحان نهر الماء، وهي التي ذكرها الله في القرآن. **بغداد مدينة السلام** لابن الفقيه الهمدانيّ: ١١٦.

المعتصم، وبدأ الضعف يدبّ في أوصالها في أيّام الواثق [١].

واعتبر ابن قتيبة أنّ الدولة العبّاسيّة انتهت بانتهاء أيّام الرشيد، فقال: قد تمّ بعون الله تعالى ما به ابتدأنا، وكمل وصف ما قصصنا من أيّام خلفائنا وخبر أئمّتنا، وفتن زمانهم، وحروب أيّامهم، وانتهينا إلى أيّام الرشيد ووقفنا عند انقضاء دولته، إذ لم يكن في اقتصاص أخبار مَن بعده، ونقلِ حديث ما دار على أيديهم، وما كان في زمانهم كبير منفعة، ولا عظيم فائدة، وذلك لمّا انقضى أمرهم، وصار ملكهم إلى صبية أغمار، غلب عليهم زنادقة العراق فصفّوهم إلى كلّ جنون، وأدخلوهم إلى الكفر، فلم يكن لهم بالعلماء والسنن حاجة، واشتغلوا بلهوهم، واستغنوا برأيهم [٢].
وأطلق بعضهم على الزي في عصور الزهو والفتنة الذي لبسته بغداد في زمن هارون الرشيد، وفتنت العباد والبلاد، بأنّه العصر الذهبي، والذي لولا نهر دجلة السخيّ بطينه ومائه الرائق ما امتدّت لها يد العمران والحضارة.

وهذا العصر الذي بهر وفتن الأمم والرجال والنساء، عُدّ في نظر آخرين بداية التفكّك وانهيار كيان الدولة العبّاسيّة ورجالها، يقول فاروق عمر: إنّ العصر الذهبيّ بكلّ ما فيه من مظاهر الحضارة والمدنيّة ومظاهر القوّة السياسية يعتبر في نظرنا بداية منعطف جديد في التاريخ العبّاسيّ يمثّل بدايات التدهور الإداريّ والتفكّك السياسيّ والتحلّل الحضاريّ [٣]. أمّا روايات ألف ليلة وليلة فقد جعلت من

١- قصور العراق العربيّة والإسلامية حتّى نهاية العصر العبّاسيّ للشرقيّ: ١٩.

٢- الإمامة والسياسة ٢: ٢٣١.

٣- لم يكن الرشيد واعياً لمسؤوليته وما قلّده الله من أمانة، وإنّما كانت النزوات تحرّكه في كثير من قراراته التي ربّما تخصّ إدارة الدولة والمال العامّ، فالدولة يجب أن تكون مسخّرة لما يحبّ ويشتهي بعيداً عن أيّ مسؤولية تجاه رعيّته، ومن هذا ما روى أبو الفرج الأصفهانيّ أنّ الرشيد اشترى جارية بسبعين ألف درهم يقال لها ذات الخال، وقد سعى جاهداً للنيل والحظوة منها،

شخصية هارون الرشيد شخصية أسطورية طغت على شخصيته التاريخية، فلقد نشأ هارون الرشيد نشأة جعلته بعيداً عن المسؤولية غيرَ مقدّرٍ لتبعاتها حقّ التقدير، ثمّ رفعته أمّه الخيزران والبرامكة إلى الخلافة دون أن يكون راغباً فيها كل الرغبة بعد المؤامرة التي دُبّرت على الهادي العبّاسيّ[١].

بعد سماع ما كان فيها من فتنة وإغراء حرّكت في نفسه رغبة جامحة لامتلاكها والفوز بها. فرابه أمرها بعد حوار معها فوهبها لمولى له يقال له: حَمَوَيه. فاشتاقها الرشيد يوماً بعدما وهبها لحمويه فقال له: ويلك يا حمويه، وهبنا لك الجارية على أن تسمع غناءها وحدك! فقال: يا أمير المؤمنين، مرفيها بأمرك، قال: نحن عندك غداً، فمضى فاستعدّ لذلك، واستأجر لها من بعض الجوهريين بدنة وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار. فأخرجها إلى الرشيد وهو عليها. فلمّا رآه أنكره وقال: ويلك يا حمويه، من أين لك هذا! وما ولّيتك عملاً تكسب فيه مثله، ولا وصل إليك منّي هذا القدر؟ فصدقه عن أمره، فبعث الرشيد إلى صاحب الجوهر فأحضره واشترى الجوهر منه ووهبه لها، ثمّ حلف ألّا تسأله في يومه ذلك حاجة إلّا قضاها. فسألته أن يولّي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل ذلك وكتب له عهده به، وشرط على وليّ العهد بعده أن يتمّها له إن لم تتمّ في حياته. **الأغاني** ١٥: ٨٠ ـ ط دار صعب، بيروت.

١- ذكر ابن قتيبة لمّا كانت سنة ثلاث وسبعين ومائة توفّي المهديّ، وذلك أنّه خرج يوماً إلى بعض المنازل ومعه أهله وبعض بنيه، وكان قد ذكر أن يستخلف ابنه عبد الله - وفي رواية **المعارف**: ٣٨٠ أنّ اسمه عبيد الله وأمّه ريطة بنت أبي العبّاس السفّاح، فهو هاشميّ الأمّ والأب، في حين أنّ الرشيد أمّه أم ولد ـ وهي الخيزران ـ بعده، ثمّ غفل عن ذلك وتركه، فحمل عبدَ الله الحرص والطيش إلى أن دسّ على أبيه بعض الجواري المتمكّنات منه بسمّه، وبذل لها على ذلك الأموال ومنّاها أماني الغرور، فلمّا سمّته ووصل إليه السمّ عرف المهديّ أنّه قد قُتل فدعا كاتبه فقال له: عجّل واكتب عهد هارون الرشيد، وخذ بيعة الجند وأمراء الأجناد، واكتب بذلك إلى ولاة الأمصار. وكان الرشيد أصغر بنيه، وكان ابن أمَة لايطمع في خلافة ولايظنّ بها، فأدخله على نفسه وهو يجود بها والرشيد لايعلم أنّه مستخلَف، فقال المهديّ: واللهِ، ما أردت استخلافك ولا هممت به؛ لحداثة سنّك، وقد كان قال لي جدّك أبو جعفر، وأنت يومئذ قد

ومنذ سنة١٧٠ حتّى سنة١٨٧ للهجرة فوّض الرشيد المسؤولية بيد البرامكة يحيى وابنَيه الفضل وجعفر وأقربائهم ومواليهم، ثمّ نكبهم فجأة لازدياد نفوذهم وسعة سلطانهم الذي بدأ يضاهي، بل يزيد على نفوذ «الخليفة» نفسه! ولعلّ نكبتهم كذلك تعود لسبب آخر هو تشجيعهم للنقاش وتبادل الرأي والكلام في المذاهب وخاصّة الشيعية والمعتزلية، حيث كان في مجالسهم العلماء وذوو الرأي والتفلسف، وقد ألّبت هذه النزعة الحرّة التي كانت تتّصف بها مجالس البرامكة المحدّثين والفقهاء الموالين للعبّاسيين، فأغروا الرشيد بهم فنكبهم ومنع الكلام في المجالس والمساجد.

وزادت الاضطرابات في المشرق دون أن يستطيع أن يجد حلاًّ لها، أمّا المغرب فبدأت فيه حركة انفصالية عن جسم الخلافة بدأت منذ سنة ١٣٨ للهجرة في الأندلس، ثمّ في المغرب قام الأدارسة سنة١٧٢ للهجرة، ثمّ اضُطرّ الرشيد كذلك أن

ترعرعت في أوّل رؤية رآك: إن ابني هذا الأعين سَيَلي هذا الأمر. **الإمامة والسياسة** ٢: ٢٠٥. وجاء في رواية **المعارف**: ٣٨٠ وفي رواية ابن الأثير وأكثر المؤرّخين بأنّ وفاة المهديّ في سنة تسع وستّين ومائة، وجاء في أحداث هذه السنة: مات أبو عبد الله محمّد بن عبد الله المنصور بماسبذان، وسبب خروجه إليها أنّه قد عزم على خلع ابنه موسى الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه على الهادي، فبعث إليهم وهو بجرجان في المعنى فلم يفعل، فبعث إليه في القدوم عليه فضرب الرسول وامتنع من القدوم عليه، فسار المهدي يريده فلمّا بلغ ماسبذان أكل طعاماً ثمّ قال: إنّي داخل إلى البهو أنام فلا توقظوني حتّى أكون أنا الذي أنتبه. فدخله فنام ونام أصحابه فاستيقظوا ببكائه فأتوه مسرعين فقال: وقف على الباب رجل فقال:

كأنّي بهذا القصرِ قد باد أهلُهُ ... وأوحشَ منه ربعُه ومنازلُه

وصار عميدُ القومِ مِن بعد بهجةٍ ... ومُلكٍ إلى قبرٍ عليه جنادلُه

فلم يَبقَ إلّا ذِكرُه وحديثُهُ ... تُنادي عليه مُعوِلاتٍ حلائلُه

فبقي بعد ذلك عشرة أيّام ومات. **الكامل في التاريخ** ٥: ٢٥٩.

يعترف بالأغالبة في أفريقيا (تونس وشرقي الجزائر) سنة١٨٤ للهجرة مقابل دفع مقدار معيّن من المال للخزينة المركزية.

ويعتبر الرشيد مسؤولاً عن التفكّك السياسيّ حين قرّر تقسيم الدولة بين أبنائه الثلاثة: الأمين والمأمون والمؤتمن، وربّما كان الرشيد في خطوته هذه مدفوعاً برغبته في الحفاظ على سيادة العبّاسيين على كافّة أقاليم الدولة التي بدأت تنزع نحو الاستقلال والانفصال، ولكنّ هذا الحلّ الذي اتّبعه الرشيد كان حلاًّ غير صحيح[1].

وكأنّ الرشيد لم يتّعظ من التاريخ القريب لبني العبّاس الذي عُرف بالغدر والكيد، فالعلاقة بين أفراد البيت العبّاسيّ لم تكن ودّية، و إنّما كانت هناك منافسات ومغالبة لانتزاع السلطة ووضعها بيد الأقوى الذي كانت تخدمه ظروف خاصّة ويؤيّده الخطّ العامّ للبيت العبّاسيّ، ابتداءً من الحاكم الثاني للعبّاسيين وحتّى سقوط الدولة واندثارها، و ظلّ هذا المناخ التآمري مسايراً للدولة وتاريخها، وكان الرشيد يعايشه، وربّما كاد الغدر الموروث يودي به ويأتي عليه لولا تقدير الله أن يحيا عمره الذي قسم له في هذه الحياة الدنيا.

يقول ابن الأثير عن حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة: في هذه السنة بايع الرشيد لعبد الله المأمون بولاية العهد بعد الأمين وولّاه خراسان وما يتّصل بها إلى همدان، ولقّبه المأمون وسلّمه إلى جعفر بن يحيى، وهذا من العجائب، فإنّ الرشيد قد رأى ما صنع أبوه وجدّه المنصور بعيسى بن موسى حتّى خلع نفسه من ولاية العهد، وما صنع أخوه الهادي ليخلع نفسه من العهد، فلو لم يعاجله الموت لخلعه. ثمّ هو بعد ذلك يبايع للمأمون بعد الأمين! وفيها حُملت ابنة خاقان ملك

١- **الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية**: ٢٣.

الخزر إلى الفضل بن يحيى، فماتت ببرذعة فرجع من معها إلى أبيها، فأخبروه أنّها قتلت غيلة، فتجّهز إلى بلاد الإسلام.

ثمّ يقول في حوادث سنة ستّ وثمانين ومائة: وكان الرشيد قد ولّى الأمين العراق والشام و إلى آخر المغرب، وضمّ إلى المأمون من همذان إلى آخر المشرق، ثمّ بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون ولقّبه بالمؤتمن وضمّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم، وكان في حجر عبد الملك بن صالح، وجعل خلعه و إثباته إلى المأمون. ولمّا وصل الرشيد إلى مكّة ومعه أولاده والفقهاء والقضاة والقوّاد كتب كتاباً أشهد فيه على محمّد الأمين، وأشهد فيه من حضر بالوفاء للمأمون، وكتب كتاباً للمأمون أشهدهم عليه فيه بالوفاء للأمين، وعلّق الكتابين في الكعبة وجدد العهود عليهما في الكعبة، ولمّا فعل الرشيد ذلك قال الناس: قد ألقى بينهم شرّاً وحرباً. وخافوا عاقبة ذلك فكان ما خافوه[1].

وحين توفّي الرشيد، وذلك في سنة ثلاث وتسعين ومائة للنصف من جمادى الآخرة، تحرّكت عروق الغدر في الأسرة المؤمّلة بخلافة الأمّة، فيحدّثنا أبو حنيفة الدينوريّ عن تفصيلات الكيد والشيطنة التي كان عليها الأخوان، وزاد كيدَهما فسادُ طويّة وسريرة رجالهما وأعوانهما، وربّما يضاف إليهما ما لقيا من رجال الدولة من آراء ومشورة لم تكن موفّقة، أو بالأحرى غواية ووسوسة أدّت إلى دمار بغداد ونكبتها، فيقول: أتت الخلافة محمّداً الأمين ببغداد يوم الخميس للنصف من جمادى الآخرة ونعاه للناس يوم الجمعة، ودعاهم إلى تجديد البيعة فبايعوا.

ووصل الخبر بوفاة الرشيد إلى المأمون، وهو بمدينة مَرْو يوم الجمعة لثمان خلون من الشهر، فركب إلى المسجد الأعظم، ونودي في الجنود وسائر الوجوه

١- الكامل في التاريخ ٥: ٣١٧ و٣٢٥.

فاجتمعوا، وصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبيّ وآله، ثمّ قال: أحسن الله عزاءنا وعزاءكم في الخليفة الماضي صلوات الله عليه، وبارك لنا ولكم في خليفتكم الحادث مدّ الله في عمره. ثمّ خنقته العبرة، فمسح عينه بسواده، ثمّ قال: جدّدوا البيعة لإمامكم الأمين. فبايعه الناس جميعاً.

ولمّا أتت الخلافة محمّداً وبايعه الناس، دخل عليه الشعراء فأنشدوه فوصلهم جميعاً. ثمّ إنّ محمّداً الأمين دعا إسماعيل بن صبيح كاتب السرّ فقال: ما الذي ترى يا ابن صبيح؟ قال: أرى دولة مباركة، وخلافة مستقيمة، وأمراً مقبلاً، فتمّم الله ذلك لأمير المؤمنين بأفضله وأجزله. قال له محمّد: إنّي لم أبغِك قاصّاً، إنّما أردت منك الرأي! قال إسماعيل: إن رأى أمير المؤمنين أن يوضّح لي الأمر لأشير عليه بمبلغ رأيي ونصحي فعل. قال: إنّي قد رأيت أن أعزل أخي عبدَ الله من خراسان، وأستعمل عليها موسى ابن أمير المؤمنين، قال إسماعيل: إنّي أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تنقض ما أسّسه الرشيد ومهّده وشيّد أركانه، قال محمّد: إنّ الرشيد موّه عليه في أمر عبد الله بالزخرفة، ويحك يا ابن صبيح إنّ عبد الملك بن مروان كان أحزم رأياً منك، حيث قال: لايجتمع فحلان في هجمة إلّا قتل أحدُهما صاحبه. قال إسماعيل: أمّا إذ كان هذا رأيك فلا تجاهره، بل اكتب إليه وأعلمه حاجتك إليه بالحضرة، ليعينك على ما قلّدك الله من أمر عباده وبلاده، فإذا قدم عليك وفرّقت بينه وبين جنوده كسرت حدّه وظفرت به وصار رهناً في يديك، فائتِ في أمره ما أردت، قال محمّد: أجدتَ يا ابن صبيح وأصبت، هذا لَعَمري الرأي.

ثمّ كتب إليه يعلمه أنّ الذي قلّده الله من أمر الخلافة والسياسة قد أثقله، ويسأله أن يقدم عليه ليعينه على أموره، ويشير عليه بما في مصلحته، فإنّ ذلك أعود على أمير المؤمنين من مقامه بخراسان، وأعمر للبلاد وأدرّ للفيء، وأكبت للعدوّ، وآمن للبيضة. ثمّ وجّه الكتاب مع العبّاس بن موسى ومحمّد بن عيسى

وصالح صاحب المصلّى، فساروا نحو خراسان، فاستقبلهم طاهر بن الحسين مقبلاً من عند المأمون على ولاية الريّ، حتّى انتهوا إلى المأمون وهو بمدينة مرو، فدخلوا عليه وأوصلوا الكتاب إليه، وتكلّموا فذكروا حاجة أمير المؤمنين الأمين إليه وما يرجو في قربه من بسط المملكة والقوّة على العدوّ، فأبلغوا في مقالتهم، وأمر المأمون بإنزالهم و إكرامهم.

ولمّا جنّ عليه الليل بعث إلى الفضل بن سهل، وكان أخصّ وزرائه عنده وأوثقهم في نفسه، وقد كان جرّب منه وثاقة رأي وفضل حزم، فلمّا أتاه خلا به وأقرأه كتاب أخيه محمّد، وأخبره بما تكلّم به الوفد من أمر التحضيض على المسير إلى أخيه ومعاونته على أمره، فقال الفضل: ما يريد بك خيراً، وما أرى لك إلّا الامتناع عليه، قال المأمون: فكيف يمكنني الامتناع عليه والرجال والأموال معه، والناس مع المال؟! قال الفضل: أجّلني ليلتي هذه لآتيك غداً بما أرى، قال له المأمون: امضِ في حفظ الله. فانصرف الفضل بن سهل إلى منزله، وكان منجِّماً، فنظر ليلته كلّها في حسابه ونجومه، وكان ماهراً بها.

فلمّا أصبح غدا على المأمون فأخبره أنّه يظهر على محمّد ويغلبه ويستولي على الأمر، فلمّا قال له ذلك بعث إلى الوفد فأحسن صِلاتهم وجوائزهم، وسألهم أن يحسّنوا أمره عند الأمين ويبسطوا من عذره، وكتب معهم إليه: أمّا بعد، فإنّ الإمام الرشيد ولّاني هذه الأرض على حين كَلَبٍ من عدوّها، ووَهيٍ من سدّها، وضعف من جنودها، ومتى أخللتُ بها أو زلت عنها لم آمن انتقاض الأمور فيها، وغلبة أعدائها عليها، بما يصل ضرره إلى أمير المؤمنين حيث هو، فرأيُ أمير المؤمنين أن لاينقض ما أبرمه الإمام الرشيد.

وسار القوم بالكتاب حتّى وافوا به الأمين وأوصلوا الكتاب إليه، فلمّا قرأه جمع القوّاد إليه فقال لهم: إنّي قد رأيت صرف أخي عبد الله عن خراسان وتصييره معي

ليعاونني فلا غنى بي عنه، فما ترون؟ فأسكت القوم، فتكلّم خازم بن خزيمة فقال: يا أمير المؤمنين، لاتحمل قوّادك وجنودك على الغدر فيغدروا بك، ولا يرون منك نقض العهد فينقضوا عهدك، قال محمّد: ولكنّ شيخ هذه الدولة عليّ بن عيسى ابن ماهان لايرى ما رأيت، بل يرى أن يكون عبد الله معي ليؤازرني ويحمل عنّي ثقل ما أنا فيه بصدده. ثمّ قال لعليّ بن عيسى: إنّي قد رأيت أن تسير بالجيوش إلى خراسان، فتلي أمرها من تحت يدَي موسى ابن أمير المؤمنين، فانتخبْ من الجنود والجيوش على عينك. ثمّ أمر بديوان الجند فدُفع إليه، فانتخب ستّين ألف رجل من أبطال الجنود وفرسانهم، ووضع لهم العطاء وفرّق فيهم السلاح وأمره بالمسير، فخرج بالجيوش وركب معه محمّد فجعل يوصيه ويقول: أكرم من هناك من قوّاد خراسان، وضع عن أهل خراسان نصف الخراج، ولا تُبقِ على أحد يشهر عليك سيفاً، أو يرمي عسكرك بسهم، ولاتدع عبد الله يقيم إلّا ثلاثاً من يوم تصل إليه حتّى تشخصه إلى ما قبلي.

وسار عليّ بن عيسى بن ماهان حتّى صار إلى حلوان، فاستقبلته عِيرٌ مقبلة من الريّ فسألهم خبر طاهر، فأخبروه أنّه يستعدّ للحرب، فقال: وما طاهر؟ ومن طاهر؟ ليس بينه وبين إخلاء الريّ إلّا أن يبلغه أنّي جاوزت عتبة همذان. . ولكنّ الأمور دارت على جيش ابن ماهان، واتّصل بجيش طاهر هرثمةُ بن أعين في ثلاثين ألف رجل من جنود خراسان، فأخذ طاهر من حلوان نحو البصرة والأهواز، وتقدّم هرثمة إلى بغداد، فلم تقم لمحمّد قائمة حتّى قُتل، وكان من أمره ما كان، وأنّ طاهر ابن الحسين صعد من البصرة، وتقدّم هرثمة حتّى أحدقا ببغداد، وأحاطا بمحمّد الأمين ونصبا المنجنيق على داره حتّى ضاق محمّد بذلك ذرعاً.

وكان هرثمة بن أعين يحبّ صلاح حال محمّد والإبقاء على حشاشة نفسه، فأرسل إليه محمّد يسأله القيام بأمره و إصلاح ما بينه وبين المأمون، على أن يخلع

نفسه من الخلافة ويسلّم الأمر لأخيه، فكتب إليه هرثمة: قد كان ينبغي لك أن تدعو إلى ذلك قبل تفاقم الأمر، فأمّا الآن فقد بلغ السيلُ الزُّبى، وشغل الحِلْيُ أهله أن يعار، ومع ذلك فإنّي مجتهد في إصلاح أمرك، فصر إليّ ليلاً لأكتب بصورة أمرك إلى أمير المؤمنين، وآخذ لك عهداً وثيقاً، ولست آلو جهداً ولا اجتهاداً في كلّ ما عاد بصلاح حالك وقربك إلى أمير المؤمنين. فلمّا سمع ذلك محمّد استشار نصحاءه ووزراءه، فأشاروا بذلك عليه وطمعوا في بقاء مهجته. فلمّا جنّه الليل ركب في جماعة خاصّته وثقاته وجواريه يريد العبور إلى هرثمة، فأحسّ طاهر بن الحسين بالمراسلة التي جرت بينهما والموافقة التي اتّفقا عليها، فلمّا أقبل محمّد وركب بمن معه الماء شدّ عليه طاهر فأخذه ومن معه، ثمّ دعا به في منزله فاحتزّ رأسه وأنفذه من ساعته إلى المأمون. وكان قتل محمّد الأمين ليلة الأحد لخمس خلون من المحرّم سنة ثمانٍ وتسعين ومائة[1].

ولم تكن أيّام بغداد مع الأمين مطواعة له ذليلة كما كانت مع أبيه الرشيد في ما سلف، فكان قادته يسجدون شكراً له، ويسبّحون بهالة ملكه، ويَدْعون لبقاء سلطانه، وهو يبطش بهم ويذبحهم كما يذبح الخراف، حتّى مضى إلى رمسه، وتهيّأت لولده الأمين من بعده دابّة الملك، ولكنّها جمحت به فلم يحسن قيادتها، حتّى صاحت به بغداد ونفضت يدها منه، فنعق عليه ناعق الدهر، ورماه بسهم القدر، وعاد عليه سيف الغدر، لمّا سلّه حين وثب عليه الحسين بن عليّ بن عيسى عندما استضعفه، وهو في محنته يقاتل جيوش طاهر وهرثمة، فدخل عليه

١- الأخبار الطوال: ٣٩٢ - ٤٠٠.

وهو في قصر الخلد[١] وأخذه وحبسه في برج من أبراج مدينة أبي جعفر، فتقوّضت عساكر محمّد من جميع الوجوه، وتغيّب الفضل بن الربيع يومئذٍ ولم يُرَ له أثر[٢]. حتّى دخل المأمون بغداد فأرسل الحسين بن عليّ إلى هرثمة وطاهر يحثّهما على الدخول إلى بغداد[٣].

لتبدأ قصّة مصائب بغداد في كتاب الحزن والعزاء والدمار الذي قدّره لها الرشيد وأولاده، يتحدّث ابن الأثير عن سنة من سنين المصائب التي ألمّت ببغداد، وهي سنة سبع وتسعين ومائة فيقول: في هذه السنة حاصر طاهر وهرثمة وزهير بن المسيّب الأمينَ محمّداً ببغداد، فنزل زهير بن المسيّب الضبّيّ برقة

١- الخلد قصر بناه المنصور العبّاسي على شاطئ دجلة. **تاريخ الطبري** ٦: ٣٠١. وقيل سمّي بقصر الخلد تشبيهاً له بجنّة الخُلد، لما فيه من كلّ منظر رائق، ومطلب فائق، وغرض غريب، ومراد عجيب. وقيل أصل موضع الخلد هو دير لراهب. ينظر: **قصور العراق العربية والإسلامية** للشرقي: ١٦٨.

٢- يعزي المؤرّخون إقدام الأمين على خلع أخويه المأمون والقاسم إلى الفضل بن الربيع الذي كان يخشى تسلّط شخص المأمون على إدارة الحكم العبّاسيّ، يقول ابن الأثير: وكان السبب في ذلك أنّ الفضل بن الربيع لمّا قدم العراق من طوس ونكث عهد المأمون أفكر في أمره وعلم أنّ المأمون إن أفضت إليه الخلافة، وهو حيّ، لم يُبقِ عليه، فسعى في إغراء الأمين وحثّه على خلع المأمون والبيعة لابنه موسى بولاية العهد، ولم يكن ذلك في عزم محمّد الأمين، فلم يزل الفضل يصغّر عنده أمر المأمون ويزيّن له خلعه، وقال له: ما تنتظر بعبد الله والقاسم! فإنّ البيعة كانت لك قبلهما، وإنّما أُدخل فيها بعدك. ووافقه على هذا عليّ بن عيسى بن ماهان، والسنديّ، وغيرهما، فرجع الأمين إلى قولهم. **الكامل في التاريخ** ٥: ٣٦٣.

٣- **المعارف** لابن قتيبة: ٣٨٥.

كلواذي ونصب المجانيق والعرّادات[١]، وحفر الخنادق، وكان يخرج في الأيّام عند اشتغال الجند بحرب طاهر، فيرمي بالعرّادات ويعشر أموال التجّار، فشكا الناس منه إلى طاهر.

فنزل هرثمة نهربين وعمل عليه خندقاً وسوراً، ونزل عبيد الله بن الوضّاح بالشمّاسيّة، ونزل طاهر البستان الذي بباب الأنبار، فلمّا نزله شقّ ذلك على الأمين وتفرّق ما كان بيده من الأموال، فأمر ببيع ما في الخزائن من الأمتعة، وضرب آنية الذهب والفضّة ليفرّقها في أصحابه، وأمر بإحراق الحربية، فرُميت بالنفط والنيران وقُتل بها خلق كثير. واستأمن إلى طاهر سعيد بن مالك بن قادم فولّاه الأسواق وشاطئ دجلة وما اتّصل به، وأمره بحفر الخنادق وبناء الحيطان في كلّ ما غلب عليه من الدروب، وأمده بالأموال والرجال فكثر الخراب ببغداد والهدم، فدُرست المنازل. ووكّل الأمين عليّاً افرامرد بقصر صالح وقصر سليمان بن منصور إلى دجلة، فألحّ في إحراق الدور والدروب والرمي بالمجانيق، وفعل طاهر مثل ذلك فأرسل إلى أهل الأرباض من طريق الأنبار وباب الكوفة وما يليها، فكلّما أجابه أهل ناحية خَنْدَقَ عليهم، ومن أبى إجابته قاتله وأحرق منزله، ووحشت بغداد وخربت، فقال حسن الخليع:

أتُسرِعِ الرحلةُ أغذاذا   عن جانبَي بغدادَ أمّاذا؟
أما ترى الفتنةَ قد ألّفَتْ   إلى أُولي الفتنةِ شُذّاذا؟

١- العرّادة شبه المنجنيق صغيرة، والجمع العرّادات، وعرد الحجر يعرده عرداً، إذا رماه رمياً بعيداً. وعرّد السهم تعريداً، إذا نفذ من الرميّة، ومعرّد أي نافذ. **لسان العرب**(عرد). ويقال: عرّد الرجل تعريداً، إذا عدا فَزِعاً، وهو معرّد، وبه سمّيت العرّادة لأنّها تعرّد بالحجارة، أي ترمي بها المرمى البعيد. **ترتيب جمهرة اللغة** ٢: ٥٢٢ (عرد).

انتقضــت بغــداذ عمرانَهــا عــن رأي لا ذاك ولا هــذا!
هـدماً وحرقـاً قـد أُبيـد أهلُهـا عقوبَــةً لاذت بمــن لاذا!
مـا أحسنَ الحـالاتِ إن لـم تَعـدْ بغــداذ فــي القلّــة بغــداذا!

وفي هذا الشعروغيره حكايات عن حزن بغداد ومصائبها التي رأتها، حين حوصرالأمين في بغداد من قِبل الجيش الأوّل بقيادة طاهربن الحسين، وجاء جيش ثانٍ بقيادة هرثمة بن أعين، وثالث بقيادة زهيربن المسيّب الضبّيّ. . وبعد حصار طويل ومناوشات عديدة سالت فيها دماء كثيرة استطاع الجيش الأوّل من أسرالأمين وقتله، ثمّ أُرسل رأسه إلى المأمون في خراسان ومعه شارات الخلافة، وذلك في عام١٩٦ للهجرة[1].

وكأنّ بغداد قد انتهت من زمن الأمين، ولم تعد ترى بغداد عزّها وبهاءها وبهجتها، قال ابن جزيّ: وكأنّ أبا تمّام حبيب بن أوس اطّلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها:

لقــد أقــام علــى بغــداد ناعيهــا فَلْيبكِهــا لخــراب الــدهرِ باكيهــا
كانـت علـى مائِهـا والحـربُ موقَـدةٌ والنـار تُطفـئ حُسـناً فـي نواحيهـا
تُرجى لهـا عـودةٌ فـي الـدهر صـالحةٌ فـالآن أضـمَرَ منهـا اليـأسُ راجيهـا
مثـل العجـوز التـي ولّـت شـبيبتُها وبـان عنهـا جمـالٌ كـان يُحظيهـا[2]

وظلّ شبح اليأس والإفلاس والسواد يطارد عشّاقها ومحبّيها، حتّى إنّ الكاتب أبا الفتح محمّد بن عبيد الله بن عبد الله المعروف بابن التعاويذيّ نفض يده منها ونعاها حين قال:

١- **الكامل في التاريخ** ٥: ٣٩٣، خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلامي .العصر العبّاسي**: ١٢٨.

٢- **رحلة ابن بطّوطة**: ٢١٦.

يــا قاصــداً بغــداد حُــذْ عــن بلــدةٍ ... للجــور فيهــا زخــرةٌ وعُبــابُ
إن كنـتَ طالـبَ حاجـةٍ فـارجعْ فقَـدْ ... سُـدّت علـى الراجـي بهـا الأبـوابُ
ليسـت ومـا بعـد الزمـان كعهـدِها ... أيّــامُ يَعمُــر ربعَهــا الطــلّابُ
ويحلّهــا الرؤســاءُ مِــن ســاداتِها ... والجُلّــة الأدبــاء والكتّــابُ[١]

فقد تغيّرت الوجوه عليها، ورأت وجوهاً أخرى في صفحات الزمن الجديد الذي انسطر بعضه في ظلام وبؤس القصص والحكايات، ربّما كانت منسوجة في بساط لم يطل جلوسهم عليه، ولكنّ آثار المعاصي المرتكبة التي سردتها ليالي الفتنة والخمور التي انصبّت في أقداح الأمراء الذين أسكرتهم النعمة وأطغتهم التخمة، ظلّت مرسومة على هذا البساط الذي طواه الزمن، وقد لمس ابن بطّوطة آثار الدهر ونكباته وصراخات الزمن التي ألبست بغداد ثوباً بائساً شقيت به وشَقِي أبناؤها معها.

ولم يبق فيها أمل سوى نهرها الدافق المعطاء الذي يجدّد أملها وشبابها، فقد نُقل عن أحد مشايخه قوله: وهذه المدينة العتيقة، وإن لم تزل حضرة الخلافة العبّاسيّة، ومثابة الدعوة الإماميّة القرشيّة، فقد ذهب رسمها، ولم يبق إلّا اسمها، وهي بالإضافة إلى ما كانت عليه، قبل إنحاء الحوادث عليها، والتفات أعين النوائب إليها، كالطَّلَل الدارس، أو التمثال الشاخص. فلا حُسنَ فيها يستوقف البصر، ويستدعي من المستوفز الفغلة والنظر، إلّا دجلتها التي هي بين شرقيّها وغربيّها كالمرآة المجلوّة بين صفحتين، أو العقد المنتظم بين لبّتين، فهي تردها ولاتظمأ، وتتطلّع منها في مرآة صقيلة لاتصدأ، والحسن الحريميّ بين هوائها ومائها ينشأ[٢].

١- ورد هذا الشعر في **وفيات الأعيان** ٤: ٢٥٦.

٢- **رحلة ابن بطّوطة**: ٢١٥.

معجزة ولادة الجواد عليه السلام

لم تكن ولادة نبيّ أو وصيّ ولادة عادية كما يحدث ويراه الناس لسائر البشر، فالنبيّ ووصيّه حين يُؤذَن له في الولوج إلى عالم التكليف والاختبار يكون واعياً لتكاليفه و مهمّاته، فتحرسه الملائكة وترعاه، فمن لحظة رؤية هذا العالم والوجود الذي يحياه ويعيشه الناس تظهر منه المعاجز والأعاجيب، ولم يخلُ عصر من العصور من ولادة وصيّ أو وليّ يمتحن الله به عباده ويعدّه للتكليف المرسوم له. وقد كان مقدّراً للجواد عليه السلام أن يولد في عصور الثقافة و التي ازدهرت بها البلدان الإسلامية وعرفت بها آنذاك. وقد كان عصر الرضا عليه السلام عصر نهضة فكرية وعلمية جعلت أهلها لا يرتضون بالميسور من القول، ولايؤمنون إيمان العجائز، ولا يُلقى القول عليهم على عواهنه؛ لأنّهم كانوا يؤوّلون المعاجز ويفلسفونها ويخرجون من عهدة الالتزام بها بألف باب من الحذلقة والفذلكة والزندقة والسفسطة، والاستدلالات القياسيّة والفلسفية. فهم أهل أفهام وأهل كلام، إذ في القرن الثاني للهجرة ـ الذي عاش فيه الإمام ـ ازدهرت الحركة العلميّة، ونشط البحث الفلسفيّ، وكثر التأليف في مختلف العلوم التي أتقنوا نقلها وترجمتها عن لغات متعدّدة، وشاع التصنيف فيما ابتدعوه من علوم، وفيما أنتجته قرائحهم من فلسفات وكلام. ويومها ازدحمت المدارس واكتظّت حلقات الطلّاب حول الجهابذة من الأساتذة، في حين كانت تلمع أنجم الأئمّة عليهم السلام أيّام المهديّ والهادي والرشيد والأمين

والمأمون والمعتصم، من حكّام العبّاسيين، وفي فترة كانت من أغنى فترات الفكر والثقافة التي عاش فيها مؤسّسو المذاهب الفقهية، كالشافعيّ، ومالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وكأبي يوسف القاضي، وسفيان الثوريّ، وزفر، والشيبانيّ، وشريك القاضي، وابن المبارك، ويحيى بن أكثم، والفراهيديّ، والأصمعيّ، وككثير من المعتزلة والمتصوّفة، والأطبّاء، والفلكيين، وبعض الزنادقة، وأهل الغلوّ، وغيرهم.

وكان أمثال هؤلاء يستقصون أمر الإمامة والولاية بدقّة بالغة، وبرهافة حسّ شديدة، ويلاحقون قصّتها بعناية، فنشأ ـ مِن ثَمَّ ـ طرفان، أحدهما يهتمّ بالجرح والقدح والفضح، وثانيهما يسعى للإثبات، فالإبهات، فالإسكات. فأدّى ذلك إلى كثرة السؤال عن انقطاع الولاية حين لم يرزق الإمام الرضا عليه السلام ولداً ذكراً، رغم انّه في سنّ الكهولة. ولكنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يقولون كلمتهم في هذه الأجواء بثقة وجرأة تفتن ألباب ذلك الرعيل من العلماء والفقهاء والفلاسفة، غير هيّابين، لأنّهم ينقلون عن ربّ العالمين[١].

وربّما دخل على الكثير من المسلمين، ومنهم جمع من الأصحاب والشيعة أيضاً، شكٌّ فيما كان يخبر به الإمام الرضا عليه السلام عن استمرار الوصيّة والإمامة في نسله عليه السلام، ولم يكن للرضا عليه السلام وقت إخباره ولد، ممّا دفع ابن قياما الواسطي إلى أن يكتب إلى الرضا عليه السلام كتاباً يقول فيه: كيف تكون إماماً وليس لك ولد! فأجابه أبو الحسن الرضا عليه السلام: وما عِلمُك أنّه لا يكون لي ولد؟! واللهِ لا تمضي الأيّام والليالي حتّى يرزقني الله ولداً ذكراً يفرّق بين الحقّ والباطل. وكذلك الحال مع النجاشي الذي طلب من ابن أبي نصر البزنطي أن يسأل الرضا عليه السلام عن الإمام من بعده، فأخبر

١- كامل سليمان، **محمّد الجواد عليه السلام الإمام المعجزة**: ٨٥.

الرضا عليه السلام بالأمر، فقال عليه السلام له: الإمام ابني، ثمّ قال: هل يجترئ أحد أن يقول ابني وليس له وُلد ! ولم يكن ولد أبو جعفر عليه السلام ، فلم تمض الأيّام حتّى وُلد[١].

والجواد عليه السلام وعد ربّانيّ كان الرضا عليه السلام يبشّر به و ينتظر قدومه، إلّا أنّ قدوم هذا المولود له ميقات مقدّر لا يعدوه، وربّما كان الانتظار على أصحابه عليه السلام صعباً، إلّا أنّ الولادة متحققة لا محالة.

وقد ولد الجواد عليه السلام في المدينة ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، ويقال للنصف منه. وكما أخبر وبشّر به الرضا عليه السلام أصحابه وشيعته، ولكن لم يضبط الرواة تاريخ ولادته عليه السلام على وجه دقيق يتّفق عليه المؤرّخون، فجاء في رواية أخرى أنّه ولد عليه السلام يوم الجمعة لعشر ليال خلون من رجب سنة خمس وتسعين ومائة[٢]، في ملك محمّد الأمين. وقيل أيضاً: ولد في التاسع عشر من رمضان. وقيل:

١- **الإرشاد** للشيخ المفيد: ٣١٨.

٢- **تاج المواليد في مواليد الأئمّة ووفياتهم** للطبرسيّ: ١٠١، **إعلام الورى بأعلام الهدى**: ٣٢٩. ولكنّ الشيخ الطوسيّ في **التهذيب** ٦: ٩٠ـ الباب ٣٧ يذهب إلى التاريخ الذي عليه أكثر علماء الشيعة ومحدّثيهم، وهو شهر رمضان على الإطلاق، وهو التاريخ المشهور في ولادة الجواد عليه السلام، ولكنّ الشيخ عدل إلى رواية شهر رجب في كتاب آخر، و قد يؤيّد روايةَ ولادة الجواد عليه السلام في العاشر من رجب ما روي من دعاء أورده الشيخ الطوسيّ جاء فيه: اللّهمّ إنّي أسألُك بالمولودَين في رَجَب، محمّد بنِ عليّ الثاني وابنِه عليّ بن محمّدِ المُنتجَب، وأتقرّبُ بِهِما إليك خيرَ القُرَب. **مصباح المتهجّد** ـ ط إسماعيل الأنصاريّ الزنجانيّ قمّ، ص٧٤١. والظاهر أنّ الشيخ الكلينيّ والشيخ المفيد والشهيد محمّد بن مكّي العامليّ والعلّامة الحلّيّ كانوا على تردّد مَن سبقهم من العلماء في تاريخ ولادته عليه السلام على وجه الضبط والدقّة، فمالوا إلى الروايات القائلة بأنّ الجواد عليه السلام ولد في شهر رمضان، ولم يعيّنوا أيّ يوم أو ليلة منه. ينظر: **الكافي** ١: ٤٩٢، **الإرشاد**: ٣١٦، **المقنعة**: ٤٨٢، **منتهى المطلب** ١٣: ٣١٤، **الدروس الشرعيّة** ٢: ٢٠.

يوم النصف من ذي الحجّة[١]. وفي رواية رواها مؤرّخ دمشق شمس الدين بن طولون: كانت ولادته عليه السلام خامس رمضان[٢].

وتعدّ رواية المسعوديّ أقرب الروايات إلى المؤرّخين لا المحدّثين، لأنّه مؤرّخ له دراية في تثبيت التواريخ، ويمكن لنا اعتمادها، والرواية لديه: وُلد الإمام التاسع محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة خمس وتسعين ومائة[٣].

وجاءت ولادته عليه السلام المباركة من أمّ ولد يقال لها الخيزران[٤]، وقيل: كانت أمّه عليها السلام أمّ ولد، اسمها درّة فسمّاها الرضا عليه السلام خيزران، وكانت من أهل بيت مارية القبطيّة[٥]، ويقال: إنّ أمّه نوبية واسمها سبيكة[٦]، ويقال: ريحانة وتكنّى أمّ الحسن[٧]، وقيل: سكينة المرسيّة[٨].

١- **التتمّة في تواريخ الأئمّة** للسيّد تاج الدين العامليّ: ١٣١.

٢- **الأئمّة الاثنا عشر**: ١٠٤.

٣- **إثبات الوصيّة**: ١٨٣.

٤- **المقنعة** للمفيد: ٤٨٢.

٥- مارية القبطية: هي مولاة رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله وأم ولده إبراهيم، أهداها له المقوقس حاكم الإسكندريّة في مصر، و قد عدّها ابن حجر وابن عبد البرّ من الصحابيات. وقد أوصى النبيّ صلى الله عليه وآله المسلمين باحترام القبط وإكرامهم كطائفة دينية تدين بدين سماويّ، وتقديراً وإكراماً لمارية أمّ ولده إبراهيم عليه السلام، وجاء ذلك في قوله صلى الله عليه وآله: إنّكم ستفتحون مصر، فإذا فتحتموها فاستوصوا بالقبط خيراً، فإنّ لهم رحماً وذمّة. يعني أمّ إبراهيم منهم. ينظر: **الاستيعاب** بهامش الإصابة ٤: ٤١٠، **الإصابة** ٤: ٤٠٤، **مناقب آل أبي طالب** ١: ١٠٩.

٦- **تاج المواليد في مواليد الأئمّة ووفياتهم**: ١٠١.

٧- **بحار الأنوار** ٥٠: ٧ / ح ٨ ـ من: **مناقب آل أبي طالب**.

٨- **التتمّة في تواريخ الأئمّة**: ١٣٢.

وكان البيت العلويّ ينتظر بشوق ولهفة ولادته المباركة من المكمن الطاهر الذي قدّره الله، وكانت حكيمة شقيقة الرضا عليه السلام تترقّب هذا النور الذي كان يداعب أحلامها وآمالها، فيروي صفوان بن يحيى عنها أنّها قالت: لمّا علقت أمّ أبي جعفر عليه السلام كتبت إليه -أي إلى الإمام الرضا عليه السلام - : جاريتُك سبيكة قد علقت. فكتب إليّ: إنّها علقت ساعة كذا من يوم كذا، من شهر كذا، فإذا هي ولدت فالزميها سبعة أيّام. قالت حكيمة: فلمّا ولَدَتْه قال [الجواد عليه السلام]: أشهد أن لا إله إلّا الله، فلمّا كان اليوم الثالث عطس فقال: الحمد لله، وصلّى الله على محمّد وعلى الأئمّة الراشدين.[1] وهكذا تكون ولادتهم عليهم السلام فيها من المعاجز والأعاجيب. ولآبائه الطاهرين عليهم السلام عند ولادتهم ما يُروى من نحو هذا، والإمام المعصوم شأنه شأن الأنبياء والرسل، لا يضع أقدامه في هذه الأرض إلّا والمعجز يسير معه، تؤيّده الملائكة وتسبّح بتسبيحه، و معه روح القدس يسدّده ويأخذ بيده.

يصف المسعوديّ تاريخ اللحظات الأولى التي كان الرضا عليه السلام ينتظرها ليزفّ بشرى ولادة ابنه إلى أهل بيته وشيعته، فيقول: رُوي أنّه لمّا وُلد قال أبو الحسن الرضا عليه السلام لأصحابه في تلك الليلة: قد وُلد لي شبيه موسى بن عمران عليه السلام فالق البحار، قُدّست أمّ ولَدَتْه! فلقد خُلِقت طاهرة مطهّرة. ثمّ قال: بأبي وأمّي شهيد يبكي عليه أهل السماء، يُقتَل غيظاً، ويغضب الله جلّ وعزّ على قاتله فلا يلبث إلّا يسيراً حتّى يعجّل الله به إلى عذابه الأليم وعقابه الشديد[2].

وهناك رواية أخرى تحكي مشاهدة شهدت عمّة الإمام الجواد عليه السلام حكيمة بنت الإمام موسى بن جعفر عليه السلام استنارة الكون بالكوكب الدرّيّ التاسع، فتقول في

١- دلائل الإمامة للطبريّ الإمامي: ٢٠١.

٢- إثبات الوصيّة: ١٨٣.

روايتها لميلاد هذا النور: لمّا حضرت ولادة أم أبي جعفرعليه السلام دعاني الرضاعليه السلام فقال: يا حكيمة احضري ولادتها وادخلي و إيّاها والقابلة بيتاً. ووضع لنا مصباحاً وأغلق الباب علينا، فلمّا أخذها الطلق طُفئ المصباح وبين يديها طست، فاغتممتُ بطفء المصباح، فبينا نحن كذلك إذ بدر أبو جعفرعليه السلام في الطست و إذا عليه شيء رقيق كهيئة الثوب يسطع نوره حتّى أضاء البيت، فأبصرناه، فأخذته فوضعته في حجري ونزعت عنه ذلك الغشاء، فجاء الرضاعليه السلام وفتح الباب، وقد فرغنا من أمره، فأخذه ووضعه في المهد وقال: يا حكيمة الزمي مهده. قالت حكيمة: فلمّا كان في اليوم الثالث رفع بصره إلى السماء، ثمّ نظر يمينه ويساره، ثمّ قال: أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمّداً رسول الله. فقمت ذَعِرةً فزعة، فأتيت أبا الحسنعليه السلام فقلت له: لقد سمعتُ من هذا الصبيّ عجباً! فقالعليه السلام: وما ذاك؟ فأخبرته الخبر، فقال: يا حكيمة ما تَرَون من عجائبه أكثر[1]. وما روي من عجائب أبي جعفر الجوادعليه السلام التي أخذ بعضها مكانها في فصول هذا الكتاب قد تكون أكثر ممّا تتصوّره العقول البشرية.

١- **مناقب آل أبي طالب** لابن شهرآشوب ٤: ٣٩٤، **بحار الأنوار**٥٠: ١٠/ ح ١٠. وروى السيّد هاشم البحرانيّ عن: **ثاقب المناقب** رواية حكيمة بهذه الألفاظ: فلمّا كان اليوم الثالث رفع بصره إلى السماء، ثمّ لمح يميناً وشمالاً ثمّ قال: أشهد أنّ لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله. فقمت رَعِدةً فزعة وأتيت الرضاعليه السلام فقلت له: رأيت عجبًا! فقال: وما هو الذي رأيتِ؟ فقلت: هذا الصبيّ فعل الساعة كذا وكذا. فتبسّم الرضا عليه السلام فقال: ما ترين من عجائبه أكثر. **حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار**٤: ٥٢٨.

الإمامة الموروثة والنصوص عليها

لم يكن الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام الذي ورث الإمامة عن أبيه قريباً من أبيه الرضا عليه السلام حين دنا زمان رحيله، ولكنّ العهد والوصيّة تلقّاهما من وقت سابق، والأئمة عليهم السلام الذين مضوا في رسالتهم كانوا يتناقلون الوصيّة من أب عن أب بعهد معهود. ولم يحصل للجواد عليه السلام كما حصل لأبيه وجدّه مشكلة كبيرة، كما حصل مثلاً مع الواقفين على إمامة موسى بن جعفر عليه السلام فاستولوا على الأموال الكثيرة التي كانت تشكّل مصدراً مهمّاً في تصريف الأمور، كما وحرفوا أذهان الشيعة عن إمامة أبيه عليه السلام فأحدثوا شرخاً كبيراً في الطائفة كلّفها ثمناً باهظاً، ولم يحصل انشعاب جديد في الطائفة على إمامة الجواد عليه السلام، كما حصل من قبل، فقد عرف الشيعة ظاهرة الفِرق والطوائف التي خرجت على المذهب الأمّ، بعد شهادة الصادق والكاظم عليهما السلام، وما جرى لآبائه عليهم السلام من قبل في ادّعاء الإمامة لم يحصل بالشكل الفِرقيّ الواسع، وإنّما كانت هناك محاولات فردية للنهوض بمسؤولية الإمامة فباءت بالفشل وحبطت بشكل مبكّر.

وكانت الأجواء مساعدة نسبياً للقبول بإمامته، يقول ابن شهرآشوب المازندرانيّ: والدليل على إمامته اعتبار القطع على العصمة، ووجوب كونه أعلم الخلق بالشريعة، واعتبار القول بإمامة الاثني عشر وتواتر الشيعة. وأمّا قول

الكيسانيّة [١] والفطحيّة [٢] وغيرهم، فكلّهم قد انقرضوا، ولو كانوا محقّين لما جاز انقراضهم، لأنّ الحقّ لايجوز أن يخرج عن أمّة محمّدصلى الله عليه وآله. وقد ثبت بقول الثقات إشارة أبيه إليه، منهم: عمّه عليّ بن جعفر الصادق [٣]، وصفوان بن يحيى [٤]، ومعمّر بن

١- الكيسانية فرقة قالت بأنّ محمّد ابن الحنفية هو المهديّ، وهو وصيّ أبيه عليّعليه السلام، وهو الإمام. وقيل جاءت التسمية منه للمختارَ حين ولّى المختارَ بن أبي عبيدة الثقفيّ طلب ثأر الحسينعليه السلام بعد شهادته وسمّاه كيسان لكياسته، وهناك قول يرى بأنّ عليّاًعليه السلام سمّى المختار بهذا الاسم لأنّه قال له وهو صغير: كيّس كيّس. وقد ضعفت الكيسانية ولم يبق منها إلّا الاسم حين توفّي محمّد ابن الحنفية، ورجعوا إلى إمامة جعفر الصادقعليه السلام بما فيهم شاعرهم السيّد الحميريّ الذي كان ينطق عن معتقداتهم. ينظر: **المقالات والفرق** للأشعريّ: ٢٥، **بحار الأنوار** ٣٧: ١، **عيون الأخبار وفنون الآثار** لإدريس القرشيّ السبع الرابع: ٢٠٧.

٢- الفطحية: فرقة قالت بإمامة عبد الله بن جعفر الصادق عليه السلام بعد أبيه، لأنّه كان أكبر أولاده سنّاً بعد رحيله عليه السلام، وسُمّوا بهذا الاسم لأنّ عبد الله كان أفطح الرأس، وقال بعضهم: كان أفطح الرجلَين. وذهب البعض إلى أنّ التسمية جاءت برئيس لهم من أهل الكوفة يقال له: عبد الله ابن فطيح. ينظر: **المقالات والفرق** للأشعريّ: ٨٧.

٣- عليّ بن جعفر بن محمّد الصادقعليه السلام، كان راوية للحديث، لزم أخاه موسى بن جعفرعليه السلام وروى عنه، عُدّ من أصحاب الكاظم والرضاعليهما السلام، وقد رُويت عنه أخبار تشهد بصحّة عقيدته ووثاقته وورعه، وكان من المقرّين بإمامة الجوادعليه السلام. ينظر: **رجال الشيخ**: ٣٥٣ و ٣٧٩، **رجال الكشّيّ**: ٢٦٣، **الفهرست**: ٨٧.

٤- صفوان بن يحيى: أبو محمّد البجليّ بيّاع السابريّ الكوفيّ، ثقة، وكان أوثق أهل زمانه وأعبدهم، أجمعوا على تصحيح ما يصحّ عنه، وأقرّوا له بالفقه، روى عن الإمام الرضاعليه السلام وكان وكيلاً له، وكانت له منزلة عنده. وقد عدّه الشيخ الطوسيّ من أصحاب الرضا والجوادعليهما السلام. ينظر: **فائق المقال**: ١١٨ / الرقم٥٠٤، **رجال الشيخ**: ٣٧٨ و ٤٠٢، **الفهرست**: ٨٣.

خلّاد[١]، وابن أبي نصر البزنطيّ[٢]، والحسين بن يسار[٣]، والحسن بن الجهم[٤]، وأبو يحيى الصنعاني[٥]، ويحيى بن حبيب[٦] الزيّات[٧].

وهناك أخبار كثيرة تناقلها رواة وعلماء الشيعة بهذا الخصوص في تدعيم إمامة الجواد عليه السلام وصرف المنازعين له إن وجدوا، ومن هذه الأخبار ما رواه

١- معمَّر بن خلّاد بن أبي خلّاد: أبو خلّاد البغداديّ، ثقة روى عن الرضا عليه السلام، له كتاب الزهد. ينظر: **رجال النجاشي**: ٤٢١، **رجال الطوسيّ**: ٣٩٠، **فائق المقال**: ١٦٣ / الرقم ١٠١٨.

٢- أحمد بن محمّد بن عمرو بن أبي نصر البزنطيّ: أبو جعفر أو أبو عليّ الكوفيّ، كان عظيم المنزلة حجّة، له كتاب الجامع والمشهور بجامع البزنطيّ، لقي الرضا عليه السلام وروى عنه، عُرِف بالبزنطيّ نسبة إلى موضع تُنسب له الثياب البزنطية. ينظر: **فائق المقال**: ٨٤ / الرقم ٨٥، **رجال النجاشي**: ٧٥ / الرقم ١٨٠، **الكنى والألقاب** للقمّيّ ٢: ٧٢.

٣- كما في **رجال الشيخ**: ٣٧٣ و٤٠٠، وقد اختلف في ضبطه، فقد جاء في **رجال البرقيّ**: ٥٦: الحسن بن يسار وخ ل: الحسن بن بشّار من أصحاب أبي جعفر الثاني، وفي **رجال ابن داود**: ١٠٣: الحسن بن بشّار. وفي بعض المصادر: الحسين بن بشّار، كما سيأتي.

٤- الحسن بن الجهم بن بكير بن أعيَن الشيبانيّ، ثقة من أصحاب الكاظم والرضا عليهما السلام، و عُدّ من خواصّ أصحاب الرضا عليه السلام. ينظر: **فائق المقال**: ٩٩، **تنقيح المقال** ١: ٢٧١ .ط الحجرية، **سفينة البحار** ١: ٦٢٤ (حسن).

٥- ذكره الأردبيليّ في **جامع الرواة** ٢: ٤٢٤ ممّن نصّ على أبي جعفر عليه السلام، وجاء في رواية الشيخ المفيد عنه أنّه قال: كنت عند أبي الحسن عليه السلام فجيء بابنه أبي جعفر عليه السلام وهو صغير، فقال: هذا المولود الذي لم يولد مولود أعظم على شيعتنا بركةً منه. **الإرشاد**: ٣١٩.

٦- ذكر الأردبيليّ يحيى بنَ حبيب الزيّات في **جامع الرواة** ٢: ٣٢٦، وجاءت رواية الشيخ المفيد عنه أنّه قال: أخبرَني من كان عند أبي الحسن عليه السلام جالساً، فلمّا نهض القوم قال لهم أبو الحسن الرضا عليه السلام: أُلقوا أبا جعفر فسلّموا عليه، وأحدثوا به عهداً. **الإرشاد**: ٣١٩.

٧- **مناقب آل أبي طالب** ٤: ٣٨٠.

عبدالسلام بن صالح الهروي[١]، قال: سمعت دعبل بن عليّ الخزاعيّ يقول: أنشدتُ مولاي الرضا عليّ بن موسىعليه السلام قصيدتي التي أوّلها:

مـدارسُ آيـاتٍ خَلَـت مِـن تـلاوةٍ ومنـزِلُ وَحْـيٍ مُقفِـرُ العَرَصـاتِ

فلمّا انتهيت إلى قولي:

خـروجُ إمـام لا محالـةَ خـارجٌ يقـوم علـى اسـم الله والبركـات
يُميِّـزُ فينـا كـلَّ حـقٍّ وباطـلٍ ويَجـزي علـى النعمـاءِ والنَّقِمـاتِ

بكى الرضا عليه السلام بكاءً شديداً، ثمّ رفع رأسه إليّ فقال لي: يا خزاعيّ، نطق روح القدس على لسانك بهذين البيتين، فهل تدري من هذا الإمام ومتى يقوم ؟ فقلت: لا يا مولاي، إلّا أنّي سمعت بخروج إمام منكم يطهّر الأرض من الفساد ويملأها عدلاً كما مُلئت جوراً. فقال الرضاعليه السلام: يا دعبل، الإمام بعدي محمّد ابني، وبعد محمّد ابنه عليّ، وبعد عليّ ابنه الحسن، وبعد الحسن ابنه الحجّة القائم المنتظر في غيبته، المطاع في ظهوره، لو لم يبق من الدنيا إلّا يوم واحد لَطَوّل الله عزّوجلّ ذلك اليوم حتّى يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً[٢].

ومن النصوص المروية أيضاً على إمامة الجواد عليه السلام ماروى الكشّي بإسناده عن أبي جعفر محمّد بن عيسى قال: أخبرني مسافر[٣] قال: أمرني أبوالحسن عليه السلام بخراسان

١- قيل فيه: ثقة صحيح الحديث، وكان عامّياً. **فائق المقال**: ١٢١.

٢- **كمال الدين وإتمام النعمة**: ٣٤٧.

٣- ذكره الأردبيليّ في **جامع الرواة** ٢: ٢٢٧ والكشّيّ في **اختيار معرفة الرجال**: ٥٠٦ بأنّه مولى ومن أصحاب الكاظمعليه السلام.

فقال: إلحَقْ بأبي جعفر فإنّه صاحبك. وروى بإسناده عن محمّد بن سنان[١] أنّ الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال له: يمدّ الله في عمرك وتدعو إلى إمامته و إمامة من يقوم مقامه بعده، فقلت: ومن ذاك، جُعلت فداك ؟ قال: محمّد ابنه، قلت: بالرضى والتسليم. ثمّ قال له: يا محمّد، إنّ المفضّل[٢] أُنسي ومستراحي، وأنت أُنسهما ومستراحهما[٣].

١- محمّد بن سنان: أبو جعفر الزاهريّ الخزاعيّ، ينتهي نسبه إلى زاهر مولى عمرو بن الحَمِق الخزاعيّ المقتول في نصرة الإمام الحسين عليه السلام، قال ابن داود: وهو محمّد بن الحسن بن سنان، مات أبوه - الحسن - وهو طفل فكفله جدّه سنان فنُسب إليه. لقي الإمام الكاظم و الرضا والجواد عليهم السلام وله معهم صحبة، رُوي أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال له: أما إنّك أبين من البرق في الليلة الظلماء، ثم قال: يا محمّد، إنّ المفضّل كان أنسي ومستراحي، وأنت أنسهما ومستراحهما –أي الرضا والجواد عليهما السلام –حرام على النار أن تمسّك أبداً. وقد كان على ما يبدو مرضيّ السيرة، فقد روي أنّ الجواد عليه السلام ترحّم عليه وقال: جزى الله محمّد بن سنان عنّي خيراً، فقد وفى لي. وروي أنّه كان ضرير البصر فتمسّح بأبي جعفر الثاني عليه السلام فعاد إليه بصره بعد ما كان افتقده، وجاء في خبر آخر أنّه قال: شكوت إلى الإمام الرضا عليه السلام وجع العين فأخذ قرطاساً فكتب الرضا عليه السلام إلى أبي جعفر عليه السلام ودفع الكتاب إلى الخادم وأمرني أن أذهب معه وقال: اكتم. فأتيناه وخادم قد حمله، قال: ففتح الخادم الكتاب بين يدَي أبي جعفر عليه السلام، فجعل أبو جعفر عليه السلام ينظر في الكتاب ويرفع رأسه إلى السماء ويقول: ناجٍ. ففعل ذلك مراراً، فذهب كلّ وجع في عيني، وأبصرت بصراً لايبصره أحد. وروي أنّه كان متقشّفاً متعبّداً. ينظر: **رجال ابن داود**: ٣١٥ / الرقم ١٣٧٦، **رجال البرقيّ**: ٤٨ و٥٤ و٥٧، **بحار الأنوار** ٤٩: ٢١ و٢٧٦ وج ٥٠: ٦٦، **سفينة البحار** ١: ٧٤٩ (حمد).

٢- هو المفضّل بن عمر الجعفيّ الكوفيّ، وقد روى الكشّيّ أخباراً في مدحه، وكان من أصحاب الصادق عليه السلام ومن ثقاته، وكان من خاصّة أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام أيضاً. ينظر: **رجال الشيخ**: ٣١٤ و٣٦٠، **رجال الكشّيّ**: ١٣٥ و ٣٠٦ و٣٢١ و٣٢٨، **فائق المقال**: ١٦٣.

٣- **رجال الكشّيّ**: ٥٠٦ و٥٠٩.

وفي خبر آخر رواه عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّيّ المتوفّى سنة ٣٢٩ للهجرة بإسناده إلى يزيد بن سليط الزيديّ[١] فيقول: لقينا أبا عبد الله عليه السلام في طريق مكّة ونحن جماعة فقلت له: بأبي وأمّي، أنتم الأئمّة المطهّرون، والموت لايعرى منه أحد، فأحدثْ إليّ شيئاً أُلقيه إلى من يخلفني؟ فقال لي: نعم، هؤلاء وُلْدي، وهذا سيّدهم ـ وأشار إلى موسى عليه السلام ابنه ـ وفيه علم الحكم والفهم والسخاء والمعرفة بما يحتاج الناس إليه فيما اختلفوا من أمر دينهم، وفيه حُسن الخلق وحسن الجوار، وهو باب من أبواب الله، وفيه أخرى هي خير من هذا كلّه، فقال أبي[٢]: ما هي بأبي أنت وأمّي؟ قال عليه السلام: يُخرج الله منه غوث هذه الأمّة وغياثها، وعلمها ونورها وفهمها وحكمتها، خير مولود، خير ناشئ، يحقن الله به الدماء، ويُصلح به ذات البين، ويلمّ به الشعث، ويشعب به الصدع، ويكسو به العاري ويشبع به الجائع، ويؤمن به الخائف، وينزل به القطر، ويؤمن به العباد، خير كهل وخير ناشئ، تُسرّ به عشيرته قبل أوان حلمه، قوله حكم، وصمته علم، يبيّن للناس ما يختلفون فيه. فقال أبي: بأبي أنت وأمّي، ولد بعد؟ قال: نعم. ثمّ قطع الكلام. قال يزيد: ثمّ لقيت أبا الحسن عليه السلام بعد، فقلت له: بأبي أنت وأمّي، إنّي أريد أن تخبرني بمثل ما أخبرني به أبوك؟ فقال لي: كان أبي في زمن ليس هذا زمانه. قال يزيد: فقلت: من لم يرض منك بهذا فعليه لعنة الله! فضحك ثمّ قال: أُخبرك يا أبا عمارة: إنّي خرجت من منزلي فأوصيت بالظاهر إلى بَنيّ وأشركتهم مع عليّ ابني، وأفردته بوصيتي في الباطن، ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله في المنام وأمير المؤمنين عليه السلام معه، ومعه خاتم وسيف وعصا وكتاب وعمامة، قلت له: ما هذا؟ فقال: أمّا العمامة

١- قال الأردبيليّ فيه من أصحاب الكاظم عليه السلام، **جامع الرواة** ٢: ٣٤٣.

٢- قال محقّق الكتاب: يظهر من هنا أنّ يزيد بن سليط ينقل الحديث عن أبيه، وهذا هو الموجود في الكافي، فإنّ المتحدّث مع الصادق عليه السلام هو الأب، وأمّا يزيد نفسه فهو قد لقي الكاظم عليه السلام الذي عبّر عنه بأبي إبراهيم عليه السلام.

فسلطان الله، وأمّا السيف فعزّة الله، وأمّا الكتاب فنور الله، وأمّا العصا فقوّة الله، وأمّا الخاتم فجامع هذه الأمور. ثمّ قال رسول الله ﷺ: والأمر يخرج إلى علي عليه السلام ابنك. ثمّ قال: يا يزيد، إنّها وديعة عندك، فلا تُخبر بها إلّا عاقلاً، أو عبداً امتحن الله قلبه، أو صادقاً، ولا تكفر نِعمَ الله، وإن سُئلت عن الشهادة فأدِّها، فإنّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا**﴾[1]، وقال: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ**﴾[2] فقلت: والله، ما كنت لأفعلَ ذلك أبداً. ثمّ قال أبو الحسن عليه السلام: ثمّ وصفه لي رسول الله ﷺ فقال: عليّ ابنك الذي ينظر بنور الله، ويسمع بفهمه، وينطق بحكمته، يصيب فلا يُخطئ، ويعلم فلا يجهل، يعلم حكماً وعلماً، وما أقلّ مُقامَك معه، إنّما هو شيء كأن لم يكن. فإذا رجعتَ من سفرك فأوصِ وأصلح أمرك، وافرغ ممّا أردت، فإنّك منتقل عنه ومجاور غيره، فاجمع وَلَدَك وأشهد الله عليهم جميعاً، وكفى بالله شهيداً. ثمّ قال: يا يزيد، إنّي أُوخذ في هذه السنة، والأمر إلى ابني عليّ، سميّ عليٍّ وعليّ، أمّا عليّ الأوّل فعليّ بن أبي طالب، وأمّا عليّ الآخر فعليّ بن الحسين، أُعطيَ فهمَ الأوّل وحكمته وبصره وودّه ودينه، ومحنة الآخر وصبره على ما يكره، وليس له أن يتكلّم إلّا بعد هارون بأربع سنين، فإذا مضت أربع سنين فاسأله عمّا شئت يُجِبْك إن شاء الله تعالى. ثمّ قال: يا يزيد، فإذا مررت بهذا الموضع ولقيته، وستلقاه، فبشّره أنّه سيولد له غلام، أمره ميمون مبارك، وسيُعلمك أنّك لقيتني فأخبره عند ذلك أنّ الجارية التي يكون منها هذا الغلام جارية من أهل بيت مارية القبطية[3] جارية رسول الله ﷺ، وإن قدرتَ أن تبلّغها عنّي السلام فافعل ذلك.

١- النساء: ٥٨.

٢- البقرة: ١٤٠.

٣- جاء في بعض الأخبار أنّ أمّ الجواد أم ولد تدعى درّة، وكانت مرسيّة ثمّ سمّاها الرضا عليه السلام خيزران، وكانت من أهل بيت مارية القبطيّة. ينظر: **مناقب آل أبي طالب** ٤: ٣٧٩. والذي رواه

قال يزيد: فلقيت، بعد مضيّ أبي إبراهيم عليه السلام علياً عليه السلام، فبدأني فقال لي: يا يزيد، ما تقول في العمرة؟ فقلت: فداك أبي وأمّي، ذلك إليك، وما عندي نفقة، فقال: سبحان الله ! ما كنّا نكلّفك ولانكفيك. فخرجنا، حتّى إذا انتهينا إلى ذلك الموضع ابتدأني فقال: يا يزيد، إنّ هذا الموضع لكثيراً ما لقيت فيه خيراً. فقلت: نعم. ثمّ قصصت عليه الخبر. فقال لي: أمّا الجارية فلم تجئ بعد، فإذا دخَلَت أبلغتُها عنك السلام. فانطلقتُ إلى مكّة واشتراها في تلك السنة، فلم تلبث إلّا قليلاً حتّى حملت فولدت ذلك الغلام. قال يزيد: وإن كان إخوة عليّ يرجون أن يرثوه، فعادوني من غير ذنب، فقال لهم إسحاق بن جعفر: واللهِ، لقد رأيته، وإنّه ليقعد من أبي إبراهيم عليه السلام المجلس الذي لا أجلس فيه أنا[1]. ويُروى بأنّه كان مُقام الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام مع أبيه سبع سنين وثلاثة أشهر، وعاش بعد أبيه ثماني عشرة سنة غير عشرين يوماً[2].

ويروي عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّيّ بإسناده عن محمّد بن موسى، عن محمّد بن قتيبة، عن مؤدّب كان لأبي جعفر عليه السلام أنّه قال: كان بين يدَيّ يوماً يقرأ في اللوح إذ رمى اللوح من يده وقام فزعاً وهو يقول: إنّا لله وإنّا إليه راجعون! مضى - والله - أبي عليه السلام، فقلت: من أين علمت؟ فقال: دخلني من إجلال الله وعظمته شيء لم أعهده. فقلت: وقد مضى؟ فقال: دع عنك ذا، إئذنْ لي أن أدخل البيت وأخرج إليك، واستعرضني آيَ القرآن شئت أَفِ لك بحفظه. فدخل البيت،

الشيخ الصدوق عن جابر أنّه قرأ في صحيفة فاطمة عليها السلام التي فيها أسماء الأئمّة وأسماء أمهاتهم أنّ اسم أمّ الإمام محمّد الجواد عليه السلام كان خيزران. **كمال الدين وإتمام النعمة**:٢٨٩.

١- **الإمامة والتبصرة من الحيرة**: ٢١٥، وقد روى الكلينيّ هذا الحديث في **الكافي** ١: ٣١٣ / ح ١٤ بتفاوت في ألفاظه.

٢- **دلائل الإمامة** للطبري: ٢٠٨.

فقمت ودخلت في طلبه إشفاقاً منّي عليه، فسألت عنه، فقيل: دخل في هذا البيت وردّ الباب دونه وقال: لاتُؤذنوا علَيّ أحداً حتّى أخرج إليكم. فخرج مغبرّاً وهو يقول: إنّا لله و إنّا إليه راجعون! مضى واللهِ أبي! فقلت: جعلت فداك، وقد مضى ؟ فقال: نعم، ووليت غُسله وتكفينه، وما كان لِيَليَ ذلك منه أحد غيري[1]. وقد قال عليه السلام ذلك لأنّه كان الإمام المنصوص عليه.

وقد روى فخر الشيعة الشيخ المفيد بأنّ الإمام المنصوص عليه بعد الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام هو ابنه محمّد الجواد عليه السلام بالنصّ والإشارة من أبيه عليه السلام إليه، وتكامل الفضل فيه. فممّن روى النصّ عن أبي الحسن الرضا عليه السلام على ابنه أبي جعفر عليه السلام بالإمامة: عليُّ بن جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، وصفوان بن يحيى، ومعمَّر بن خلّاد، والحسين بن بشّار[2]، وابن أبي نصر البزنطيّ، وابن قياما الواسطيّ [3]، والحسن بن الجهم، وأبو يحيى الصنعانيّ، والخيرانيّ [4]، ويحيى بن حبيب الزيّات[5]، فروي عن الحسن بن موسى بن جعفر عليه السلام قال: كنت عند أبي

١- **الإمامة والتبصرة من الحيرة**: ٢٢٢.

٢- قيل أيضاً: هو الحسين بن يسار من أصحاب الرضا والجواد عليهما السلام. ينظر: **رجال الشيخ**:٤٠٠.

٣- هو الحسين بن قياما، قال في **رجال الشيخ**: ٣٤٨ بأنّه من أصحاب الكاظم عليه السلام. وقيل عنه: كان من الواقفين عليه و لم يقبل بإمامة الرضا عليه السلام. ينظر: **تنقيح المقال** للمامقانيّ ٣: ٤٤ ـ فصل الكنى.

٤- اختُلف فيه، فقيل: هو خيران الخادم، وقيل هو خيران بن إسحاق الزاكانيّ، وقيل: هو عبد خير الخيراني. ينظر: **جامع الرواة** ١: ٣٠٠ و٤٤٢، **رجال الشيخ**: ٤١٤، **رجال النجاشي**: ١٥٥. وفي **رجال الشيخ** هو من أصحاب الهادي عليه السلام. وكأنّ رأي الشيخ كان أقرب إلى الواقع بعد اختلاف العلماء في تحديد هويّته وزمانه الذي عاشه.

٥- **الإرشاد** للشيخ المفيد: ٣١٦.

جعفرعليه السلام بالمدينة وعنده عليّ بن جعفر، وأعرابيّ من أهل المدينة جالس، فقال لي الأعرابيّ: من هذا الفتى؟ وأشار بيده إلى أبي جعفر، قلت: هذا وصيّ رسول الله، فقال: سبحان الله! رسول الله قد مات منذ مائتي سنة وكذا وكذا سنة، وهذا حَدِث كيف يكون؟ قلت: هذا وصيّ عليّ بن موسى، وعليّ وصيّ موسى، وموسى وصيّ جعفر، وجعفر وصيّ محمّد، ومحمّد وصيّ عليّ بن الحسين، وعليّ بن الحسين وصيّ الحسين، والحسين وصيّ الحسن، والحسن وصيّ عليّ بن أبي طالب عليهم السلام، وعليّ وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله. ودنا الطبيب ليقطع له العرق فقام عليّ بن جعفر فقال: يا سيّدي، يبدأ بي لتكون حدّة الحديد بي قبلك، قال: قد كفيتك، هذا عمّ أبيه. ثمّ أراد أبو جعفر عليه السلام النهوض، فقام عليّ بن جعفر فسوّى نعليه..[1].

وقد روى يحيى بن حبيب الزيّات قال: أخبرني من كان عند أبي الحسن الرضا عليه السلام جالساً، فلمّا نهضوا قال لهم: القوا أبا جعفر فسلّموا عليه وأحدثوا به عهداً، فلمّا نهض القوم التفتَ إليّ فقال: يرحم الله المفضّل، إنّه كان ليقنع بدون هذا.

وروى معمَّر بن خلّاد قال: سمعت الرضا عليه السلام، وذكر شيئاً، فقال: ما حاجتكم إلى ذلك؟ هذا أبو جعفر قد أجلسته مجلسي وصيّرته مكاني، وقال: إنّا أهل بيتٍ يتوارث أصاغرنا عن أكابرنا القُذّةَ بالقذّة.

وروى الحسين بن بشّار[2] قال: كتب ابن قياما إلى أبي الحسن عليه السلام كتاباً يقول فيه: كيف تكون إماماً وليس لك ولد؟! فأجابه أبو الحسن الرضا عليه السلام ـ شبه المغضَب ـ: وما علمك أنّه لا يكون لي ولد؟! واللهِ لا تمضي الأيّام والليالي حتّى يرزقني الله ولداً ذكراً يفرّق بين الحقّ والباطل.

١- رجال الكشّي: ٤٢٩.

٢- وتقدّم بعنوان: الحسين بن يسار.

وروى ابن أبي نصر قال: قال لي ابن النجاشيّ: مَن الإمام بعد صاحبك ؟فأشتهي أن تسأله حتّى أعلم، فدخلت على الرضا عليه السلام فأخبرته، فقال لي: الإمام ابني. ثمّ قال: هل يتجرّى أحد أن يقول ابني وليس له ولد ؟!

وروى صفوان بن يحيى قال: قلت للرضا عليه السلام: قد كنّا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول: يهب الله لي غلاماً، فقد وهبه الله لك، فأقرّ عيوننا، فلا أرانا الله يومَك، فإن كان كونٌ فإلى مَن ؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه، فقلت: جعلت فداك، هذا ابن ثلاث سنين ! فقال: وما يضرّه من ذلك ؟! فقد قام عيسى عليه السلام بالحجّة وهو ابن ثلاث سنين.

وروى محمّد بن الحسن بن عمّار[1] قال: كنت عند عليّ بن جعفر بن محمّد جالساً بالمدينة، وكنت أقمت عنده سنتين أكتب عنه ما يسمع من أخيه ـ يعني أبا الحسن عليه السلام ـ إذ دخل علَيّ أبو جعفر محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام المسجد ـ مسجد رسول الله ـ فوثب عليّ بن جعفر بلا حذاء ولا رداء، فقبّل يده وعظّمه، فقال له أبو جعفر عليه السلام: يا عمّ اجلس رحمك الله، فقال: يا سيّدي، كيف أجلس وأنت قائم! فلمّا رجع عليّ بن جعفر إلى مجلسه جعل أصحابه يوبّخونه ويقولون: أنت عمّ أبيه وأنت تفعل به هذا الفعل! فقال: اسكتوا! إذا كان الله عزّ وجلّ ـ وقبض على لحيته ـ لم يؤهّل هذه الشيبة وأهّل هذا الفتى ووضعه حيث وضعه، أُنكر فضله ؟! نعوذ بالله ممّا تقولون، بل أنا له عبد..

وروى الخيرانيّ عن أبيه قال: كنت واقفاً بين يدي أبي الحسن عليه السلام بخراسان فقال له قائل: يا سيّدي، إن كان كونٌ فإلى من ؟قال: إلى أبي جعفر ابني، فكأنّ القائل استصغر سنّ أبي جعفر عليه السلام، فقال له أبو الحسن عليه السلام: إنّ الله تبارك وتعالى

١- ينظر: جامع الرواة ٢: ٩٥.

بعث عيسى ابن مريم رسولاً نبيّاً صاحب شريعة مبتداة في أصغر من السنّ الذي فيه أبو جعفر عليه السلام.

ورُوي عن معمَّر بن خلّاد قال: سمعت إسماعيل بن إبراهيم [1] يقول للرضا عليه السلام: إنّ ابني في لسانه ثقل، فأنا أبعث به إليك غداً تمسح على رأسه وتدعو له، فإنّه مولاك، فقال: هو مولى أبي جعفر فابعث به غداً إليه [2]. وقد كانت إشارات ونصوص الإمام الرضا عليه السلام بخصوص ولده أبي جعفر عليه السلام تصل إلى أسماع الأصحاب والشيعة الموالين للرضا عليه السلام، لذا كانوا على أمل ويقين بأنّ الإمام الجديد المنصوص عليه من قِبل الرضا عليه السلام سيكون مؤهّلاً تأهيلاً كاملاً على الرغم من صغر عمره، وهذا غير معهود في الأئمة السابقين، ولكنّهم شدّوا الرحال إلى المدينة لملاقاة هذا الخليفة والوصيّ الربّانيّ.

ويتحدّث عليّ بن إبراهيم [3] عن أبيه إبراهيم بن هاشم فيقول: لمّا مات أبو الحسن الرضا عليه السلام حججنا فدخلنا على أبي جعفر عليه السلام وقد حضر خلق من الشيعة من كلّ بلد لينظروا إلى أبي جعفر عليه السلام، فدخل عمّه عبد الله بن موسى، وكان شيخاً كبيراً نبيلاً عليه ثياب خشنة وبين عينيه سجّادة، فجلس، وخرج أبو جعفر عليه السلام من الحجرة وعليه قميص قصب ورداء قصب ونعل جدد بيضاء، فقام عبد الله فاستقبله وقبّل بين عينيه، وقام الشيعة وقعد أبو جعفر عليه السلام على كرسيّ، ونظر الناس بعضهم إلى بعض وقد تحيّروا لصغر سنّه، فابتدر رجل من القوم فقال لعمّه:

١- ينظر: **تنقيح المقال** ١: ١٢٦.

٢- **الكافي** ١: ٣٢١ / ح ١١ ـ باب الإشارة والنصّ على أبي جعفر الثاني عليه السلام.

٣- عليّ بن إبراهيم بن هاشم القمّيّ، عرّفه أكثر علماء الشيعة بأنّه ثبتٌ معتمد صحيح المذهب ثقة في الحديث، صنّف كتباً منها كتاب **التفسير**. ينظر: **رجال النجاشي**: ٢٦٠ / الرقم ٦٨٠، **رجال ابن داود**: ٢٧٣ / الرقم ٩٩٨..

أصلحك الله، ما تقول في رجل أتى بهيمة ؟ فقال: تقطع يمينه ويُضرب الحدّ، فغضب أبو جعفرعليه السلام ثمّ نظر إليه فقال: يا عمّ، اتّق الله، إنّه لَعظيمٌ أن تقف يوم القيامة بين يدي الله عزّوجلّ فيقول لك: لم أفتيت الناس بما لا تعلم؟! فقال له عمّه: أستغفر الله يا سيّدي، أليس قال هذا أبوك صلوات الله عليه؟ فقال أبو جعفرعليه السلام: إنّما سئل أبي عن رجل نبش قبر امرأة فنكحها، فقال أبي: تُقطع يمينه للنبش ويُضرب حدّ الزنى، فإنّ حُرمة الميّتة كحرمة الحيّة، فقال: صدقت يا سيدي، و أنا أستغفر الله. فتعجّب الناس وقالوا: يا سيّدنا، أتأذن لنا أن نسألك؟ قال: نعم. فسألوه في مجلس عن ثلاثين ألف مسألة، فأجابهم فيها وله تسع سنين[١].

وقد أثارت مسألة انتقال الإمامة إلى الإمام محمّد الجوادعليه السلام جدلاً كثيراً بسبب صغر سنّه حين تَسلُّمه الإمامة، حيث كان عمره عند شهادة والده الإمام عليّ بن موسى الرضاعليه السلام في بعض الروايات نحو سبع سنين و في بعضها ثماني سنوات أو عشر حسب اختلاف الروايات[٢]. ويذكر بعض المؤرّخين أنّ الشيعة حاروا واضطربوا ووقع بينهم الخلاف والانقسام بسبب هذا الحدث. وبالرغم من ذلك، فإنّ أغلب الشيعة قبلوا إمامته واحتجّوا بها، كما يذكر الشيخ المفيد، وهو من علماء الشيعة الكبار في القرن الرابع الهجري، بأنّ كمال العقل لا يُستنكر لحجج الله تعالى مع صغر السنّ؛ لقوله تعالى بشأن عيسى عليه السلام: ﴿**قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾[٣]، وبقوله تعالى بشأن

١- **الاختصاص** للمفيد: ١٠٢.

٢- ينظر: **دلائل الإمامة** للطبريّ الإماميّ: ٢٠٨.

٣- مريم: ٢٩ - ٣٠.

يحيى عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[١].. وتكررت هذه الحالة بشأن الإمام عليّ الهادي عليه السلام، وهو عاشر الأئمّة عليهم السلام، وآخرهم الإمام محمّد المهدي عليه السلام.

وقد اقتضت الضرورة عند الموالين للمزيد من البحث والتحرّي، بما يخصّ إمامة الجواد عليه السلام، فأقدموا على اختباره في مواقف وحالات متعدّدة حتّى تحقّق لهم الاطمئنان بغزارة علمه وأهليّته، ولم يشكَّ في إمامته إلّا القليل منهم، فالشيعة ينظرون إلى الإمامة باعتبارها قضيّة إلهية، فتكون مسألة صغر عمر الإمام، كمسألة صغر عمر النبيّ، ليست هي القضيّة المهمّة بالنسبة إليهم، وإنّما الأمر المهمّ في ذلك هو الجانب الإلهيّ في علمهم وعملهم. ومن المعلوم أنّ الأئمّة عليهم السلام كانوا يجيبون عن جميع الأسئلة التي تعرض عليهم، وكان الأتباع والموالون يقبلون إمامتهم تبعاً لذلك، فضلاً عن وجود النصّ المسبق على إمامتهم[٢].

وكان الرضا عليه السلام يحيط ولده الجواد عليه السلام بشعاع الرسالة ونور الإمامة، فلم تنقطع أوصال الوصيّة عنه عليه وعلى آبائه أفضل الصلاة والسلام، فكان الرضا عليه السلام من هذا المكان النائي بعد تلك الأحداث آنذاك ـ وهو مَرْو ـ يراسل ولده المؤمَّل بالوصيّة والإمامة، ويضع خطاه على أعتاب الرسالة والإمامة، وقراءة واحدة من هذه الرسائل تُظهر مدى عناية الإمام الفائقة بولده وعظم المسؤولية التي كان يؤمّلها منه، كما يترشّح من قوله له: بَلَغَني أنّ المَوالي إذا ركبتَ أخرجوك من الباب الصغير، فإنّما ذلك من بُخلٍ بهم، لئلّا ينال منك أحد خيراً، فأسألك بحقّي عليك، لايكن مدخلك ومخرجك إلّا من الباب الكبير، وإذا ركبت فليكن منك ذهب وفضّة، ثمّ لا يسألك أحد إلّا أعطيته، ومن سألك من عمومتك أن تبرّه فلا تعطه أقلّ من

١- مريم: ١٢. روى الحافظ السيوطيّ في أخبار تناولت تفسير الآية بأنّه أُعطي الفهم والعبادة وهو ابن سبع سنين، وقيل في أخبار أُخر: هو ابن ثلاث ستين. **الدرّ المنثور**٤: ٢٦٠ –٢٦١.

٢- أسعد القاسم، **أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة**: ١٧٤.

خمسين ديناراً والكثير إليك، ومن سألك من عمّاتك فلا تعطِها أقلّ من خمسة وعشرين ديناراً والكثير إليك. إنّي أريد أن يرفعك الله، فأنفق ولا تخشَ مِن ذي العرش إقتاراً[1].

و لذلك كان الإمام الرضا عليه السلام يدفع برسائله المتواصلة إلى ولده الجواد عليه السلام على يد خاصّته من أصحابه، فيروي إبراهيم بن أبي محمود قوله: دخلت على أبي جعفر عليه السلام ومعي كتب إليه من أبيه، فجعل يقرأها ويضع كتاباً كبيراً على عينيه ويقول: خطّ أبي والله. ويبكي حتّى سالت دموعه على خدّيه، فقلت له: جُعلت فداك، قد كان أبوك ربّما قال لي في المجلس الواحد مرّات: أسكنك الله الجنّة أدخلك الله الجنّة، فقال: وأنا أقول لك: أدخلك الله الجنّة، فقلت: جعلت فداك، تضمن لي على ربّك أن يُدخلني الجنّة ؟قال: نعم، قال: فأخذت رجله فقبّلتها[2].

وجاء في خبر رواه محمّد بن عيسى بن زياد[3] قال: كنت في ديوان ابن عبّاد فرأيت كتاباً يُنسَخ، فسألت عنه فقالوا: كتاب الرضا إلى ابنه عليهما السلام من خراسان، فسألتهم أن يدفعوه إليّ، فدفعوه إليّ فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، أبقاك الله طويلاً، وأعاذك من عدوّك يا ولدي، فداك أبوك، قد فسّرت لك مالي وأنا حيّ سويّ، رجاء أن يمنّك الله بالصلة لقرابتك، ولموالي موسى وجعفر رضي الله عنهما. فأمّا سعيدة فإنّها امرأة قويّة الحزم في النحل والصواب. في رقّة الفطر، وليس ذلك كذلك، قال الله: **﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾**[4] وقال: **﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ**

١- **عيون أخبار الرضا** ٢: ٨ / ح ٢٠..

٢- **رجال الكشّي**: ٥٦٧.

٣- ذكره السيّد الخوئيّ في **معجم رجال الحديث** ١٧: ١٢١.

٤- البقرة: ٢٤٥.

عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ[١]، وقد أوسع الله عليك كثيراً يا بني فداك أبوك، ولاتستر دونيَ الأمور لحبّها فُتخطئَ حظَّك، والسلام[٢]. فقد كانت هاتان الرسالتان والرسائل الأخرى التي كان يبعثها الإمام الرضاعليه السلام لولده محمّد الجوادعليه السلام ليعدّه ويربّيه تربية خاصّة تتناسب والمقام الكريم الذي ينتظره، لذا فإنّ الإمام الرضاعليه السلام يركّز على بناء شخصيته وتعظيم مقامه، ومخاطبته بالإجلال والتعظيم، ويكنّيه بأبي جعفر وهو صبيّ لم يبلغ الحُلم، وهذا الإعداد والتربية الشخصيّة للجوادعليه السلام على مستوى الإمامة والقيادة واضح في الرسالة التي بعثها إليه، يطلب منه الخروج من الباب الكبير ليواجه الناس ويتفاعل معهم، ولتتركّز شخصيته في القلوب، وليمارس عملية العطاء والكرم وقضاء حوائج الناس على مستوى رفيع[٣].

١- الطلاق: ٧.

٢- **تفسير العيّاشيّ** ١: ١٣١_١٣٢ / ح٤٣٦، و عبارة المصدر: لا يُستر في الأمور بحسبها.

٣- **موجز سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام**: ٢٧٩.

الجوادعليه السلام النظام السياسيّ وحكّام بني العبّاس

اقترن مفهوم الإمامة بمفهوم الخلافة في تاريخ المسلمين، فالملاحظ أنّ مفردات مثل: الخلافة، الإمامة، ولاة الأمر، إمرة المؤمنين، هذه وغيرها هي مصطلحات تترادف في الإشارة إلى مركز السلطة العليا للدولة الإسلامية. وفي فترة العهد النبويّ كان الرسول محمّدصلى الله عليه وآله هو رأس النظام السياسيّ الأوّل للمسلمين، وبعد انتقاله إلى جوار ربّه في دار الرحمة والرضوان انتظم المسلمون بنظام سياسيّ فرضته ظروف المسلمين، بسبب إغفال أو إهمال النصوص التي تنتهي في دلالتها إلى الشخص المسمّى للخلافة، فاتّخذ هذا النظام تسمية العهد الراشديّ، وتوزّعت صور هذا النظام في اختيار الخليفة بين التعيين والتنصيص من «الخليفة» الأوّل إلى الثاني، وبين الشورى بين الأصحاب فاختير الثالث وفق هذا الأسلوب، وجاء الخليفة الرابع عليّعليه السلام بالانتخاب والمبايعة الجماهيرية الواسعة، وكأنّ هذا الشكل في اختيار الخليفة هو أرضى إلى قلوب العامّة.

و إذا كان عليّعليه السلام إماماً أو خليفة، فهو النموذج الأمثل والأكمل لأيّ تسمية كانت، ولتقارب مفهوم الإمام والخليفة فالغالب في رأي المسلمين أنّ الإمامة عبارة عن خلافة شخص من الأشخاص لرسول الله صلى الله عليه وآله في إقامة القوانين الشرعية وحفظ حوزة الملّة، ولكنّ الخلاف الذي وقع وما زال: هل الخليفة منصوص عليه أم للأمّة أن تختاره ؟ والشيعة ترى أنّ الإمامة ليست من المصالح العامّة التي تُفوَّض إلى

نظر الأمّة، بل هي ركن الدين، وقاعدة الإسلام. وفي رأيهم لايمكن ولايجوز أن يغفل النبيّ صلى الله عليه وآله هذا الركن، ولا أن يفوّضه إلى الأمّة[١]، فليست الأمّة من شأنها تشخيص الإمام كي تناط بها هذه المسؤولية الخطيرة، تقول الباحثة فتحية عبد الفتّاح النبراويّ: والخلافة أو الإمامة هي أهمّ أنظمة الدولة الإسلامية التي صاغها المسلمون[٢] في فترة دقيقة من فترات حياتهم، كما أنّها تمثّل العمود الفقري للتفكير السياسيّ الإسلاميّ، وتعدّ في الواقع من أعظم ما توصّل إليه المفكّرون السياسيون المسلمون فيما يتعلّق بسياسة الأمّة وحكم المسلمين، على الرغم من إدراكنا لآراء فلاسفة السياسة المسلمين والخلاف الذي نشب بينهم حول الإمامة [٣]. ومن هذا الاعتبار لم تخضع الخلافة الإسلامية حسب قيمها الأصلية لقانون الوراثة، ولا لأيّ لون من ألوان المحاباة، أو الاندفاع وراء الأهواء والعصبيات. فقد حارب الإسلام جميع هذه المظاهر واعتبرها من عوامل الانحطاط والتأخّر الفكريّ والاجتماعيّ، وأناط الخلافة بالقيم الكريمة، والمثل العليا، والقدرة على إدارة شؤون الأمّة، فمن يتّصف بها فهو المرشّح لهذا المنصب الخطير الذي تدور عليه سلامة الأمّة وسعادتها.

وأمّا الشيعة فقد خصّصت الخلافة بالأئمّة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام، لا لقرابتهم من الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وكونهم ألصق الناس به وأقربهم إليه، وإنّما لمواهبهم الربّانية، وما اتّصفوا به من الفضائل التي لم يتّصف بها أحد غيرهم، فضلاً عن النصّ عليهم، بما لا يدع مجالاً للاختيار. وأمّا الذين تمسّكوا بعنصر الوراثة فهم

١- ينظر: **تاريخ ابن خلدون** ١: ٢٠٧ ومحمّد بيوميّ مهران، **الإمامة وأهل البيت**١: ٢٨ و١٤٨.

٢- الإمامة من عقائد الإسلام و ليست من صياغات فكر المسلمين كما تقول الكاتبة.

٣- **دراسات في الحضارة الإسلاميّة**، الهيئة المصرية للكتاب ٢: ١٦٦.

العبّاسيون، على غرار الأمويين فاعتبروها القاعدة الصلبة لاستحقاقهم للخلافة، بحجّة أنّهم أبناء عمّ الرسول صلى الله عليه وآله، وقد بذلوا الأموال الطائلة لأجهزة الإعلام لنشر ذلك وإذاعته بين الناس[١]. وكان العبّاسيون في مراحل سابقة لاستلامهم السلطة لا يصرّحون بهذا الادّعاء الذي تمسّكوا به وأذاعوه بين المسلمين كحقّ وهبه الله تعالى لهم دون غيرهم من بني هاشم. لذا كانت العلاقات بين البيتين الهاشميَيّن البارزين: العبّاسيّ والعلويّ ودّية وطيّبة في مطلع العصر الأمويّ، والظاهر للباحث في تلك الحقبة من الزمن أنّ اللون القبلي والأسري كان مشاهداً وطاغياً في الصورة العامّة لحياة المسلمين السياسية، فقد كان قيام الدولة الأموية هو في الحقيقة انتصاراً ظاهرياً للأمويين على الهاشميين لايخرج عن صفته القبلية، ممّا يحتّم وحدة بني هاشم لاستعادة الخلافة من البيت الأموي بعد أن صبغوها صبغة قبلية.

ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الفكر السياسيّ أو الحسّ السياسيّ الذي كان يدور في خَلَد القرشيين لايمكن عزله وتجريده عن النظام القبليّ القويّ الذي استحكم في بلاد المسلمين واستبدّ بمشاعرهم وأحاسيسهم، وامتدّ أثره إلى أزمنة ليست بقصيرة، وربّما إلى الآن. و كانت دعواهم أوّل أمرهم -أي عموم القرشيين وبضمنهم بنو أميّة ـ أنّهم سادة الدنيا، لأنّهم جاوروا البيت الحرام واختصّوا به، ولأنّ آخر الأنبياء والمرسلين محمّداً المصطفى صلى الله عليه وآله كان من قريش، وبالتالي تكون قيادة البلاد والعباد لهم، وما على الناس إلّا الانقياد والطاعة والانصياع. وفي رواية للمؤرّخ محمّد بن جرير الطبريّ في هذا المجال تعكس مستوى الشعور والتفكير الذي كان

١- أعلام الهداية، الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام: ١٠١.

يحمله رجل قريش آنذاك، جاء فيها: قدم سعيد بن العاص [1] الكوفة فجعل يختار وجوه الناس يدخلون عليه ويسمرون عنده، وفي ليلة كان عنده وجوه أهل الكوفة، منهم: مالك بن كعب الأرحبيّ، والأسود بن يزيد وعلقمة بن قيس النخعيّان، وفيهم مالك الأشتر في رجال، فقال سعيد: إنّما هذا السواد بستان لقريش. فقال الأشتر: أتزعم أنّ السواد الذي أفاءه الله علينا بأسيافنا بستانٌ لك ولقومك !واللهِ ما يزيد أوفاكم فيه نصيباً إلّا أن يكون كأحدنا [2]. وكأنّ ما قاله سعيد بن العاص هو ترجمة لما يدور في ذهن القرشيّين المكّيين من رغبة جامحة في قيادة الناس والتحكّم بثرواتهم والاستئثار بها.

والإحساس بالتسلّط والجبروت الذي ورثه أبناء قريش الأوائل كان يميّزهم عن سائر العرب باعتقادهم الموروث عن الآباء بأنّهم أهل الله، فلقد كانت مكّة قبلة العرب، وفيها أُقيمت أصنامهم، وإليها هوت أفئدتهم. وكان جمع أمرَيِ التجارة والتديّن هو الذي ميّز في الواقع مكّة على ما سبقها من مدن عربية خاضت غمار تنظيم التجارة الدولية من قبل. وجمعُ القرشيين لأمر الدين والتجارة بأيديهم عزّز من جبروتهم وطماحهم في إمساك الأمور في الجاهلية والإسلام. وفي تحليل للكاتب فكتور سحّاب يصف تحرّك أهل مكّة نحو هذا الاتجاه فيقول: قد أدرك

١- سعيد بن العاص بن سعيد، كان جدّه من زعماء قريش ومن كبار بني أميّة يُعرَف بأبي أُحيحَة، استعمله عثمان على الكوفة بعدما عزل الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط، ولمّا قُتل عثمان اعتزل الأحداث ولزم بيته، ولم يشارك في حرب صفّين ولا الجمل. أتى الشام بعد استتباب أمور معاوية فلامه معاوية على قعوده عن نصرته، ولكنّه ولّاه المدينة، فكان يولّيه المدينة إذا عزل مروان عنها، ويولّي مروان إذا عزله. ينظر: **أسد الغابة في معرفة الصحابة** ٢: ٣٠٩، **الإصابة في تمييز الصحابة** ٢: ٤٧.

٢- **تاريخ الأمم والملوك**، بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ٤: ٣٢٢.

المكّيون أنّ التجارة تحتاج إلى الأمن، ولذا كان لابدّ من صمّام يضمن الأمن لهم ولتجارتهم، فكان لا مفرّ من مخاطبة كلٍّ بلغته، فالأصنام لعموم العرب الراغبين في رمز ومحجّة ومثابة تستقطب انتماءهم وتشدّ قلوبهم إلى مستقرّ يجمعها، والتجارة لمن يفهمون لغة المال والكسب، ولمَ لايرتهن واحدهما بالآخر، وما الذي يحول دون قدوم التاجر بتجارته فيبيع ويشتري ثمّ ينزع ثياب الإحلال ويلبس لبوس الإحرام، فيشكر لآلهته ما يظنّ أنّها أكسبته في تجارته هذه [١]، فأمسكوا ثياب الحلّ والإحرام فانصاعت لهم العرب ودانت بالطاعة لهم، فكأنّهم عبيد لهم.

وقد ظهر التسلّط القرشيّ بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله بثوب وحجّة جديدة رافقت النظام الخلافي الأوّل، والذي يبدو وكأنّه كان متّصفاً بصفتين، وفقاً لرؤية الكاتب أحمد إبراهيم الشريف الذي يصفه بأنّه يتألّف من عنصرين: العنصر الأوّل، هو عنصر الدين، والعنصر الثاني هو عنصر الارستقراطيّة التي نشأت في الإسلام، وهي طبقة لاتعتمد في امتيازها على المولد ولا على الثروة أو المركز الاجتماعيّ بمعناهما الشائع العامّ، و إنّما تعتمد على الاتّصال بالنبيّ صلى الله عليه وآله في أيّام حياته.

وقد أصبحت هذه الطبقة بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله صاحبة العقد والحلّ في أمور المسلمين كلّها. . وقد تميّزت هذه الطبقة إلى فئتين بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله تنازعتا الحكم وتناظرتا عليه في يوم السقيفة، هما المهاجرون من أهل مكّة، والأنصار من أهل المدينة. وقد رأى الأنصار أن تكون رئاسة الأمّة مشاركة بينهما، فمنهم أمير ومن المهاجرين أمير. ولكنّ أبا بكر روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: قريش ولاة هذا الأمر. ثمّ قال للأنصار: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. وقبِل الأنصار ذلك، ولم يكادوا يعارضون فيه إلّا ما كان من سعد بن عُبادة الخزرجيّ.

١- إيلاف قريش: ٢٣٠.

ومنذ ذلك اليوم نشأت بين المسلمين أرستقراطيّة قوامها القرب من رسول الله صلى الله عليه وآله فأصبح الحكم إلى قريش وحدها، وأصبحت المشورة إلى الأنصار، ولمّا كانت المشورة حقّاً عامّاً لكلّ مسلم، فالدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم، فقد أصبح لقريش أن تحكم ولها أن تشير، وللأنصار وغيرهم من العرب أن يشيروا وليس لهم أن يحكموا. ومعنى ذلك أنّ أرستقراطيّة حاكمة تكوّنت من قريش[1]، ولربّما كان يقدح ـ في عصور الخلافة المتأخّرة ـ في نفس القرشيّ الزهو والأمل القويّ في أن يسوق الناس بعصاه، لا لشيء إلّا لإشباع الرغبة القرشيّة المُتجددة في الملك، وكأنّ بعض الآمال قد تحققت حين نجح الأمويون في انتزاع السلطة من يد الخليفة الشرعي الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام.

وربّما قد نظر وتطلّع الأمويون إلى التاريخ السياسيّ القديم يستلهمون منه دروساً ونظرية يمكن تطبيقها في حقبتهم السياسيّة التي كانوا يسعون لها ويحلمون بها، وذلك حين أسّسوا دولتهم بالشام، وهناك لبست الخلافة ثوب الملك وأبّهته، واستشعروا سطوة الحكم وعظمته. ولم يعتبر الأمويون الأساس الوثنيّ الذي قامت عليه دساتير ونظم الدول البائدة، والذي نسخته الأديان السماوية، فكانوا يعتبرون السلطة السياسية ضمن مختصّات الملوك و إرثهم الخاصّ، فيضعونها في نطاق الأسرة والعائلة كميراث أبديّ خالد، أو كأنّه ثوب لاينبغي للأحفاد أن تنزعه من جلدها.

ففي تاريخ العراق السياسيّ القديم كان الملك يخلف أحد أولاده، وخاصّة البِكْر، وقد يخلف الملك الحاكم أخاه إذا لم يكن للملك أولاد، وربّما قد لايعيّن الملك ولده البكر، أو أن يغيّر رأيه خلال حياته، فسنحاريب قد عيّن ابنه البكر

١- دور الحجاز في الحياة السياسية العامّة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة: ١٣٣.

خليفة ـ وسنحاريب هذا هو من ملوك العراق القديم ـ ثمّ عدل عن رأيه السابق ونصب ابنه الأصغر. وذكر مؤرّخو تاريخ العراق القديم بأنّ الملك في اختيار وليّ العهد يستشير عادة الآلهة، وكان يستحصل موافقة الآلهة عن طريق الكهنة، وقد تُبيّن الآلهة رغبتها في شخص ولي العهد بالأحلام، أو الفؤول، أو بعلامات سماوية أو أرضية، يفسّرها الكهنة، حسب تصوّرهم[1].

وكأنّ هذا التاريخ كان نصب عين معاوية، وبدا واضحاً بعد أن تمرّد على السلطة الدينية الشرعية التي كانت بيد الإمام الحسن بن عليّ عليهما السلام بشتّى الطرق والأساليب، ممّا اضطرّ الحاكم الشرعيّ للدولة الإسلامية إلى تسليم مقاليد الحكم والسلطة بمصالحةٍ مشروطةٍ إلى البيت الأمويّ الذي مثّله وقاده معاوية آنذاك، واستطاع معاوية بطرق شتّى استغفال المسلمين بحجج وشعارات، ومنها أنّه وليّ الدم، باعتبار أنّ عثمان بن عفّان الذي قتله الثائرون كان أمويّاً، ومن هذه الحجج حجّة النسب القرشيّ، وأنّ الخليفة له مطلق الصلاحيات، باعتبار أنّه منصوص عليه بالطاعة كوليّ أمر، وما يراه ويقرّره فهو ينصبّ في صالح المسلمين، وكان من نظره إلى مصلحة الإسلام والمسلمين أن يطرح نظام الحكم السياسيّ الوراثيّ، وبالتالي تمكّن من تمرير مشروعه السياسيّ القبليّ على الدولة الإسلاميّة. يقول إحسان النصّ: وينبغي ألّا نُسقط من حسابنا، حين نتحدّث عن دور خلفاء بني أميّة في إثارة العصبيات، عصبيتَهم لقبيلتهم قريش عامّة ولبني أميّة خاصّة، وكانوا في كلّ مناسبة يعلنون أنّ لقريش وحدها الحقّ في تولّي أمور المسلمين، وليس لغيرهم أن يطمع في هذا الأمر. ونجد معاوية يؤيّد منذ زمن عثمان حقّ قريش في الحكم، ويعدّد لمن سيّرهم عثمان إليه من أشراف أهل الكوفة فضائل قريش التي

١- ينظر: سامي سعيد الأحمد، **الإدارة ونظام الحكم**، **موسوعة حضارة العراق** ٢: ١٨.

تجعل الخلافة وقفاً عليهم دون غيرهم[١].

ويعزو الدكتور صلاح الدين المنجّد عودة العصبية القبلية إلى زمان الحاكم الثالث عثمان بن عفّان بعد أن أضعفها الإسلام وطمرها، فيقول: على أنّ رائحة العصبية القبلية الناتجة عن التفاضل بالأنساب عادت ففاحت في أيّام عثمان، ثمّ ازداد الفخر بالنسب والعناية به أيّام بني أميّة. ثمّ يقول: والحقّ أنّ دولتهم كانت عربيّة خالصة، حافظ العرب فيها على بقايا تقاليدهم الجاهلية ممّا توارثوه في طباعهم وغرائزهم. ونحن نلمس آثار الفخر بالنسب والعناية به في أمور شتّى، نلمسه في تقريب الخلفاء الأمويين بعض النسّابين واستماعهم إليهم، كمعاوية الذي قرّب دغفلاً وعبيد بن شرية، ويزيد الذي جعل علاقة النسّابة في سُمّاره، بل ظهر من بني أميّة أنفسهم علماء بالنسب كالوليد بن روح بن عبد الملك، وكان أثيراً عند عمر بن عبد العزيز. ونلمسه في كثرة النسّابين الذين كانوا يروون أنساب العرب طوال القرن الأوّل وأوائل القرن الثاني فيأخذها الناس عنهم[٢].

وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في أوّل خطبة خطبها بعد أن بويع بالخلافة إلى عودة الأشكال القديمة للانقسامات القبلية والفئوية داخل المجتمع، والتي كان عليها الناس في جاهليتهم، فقال: «ألا و إنّ بليّتَكُم قَد عادَت كهيئتها يومَ بعثَ اللهُ نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم »[٣]. يقول الشيخ محمّد مهديّ شمس الدين، معلّقاً على كلام الإمام عليّ عليه السلام: نرى أنّه قد لاحظ -أي الإمام عليّ عليه السلام- عودة الأشكال القديمة

١- **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**: ٢٥٨.

٢- مقدمة كتاب **طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب**، تصنيف السلطان الملك الأشرف عمر ابن يوسف بن رسول: ٧.

٣- **نهج البلاغة**، : الخطبة ١٦ ـ لمّا بويع في المدينة وفيها يُخبِر الناسَ بعلمه بما تؤول إليه أحوالهم ، وفيها يقسّمهم إلى أقسام.

للانقسامات القبلية والفئوية داخل المجتمع العربيّ الجاهليّ ـ والتي كانت فيما مضى ـ إلى المجتمع الإسلاميّ في عهد عثمان، وبعد مقتله، بكلّ ما تحتويه هذه الأشكال من روح قبليّة وعنصرية، وأخلاقيات جاهليّة رجعيّة. وقد كانت عودة هذه الأشكال القديمة حاملة مضمونها الرجعيّ نتيجة لضمور المُثل العليا والقيم المؤثّرة في حركة التاريخ الإسلاميّ، ونتيجة لضعف مؤسّسة الخلافة في عهد عثمان هذا الضعف الذي مكّن القوى القديمة ـ والقيمُ القديمة لم تكن قد ماتت بعد، وإنّما كانت تعاني من حالة خمود وضمور. مكّنها من أن تستعيد فاعليتها، وتعود إلى التأثير في حركة التاريخ تحت شعارات مناسبة تنسجم مع الإسلام في الشكل الخارجيّ. لقد عادت إلى الظهور والفاعلية، تلك القيم والمثل الجاهليّة القديمة التي كانت تقود حركة التاريخ في المجتمع العربي، وترسم ملامح هذا المجتمع وتوجّه خُطاه قبل بعثة الرسول الأكرم وانتصار الإسلام[١].

وكأنّ وضع المجتمع الإسلامي الذي آل إليه في الفترة المذكورة بتقسيمه وانشداده القبلي صار منهج السياسة الأموية، بتخطيط منهم، أو ربّما بغير تخطيط مقصود لهم، كأن يكون بشكل عفويّ، أو كأنّه صادف رضى وقبولاً لديهم، فآثروا الإبقاء عليه أو المحافظة عليه، وربّما استجاب لهذا الوضع المجتمع الإسلاميّ نفسه الذي لم يتمكّن من الانسلاخ منه، وظلّ مشدوداً إليه.

وقد نجم عن هذا الوضع الذي اختطّته السياسة الأموية، عن عمد أو جاء منسجماً مع سياستهم الجديدة، بروز الحسّ القبليّ بقوّة في المجتمع الإسلاميّ، وحتّى خارج حدود الأقاليم العربية، ممّا أضعف الروابط الدينية، فأشعل أوار النزاعات القبلية التي طبعت عموم العلاقات الاجتماعية آنذاك، فتفكّك

١- حركة التاريخ عند الإمام عليّ عليه السلام: ٩٢.

المجتمع الإسلامي وتصدّع. يقول محمّد عبد الحيّ شعبان: ومع أنّ فهم الروابط القبلية ضروريّ جدّاً لفهم كلّ أحداث تلك الأيّام، ولكنّها -أي تلك الروابط القبلية -لم تكن العامل الأوّل والفعّال في خلافات الجماعة العربية الإسلامية، تلك الخلافات التي تحوّلت على مرّ الأيّام إلى صراع حادّ بين مختلف التجمّعات القبلية، تلك التجمّعات التي تمثّل أحزاباً مختلفة تجسّد المصالح المتضاربة للقبائل العربية. وقد كانت ـ ولا شكّ ـ تحرّكات وثورات قبلية هنا وهناك، وهذا أمر طبيعيّ، إذ لم يكن يُنتظَر من أبناء البادية العربية أن ينسوا بين ليلة وضحاها ما ورثوه عبر القرون من عصبيات قبلية[١]. ويرى جورج جرداق أنّ السياسة الأموية في حقيقتها ليست سياسة عربية، حتّى ولا سياسة قبلية، وإنّما هي سياسة أسرة من العرب تريد أن تحكم العرب والموالي وتنهب خيراتهم وتأكلهم جميعاً، فإذا هم متساوون من حيث أنّهم أدوات إنتاج لهذه الأسرة، وهي سياسة تتركّز في الدرجة الأولى على جمع المال والقوّة والسلطان في يد واحدة يمكنها أن تسند من يواليها ويؤيّدها من العرب والموالي، وتبطش بمن يعارضها، وتخنق المجموعة الفقيرة من الجانبين نهباً لما تحت أيديها من المال والغلال، فهي من هذه الناحية سياسة طبقية خالصة. وإذا كان الأمويون الحاكمون قد آثروا عربياً على أعجميّ، فإنّما كانوا ينزعون عن مصلحتهم الطبقية، لا عن شيء سواها، إذ حسبوا أنّ العرب أقرب إلى موالاتهم وتأييد ملكهم من هؤلاء الموالي، ذلك لأنّ العصبية القبلية التي كانت ما تزال قائمة بروحها وجوهرها، والتي بعث الأمويون ما كان قد خمد منها أو كاد، كانت كفيلة باجتذاب هذه القبائل إليهم عن طريق زعمائها الذين يرشوهم الأمويون ويطلقون أيديهم في ما يريدون، فإذا بهم يحملون قبائلهم وعلى أعناقهم

١- الثورة العبّاسية: ١٠٥.

السيوف لنصرة الخليفة وأسرته. أمّا الموالي فقد كان من الصعب اجتذابهم عن هذه الطريق، لأنّهم لم يكن يتبعون نظاماً قبلياً يسمح للأمويين باستخدامهم عن طريق رؤسائهم وزعمائهم. وعلى كلّ حال، فإنّ مصلحة الأسرة الأموية وطبقة الولاة والعمّال والوجهاء وكبار الأثرياء، لم تكن لتتدعّم إلّا بإيثار فئة من الناس على فئة تولّيها على رقابها، وتستأثر عن طريقها بالخيرات، وتحافظ بواسطتها على امتيازاتها..[1].

فسادت بلادَ المسلمين سياسةٌ طبقية وقبلية و إقليمية، فالانحراف عن قيم الإسلام والاتّجاه بالدولة والأمّة نحو القبيلة والإقليم كان من أبرز ملامح الدولة الأموية.

ومن هذا التصوّر كان نظام الحكم الأمويّ يؤسّس نظمه ويوجّهها بقيم بعيدة عن الإسلام، والملاحظ أنّه كان ينحو بعصبية المنفعة والمصلحة والقبيلة في آن واحد، فرسم معاوية للمسلمين خريطة الحكم الدكتاتوريّ القبليّ الوراثيّ، فاستقبلته الإرادة الشامية بطاعة عمياء لبناء دولة فُرضت على المسلمين، فصار الإقليم والقبيلة لهذا النظام عقيدة ورأياً، فاستتبّت واستوسقت لهم الأمور والأوضاع على هذا المنوال، وفقاً لما يرون ويدبّرون، ومن ثَمّ أصبحت السلطة والإدارة بضاعة وسلعة ودابّة سهلة الانقياد يتعاقبها أبناء أميّة وصبيانهم، فانزعج المسلمون من كلّ التصرفات والممارسات التي شهدتها فترة الحكم الأمويّ، فنمت بذور المعارضة والنقمة على هذه الدولة المنحرفة الضالّة، لكنّها كانت تفتقر إلى قيادة دينية وسياسية تنظّم جموع الثائرين وتلملم صفوفهم، فانبرى لها العلويون ومن آمن بهم وسار بطريقهم في بدء انحرافهم.

١- **الإمام علي صوت العدالة الإنسانية . علي والقومية العربية**، المجلّد الخامس: ١٦٠.

ويبدو أنّ العلويين وحدهم من بني هاشم ـ بدون مشاركة الآخرين ـ ساروا في هذا الدرب الكفاحيّ. وحين حمل الحسين بن عليّ عليه السلام لواء النهضة الرساليّة ضدّ الدولة الأموية فأدّى إلى تأزّم الأوضاع وتدهورها إلى حدّ تصادم مسلّح، آثر عبد الله ابن عبّاس اعتزال الحياة السياسية، فاستقرّ في المدينة وانصرف إلى العلم ورواية الحديث [1]. ومن ذلك الحين يُسجَّل انسحاب بني العبّاس من ميدان المواجهة مع الأمويين وصمود العلويين في مجالدة بني أمية، ولكنّ العبّاسيين قطفوا ثمار هذه المواجهة في اللحظات الأخيرة للدولة المتساقطة.

وكان موقف العلويين يتناغم مع قوى أخرى بشكل عفويّ غير محسوب، للوقوف بوجه مبدأ الوراثة في الحكم. . فلم يتكلّف رجال البيت العبّاسيّ مؤونة المعارضة والمواجهة الصريحة للدولة الأموية، والتي كانت دولة غير دينيّة بل دولة غاصبة للحكم والسلطة، في حين ظلّوا يراقبون الأوضاع ويتحيّنون الفرص، بينما راح العلويّون يعدّون العدّة لمنازلتها وهي في أوّل أمرها وعنفوان فتوّتها وقوّتها، وتشاطر العلويون مع تيّارات ورجال القوى المناهضة الأخرى في نشر الوعي المعارض وتأجيج نار الثورة، فتحمّلت الجبهة العلوية الكثير من التضحيات

ولكن من شعاع هذا الأساس الثوريّ الذي شيّده العلويون والمسلمون الآخرون الذين تشاركوا في الكفاح والجهاد، ممّن لقي العنت والظلم، كان العبّاسيون ينطلقون بدعاتهم في تحريك الجماهير الناقمة في أرجاء الدولة الإسلامية الكبيرة، ومن غير إشهار السلاح في أوّل الأمر، مبررين تحرّكهم بأنّه كان من أجل تصحيح الأوضاع، و إعادة السلطة إلى ثوبها الإسلاميّ الأوّل، ووضعها بيد آل البيت عليهم السلام بصفتهم الأعلم والأجدر في إدارة أمور المسلمين، وبذلك كسبوا

١- ينظر: سميرة مختار الليثي، **جهاد الشيعة في العصر العبّاسي الأوّل**: ٦٦.

الأنصار والتفّ حولهم الناقمون من العرب والموالي الذين ضاقوا ذرعاً بالأمويين الذين لبسوا ثوب الخلافة الإسلامية ظلماً وعدواناً، وأساؤوا وأسرفوا في الظلم والعسف. . وقد نجح العبّاسيون في الوصول إلى السلطة بواسطة الشعارات التي رفعوها في أوّل الطريق بتبرير الثورة وحقّ الميراث، وبعد عمل دَعَوي منظّم. فقد قالوا: عندما توفّي النبيّ صلى الله عليه وآله كان أحد أعمامه حيّاً، وهو العبّاس، وبما أنّه لم يكن للنبيّ صلى الله عليه وآله ولد ذكر يرثه، ولمّا كان العمّ بمنزلة الأب، فالعبّاس كان الوريث الشرعي الوحيد للنبي صلى الله عليه وآله[1]. وبذلك أخذت نظرية الوراثة في الحكم منحىً جديداً ليركب بنو العبّاس دابّة الحكم من باب جديد هو باب العمّ الذي لم يكن يُعرَف حتّى في التاريخ السياسي القديم الذي أشرنا له. . ولكن لم تكن الظروف مساعدة ومشجّعة لينهض الأئمّة المعصومون عليهم السلام بحركة تعيد الأمور والحقوق لأصحابها، فآثروا التقيّة والانسحاب من المواجهة العسكرية المسلّحة لحين توفّر الظروف والمناخات المساعدة.

وكان قَدَر الأئمّة المعصومين عليهم السلام أن يعيشوا عصرين لَبِسا ثوب الإسلام في الظاهر، وفي الحقيقة كانا بعيدين كلَّ البعد عن جوهر الإسلام، وهما: العصر الأمويّ و العصر العبّاسيّ. وعاش المسلمون ومعهم طائفة من الأئمّة المعصومين عليهم السلام في فترة محنٍ عسيرة بدأت حين تقلّبت أوضاع المسلمين ولاحت في أفقهم مرحلة جديدة أو دولة حديثة تبدو أنّها بدأت تزحف من المشرق نحو بغداد -التي صارت عاصمة فيما بعد- لتقتلع العهد الأمويّ والدولة القرشية الأولى، بمعناها القبليّ، والتي كانت متمركزة في دمشق من عهود ما بعد رحيل النبيّ صلى الله عليه وآله، فتستقرّ في مدّة من الدهر و الزمان هناك، وكأنّ الزمن كان في غفلة عنها،

١- ينظر: سهيل زكّار، **أخبار القرامطة في الأحساء -الشام- العراق- اليمن**: ١٧.

فأذاقت المسلمين مرّ العيش، بعد أن أخذوا قسطاً كافياً من الرفاه، ظهر في حلاوة دنياهم وطراوتها.

وكان الأئمّة عليهم السلام كسائر الناس يلاقون ما يلاقيه المسلمون من حيف وعسف وجور، بل كان يصيبهم من مرارة السلطة أضعاف ما كان يتجرّعه المسلمون، فهم ما بين نار السلطة وغدر الزمان وجهل المسلمين بقدرهم وموقعهم، وتكالب والمحن عليهم، غير أنّهم لم يتوانوا في أداء دورهم الرياديّ في تصحيح الأوضاع التي رافقت المتغيّرات والانقلابات السياسية والاجتماعية آنذاك. و في مجمل هذه الأوضاع والظروف والمتغيّرات الجديدة العاصفة التي مرّت بالمسلمين عاصر الأئمّة المعصومون عليهم السلام عدداً من حكّام بني العبّاس، وأوّل إمام معصوم عاصر خلفاء الجور من بني العبّاس وعاش زمانهم وشهد دولتهم هو الإمام السادس جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام الذي أدرك عصر السفّاح والمنصور الدوانيقيّ، ولقي منهما ما قُدّر له من الأذى والعنت حتّى لقي ربّه صابراً محتسباً شهيداً، وكان نصيب وحظّ الإمام الصادق عليه السلام أن يلاقي جبّار بني العبّاس المنصور الدوانيقيّ.

وكان هذا الحاكم شخصاً صعب المراس، مستبدّ الرأي، ويتدخّل في كلّ قرار و إن كان خارج اختصاص سلطته، حتّى امتدّت يده إلى كلّ ما يمكن أن يناله أو يشبع نهمته ويرضي غروره، حتّى حاول أو كاد أن يركب موجة الفقه والاجتهاد، وظهر ذلك في محاورة له جرت مع مالك بن أنس بن مالك الأصبحيّ المتوفّى ١٧٩، حين أمره بإلغاء المذاهب والاتّجاهات الفقهية السائدة والناشئة آنذاك، وحصرها بالمذهب المالكيّ الذي كان في دور التأسيس والتشكّل، ومن ثمّ السيطرة على هذا المذهب واحتوائه في وقت لاحق، عندما قال لمالك حينما حجّ البيت الحرام ـ وكما يروي ابن قتيبة ـ رأيت أن أُجلسك في هذا البيت، فتكون من عُمّار بيت الله الحرام، وأحمل الناس على علمك، وأعهد إلى أهل

الأمصار يوفدون إليك وفدهم، ويرسلون إليك رسلهم في أيّام حجّهم، لتحملهم من أمر دينهم على الصواب والحقّ، إن شاء الله، وإنّما العلم علم أهل المدينة، وأنت أعلمهم. فقال مالك: أمير المؤمنين أعلى عيناً، وأرشد رأياً، وأعلم بما يأتي وما يذر، وإن أذن لي أن أقول قلت، فقال أبو جعفر المنصور: نعم، فحقيق أنت أن يُسمَع منك، ويصدر عن رأيك. فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إنّ أهل العراق قد قالوا قولاً تعدّوا فيه طورهم، ورأيت أنّي خاطرت بقولي لأنّهم أهل ناحية، وأمّا أهل مكّة فليس بها أحد، وإنّما العلم علم أهل المدينة، كما قال الأمير، وإنّ لكلّ قوم سلفاً وأئمّة، فإن رأى أمير المؤمنين أعزّ الله نصره إقرارهم على حالهم فليفعل، فقال أبو جعفر: أمّا أهل العراق فلا يقبل أمير المؤمنين منهم صرفاً ولا عدلاً، وإنّما العلم علم أهل المدينة، وقد علمنا أنّك إنّما أردتَ خلاص نفسك ونجاتها، فقال مالك: أجل يا أمير المؤمنين، فأعفِني يَعفُ الله عنك، فقال أبو جعفر: قد أعفاك أمير المؤمنين، وأيم الله، ما أجد بعد أمير المؤمنين أعلم منك ولا أفقه[١].

وجاء في خبر آخر أنّه قال لمالك: اجعل هذا العلم علماً واحداً، فقال له مالك: إنّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تفرّقوا في البلاد، فأفتى كلّ واحد منهم في مِصره بما رأى، فلأهل المدينة قول، ولأهل العراق قول تعدّوا فيه طورهم[٢]، فقال المنصور: أمّا أهل

١- الإمامة والسياسة ٢: ١٩٣.

٢- المراد بتعدّي الطور لأهل العراق هنا: هو الإيغال في القياس والاستحسان، وعدم مراعاة النصوص أحياناً، من باب سدّ الذرائع أو فتحها أو نحو ذلك ممّا أثار قلق أتباع مدرسة الحديث، فالمعروف عن مالك آنذاك أنّه كان من أهل الحديث، وكتابه الموطّأ هو مصدرٌ حديثيّ قبل أن يكون مصدراً فقهيّاً، في الوقت الذي كان أبو حنيفة، أو بالأحرى أتباع أبي حنيفة مثل أبي يوسف القاضي ومحمّد بن الحسن الشيبانيّ وزَفَر وغيرهم، كانوا موغِلين بالقياس فكثرت إفتاءاتهم.

العراق[١] فلا أقبل منهم صرفاً ولا عدلاً، وإنّما العلم علم أهل المدينة، فضع للناس العلم. وفي رواية أنّ مالكاً قال له: إنّ أهل العراق لايرضون علمنا، فقال أبو جعفر المنصور: يُضرب عليه عامّتهم بالسيف ونقطع عليه ظهورهم بالسياط[٢].

وبهذه العقلية والروحية كان المنصور مؤسّس السياسة والإدارة العبّاسية، ينظر إلى فقهاء المسلمين، لذا آثر الإمام جعفر الصادق عليه السلام الانزواء والابتعاد عن سياسة الخليفة العبّاسيّ وإدارته للدولة والبلاد، لكن المنصور كان يتمنّى أن يكون الصادق عليه السلام إلى جانبه ويدخل في زمرة فقهاء السلطان الذين يبررون له سياساته، ويغفرون له خطاياه، ويغضّون الطرف عن جناياته، فكتب له كتاباً جاء فيه: لِمَ لاتغشانا كما يغشانا سائر الناس؟! فأجابه الصادق عليه السلام: ليس لنا ما نخافك من أجله، ولاعندك من أمر الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنّيك، ولا نراها نقمة فنعزّيك بها، فما نصنع عندك؟ فكتب إليه المنصور: تَصحَبُنا لتنصحنا، فأجابه الصادق عليه السلام: من أراد الدنيا لاينصحك، ومن أراد الآخرة لايَصْحبك![٣]

وكان المنصور يعلم أنّ الإمام الصادق عليه السلام رفض المشاركة المباشرة في الثورات، كما رفض استدراج قادة العبّاسيين، ولو كان بعضهم قد عرض عليه ذلك ـ منهم أبو مسلم الخراسانيّ وأبو سلمة الخلّال ـ وذلك لأنّ تقييمه للظرف والرجال كان: ما أنت من رجالي، ولا الزمان زماني. وأثبت جريانُ الأحداث فيما بعد صواب

١- يقال لأتباع المذهب والفقه الحنفي: أهل العراق، أو أهل الكوفة، أو أهل الرأي، وكان أبو جعفر المنصور ناقماً على أبي حنيفة لمناصرته لثورة محمّد النفس الزكيّة وأخيه إبراهيم، وهذا يفسّر لنا ما في كلامه من تشدّد في ضرب أعناق العراقيين إن لم يقبلوا فقه مالك. ينظر: مقدّمة **المؤتلف من المختلف** ١: ٣٦ و ٤٢.

٢- **مقدّمة شرح الزرقانيّ على موطّأ مالك**: ٧، منشورات دار المعرفة ـ بيروت.

٣- **بحار الأنوار** ٤٧: ١٨٤ / ح ٢٩ ـ عن: **كشف الغمّة** ٢ : ٤٤٨.

ذلك التقييم[١]. ومع هذا الحذر والتيقّظ الذي كان عليه الصادق عليه السلام لم يسلم الإمام عليه السلام من شرّه حتّى دبّر له مكيدة في سمّه، على ما جاء في كثيرٍ من الأخبار والروايات.[٢]

ثمّ جاء دور الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي تجرّع غصص الآلام وويلات الأيّام معهم ومع أتباعهم. وهنا وفي مواجهة الحكم العبّاسيّ للإمام عليه السلام تعدّدت الأساليب بتعدّد الحكّام، حيث عاصره: المنصور والمهديّ والهادي والرشيد، فهم من جهة منعوا تلاميذ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام من الاتّصال بالإمام، وهدّدوا تلاميذه عليه السلام بالمطاردة و إيقاعهم تحت طائلة العقوبة، وشجّعوا فقهاء آخرين على الإفتاء ودعوا الناس إليهم، وألزموا المسلمين بالعمل طبقاً لمذهب مالك، بعدما فرضوا (الموطّأ) في دوائر الدولة، وحاولوا في الوقت نفسه ادّعاء أنّهم أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من الأئمّة عليهم السلام، وأنّ الأئمّة هم أبناء عليّ عليه السلام لا أبناء النبيّ صلى الله عليه وآله، وقد حاجج الإمام الكاظم عليه السلام هارون الرشيد في هذه المسألة حينما سأله عن ذلك، فقال له الإمام عليه السلام: لو خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وخطب إليك، أكنتَ تزوّجه ؟قال هارون: نعم، وكنت أفتخر بذلك، فقال الإمام عليه السلام: لكنّي لا أزوّجه، ولا يخطب إليّ لأنّه ولَدَني ![٣]. فما كان من هارون إلّا أن يضع القيود في يدي الإمام الكاظم عليه السلام ويسلبه حرّيته وينقله من سجن إلى سجن، وهذه صورة من صور المواجهة والمعاناة التي كان يكابدها الإمام موسى بن جعفر عليه السلام معهم.

وكان الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام يلحظ معاناة أبيه مع هؤلاء الحكّام

١- محمّد فوزي، **رجال حول أهل البيت** ٢: ٦٤.

٢- ينظر: **التتمّة في تواريخ الأئمّة**: ١٠٤.

٣- ينظر: محمّد فوزي، **رجال حول أهل البيت، الموسوعة التاريخية الميسّرة** ٢: ١٢٢.

الظلمة، فقد بقي الإمام الرضاعليه السلام مع أبيه نحواً من ثلاثين عاماً أو يزيد، شاهد فيها ضروب المحن والبلايا التي أحاطت بأبيه الإمام موسى بن جعفرعليه السلام الذي كان وجوده ـ رغم وقوفه موقف التقية مع الحكومة، بعيداً عن مواطن المجابهة ـ يثير قلق الحكّام ويقضّ مضاجعهم. وموت المهديّ العبّاسي ومن ثمّ الهادي ـ الذي لم تطل أيّامه ـ ارتقى الرشيد سدّة الخلافة، وبدأت بحكومته بوادر المأساة التي حلّت بالبيت العلويّ الذي كان يتزعّمه الإمام موسى بن جعفرعليه السلام، وكان له من حكومة هارون القسط الأوفر، فقد اعتقله وضيّق عليه في ظلمات السجون المرعبة مدّة أحد عشر عاماً[١]، كان ينقله فيها من حبس إلى حبس، والمشرفون على إدارة سجونه يتهرّبون من قتله حتّى أعيته الحيلة في أمره، ولم يجد من يستجيب لطلبه فيه غير السنديّ بن شاهَك بمساعدة وزيره يحيى بن خالد البرمكيّ، فأمره أن

١- هذه المدّة جاءت وفقاً لرواية سبط ابن الجوزيّ الذي قال: قال المدائنيّ: أقام موسىعليه السلام بالمدينة حتّى تُوفّي المهديّ والهادي، وحجّ هارون الرشيد فاجتمع بموسى بن جعفرعليه السلام عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال هارون للنبيصلى الله عليه وآله: السلام عليك يا ابنَ العم. افتخاراً على مَن حوله، فدنا موسىعليه السلام من القبر وقال: السلام عليك يا أبه! فتغيّر وجه هارون، ثمّ قال: والله يا أبا الحسن، هذا هو الفخر والشرف حقّاً، ثمّ حمله معه إلى بغداد فحبسه بها سنة سبع وسبعين ومائة، فأقام في حبسه إلى سنة ثمان وثمانين ومائة في رجب فتوفّي بها. **خواصّ الأمّة**: ٣١٤.

والظاهر أنّ المدّة المشهورة التي أمضاها الإمام موسى بن جعفرعليه السلام في سجون هارون هي أربع سنين، فقد جاء في رواية الشيخ الكلينيّ عن تاريخ الإمام موسى بن جعفرعليه السلام أنّ هارون حمله من المدينة لعشر ليال بقين من شوّال سنة تسع وسبعين ومائة.. وقُبضعليه السلام لستّ خلون من رجب من سنة ثلاث وثمانين ومائة. **الكافي** ١: ٤٧٦. و ربّما كان الرقم المذكور أعلاه جاء باحتساب السنين التي كانت بين سجنه الأوّل في زمن المهديّ العبّاسيّ والثاني في زمن الرشيد، فالمشهور أنّ اعتقال الإمام موسى بن جعفرعليه السلام كان لمدّتين زمنيتين، الأولى زمن المهدي ولم تطل، والثانية في زمن الرشيد وهي المدّة الأطول حتّى اختاره الله إلى جوار رحمته.

يدسّ إليه السمّ في الطعام ليتخلّص منه، وتمّ له ما أراد[١].

وأمّا تاريخ معاناة الإمام عليّ بن موسى الرضاعليه السلام مع السلطة العبّاسيّة فيمكن إرجاعه إلى سنة خمس وسبعين ومائة، حين ولّى هارون الرشيد محمّداً الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب، وعهد إليه بالخلافة من بعده، وضمّ إلى المأمون من همدان إلى آخر المشرق، ثمّ بايع لابنه القاسم بولاية العهد بعد المأمون، ولقّبه المؤتمَن وضمّ إليه الجزيرة والثغور والعواصم، وجعل أمر القاسم المؤتمن في خلعه و إقراره إلى عبد الله المأمون إذا أفضت إليه الخلافة بعد الأمين[٢].

وكلّ هذا التقسيم والتوزيع الجغرافيّ والسياسيّ للسلطة السياسية يعني تمزيق الأمّة وتضييعها، وتفتيت الدولة الإسلامية القويّة وتقطيعها وفقاً لأهواء أولاده الذين تُحرّكهم فرديّتهم واستئثار كلّ واحد منهم بالسلطة وتوجيهها بما يراه ملائماً له ولأولاده ولأولاد أولاده الذين يؤمّل بهم الخلود ـ وفقاً لاعتقاده ـ فيجعلهم فوق الأمّة والدولة والعهود والمواثيق.

وقد سار العبّاسيون في نظام تولية العهد لأكثر من واحد، على غرار ما سار عليه الأمويون، ولعلّ السبب الرئيس الذي حدا بالعبّاسيين إلى تبنّي هذا النظام، هوإبقاء السلطة في البيت العبّاسيّ، فقد عهد أبو العبّاس السفّاح بالحكومة إلى أخيه أبي جعفر المنصور على أن يكون من بعده ابن أخيه عيسى بن موسى، إلّا أنّ المنصور لم يلتزم بهذا العهد فقد أعدّ ابنه محمّداً المهديّ ليكون خليفتَه بعده، لذلك مارس ضغوطاً عديدة على عيسى للتنازل عن ولاية العهد لصالح ابنه، ونجح بالتالي في ذلك، على أن يكون عيسى وليّاً للعهد بعد المهديّ. إنّ حبّ

١- ينظر: هاشم معروف الحسنيّ، **سيرة الأئمّة الاثني عشر** ٢: ٣٥٤.

٢- ينظر: **تاريخ الطبري** ٨: ٢٨٦ و **الكامل في التاريخ** ٥: ٢٨٨ و٣٢٥.

الوالد لأولاده والرغبة في إبقاء السلطة في الأعقاب لم يكن مقتصراً على المنصور، بل تعدّى إلى ابنه المهديّ حيث عيّن ولده موسى الهادي بعد أن أجبر-رغبة أو رهبة-عيسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد عام ١٦٠ للهجرة، وفي عام ١٦٦عيّن ابنه هارون الرشيد لولاية العهد على أن يكون بعد أخيه موسى الهادي، وقد عانى هارون الرشيد من سوء تصرّفات أخيه موسى الهادي بسبب ولاية العهد حيث لاقى الكثير من الإهانات، لذلك فإنّ قرار الرشيد بتولية العهد لأكثر من واحد، مهما كان التبرير، يُعَدّ خطأً فادحاً، وكان عليه أن يستفيد من تجربته هو مع أخيه[١].

لكنّ الرشيد أصرّ على هذا الخطأ الذي جرّ بلاد المسلمين إلى حرب أهلية بين الأخوين المتصارعين على حطام الدنيا ودابّة السلطة، ولم تنفع العهود والمواثيق التي كانت بينهما، يقول القضاعيّ: كان الرشيد جعل ابنيه الأمين والمأمون وليَّي عهده، وحجّ بهما سنة ستّ وثمانين ومائة، وكتب بينهما شرطاً وتحالفاً، وعلّق الكتاب في الكعبة. ويقال: إنّ الكتاب لمّا عُلّق وقع من يَدَي إبراهيم الحجبيّ ، وكان إبراهيم تفاءل بوقوعه بسرعة انتقاضه.

ثمّ أغرى الفضل بن الربيع على ما ذكر بينهما، فنصب الأمين ابنه موسى لولاية العهد بعده وأخذ له البيعة، ولقّبه الناطق بالحقّ، وجمع العهود التي كان الرشيد كتبها بينه وبين أخيه فخرّقها، وكان ذلك في سنة أربع وتسعين ومائة، وجعله في حجر عليّ بن عيسى بن ماهان، ووجّه عليّ بن عيسى إلى خراسان[٢] على أمل أن يضع القيود بيد المأمون ويجعله أسيراً بيد أخيه فينزل على إرادة الأمين ومن معه

١- خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلامي، العصر العبّاسي**: ١٢٢.

٢- **الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء**: ٢٧٦.

في السلطة العبّاسية التي كانت في بغداد، فكانت هذه الرغبة سبباً لاشتعال حرب دامية بائسة أدّت في نهاية الأمر إلى غلبة جيش عبد الله المأمون وخراب بغداد وتحويلها إلى مدينة حزينة باكية تلملم جراحها وتخلع ثوبها الزاهي الجميل الذي مزّقته حرب الأخوين، وجعلت تراب بغداد رفاتاً للمسلمين المخدوعين بدنيا الحاكمين اللذَين وعدا جنودهما برفاه وجنّة خاوية على عروشها، فلم يجد المأمون بعد قتل أخيه من يؤيّده ويناصره ويُقبل به «كخليفة قاتل» لا يرحم، لذلك اضطربت عليه البلاد، ولم يكد يصدّق أنّ الأمر ينتهي وفق إرادته.

والذي حدث بعد أن تغلّب المأمون على أخيه الأمين، وتسلّم السلطة حصول مواجهة مع ثورات متتالية قادها العلويون، فالسياسة العبّاسيّة وظروف المطاردة والاضطهاد كانت تدفعهم إلى التحرّك المسلّح و إعلان الثورة، والدفاع عن الحقّ بقوّة. وكان من أبرز تلك الثورات في عهد الإمام الرضا عليه السلام هي ثورة ابن طباطبا عام ١٩٩، قادها محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام. وقد ابتدأ ثورته في العاشر من جمادى الآخرة من هذه السنة، وانتهت في السادس عشر من المحرّم سنة ٢٠٠ هـ[١]، وبانتهاء هذه الحركة

١- قال ابن الأثير حول أحداث سنة ١٩٩: وفيها ظهر أبو عبد الله محمّد بن إبراهيم بن إسماعيل ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لعشر خلون من جمادى الآخرة بالكوفة يدعو إلى الرضا من آل محمّد صلى الله عليه وآله والعمل بالكتاب والسنّة، وهو الذي يُعرَف بابن طباطبا، وكان القيّم بأمره في الحرب أبا السرايا السريّ بن منصور. وكان سبب خروجه أنّ المأمون لمّا صرف طاهراً عمّا كان إليه من الأعمال التي افتتحها، ووجّه الحسن بن سهل إليها تحدّث الناس بالعراق أنّ الفضل بن سهل قد غلب على المأمون، وأنّه أنزله قصراً حجبه فيه عن أهل بيته وقوّاده، وأنّه يستبدّ بالأمر دونه، فغضب لذلك بنو هاشم ووجوه الناس، واجترؤوا

بدأت حركة علوية أخرى كامتداد لها أو تأثّراً بها، وهي حركة إبراهيم بن موسى بن جعفرعليه السلام، وقد انفجرت هذه الثورة إثر قيام ثورة ابن طباطبا، فقد شجّعت هذه الثورة إبراهيم على التحرّك نحو اليمن والانطلاق منها، فاستولى عليها بعد قتال يسير، حتّى أذعنت للسلطة العلوية وخضعت لقيادته[1].

ومن الثورات المهمّة التي وقعت في عهد الإمام الرضاعليه السلام ثورة محمّد بن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بالمدينة المنوّرة، فقد قاد الثورة وبايعه أهل المدينة بإمرة المؤمنين، كما تعاطف معه العلويون وساندوا حركته في مكّة[2]، وقد استمرّ في ثورته

على الحسن بن سهل، وهاجت الفتن في الأمصار، فكان أوّل من ظهر ابن طباطبا بالكوفة. **الكامل في التاريخ ٥: ٤١٦.**

١- يقول ابن الأثير حول أحداث سنة ٢٠٠: في هذه السنة ظهر إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمّد عليه السلام، وكان بمكّة، فلمّا بلغه خبر أبي السرايا وما كان منه سار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمّد بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس عاملاً للمأمون، فلمّا بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار منها نحو مكّة فأتى المشاش فعسكر بها، واجتمع بها إليه جماعة من أهل مكّة هربوا من العلويين، واستولى إبراهيم على اليمن، وكان يسمّى الجزّار لكثرة من قتل باليمن من الناس وسبى الأموال. **الكامل في التاريخ ٥: ٤٢٢.**

٢- قال المسعوديّ: وظهر في أيّام المأمون بمكّة ونواحي الحجاز محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّعليه السلام، وذلك في سنة مائتين، ودعا إلى نفسه، وإليه دعت الشميطية من فِرق الشيعة وقالت بإمامته. **مروج الذهب ٤: ٣٢٢.** و يقول الأصفهاني عن أحداث سنة ٢٠٠: وفيها غلب محمّد بن جعفر على مكّة، وأخذ مال الكعبة، ووقف الناس على عرفة بغير إمام. **البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان: ١٦٤.** وجاء في خبر ابن كثير أنّ محمّد بن جعفر رجع عمّا كان يزعمه، وكان قد ادّعى الخلافة بمكّة وقال: كنت أظنّ أنّ المأمون قد مات وقد تحققت حياته، وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ممّا كنت ادّعيت من ذلك، وقد رجعت إلى الطاعة وأنا رجل من المسلمين. **البداية والنهاية ١٠: ٢٦٨.**

حتّى حاصره العبّاسيون ونفد ما كان معه من طعام وماء وتفرّق أصحابه وانكسر جيشه. وهكذا يحدّثنا التاريخ أنّ العلويين قد ألهبوا أرجاء الدولة العبّاسية بالثورات والانتفاضات، ورفعوا رايات الجهاد ومعهم الطليعة من العلماء والمحدّثين والطلائع السياسية.

ولم يتحرّك الإمام الرضاعليه السلام ولم يشارك بواحدة منها، مع ما له من مقام سياسيّ ومكانة اجتماعية مرموقة، ورغم أنّه سيّد أهل البيت عليهم السلام وعالمهم وعميدهم، فقد كان يعلم ما ستنتهي إليه هذه الحركات، كما كان موقف أبويه الصادق والكاظم عليهما السلام فقد كانوا على يقين من فشل الثورات العلوية، وما من ثورة إلّا ونبّه الأئمّة عليهم السلام أصحابها وقادتها، وأوضحوا لهم الفشل فيها[1].

وكان المأمون على علم بمواقف الرضاعليه السلام تجاه هذه الثورات، ويدرك سلطة الإمام الرضاعليه السلام الروحية، وهيمنته على قلوب المسلمين واحترامهم لشخصيته، فاستغاث به ليمكنه من عبور هذه المشاكل والأزمات التي كاتب تعصف به وبدولته المتزلزلة، وكان المأمون يعتقد في طويته أنّ وليّ الله وحجّته على عباده آنذاك هو عليّ بن موسى الرضاعليه السلام فتظاهر بالتمسّك به ليكون له غطاءً وستراً بعد قتل أخيه الأمين الذي لم يرحمه، والتي أظهرها مبتهجاً بهذه القتلة، فاشمأزّت لها نفوس العباد، حتّى عمّ التبلبل والاضطراب في داخل البيت العبّاسيّ الذي ينتمي إليه ويلوذ به.

فبدأت قصّة ولاية العهد[2] من هذا التاريخ على أمل أن تتناسى الرعيّة هذا

١- ينظر: **موجز سيرة الرسول وأهل البيت** عليهم السلام، نشر مؤسّسة البلاغ: ٣٦٤.

٢- كان المأمون يتعقّب عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فكتب إليه يعطيه الأمان و يضمن له أن يولّيه العهد بعده، كما فعل بعليّ بن موسى

الحادث وتتشاغل في مشاكل جديدة ربّما تؤدّي إلى استقرار الأوضاع، أودفع الرعيّة باتجاه مساندته في تقوية سلطان دولته الجديدة، يقول الكاتب محمّد فوزيّ: مع مجيء المأمون إلى الحكم، بعدما حارب أخاه الأمين وانتصر عليه وقتله، أصرّعلى الإمام الرضا عليه السلام أن يكون وليّ عهده، تحت طائلة القتل إن لم يقبل، وكان يهدف في ذلك إلى: ١ـ نزع سلاح المعارضة من يد الإمام الرضا عليه السلام ومن يد العلويين باعتبار أنّ سيّدهم هو وليّ العهد، وأن يكون الإمام الرضا عليه السلام دائماً إلى جانبه تحت المراقبة. ٢ـ إسقاط الصورة المثالية الموجودة لدى الناس عن أهل البيت، و إقناع الناس أنّ أهل البيت إنّما يزهدون في الدنيا ـ مثلاً ـ لأنّهم لم يحصلوا عليها، أمّا إذا حصلوا عليها فإنّهم يقبضون عليها، وأيضاً إشعار الناس أنّ الأوضاع بقيت فاسدة مع أنّ الإمام الرضا عليه السلام ـ وهو كبير البيت العلويّ ـ في سدّة الحكم. ٣ ـ الاستقواء بالإمام الرضا عليه السلام داخلياً، ذلك أنّ المأمون كان يعيش في

الرضا عليه السلام، وبعث الكتاب إليه، وممّا جاء في الكتاب: ما ظننت أنّ أحداً من آل أبي طالب يخافني بعدما عَمِلتُه بالرضا، فكتب عبد الله بن موسى: وصل كتابك وفهمته، تختلني فيه نفسي ختل القابض، وتحتال علَيّ حيلة المغتال القاصد لسفك دمي، و عجبت من بَذلك العهد وولايته لي بعدك، كأنّك تظنّ أنّه لم يبلغني ما فعلته بالرضا ! ففي أي شيء ظننتَ أنّي أرغب من ذلك؟ أفي الملك الذي قد غرّتك حلاوته؟ فوالله لأن أُقذف و أنا حيّ في نارٍ تتأجّج أحبّ إليّ من أن ألي أمراً بين المسلمين أو أشرب شربة من غير حلّها مع عطش شديد قاتل، أم في العنب المسموم الذي قتلت به الرضا؟ أم ظننت أنّ الاستتار قد أملّني و ضاق به صدري؟ فوالله إنّي لذلك، ولقد مللتُ الحياة و أبغضت الدنيا، و لو وسعني في ديني أن أضع يدي في يدك حتّى تبلغ من قبلي مرادك لفعلت ذلك، ولكنّ الله قد حظر عليّ المخاطرة بدمي، وليتك قدرتَ علَيّ من غير أن أبذل نفسي لك فتقتلني، ولقيتَ الله عزّوجلّ بدمي، ولقيتُه قتيلاً مظلوماً، فاسترحت من هذه الدنيا.. **مقاتل الطالبيين** ٦٣٠، ط دار المعرفة، بيروت، **أعلام الهداية، الإمام محمّد بن عليّ الجواد** عليه السلام: ٧٩.

دائرة ضعف في بداية الأمر، ذلك أنّه كان ابن أمة فارسيّة، وكان صغير السنّ، وقد قتل أخاه لتوّه.

فكان يحتاج إلى ظهر يسنده، ولم يكن هناك خير من الإمام الرضا عليه السلام. فأصرّ عليه أن يكون وليّاً للعهد و إلّا فإنّه سيقتله! فقبل الإمام الرضا عليه السلام ولاية العهد مضطرّاً، ولكنّه اشترط لذلك أن لايعيّن، وأن لايعزل، وأن لايشارك. وكلّ ذلك من أجل أن ينزع الصفة الشرعية عن أعمال الحكم العبّاسيّ، وسعى إلى الاستفادة من ذلك الموقع في خدمة حركة الإمامة، فقد صار ديوان المأمون مجلساً لظهور فضل أبي الحسن الرضا عليه السلام وغلبته على أرباب الأديان والمذاهب، فكان يُؤثر عنه العلم ويُنقل من دون تحرّج أو تخوّف، كما أنّه ما فتئ يظهر فضائل أهل البيت عليهم السلام وتقدّمهم على من سواهم من الخلق في تلك المجالس والمناظرات. وبالرغم من أنّ المأمون كان يسعى جاهداً في إدخاله في التعيين والعزل إلّا أنّ الإمام الرضا عليه السلام كان يرفض ذلك، لأنّه يعلم أنّ المقصود هو إسباغ الشرعيّة على عمل الحكم، بل قام الإمام الرضا عليه السلام بأعمال توحي بأنّ حكم المأمون لا يسير على طريقة الرسول صلى الله عليه وآله، كما حدث في أوّل يوم من البيعة، وكما حدث في صلاة العيد[1].

وقد تناولت الأقلام هذه القصّة بروايات بعضها يمكن تصديقها وبعضها غير قابلة للتصديق، ومن هذه الروايات رواية ذكرها البيهقيّ، فقال: بعد أن قتل المأمون محمّداً ابن زبيدة ووصلت الخلافة إلى المأمون فقد ظلّ مقيماً بمَرْو أكثر من سنتين، وتلك قصّة طويلة، فأراد الفضل بن سهل الوزير أن يحوّل الخلافة عن العبّاسيين إلى العلويين، فقال للمأمون: إنّك قد نذرت بمشهد منّي أن تختار أحد العلويين وليّاً للعهد إن كفاك الله تعالى أمر أخيك وصرت خليفة، وهي و إن كانت

١- رجال حول أهل البيت ٢: ١٧٢.

لن تستقرّلهم، فإنّك إن وفيت بنذرك تبرئ ذمّتك، فقال المأمون: حسن جدّاً، فمن الذي أختاره وليّاً للعهد ؟ فقال الفضل: ذاك عليّ بن موسى الرضا إمام العصر الذي يقيم الآن بمدينة الرسول، فقال المأمون: فينبغي أن يوفد شخص إلى طاهر سرّاً، وأن يكتب إليه: إنّنا مزمعون كذا وكذا، ليرسل هو شخصاً يأتي بعليّ من المدينة، ثمّ يبايعه خفية، ويوفده مكرّماً إلى مرو حتّى يعلن هنا أمر البيعة وولاية العهد[١].

ومن هنا كانت بليّة الإمام عليّ بن موسى الرضاعليه السلام ومصيبته معهم ولتمتدّ إلى وصيّه الإمام التاسع محمّد الجواد. وكان أوّل شرّ عبّاسيّ لقيه الرضا عليه السلام من هذه البيعة حين جمع المأمون بني هاشم فقال: إنّي أريد أن أستعمل الرضاعليه السلام على هذا الأمر من بعدي. فحسده بنو هاشم وقالوا: تولّي رجلاً جاهلاً ليس له بصر بتدبير الخلافة !فابعث إليه يأتِنا فنرى من جهله ما تستدلّ به عليه. فبعث إليه فأتاه، فقال له بنوهاشم: يا أبا الحسن، اصعد المنبر وانصب لنا علماً نعبد الله عليه. فصعد المنبر فقعد مليّاً لايتكلّم مطرقاً، ثمّ انتفض انتفاضة واستوى قائماً، وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على نبيّه وأهل بيته، ثمّ قال: أوّلُ عبادة الله معرفتُه، وأصل معرفةِ الله توحيدُه. ونظام توحيد الله نفيُ الصفات عنه، لشهادة العقول أنَّ كلّ صفة و موصوف مخلوق، وشهادةِ كلّ مخلوق أنَّ له خالقاً ليس بصفة و لا موصوف، وشهادةِ كلّ صفة و موصوف بالاقتران، وشهادةِ الاقترانِ بالحَدَث، وشهادة الحدث بالامتناع مِن الأزل الممتنع من الحدث، فليس اللهَ عَرَف مَن عرف بالتشبيه ذاتَه ولا إيّاه وحّد مَن اكتَنهَه، ولاحقيقتَه أصاب مَن مَثّله و لا به صدّق من نَهّاه، ولا صمَدَ صمَدَه مَن أشار إليه، ولا إيّاه عنى مَن شبّهه، ولا له تذلّل مَن بعّضه، ولا إيّاه أراد من تَوهَّمَه، كلُّ معروف بنفسه مصنوع، وكلّ قائمٍ سِواه معلول. بصنع الله يُستدلّ عليه،

١- تاريخ البيهقي: ١٤٨.

وبالعقول يُعتقَد معرفته، وبالفطرة تَثبت حجّته. خَلقُ الله الخَلقَ حجاب بينه وبينهم، ومُبيانتُه إيّاهم مفارقتُه إنّيّتَهم، وابتداؤه إيّاهم دليلُهم على أن لا ابتداء له، لعَجزِ كلّ مبتدأ عن ابتداء غيره... إلى آخر الخطبة[١].

ثمّ جرت له عليه السلام من بعد ذلك ويلات ومصائب صبر لها الإمام الرضا عليه السلام، حتّى انتهى إلى جنّات الخلود ودار الرحمة والرضوان، فاغتالته اليد الآثمة بكؤوس مترعة بالسمّ الذي دسّوه إليه ليغيب عن عالمهم ويرحل، لكنّ المنصوص والمقدّر لهذه الأمّة أن ينهض بعده خليفة الله على عباده الإمام القانع التقيّ محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام الذي عاش طرفاً من الزمن العبّاسيّ الذي امتلأ بالهموم والآلام والمصائب. ولكنّ المنظور هنا في هذه الحقبة الزمنيّة أنّ مدّة معايشة الجواد عليه السلام لحكّام بني العبّاس قصيرة ومحدودة، لذا لم تكن الفترة الزمنية التي عاشها الجواد عليه السلام تتّسع لأكثر من حاكمين من بني العبّاس. وهما المأمون وأخوه المعتصم، وكانت مدّة ملاقاة الإمام الجواد عليه السلام للمأمون أكثر من أخيه المعتصم نسبياً.

وقد عاصر الإمام الجواد عليه السلام أحداث البيعة بولاية العهد لأبيه الرضا عليه السلام وما صاحبها وتلاها من حوادث ومحن حتّى تجلّت آخر محن أبيه عليه السلام في اغتيال المأمون للإمام والحجّة الذي قدّر له أن يُستشهد ويقوم قائم الحقّ بعده لما شاء الله، ومن هنا أُعلن عهد جديد لإمامة الجواد عليه السلام. وقد بقي الإمام محمّد الجواد عليه السلام بعد حادث شهادة أبيه عليه السلام في منعة من كيد المأمون الذي قتل الإمام الرضا عليه السلام، لكنّه لم ينجُ من محاولات اغتيالٍ لشخصيته ومكانته المرموقة والسامية في القلوب، وقد تحدّى كلّ تلك المحاولات إعلاء لمنهج أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم

١- **التوحيد** للصدوق: ٣٤ –٣٦ / ح٢، **بحار الأنوار**٤: ٢٢٧.

في عقيدة الإمامة والزعامة وما يترتّب عليها من الآثار السياسية والاجتماعية.

وينتهي عهد المأمون العبّاسيّ في سنة ٢١٨ هـ، ويتربّع أخوه المعتصم على كرسيّ الخلافة حتّى سنة٢٢٧ هـ[١]، ومن هنا تسجّل مرحلة سياسية جديدة بشخصية هذا الحاكم العبّاسيّ الذي يجمل المؤرّخون سياساته وممارساته وعلاقاته بوصفه بالغلظة والخشونة واللهو والجدّ معاً فيما يريد. فقد كان المعتصم فظّاً غليظاً مع أعلام عصره ورموزه، وحتّى مع مَن خدمه وقدّم له قرابين الطاعة، فغدر بالأفشين[٢] قائد جيوشه شرّ غدرة، ولم تنفعه بلاءاته في حروبه مع

١- روي عن المعتصم بأنّه كان قوي الجسم خاوي العقل لا حظّ له من العلم والثقافة، وبلغ من قوّته أنّه كان يحمل ألف رطل ويمشي بها خطوات.

٢- الأفشين: هو حيدر- وضبط في موسوعة التاريخ الإسلامي: خيذر، بالخاء والذال - بن كاوس، وهو تركي الأصل من أُشروسنة –بالضمّ ثمّ السكون، بلدة كبيرة من بلاد ما وراء النهر- قيل: إنّ المعتصم هو الذي لقّبه بهذا اللقب، لأنّه أشروسني، والأفشين اسم الملك بأشروسنة، كما يقال لملك الروم قيصر. و كان بطلاً شجاعاً مطاعاً، ليس في الأمراء أكبر منه، كان في حاشية المعتصم في حياة المأمون، وأصله من أبناء ملوك أشروسنة الذين يلقّب الواحد منهم بالأفشين، ولمّا رأى شجاعته وشهامته استعان به فيما ولي من الأعمال، وكان المعتصم والياً على مصر والشام فأرسله نيابة عنه لإزالة الاضطراب في برقة ومصر فنجح فيهما. ولمّا استُخلف المعتصم كان الأفشين في مقدّمة قوّاده، ولكن كانت هناك شكوك كثيرة أثيرت حوله فعزله المعتصم عن قيادة حرس قصر الخلافة، وعندما أحسّ الأفشين بتأكيد شكوك المعتصم حوله حاول الهرب إلى أرمينية والجزر وبلاد الترك، ومن ثمّ إلى أشروسنة، لكنّه صرف النظر عن هذه الفكرة لصعوبة تنفيذها، ثمّ خطط لمؤامرة يغتال فيها المعتصم وقوّاده عن طريق دعوته لوليمة مع القوّاد الآخرين ووضع السمّ في الطعام، إلّا أنّ أحد المشتركين في المؤامرة أخبر المعتصم بتفاصيلها، عندها أمر المعتصم باعتقال الأفشين، ثمّ اعتقل ابنه بعد ذلك بقليل.. وعقد المعتصم محكمة من كبار رجال الدولة لمحاكمة الأفشين، وعندها وجّهت

الخرّميّة[1] الذين هدّدوا الدولة وحكومة المعتصم، فقد ألحق بهم شرّ هزيمة في سنة ٢٢٠، ولعلّ أعظم إنجاز حربيّ قدّمه للدولة للعبّاسية هو سنة ٢٢٣ حين التقى مع الروم فألحق بهم هزيمة نكراء، ولم يكن هذا البلاء والجهد يعني للمعتصم شيئاً حين غضب عليه في سنة ٢٢٦ وسجنه وضيّق عليه ومنع عنه الطعام حتّى مات، ثمّ صلبه إلى جانب بابك[2].

وقد قتل المعتصم ابن أخيه العبّاس بن المأمون ـ الذي أجلسه في مقامه ـ شرّ قتلة، وفاء لأبيه الذي قدّمه على ولده العبّاس الذي كان ينبغي أن يكون حاكم المسلمين طبقاً لأعراف الوراثة العبّاسية، لكنّه بايع المعتصم في حينه، ويبدو وكأنّه قد ندم لهذه المبايعة بعد تغيّر الظروف. ويروى أنّ العبّاس كان مع عمّه المعتصم في غزوة عمورية، وكان عجيف بن عنبسة قد ندّمه إذ لم يأخذ الخلافة بعد أبيه المأمون بطرسوس حين مات بها، ولامه على مبايعته عمّه المعتصم، ولم

المحكمة له تهماً عديدة، منها أنّه كان يسعى في القضاء على الإسلام والدولة العبّاسية، فأوجبوا عليه حكم القتل. ويروى أنّ الأفشين كان أقلف، فقيل له قبل أن يصلب: لمَ لاتطهّرت؟ فقال: كنت أخاف أن أقطع شيئاً من لحمي، فقيل له: كيف تفعل في الحروب؟ فقال: ذاك ضرورة وهذا اختيار. وبقي أيّاماً وأُحرق. ينظر: الشيخ محمّد الخضريّ، **الدولة العبّاسية**: ٢٠٥، **رسوم دار الخلافة** لهلال الصابئ: ١٣١، خالد عزّام، **موسوعة التاريخ الإسلاميّ. العصر العبّاسيّ**: ١٤٨، **معجم البلدان** ١: ١٩٧، **البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان** للأصفهانيّ: ١٧٨.

١- الخرّمية أو البابكية، هم طائفة من أتباع بابك خرّم، دين رجل خرج في زمان المأمون ببلاد أذربيجان، واشتدّت شوكتهم في أيّام المعتصم، وكسر جيش المسلمين عدّة نوب إلى أن كفى الله المسلمين شرّه وظفر به أفشين صاحب جيش المعتصم وحمله إلى سامراء وأمر المعتصم بصلبه حيّاً. **أنساب السمعانيّ** ١: ٢٤٣.

٢- ينظر: **العبر** ١: ٣٠٢ و٣٠٤، **شذرات الذهب** ٢: ٥٨.

يزل به حتّى أجابه إلى الفتك بعمّه وأخذ البيعة من الأمراء له، وجهّز رجلاً يقال له: الحارث السمرقنديّ، وكان نديماً للعبّاس، فأخذ البيعة له من جماعة من الأمراء في الباطن، واستوثق منهم وتقدّم إليهم أنّه يلي الفتك بعمّه، فلمّا كانوا بدرب الروم وهم قاصدون إلى أنقرة ومنها إلى عمورية، أشار عجيف على العبّاس أن يقتل عمّه في هذا المضيق ويأخذ له البيعة ويرجع إلى بغداد، فقال العبّاس: إنّي أكره أن أعطّل على الناس هذه الغزوة، فلمّا فتحوا عمورية واشتغل الناس بالمغانم أشار عليه أن يقتله، فوعده مضيق الدرب إذا رجعوا.

فلمّا رجعوا فطن المعتصم بالخبر فأمر بالاحتفاظ وقوّة الحرس وأخذ بالحزم واجتهد بالعزم، واستدعى الحارث السمرقنديّ فاستقرّه فأقرّ له بجملة الأمر وأخذِ البيعة للعبّاس بن المأمون من جماعة من الأمراء أسماهم له، فاستكثرهم المعتصم واستدعى ابن أخيه العبّاس فقيّده وغضب عليه وأهانه، ثمّ أظهر له أنّه قد رضي عنه وعفا عنه، فأرسله من القيد وأطلق سراحه، فلمّا كان من الليل استدعاه إلى حضرته في مجلس شرابه، واستخلى به حتّى سقاه واستحكاه عن الذي كان قد دبّره من الأمر، فشرح له القضيّة وذكر له القصّة، فإذا الأمر كما ذكر الحارث السمرقندي. فلمّا أصبح استدعى بالحارث فأخلاه وسأله عن القضيّة ثانياً فذكرها له كما ذكرها أوّل مرّة، فقال له: ويحك !إنّي كنت حريصاً على ذلك فلم أجد إلى ذلك سبيلاً بصدقك إيّاي في هذه القصّة. ثمّ أمر المعتصم حينئذٍ بابن أخيه العبّاس فُقيّد وسُلّم إلى الأفشين، وأمر بعجيف وبقيّة الأمراء الذين ذكرهم فاحتفظ عليهم، ثمّ أخذهم بأنواع النقمات التي اقترحها لهم، فقتل كلّ واحد منهم بنوع لم يقتل به الآخر، ومات العبّاس بن المأمون بمنبج فدفن هناك. وكان سبب موته أنّه أجاعه جوعاً شديداً، ثمّ جيء بأكل كثير، فأكل منه وطلب الماء فمُنع حتّى مات، وأمر المعتصم بلعنه على المنبر وسمّاه اللعين، وقتل جماعة من ولد المأمون

أيضاً[١]؛ تشفّياً وانتقاماً، وعرفاناً بجميل الأب الذي قلّده عقد الحكم الذي تزيّن به.

وهذا الشخص العصابيّ الذي أمسك الدولة بهذه النفس المتهالكة وبهذه الروح اللاهثة وراء الملك والجبروت والعظمة، لم يكن على استعداد لأن يرحم وليّاً وخليفة لله في حدود مملكته المفتون بها، لذا لم يكن متوقّعاً من المعتصم أن يسمح للإمام الجواد عليه السلام بالتحرّك حتّى ولو كانت حركته عادية بل ظلّ يراقب بكلّ دقّة النشاط الاجتماعيّ والسياسيّ للإمام الجواد عليه السلام ثمّ عمد إلى أن يغتاله على يد ابنة أخيه المأمون المعروفة بأمّ الفضل في سنة ٢٢٠، وهكذا قضت الأقدار أن يقضي المعتصم على رمز الخطّ الهاشميّ وعميده الإمام محمّد التقيّ أبي جعفر الجواد عليه السلام في تلك الحقبة الزمنية، لتجد الساحة خليفة آخر يمارس دوره المرسوم له، فكان الإمام عليّ بن محمّد الهادي خليفة يقارع جور الزمان وخلفاءه من بني العبّاس..[٢].

وكان مُقام الإمام الجواد عليه السلام مع أبيه سبع سنين وثلاثة أشهر، وعاش بعد أبيه ثماني عشرة سنة غير عشرين يوماً. وكانت سنوات إمامته بقيّة ملك المأمون[٣]، ثمّ

١- **البداية والنهاية** لابن كثير١٠: ٣١٦.

٢- ينظر: **أعلام الهداية، الإمام محمّد بن علي الجواد** عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت: ٥٣.

٣- يظهر من أخبار علماء الشيعة أنّ الجواد عليه السلام لم يكن مطمئناً من المأمون رغم التودد الظاهري الذي أبداه له عليه السلام، فلم يمارس عليه السلام دوره بما يثير انتباه شخص المأمون أو أزلام الحكم الآخرين، و ربّما كان المأمون يتجاهل خطر الجواد عليه السلام لاعتقاده أنّ الإمام الجواد عليه السلام لم يبلغ من العمر الذي يشكّل له تهديداً أو يكون منافساً له كما كان الرضا عليه السلام في حياته، ولذا قال الشيخ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي: مكث أبو جعفر عليه السلام مستخفياً بالإمامة، فلمّا صار له ستّ عشرة سنة وجّه المأمون حمله وأنزله بالقرب من داره و عزم عل تزويجه ابنته أمّ الفضل.. **الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم**: ٧٠٦.

ملك المعتصم. ولكن الطبريّ أضاف إلى ذلك حكومة الواثق ونسب شهادته إليه فقال: ثمّ ملك الواثق خمس سنين وثمانية أشهر، واستُشهد في ملك الواثق سنة عشرين ومائتين من الهجرة، وبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة وثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً، وقيل: اثني عشر يوماً في ذي الحجّة يوم الثلاثاء على ساعتين من النهار لخمس خلون من الشهر، ويقال لثلاث خلون منه[1]. وقيل في وفاته أيضاً أنّها كانت سنة تسع عشرة ومائتين[2]. والظاهر أنّ رواية الطبريّ لم تكن معتمدة لدى الباحثين، فظلّت منفردة فلم يقل بها غيره.

والمحقَّق أنّ الجواد عليه السلام عايش المأمون والمعتصم، وما كان من أحداث في حياته عليه السلام سُجّلت في عصري هذين الحاكمين. ولم يكن المقطع الزمانيّ الذي شغله الجواد عليه السلام، والذي كان يمتدّ من أواخر القرن الثاني الهجريّ وحتّى أوائل القرن الثالث، منفصلاً عن الحياة السياسية والعصر الذي أثّر فيه المأمون تأثيراً فاعلاً وقويّاً، فشخص ذو دهاء ومكر ودبلوماسية فائقة كالمأمون لا يمكن أن يدع الزمن يمرّ مروراً هادئاً بدون أن يحدث فيه عواصف وزوبعات مدوّية تظلّ محطّة وقوف وتأمّل لدارس التاريخ، و إذا كانت هناك أحداث وانعطافات في مسيرة الدولة العبّاسية فهي تُعزى إلى شخص المأمون.

والمعروف أنّ المأمون جاء إلى الدنيا في شباب الدولة العبّاسية وبدء عزّها وزهاء عصرها، وهو القرن الثاني الهجريّ الذي كانت فيه ولادة هذا الغلام العبّاسي الذي اشتبكت في عروقه دماء فارسيّة انعكست على تشكيل مزاجه وتكوينه النفسيّ والجسديّ ظهر في هذا الشخص المسمّى عبد الله بن هارون الرشيد،

١- دلائل الإمامة: ٢٠٨.

٢- وفيات الأعيان ٤: ٣١.

والملقّب بالمأمون، جاء إلى الدنيا في سنة سبعين ومائة ليلة توفّي عمّه الهادي بن المهديّ، وكانت أمّه أمّ ولد يقال لها مراجل، وتولّى الحكم بعد مقتل أخيه الأمين سنة ثمانٍ وتسعين ومائة، واستمرّ في الحاكمية عشرين سنة وخمسة أشهر. وقد جفاه قومه وخذلوه حينما خلعه العبّاسيون وولّوا عليهم عمّه إبراهيم بن المهديّ سنة إحدى ومائتين عندما خلع السواد ولبس الخضرة وبايع بولاية العهد للإمام عليّ بن موسى الرضاعليه السلام. ثمّ ظفر المأمون بهم واستقام له الحال في الحكم.

وكان المأمون في عقائده وثقافته يسير على مذهب الاعتزال[١] الذي كان له

١- الاعتزال: مذهب كلاميّ واعتقاديّ نسب إلى فرقة المعتزلة، ويُسمَّون أيضاً أصحاب العدل والتوحيد، ويلقّبون بالقدرية والعدلية. **الملل والنحل** للشهرستاني ١: ٤٣. وقيل في سبب تسميتهم بذلك أنّهم يقولون بأنّ صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين. وقيل: لأنّهم اعتزلوا مجلس الحسن البصريّ حيث إنّهم اختلفوا و إيّاه في مرتكب الكبائر، فقال: بأنّه مؤمن. ولكنّه فاسق بارتكابه الكبائر، وقالوا هم: ليس بمؤمن كما يدّعيه البصريّ، ولاكافر كما تزعمه الخوارج، بل منزلة بين المنزلتين فطَرد عندئذ الحسنُ البصري رئيس المعتزلة واصلَ بن عطاء من مجلسه فاعتزل بعد ذلك عنه، فسُمّوا لذلك بالمعتزلة. وربّما يطلق عليهم أهل العدل والتوحيد، وذلك لأنّهم ينزّهون الله تعالى عمّا يقوله الأشاعرة من أنّ الله قدّر على الناس المعاصي ثمّ عذّبهم عليها، ولأنّهم يذهبون إلى نفي صفات الله، لأنّهم يعتقدون أنّ القول بذلك يستدعي تعدّد الله، تعالى عن ذلك علوّا كبيراً، وهذا عين ما تذهب إليه الشيعة. وقد كان خصماؤهم من الأشاعرة يطلقون عليهم اسم القَدَرية. ينظر: محمّد صادق الصدر، **الشيعة الإماميّة**: ٣٩. و تكاد فرق المعتزلة تُجمِع على أنّ الاعتزال له أصول تدور حول هذه الأصول عقائد وقضايا، وقد تسلسلت من كلّ أصل عدّة مسائل نتجت عنها، ومن هذه الأصول، أو على رأسها: نفي الصفات، أو التوحيد كما أطلقوا عليه، فمن خلال استدلالهم العقلي على وجود الله سبحانه التزموا بنفي الصفات، وأدّى ذلك إلى إثبات خلق القرآن، و إلى عدم رؤية

تـأثير كبيـر فـي اتّخـاذ عـدد مـن المواقـف والقـرارات التـي طبـع بهـا طـابع الدولـة العباسية، وسار على منهجها المعتصم والواثق من بعده، حتّى حصول الانقلاب المفاجئ على يد المتوكّل لتنعطف الدولة نحو منحى آخر عرف به المتوكّل ومن جاء من بعده. ولم يكن الخطّ الفكريّ والعقائديّ الذي تميّز به المأمون متأتياً من فراغ، أو من وراثة تلقّفها من أبيه الرشيد، وإنّما كان للمأمون خطّ ومنهج خاصّ به، فقد حفظ القرآن، الذي كان له الأثر في تزويده بالبلاغة والحجّة. وإضافة إلى هذا له اطّلاع على علوم متعدّدة فقهاً وطبّاً وشعراً وفرائض..[١]، ممّا أكسبه قوّة ومقدرة على مناظرة العلماء وموازاتهم في طرح الرؤى والأفكار والدفاع عنها.

ومن هذا النظر وغيره كان عدد من الباحثين يرى أنّ المأمون على رأيه الأوّل في نقل الخلافة من العبّاسيين إلى آل أبي طالب من العلويين، استناداً إلى ما يتوهّمه بعض المؤرّخين ممّن كان يرى صدق نوايا المأمون وإخلاصه للبيت العلويّ. والحق أنّ المأمون خطّط لولاية العهد الصورية للإمام الرضاعليه السلام لغرض السيطرة على أوضاع الدولة التي كانت مضطربة، وزادها اضطراباً قتلُه أخاه محمّد الأمين العبّاسيّ الذي استقوى بأمّه زبيدة التي كانت عربيّة هاشميّة وبقوّاده الذين زيّنوا له الغدر، فخلع المأمون من الحكم الممنوح له من أبيه بعده، وسعى إلى تحويله إلى ولده من بعده، فردّ عليه المأمون بسيف صارم قطع رأسه وألقاه في كناسات بغداد، فهاجت الأمّة وماجت الرعيّة وشملها التشكيك والقلق من هذا الحاكم الذي قتل شقيقه بدم بارد، وكأنّه قتل مشركاً أو كافراً، أو قتل مسلماً كان

المؤمنين لله سبحانه يوم القيامة، وإلى نفي استواء الله على عرشه.. ينظر: **المعتزلة بين القديم والحديث**، دراسات في الفِرق: ٤٤.

١- ينظر: **البداية والنهاية** لابن كثير ١٠: ٣٠١ و٣٠٣.

مرتدّاً فسفك دمه على ضفاف دجلة التي كانت تمخر ماءها حرّاقات حكّام بني العبّاس.

وعلى ما كانت الصورة التي كان المسلمون من الرعيّة يرونها في هذا الحاكم القاتل، فالثورات التي أشعلها بعض العلويين كانت تهدّد أمن السلطة واستقرارها، والتي قد انضمّ إليها أغلب الناقمين على النظام العبّاسيّ ، وكذلك المعارضون لسلطة بني العبّاس، وكذلك من انشقّ عليهم من داخل البيت العبّاسي الذين عصفت بهم شهوة الحكم حتّى صاروا مصدر تهديد للدولة نفسها، لذا فكّر المأمون باستدعاء الإمام الرضاعليه السلام والتشبّث به للعبور إلى شاطئ الأمان، والخلاص من هذه الشدّة التي كانت تواجهه وتحاصر دولته، والتي ربّما تتلقّى ضربة قاضية لايمكنها بعدها أن تقوم وتواصل قيادتها لجموع المسلمين. ومع هذه المشكلة فقد برزت مشاكل جديدة وخروقات أمنية انضافت إلى ماكان يواجهه النظام العبّاسي، من ذلك : قتلُه الفضل بن سهل والفتك بعدد من القادة العبّاسيين الذين قامت الدولة العبّاسية على أكتافهم، مثل هرثمة بن أعيَن، وعدد من أصحاب الرشيد ورجال الدعوة العبّاسية ومؤسّسوها الأوائل. وتكاملت جرائمه بقتله ولي الله الإمام الرضا عليه السلام لاحقاً بعد أن استدعاه وحاول بوجوده المبارك آن يمتصّ النقمة الشعبية، و إطفاء نار الأزمات التي كانت تشبّ من جرّاء السياسة الجائرة للسلطة العبّاسيّة بين حين وآخر.

ولربّما كان المأمون يشعر بحاجة ماسّة إلى شخص آخر له قدسية في أوساط المسلمين، يرمّم نسيج المجتمع المتهالك، ويرأب صدع دولته التي ربّما تكون قد انهارت أو في طريقها إلى الانهيار والتلاشي، أو كادت، ولم يكن مرشّحاً لهذا الدور غير شخص ينسب إلى النبيّصلى الله عليه وآله ومن ذرّية الإمام عليّعليه السلام ، فاختار الإمام محمّد الجواد عليه السلام ليكمل دور الأب المقتول الذي كان على هدى ورحمة في

مسيرته مع الحاكم العبّاسي، وكانت الخطوة الأولى للمأمون هي طرح موضوع الزواج لتقريب شخص الجواد عليه السلام إلى الناس والتعرّف على مواقف العبّاسيين من خلال هذا المشروع. يقول الريّان بن شبيب: لما أراد المأمون أن يزوّج ابنته أم الفضل أبا جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام بلغ ذلك العبّاسيين، فغلظ عليهم ذلك، واستنكروا منه وخافوا أن ينتهي الأمر معه إلى ما انتهى مع الرضا عليه السلام، فخاضوا في ذلك، واجتمع منهم أهل بيته الأدنون منه، فقالوا: ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي قد عزمت عليه من تزويج ابن الرضا، فإنّا نخاف أن يخرج عنّا أمر قد ملّكَناه الله، وينتزع منّا عزّاً قد ألبسَناه الله، وقد عرفت ما بيننا و بين هؤلاء القوم قديماً و حديثاً، وما كان عليه الخلفاء الراشدون قبلك من تبعيدهم والتصغير بهم، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا ما عملت، وكفانا اللهَ المهمّ من ذلك، فاللهَ اللهَ أن تردّنا إلى غمّ قد انحسر عنّا، واصرف رأيك عن ابن الرضا، واعدل إلى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره.

فقال لهم المأمون: أمّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه، ولو أنصفتم القوم لكان أولى بكم، وأمّا ما كان يفعله مَن قبلي بهم، فقد كان به قاطعاً للرحم، وأعوذ بالله من ذلك، ووالله ما ندمتُ على ما كان منّي من استخلاف الرضا، ولقد سألته أن يقوم بالأمر و أنزعه من نفسي فأبى، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً. وأمّا أبو جعفر محمّد بن عليّ فقد اخترته لتبريزه على كافّة أهل الفضل في العلم و الفضل، مع صغر سنّه و الأعجوبة فيه بذلك، وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفتُه منه، فيعلموا أنَّ الرأي ما رأيت.

فقالوا: إنّ هذا الفتى ـ و إن راقك منه هَديُه ـ فإنّه صبيّ لا معرفة له ولا فقه، فأمهِله ليتأدّب ثمّ اصنع ما تراه بعد ذلك.

فقال لهم: وَيحكم! إنّي أعرَفُ بهذا الفتى منكم، و إنَّ هذا من أهل بيت

علمُهم من الله تعالى، وموادُّه و إلهامه، لم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يتبيّن لكم به ما وصفتُ لكم من حاله.

قالوا: لقد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه، فخلِّ بيننا و بينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في حقّه، وظهر للخاصّة والعامّة سديد رأي أمير المؤمنين فيه، و إن عجز عن ذلك فقد كُفِينا الخَطب في معناه. فقال لهم المأمون: شأنكم وذلك متى أردتم.

فخرجوا من عنده، و اجتمع رأيهم على مسألة يحيى بن أكثم، وهو يومئذٍ قاضي الزمان، على أن يسأله مسألة لا يعرف الجواب فيها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وعادوا إلى المأمون فسألوه أن يختار لهم يوماً للاجتماع فأجابهم إلى ذلك، واجتمعوا في اليوم الذي اتّفقوا عليه، و حضر معهم يحيى بن أكثم، وأمر المأمون أن يُفرَش لأبي جعفر عليه السلام دست ويُجعل له فيه مسورتان، ففُعل ذلك، وخرج أبو جعفر عليه السلام وهو يومئذٍ ابن تسع سنين وأشهر، فجلس بين المسورتين، وجلس يحيى بن أكثم بين يديه، فقام الناس في مراتبهم، والمأمون جالس في دست متّصل بدست أبي جعفر عليه السلام.

فقال يحيى بن أكثم للمأمون: تأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر عليه السلام عن مسألة؟ فقال المأمون: استأذنه في ذلك. فأقبلَ عليه يحيى بن أكثم فقال: أتأذن لي ـ جُعلت فداك ـ في مسألة؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: سل إن شئت.

فقال يحيى: ما تقول ـ جُعلت فداك ـ في مُحرِمٍ قتل صيداً؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: قتَلَه في حِلّ أو حرم، عالماً كان المحرم أو جاهلاً، قتله عمداً أو خطأً، حرّاً كان المحرم أو عبداً، صغيراً كان أو كبيراً، مبتدئاً بالقتل أو

معيداً، من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها، من صغار الصيد أم من كباره، مصرّاً على ما فعل أو نادماً، في الليل كان قتله للصيد أم بالنهار، محرماً كان بالعمرة إذ قتله أو بالحجّ كان محرماً؟

فتحيّر يحيى بن أكثم و بان في عجزه، فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في الرأي. ثمّ نظر إلى أهل بيته فقال لهم: أعرفتم الآن ما كنتم تُنكرونه؟!

ثمّ أقبل إلى أبي جعفر عليه السلام فقال له: أتخطب يا أبا جعفر؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فقال له المأمون: اخطب لنفسك جُعلت فداك، فقد رضيتك لنفسي، وأنا مزوِّجُك أمّ الفضل ابنتي و إن رغم أنوف قوم لذلك، فقال أبو جعفر عليه السلام: الحمد لله إقراراً بنعمته، ولا إله إلّا الله إخلاصاً لوحدانيته، وصلّى الله على سيّد بريته والأصفياء من عترته. أمّا بعد، فقد كان من فضل الله على الأنام أن أغناهم بالحلال عن الحرام، فقال سبحانه: ﴿**وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]. ثمّ إنَّ محمّد بن عليّ بن موسى يخطب أمّ الفضل بنت عبد الله المأمون، وقد بذل لها من الصِّداق مهر جدّته فاطمة بنت محمّد عليهما السلام وهو خمسمائة درهم جياداً، فهل زوّجتَه يا أمير المؤمنين بها على الصداق المذكور؟ فقال المأمون: نعم، قد زوّجتُك يا أبا جعفر أمَّ الفضل ابنتي على الصداق المذكور، فهل قَبِلتَ النكاح؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: نعم، قد قبلتُ ذلك و رضيت به. فأمر المأمون أن يقعد الناس على مراتبهم من الخاصّة والعامّة.

قال الريّان: ولم نلبث أن سمعنا أصواتاً تشبه أصوات الملّاحين في

١- النور: ٣٢.

محاوراتهم، فإذا الخدم يجرّون سفينةً مصنوعةً من فضّة تُشدّ بالحبال من الإبريسم على عجلة مملوءة من الغالية، فأمر المأمون أن تُخضب لحى الخاصّة من تلك الغالية، ففعلوا ذلك، ثمّ مُدّت إلى دار العامّة فتطيّبوا بها، ووُضعت الموائد فأكل الناس، وخرجت الجوائز إلى كلّ قوم على قَدرهم.

فلمّا تفرّق الناس وبقي من الخاصّة من بقي قال المأمون لأبي جعفر عليه السلام: جُعلت فداك، إن رأيتَ أن تذكر الفقه فيما فصّلته من وجوه قتل المُحرم لنعلمه ونستفيده. فقال أبو جعفر عليه السلام: نعم، إنّ المحرم إذا قتل صيداً في الحلّ، وكان الصيد من ذوات الطير وكان من كبارها فعليه شاة، وإن أصابه في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً، وإذا قتل فرخاً في الحلّ فعليه حمل قد فُطم من اللبن، فإذا قتله في الحرم فعليه الحمل وقيمة الفرخ، فإذا كان من الوحش وكان حمار وحش فعليه بقرة، وإن كان نعامة فعليه بُدنة، وإن كان ظبياً فعليه شاة، فإن كان قتل شيئاً من ذلك في الحرم فعليه الجزاء مضاعفاً هَدياً بالغ الكعبة، وإذا أصاب المحرم ما يجب عليه الهدي فيه وكان إحرامه للحجّ نحَرَه بمنى، وإن كان إحرام بعمرة نحره بمكّة، وجزاء الصيد على العالم والجاهل سواء، وفي العمد عليه المأثم، وهو موضوع عنه في الخطأ، والكفّارة على الحرّ في نفسه، وعلى السيّد في عبده، والصغير لا كفّارة عليه، وهي على الكبير واجبة، والنادم يُسقط ندمُه عنه عقاب الآخرة، والمصرّ يجب عليه العقاب في الآخرة.

فقال المأمون: أحسنت يا أبا جعفر أحسن الله إليك، فإن رأيت أن تسأل يحيى عن مسألة كما سألك؟ فقال أبو جعفر عليه السلام ليحيى: أسألك، فقال: ذلك إليك جُعلت فداك، فإن عرفتُ جواب ما تسألني عنه وإلّا استفدته منك. فقال أبو جعفر عليه السلام: أخبرني عن رجل نظر إلى امرأة في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهار حلّت له، فلمّا زالت الشمس حرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر

حلّت له، فلمّا كانت الشمس حرمت عليه، فلمّا دخل وقت العشاء الآخرة حلّت له، فلمّا كان وقت انتصاف الليل حرمت عليه، فلمّا طلع الفجر حلّت له، ما حال هذه المرأة؟ وبما حلّت له و حرمت عليه؟

فقال له يحيى بن أكثم: لا واللهِ لا أهتدي إلى جواب هذا السؤال، ولا أعرف الوجه فيه، فإن رأيتَ أن تفيدنا؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: هذه أَمَة لرجل من الناس نظر إليها أجنبيّ في أوّل النهار فكان نظره إليها حراماً عليه، فلمّا ارتفع النهار ابتاعها من مولاها فحلّت له، فلمّا كان عند الظهر أعتقها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العصر تزوّجها فحلّت له، فلمّا كان وقت المغرب ظاهَرَ منها فحرمت عليه، فلمّا كان وقت العشاء الآخرة كفّر عن الظهار فحلّت له، فلمّا كان نصف الليل طلّقها تطليقة واحدة فحرمت عليه، فلمّا كان عند الفجر راجعها فحلّت له.

فأقبل المأمون على من حضر من أهل بيته وقال لهم: هل فيكم من يجيب عن هذه المسألة بمثل هذا الجواب؟ أو يعرف القول فيما تقدّم من السؤال؟ قالوا: لا والله، إنَّ أمير المؤمنين أعلم بما رأى، فقال المأمون: وَيحكم! إنَّ أهل هذا البيت خُصّوا من الخَلق بما ترون من الفضل، وإنَّ صغر السنّ لايمنعهم من الكمال، أما علمتم أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله افتتح دعوته بدعاء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام وهو ابن عشر سنين، وقَبِل منه الإسلام وحكم له به، ولم يَدعُ أحداً في سنّه غيره، وبايع الحسنَ والحسين عليهما السلام و هما دون الستِّ سنين، ولم يبايع صبيّاً غيرهما؟ أَوَ لا تعلمون الآن ما اختصّ الله به هؤلاء القوم، وأنّهم ذرّيّة بعضها من بعض، يجري لآخرهم ما يجري لأوّلهم؟[1] وكان المأمون يهدف الى تصفية الأجواء العبّاسية لتمرير مرحلة سياسية جديدة يكون فيها الجواد عليه السلام ممثّلاً لولي العهد الذي ينتظر منها

١- الاحتجاج: ٤٤٣ - ٤٤٦.

تقديم خدمات الطاعة والولاء في دورة من دورات الحكم المأمونيّ.

فحاول إسناد هذا الأمر الجديد إلى الإمام الجواد عليه السلام، ولكنّه واجه نفس المعارضة العبّاسيّة السابقة، ولعلّها تكون أشدّ وأخطر في هذه المرّة، كما وأنّ الجواد عليه السلام كان مصرّاً على قراره بالابتعاد عن قصر المأمون، فلم تنجح اللعبة هذه كما لم تنجح في المرّة الأولى، فرَوَوا أنّ المأمون عزم بعد قتله الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام أن يعهد إلى الإمام محمّد بن علي بن موسى الرضا عليه السلام. يقول سبط ابن الجوزيّ: و إنّما منعه من ذلك شغب بني العبّاس عليه، لأنّه كان قد أصرّ على ذلك حتّى دخلت عليه زينب بنت سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عبّاس ـ وكانت في القعدد والسؤدد مثل المنصور، فاجتمع بنو العبّاس إلى زينب فسألوها أن تدخل على المأمون وتسأله الرجوع إلى لبس السواد وترك الخضرة ـ فلمّا دخلت عليه قام لها ورحّب بها وأكرمها، فقالت له: يا أمير المؤمنين، إنّك على بِرّ أهلك من وُلد أبي طالب، والأمر في يدك، أقدر منك على برّهم والأمر في يد غيرك أو في أيديهم، ودع لباس الخضرة وعد إلى لباس أهلك، ولا تطعن أحداً فيما كان منك.

فعجب المأمون بكلامها وقال لها: واللهِ يا عمّة، ما كلّمني أحد بكلام أوقع من كلامك في قلبي، ولا أقصد لما أردت وأنا أحاكمهم إلى عقلك، فقالت: وما ذاك؟ فقال: ألستِ تعلمين أنّ أبا بكر وليَ الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يولِّ أحداً من بني هاشم شيئاً، قالت: بلى، قال: ثمّ وليَ عمر فكان كذلك، ثمّ ولي عثمان فأقبل على أهله من بني عبد شمس فولّاهم الأمصار ولم يولِّ أحداً من بني هاشم، ثمّ ولي عليّ عليه السلام فأقبل على بني هاشم فولّى عبد الله بن عبّاس البصرة، وعبيد الله بن عبّاس اليمن، وولي معبداً مكّة، وولي قثم بن عبّاس البحرين، وما ترك أحداً ممّن ينتمي إلى العبّاس إلّا ولّاه، فكانت له هذه في أعناقنا فكافأتُه في وُلده بما فعل، فقالت: لله دَرُّك يا بُنيّ، ولكنّ المصلحة لبني عمّك من ولد أبي طالب ما قلتُ

لك، فقال: ما يكون إلّا ما تحبّون. ثمّ فكّر في أمره وولاية محمّد بن عليّ عليه السلام العهد فرأى أنّ القواعد تنخرم عليه، وربّما خرج الأمر من يد بني العبّاس وبني عليّ بسبب الاختلاف، وأنّ في الأرض بقايا من بني أميّة، فربّما وجدوا الفرصة في تفريق الكلمة وإثارة الفتنة، فجلس لبني العبّاس وجمعهم ودعا بحُلّة سوداء فلبسها وترك الخضرة، ولبس الناس كذلك، فلم تُلبَس الخضرة ببغداد سوى ثمانية أيّام[١]. وطويت لعبة الورقة الخضراء مع أوراق بني العبّاس التي مزّقها الزمان، ولم يفكّر حاكمٌ عباسيّ غيره بهذا.

ولم يكن المعتصم والمكنّى بأبي إسحاق محمّد بن هارون الرشيد، والذي بويع له بالخلافة بعد موت المأمون لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثماني عشرة ومائتين، مغايراً لسلفه في تشبّثه بالسلطة والحرص عليها، والقيام بأيّ دور يراه مناسباً للإمساك بأطناب السلطة، ولذا كان بينه وبين العبّاس بن المأمون في ذلك الوقت تنازع في الأمر، ثمّ انقاد العبّاس إلى بيعته، والمعتصم يومئذٍ ابن ثمانٍ وثلاثين سنة وشهرين. وقيل: إنّه بويع له سنة تسع عشرة ومائتين[٢]. وقد رافق سياسته في مستهلّ حكمه نوع من الحزم والسطوة القاهرة، وأحاط هذه السطوة بحاشية من الجهلاء الذين لم يفترق عنهم المعتصم بالعلم والجهالة بالشيء الكثير، فقد كان أمّياً لا يحسن الكتابة، ضعيف البصر بالعربية، ويقال: إنّ سبب ذلك أنّه رأى جنازة بعض الخدم يوماً فقال: ليتني مِثلُ هذا حتّى أتخلّص من الكتّاب، فقال له أبوه الرشيد: والله، لا عَذّبتُك بشيء تختار عليه الموت. ومنعه عن الكتب يومئذٍ. وقد حكى الزجّاجيّ وغيره أنّه ورد عليه كتاب من بلاد الجبل فيه: مُطرنا مطراً كَثُر عنه

١- تذكرة الخواصّ: ٣١٨ - ٣١٩.

٢- مروج الذهب ٤: ٣٤٤.

الكلأ. وكان يتقلّد العرض وقراءة الكتب عليه كاتبه محمّد بن عمّار، فقال له: ما الكلأ؟ فقال: لا أدري ! فقال: إنّا لله، خليفة أُمّيّ، وكاتب عامّيّ ثمّ قال: من يقرب منّا من كتّاب الدار؟ فُعرّف بمكان محمّد بن عبد الملك الزيّات، وكان يقف على قهرمة الدار، فأُمر بإشخاصه، فأُتي به، فقال له: ما الكلأ؟ فقال: النبات كلّه رطبه ويابسه، فإذا كان رطباً قيل له: خلى، فإذا كان يابساً قيل له: حشيش. ثمّ أخذ في ذكر النبات من ابتدائه إلى اكتهابه إلى هيجه، فأُعجب به المعتصم وقال: ليتقلّد هذا العرض علينا. ثمّ خصّ به حتّى استوزره[1].

ولعلّ ما يثير العجب في شخصية المعتصم هو كراهيته للطِّيب، وتنفّره منه، فيروي هلال بن المحسّن الصابئ في هذا الموضوع قصّة عنه حين يتحدّث عن آداب الخدمة السلطانية فيقول: ومِن أولى الأفعال بالوزراء، ومن هو في طبقتهم. أن يدخل إلى حضرة الخليفة نظيفاً في بزّته وهيئته، وقوراً في خطوه ومشيته، متبخّراً بالبخور الذي تفوح روائحه منه وينفح طيبه من أردانه وأعطافه، وأن يتجنّب منه ما يُعلم أنّ السلطان يكرهه ويأبى شمّه، كما لَحِق إبراهيم بن المهديّ مع المعتصم، فإنّ إبراهيم كان يكثر استعمال الغالية، ويتغلّف منها في كلّ يوم بمقدار أوقية في رأسه ولحيته ويسرّح شعره، فتختبئ في أثيابه وبين طاقاته، وكان المعتصم يجتوي رائحتها، ولايستطيع الصبر عليها، ويقاسي من إجلاسه إلى جانبه ما يتكلّفه ولا يبوح به. فلمّا زاد ذلك عليه أجلس عليّ بن المأمون فيما بينه وبينه، فثقل فعله على إبراهيم وضاق صدره به، ولم يعرف السبب فيه إلى أن جاءه مخارق المغنّي فأعلمه أنّ وصيفاً دخل على المعتصم بالله، وأكبّ على رجله يقبّلها، فدفعه وقال له: أردتَ أن تتشبّه بإبراهيم عمّ أمير المؤمنين في الغالية، ووالله ما احتملت ذلك

١- **مآثر الإنافة في معالم الخلافة** للقلقشندي ١: ٢١٨.

منه حتّى باعدت مجلسه منّي. فعرف حينئذٍ العلّة فيما عامله به، وتمارض نحو شهر ثمّ ركب ودخل على المعتصم بالله، فسأله عن حاله وأقبل يجيبه بانكسار، فقال له: أراك معافى، فما هذا الانكسار ؟ قال: من فعل الغالية، يا أمير المؤمنين، وما كنت أتغلّف به منها، وقد نهاني الطبّ الآن عنها، فقال له: إقبل قولهم، فلك في غيرها من الطيب مندوحة. وتركها، ورجع إلى منزله في الجلوس[١]. وفي هذا النصّ الذي يصوّر وضع المعتصم، مع قوّاده ومقرّبيه وعشيرته، بما فيه من غرابة مزاج وخلق صعب كان عليه المعتصم، مع أنّه ليس بالغريب فقط، و إنّما هو شاذّ وغير مألوف من أخلاق الملوك والسلاطين.

وأمّا عن المستوى العلميّ والثقافيّ للمعتصم فلا يملك رصيداً يُعتدّ به، أو في الأقلّ ثقافة عامّة يمكن أن يجالس بها أو يتناظر بها مع الآخرين، كما كان عليه سلفه من الحكّام، فيما ينقل عنهم. وقد كانت الفترة الزمنية القريبة من عصره هي فترة خصبة وثريّة بالعلم والثقافة، ولكن لم يكن له منها حظّ يذكر، أو على الأقل لم تكن هناك حركة أو نهضة علمية ومعرفية تسجّل في عصره، في حين أنّ العصر السابق واللاحق لعصره كان على رأس العصور المشهود لها بالتوسّع في كافّة العلوم والآداب والفنون.

ولعلّ هذا الجهل الذي ارتضاه لنفسه المعتصم، والذي وصف به المعتصم على الخصوص دون غيره من حكّام بني العبّاس، كان وراء ما ينسب إليه من قتل لا رحمة فيه، واغتيال عشوائي، وربّما لم يكن له مبرر أو داع، فلم يتهاون أو يرحم حتّى مع الدائرة القريبة منه. . كما ولم يكن المعتصم بالشخص السهل والليّن العريكة كما يصفه أغلب المؤرّخين، فقد وُصف بأنّه كان له نفس سَبُعيّة، إذا

١- رسوم دار الخلافة: ٣٢.

غضب لم يبال مَن قتل ولا ما فعل[١].

وربّما كان عدم الاستقرار السياسيّ واضطراب الأمن، وفقدان الانسجام بين أفراد السلطة الحاكمة، والذي سار مع سيرة الحكّام الذين سبقوا المعتصم، وقد يكون فقدان الدولة العبّاسية لهيبتها نتيجة لصراع الأخوين الدامي الأمين والمأمون، والذي انتهى بانتصار عبد الله المأمون، بعد أن خلّف تفكّكاً في بُنى الدولة وتصدّعاً في لحمتها السياسية، وراء هذا القتل الجائر الذي حاول به شدّ أركان الدولة العبّاسيّة التي بدت عليها آثار التضعضع والضعف، بعد أن تفاقمت الثورات عليها.

ولم يكن للمعتصم فلسفة أورؤية يتميّزبها، وإنّما كان مقلّداً لأخيه المأمون في معتقداته ورُؤاه، لذا كان المعتصم ينحو نحو المأمون في اعتقاده في خلق القرآن، وقد تصادم مع كبار العلماء والفقهاء والمحدّثين، وقد أحضر أحمد بن حنبل عام (٢١٩) وامتحنه بالقرآن فلم يُجب إلى القول بخَلقه فأمر به، فجُلد جلداً عظيماً حتّى غاب عقله وتقطّع جلده وحبس مقيّداً[٢]. يقول السيوطيّ عن المعتصم: فسلك ما كان المأمون عليه وختم به عمره من امتحان الناس بخلق القرآن، فكتب إلى البلاد بذلك، وأمر المعلّمين أن يعلّموا الصبيان ذلك، وقاسى الناس منه مشقّة في ذلك، وقتل عليه خلقاً من العلماء، وضرب الإمام أحمد بن حنبل، وكان ضربه في سنة عشرين و مئتين[٣].

ومهما كانت المقولات والرؤى التي تبنّاها المعتصم، والتي لم يكن يدركها

١- **العبر**١: ٣١٦.

٢- **الكامل في التاريخ** ٦: ١٥. وهناك من يعزي فلسفة القول بخلق القرآن إلى مشايخ المأمون.

٣- **تاريخ الخلفاء**: ٣٣٥.

إدراكاً واعياً، أو يفهم عنها الشيء الكثير، فهي تعتبر مَعلماً من معالم العصر، وصورة من صور الثقافة التي سُجّلت في تلك الفترة الزمنية، فهي تعبّر عن حراك فكر وعقل كان المسلمون عليه، فجهل الحاكم العبّاسي أو علمه لاتأثير له في أعصر الثقافة والمعرفة التي عُرفت بها بغداد، ومحاولة الحاكم في تلبّسه بهذا اللباس المعرفي يعكس رقيّ المسلمين وتطوّرهم العقليّ، فحاول أن يظهر بمظهر أهل العلم والمعرفة، أو كأنّه أُعجب بثلّة من أتباع مدرسة الاعتزال الذين قرّبهم المأمون بصفتهم أعلام الثقافة الإسلامية ومفكّريها الذين بالغ المأمون في إكرامهم، وآثر أن يجعلهم رموز ثقافة بعد أن عرّب الكتب ونقل أفكار وثقافات الأمم الأخرى، لأنّهم باعتقاد المأمون وآخرين أنّهم خير مدافع وساند للدين الإسلاميّ، لاعتمادهم منهج العقل والعلم في فهم النصوص الدينية.

وهناك من يرى العكس حيث يعتقد أنّ المأمون أثّر في الإسلام أقبح تأثير، حيث عرّب كتب الفاسفة حتّى كاد بها أهل الزيغ والإلحاد الإسلام وأهله، وحمل مع ذلك الناس كافّة على القول بخلق القرآن وامتحنهم فيه أشدّ محنة. وأضافوا إلى المأمون مثلبة أخرى لأنّه اقتنى عدداً كبيراً من المماليك ليسندوا دولته ويحقّقوا مآربه، فقالوا: أكثَرَ من شراء الأتراك وتغالى في أثمانهم حتّى كان يشتري المملوك منهم بمائتي ألف درهم، واقتدى به أخوه أبو إسحاق المعتصم فاشتدّ على الناس في امتحانهم بالقول بخلق القرآن[1].

ولا يمكن لأيّ سبب كان إهمال أو إنكار المناخ المعرفيّ العامّ الذي ساد بغداد وبقيّة المدن الإسلامية الأخرى، أو الانفتاح الكبير على الثقافات الوافدة، والذي كان للحكّام العبّاسيين دور كبير فيه، لغرض أو آخر، ممّا قدح في أذهانهم

١- ينظر: **النزاع والتخاصم فيما بين أميّة وبني هاشم** للمقريزي الشافعي: ٨٠.

المقولات الجديدة التي كانت غريبة على أذهان المسلمين: كالقول بخلق القرآن، ووحدة الوجود، ونشوء وتطوّر الفكر الفلسفيّ والكلاميّ. وربّما كان تأثّر المسلمين بالفلسفة اليونانيّة بعد أن ترجمت كتبهم إلى العربيّة في عهد الرشيد والمأمون، فاشتغل كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي تُرجمت إلى العربية، وعملوا على تفسيرها والتعليق عليها و إصلاح أغلاطها. وكان المأمون، كما لايخفى، أكثر الحكّام عناية بالفلسفة وحثّاً للعلماء على دراستها ونقل كتبها، كما لايخفى أثر الفلسفة في علم الكلام.

وقد انتقلت الثقافة اليونانية إلى المشرق عن طريق الكنائس المسيحية التي تأثّرت بهذه الثقافة، وخاصّة الكنيسة النسطورية التي انتشرت آراؤها في بلاد المشرق عامّة وفي فارس خاصّة، وآراء الكنيسة اليعقوبية والملكانية التي انتشرت في سورية. كما كان لمدارس الرها أثر كبير في نشر الثقافة اليونانية وفي مدارس نصيبين، حيث كانت تدرّس العقائد النسطورية والثقافة اليونانية التي نالت تشجيع آل ساسان من ملوك الفرس. ولا تقلّ مدارس حرّان في بلاد الجزيرة عن مدارس الرها ونصيبين، إذ كانت تدرّس فيها الآراء الفلسفية اليونانية والأفلاطونية الحديثة[1]. وكأنّ هذا التنوّع المعرفيّ والفكريّ الذي اندفع نحو بلاد المسلمين كان له الأثر الكبير في إغناء الفكر الإسلاميّ وتشقيقه بالرؤى والأفكار الجديدة التي هزّت المجتمع الإسلاميّ وشوّشت عليه وأذكت فيه روح الجدل والمناظرة والبحث، وزَجّت في الساحة الثقافية بالمدارس والفرق والأحزاب، فلم يجد الحكّام بدّاً من ركوبها ونشر مبادئها وحمل الناس على اعتقادها.

وليس من المستبعد أن يكون المعتصم قد تأثّر بالمدّ الثقافيّ المسيحيّ الذي غزا بلاد المسلمين، وأشار الباحث في التاريخ الإسلاميّ سير توماس أرنولد إلى: أنّه

١- ينظر: حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي** ٣: ٣٨٠.

كان في خدمة «الخليفة» المعتصم (٨٣٣ ـ٨٤٢ م) (٢١٨ـ ٢٢٧ للهجرة) أخوان مسيحيان بلغا منزلة سامية عنده، أحدهما يدعى سلمويه، ويظهر أنّه كان يشغل منصباً قريب الشبه من منصب الوزير في العصر الحديث، وكانت الوثائق الملكية لاتتّخذ صفة التنفيذ إلّا بعد توقيعه عليها، على حين عهد إلى أخيه إبراهيم بحفظ خاتم «الخليفة»، كما عهد إليه بخزانة بيوت الأموال في البلاد، وكان المنتظر من طبيعة هذه الأموال وتصريفها أن يوكّل أمر الإشراف عليها إلى رجل من المسلمين، وقد بلغ من ميل المعتصم الشديد إلى إبراهيم أنّه عاده في مرضه الأخير وغمره الحزن عند وفاته، وأنّه أمر في يوم تشييع جنازته بإحضار جثمانه إلى القصر، حيث أقيمت له الطقوس المسيحية في خشوع مهيب![1]

١- الدعوة إلى الإسلام: ٨١.

شهادة الجواد عليه السلام واليوم الموعود

لم تكد دموع بغداد تكفكف في أواخر القرن الثاني الهجريّ، عندما رقد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مسموماً في سجن هارون، حتّى عاودت أرض بغداد وجنانها الخضراء ترسل دموعها الساخنة، لتنهمل من جديد في إطلالة العشر الثالث من القرن الثالث الهجريّ، حزناً ولوعة في فاجعة أليمة، هي فاجعة الفتى التقيّ النقيّ والغضّ الطريّ محمّد بن عليّ الجواد عليه آلاف التحية والسلام، والذي تقطّعت أحشاؤه بكأس مترع من سمّهم الذي سقوه غدراً، ولم يُكمل بعدُ عقده الثالث، وذلك حينما أشخصه المعتصم العبّاسيّ من المدينة إلى بغداد سنة عشرين ومائتين[1]. وكان المعتصم يضع الخطط للإيقاع بالإمام الجواد عليه السلام، وربّما كانت له فكرة مسبقة في قتل الإمام الجواد عليه السلام موضوعة من قبل، وربّما لا تعود هذه الفكرة له، وإنّما إلى غيره من العبّاسيين الذين استبدّت بهم الحسد حين زوّج المأمون الجواد عليه السلام بنته، وبنت المأمون هي من صلب البيت العبّاسيّ، وصوتها عالٍ ومسموع لأنّها انحدرت من سلالة حكّام، فلربّما كان بعضهم يخشى ذلك من امرأة طموحٍ كأبيها وجدّها، فلربّما اعتقدوا أو صُوّر لهم أنّ امرأة الجواد عليه السلام كانت تخامرها

١- ينظر: **المستجاد من كتاب الإرشاد** للعلّامة الحلّي: ٣٢٤ و**تاريخ الأئمّة** لابن أبي الثلج البغداديّ: ١٥. وقد ذكر ابن الجوزيّ وفاة الإمام الجواد عليه السلام في باب عقد العشرين فما زاد من كتابه **أعمار الأعيان**: ١٨.

فكرة الخلافة فتطرح اسم الإمام الجوادعليه السلام كأشرف شخص هاشميّ في زمانه ينافس بقيّة الأسماء.

وهناك اعتقاد لدى بعضهم أنَّ المأمون قد أُعجب بأبي جعفرعليه السلام لِما رأى من فضله مع صغرسنّه، فعزم أن يزوّجه بابنته أمّ الفضل، ولم يكن ليمرّ هذا بسهولة آنذاك، فغلظ ذلك على العبّاسيين فاجتمعوا عنده وقالوا: ننشدك الله يا أمير المؤمنين أن تقيم على هذا الأمر الذي قد عزمت عليه من تزويج ابن الرضا، فإنّا نخاف أن تُخرج به عنّا أمراً قد ملّكناه الله، وتنزع عنّا عزّاً قد ألبسناه الله، وقد عرفت ما بيننا وبين هؤلاء القوم قديماً وحديثاً، وما كان عليه الخلفاء قبلك من تبعيدهم والتصغيربهم، وقد كنّا في وهلة من عملك مع الرضا حتّى كفانا الله المهمّ من ذلك، فاللهَ اللهَ أن تردّنا إلى غمّ قد انحسرعنّا، واصرف رأيك عن ابن الرضا، وأعدل إلى من تراه من أهل بيتك يصلح لذلك دون غيره. فأجابهم المأمون بكلّ كلمة جواباً، فقال لهم: أمّا ما بينكم وبين آل أبي طالب فأنتم السبب فيه، ولو أنصفتم القوم لكانوا أَولى بكم، وأمّا ما كان يفعله من قِبلي بهم فقد كان قاطعاً للرحم، أعوذ بالله من ذلك، ووالله ما ندمت على ما كان منّي من استخلاف الرضا، ولقد سألته أن يقوم بالأمروأنزعه من نفسي فأبى، وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً.

ثمّ قال: وأمّا أبو جعفر محمّد بن عليّ فقد اخترته لتبريزه على كافّة أهل الفضل في العلم والفضل، مع صغرسنّه، والأعجوبة فيه بذلك! وأنا أرجو أن يظهر للناس ما قد عرفته منه، فيعلموا أنّ الرأي ما رأيت فيه، فقالوا: إنّ هذا الفتى ـ وإن راقك منه هَديه ـ فإنّه صبيّ لا معرفة له ولا فقه، فأمهله ليتأدّب ويتفقّه في الدين، ثمّ اصنع ما تراه بعد ذلك، فقال المأمون: وَيحكم إنّي أعرَفُ به منكم، وإنّ أهل هذا البيت علمهم من الله وموادّه وإلهامه، ولم يزل آباؤه أغنياء في علم الدين والأدب عن الرعايا الناقصة عن حدّ الكمال، فإن شئتم فامتحنوا أبا جعفر بما يَبين لكم ما

وصفتُ من حاله، فقالوا له: قد رضينا لك يا أمير المؤمنين ولأنفسنا بامتحانه، فخلِّ بيننا وبينه لننصب من يسأله بحضرتك عن شيء من فقه الشريعة، فإن أصاب في الجواب عنه لم يكن لنا اعتراض في أمره، وظهر للخاصّة والعامّة سديد رأي أمير المؤمنين، وإن عجز عن ذلك فقد كُفينا الخَطب من ذلك، فقال لهم المأمون: شأنكم وذلك متى أردتم.

فخرجوا من عنده وأجمع رأيهم على أن يسأله قاضي القضاة يحيى بن أكثم، وهو يومئذٍ قاضي الزمان، على أن يسأله مسألة لايعرف الجواب فيها، ووعدوه بأموال نفيسة على ذلك، وعادوا إلى المأمون فسألوه أن يختار لهم يوماً للاجتماع، فأجابهم إلى ذلك، واجتمعوا في اليوم الذي اتّفقوا عليه، وحضر معهم يحيى بن أكثم، وأمر المأمون أن يُفرَش لأبي جعفر دست ويُجعل له فيه مسورتان، ففعل ذلك، وخرج أبو جعفر عليه السلام وهو يومئذٍ ابن تسع سنين وأشهر، فجلس بين المسورتين وجلس يحيى ابن أكثم بين يديه، وقام الناس في مراتبهم والمأمون جالس في دست متّصل بدست أبي جعفر عليه السلام.

فقال يحيى بن أكثم للمأمون: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أسأل أبا جعفر، فقال المأمون: إستأذنه في ذلك. فأقبل عليه يحيى بن أكثم فقال: تأذن لي جعلت فداك في مسألة، فقال له أبو جعفر عليه السلام: سل إن شئت، قال يحيى: ما تقول، جُعلت فداك، في مُحرمٍ قتل صيداً ؟

فقال أبو جعفر عليه السلام: قتله في حِلٍّ أو حرم، عالما كان المُحرم أم جاهلاً قتله عمداً أو خطأً، حرّاً كان المحرم أم عبداً، صغيراً كان أو كبيراً، مبتدئاً كان بالقتل أو معيداً، من ذوات الطير كان الصيد أو من غيرها، من صغار الصيد كان أو من كباره، مصرّاً على ما فعل أو نادماً، في الليل كان قتله للصيد أو نهاراً، محرماً كان بالعمرة إذ قتله، أو بالحجّ كان محرماً؟

فتحيّر يحيى بن أكثم وبان في وجهه العجز والانقطاع، ولجلج حتّى عرف جماعة أهل المجلس أمره، فقال المأمون: الحمد لله على هذه النعمة والتوفيق لي في هذا الرأي. ثمّ نظر إلى أهل بيته وقال لهم: أعرفتم الآن ماكنتم تنكرونه! ثمّ أقبل على أبي جعفرعليه السلام فقال له: اخطب يا أبا جعفر، قال: نعم، يا أمير المؤمنين[١].

فظلّت هذه الحادثة عالقة في أذهان العبّاسيين لاتنسى، ولعلّ ماجرى هناك كان يشكّل هاجساً مزعجاً لهم، وربّما تجسّم هذا الهاجس أو كاد إحساسهم بخطر على امتيازاتهم و مصالحهم التي ارتبطت ببقاء الحكم بيد شخص من بني العبّاس يضمن لهم ما كان لهم من امتياز وتسلّط. وقد تكون هناك أوهام وتصوّرات شتّى لآخرين من البيت العبّاسيّ أو من غيره، أو من رجال السلطة العبّاسية، أو من الحاشية المقرّبة إلى المعتصم التي كانت تخشى أمر الجواد عليه السلام وتستريب به، فتشاوروا في تبييت أمر للتخلّص من شخص الإمام عليه السلام .

فيروى أنّ المعتصم جمع جماعة من خواصّه ووزرائه فقال: اشهدوا على محمّد الجواد شهادة واكتبوا كتاباً أنّه يريد أن يخرج علَيّ. ففعلوا ذلك، ثمّ دعاه فقال له: إنّك أردت أن تخرج عليّ! فقال الجواد عليه السلام: واللهِ ما فعلت شيئاً من ذلك، فقال: إنّ فلاناً وفلاناً يشهدون بذلك عليك. ثمّ أحضرهم فقالوا: هذه الكتب أخذناها من يد بعض غلمانك، قال الراوي: وكان في بهو، فرفع أبوجعفرعليه السلام يده وقال: اللّهمّ إن كانوا كذبوا علَيّ فخذهم، قال الراوي: فنظرنا إلى ذلك البهو كيف يرجف وكيف يذهب وكيف يجيء، وكلّما قام واحد وقع لوجهه، فقال المعتصم: يا ابن رسول الله، أنا تائب ممّا قلتُ فادعُ ربّك أن يسكّنه، فقال عليه السلام: اللّهمّ سكّنه،

١- كشف الغمّة في معرفة الأئمّة ٢: ٣٥٣، مناقب آل أبي طالب ٤: ٣٨٠.

فإنّك تعلم أنّهم أعداؤك وأعدائي. فسكن البهو من وقته [١].

ويُستخلَص من هذه الرواية وغيرها أنّ التخطيط من قبل المعتصم لاغتيال الإمام الجوادعليه السلام كان قائماً، ولم يكن يفارق ذهن المعتصم أو ينسي فكرة تغييب شخص الإمام الجوادعليه السلام وإبعاده عن الساحة ليخلو لهم الجوّ من شخص علويّ تشخص به الأبصار آنذاك، ومع هذا الذي حصل لم يكن هناك قناعة لدى عدد كبير من المؤرّخين بأنّ الجوادعليه السلام قد دُبّر له حادث قتل، فقد روي عن جمع من هؤلاء المؤرّخين قولهم بأنّ الجوادعليه السلام قدم بغداد وافداً على المعتصم سنة تسع عشرة ومائتين ومعه امرأته أم الفضل بنت المأمون فتوفّي فيها [٢] ولم يكن الإمام الجوادعليه السلام يجهل ما قُدّر له من يوم يُختَم له فيه من لقاء الأحبّة ومفارقة ديار شيعته وأنصاره ويرحل مودّعاً شاكياً إلى الله تعالى ما لقيَ مِن ظلم الزمان وأعوان الشيطان، والذين فتنتهم هذه الدنيا وغرّتهم بأمانيّها، فزيّنت لهم الوقيعة والغدر بإمام الهدى والتقوى.

يتحدّث زرقان الذي كان صاحَبَ رجل السلطة العبّاسية ابن أبي دُؤاد [٣]

١- الشيخ حسين بن أحمد البحرانيّ، **وفاة الإمام الجواد**عليه السلام، **مجموعة وفيات الأئمة**عليهم السلام: ٣٣٧. **الخرائج والجرائح** ٢:٦٧٠ / ح١٨. **بحار الأنوار**٥٠: ٤٥.

٢- ينظر: **الأئمّة الاثنا عشر** لابن طولون: ١٠٣ و١٠٤، **تاريخ مدينة السلام** للخطيب البغداديّ ٤: ٨٨.

٣- أحمد بن أبي دؤاد القاضي، جهميّ، والجهميّ يقول بمعرفة الله وحده، ليس الإيمان شيئاً غيره. **مجمع البحرين** ٦: ٣١. والجهميّة أصحاب جهم بن صفوان، وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله مسلم بن أحوز المازنيّ بمَرو في آخر ملك بني أميّة. وافق المعتزلة بنفي الصفات الأصلية وزاد عليهم بأشياء. **الملل والنحل** للشهرستاني ١: ٨٦. واسم أبي دؤاد: الفرج، ويقال: دعمي، والأكثر أنّ اسمه كنيته، وليَ أحمد بن أبي دؤاد القضاء للمعتصم والواثق. حمل الناس على القول بخلق القرآن، ولد سنة ستّين ومائة، كان شاعراً، ويقال بأنّ

وصديقه ـ الذي ينسب إليه مؤامرة اغتيال الجوادعليه السلام ـ فيقول: رجع ابن أبي دؤاد ذات يوم من عند المعتصم وهو مغتمّ، فقلت له في ذلك، فقال: وددت اليوم أنّي قد مِتُّ منذ عشرين سنة، قال: قلت: ولِمَ ذاك؟ قال: لِما كان من هذا الأسود أبي جعفر محمّد بن عليّ بن موسى اليوم بين يدي أمير المؤمنين، قال: قلت له: وكيف كان ذلك؟ قال: إنّ سارقاً أقرّ على نفسه بالسرقة، وسأل الخليفةَ تطهيرَه بإقامة الحدّ عليه، فجمع لذلك الفقهاء في مجلسه، وقد أحضر محمّد بن عليّ، فسألَنا عن القطع في أيّ موضع يجب أن يُقطع، فقلت: من الكرسوع. قال: وما الحجّة في ذلك؟ قلت: لأنّ اليد هي الأصابع والكفّ إلى الكرسوع، لقول الله في التيمم: ﴿فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[١]، واتّفق معي على ذلك قوم. وقال آخرون: بل يجب القطع من المِرفق، قال: وما الدليل على ذلك؟ قالوا: لأنّ الله لمّا قال: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ في الغَسل دلّ ذلك على أنّ حدّ اليد هو المرفق.

فالتفت إلى محمّد بن عليّ فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟ فقال: قد تكلّم القوم فيه يا أمير المؤمنين، قال: دَعني ممّا تكلّموا به، أيُّ شيء عندك؟ قال: أعفني عن هذا يا أمير المؤمنين، قال: أقسمت عليك بالله لمّا أخبرتَ بما عندك فيه، فقال: أمّا إذا أقسمت علَيّ بالله، إنّي أقول: إنّهم أخطأوا في السنّة، فإنّ القطع يجب

أحمد بن حنبل كان يطلق عليه الكفر، كان من كبار المعتزلة، وهو من صنائع يحيى بن أكثم، وهو الذي أوصله إلى المأمون، ثمّ اتصل بالمعتصم، فكان لايقطع أمراً دونه. وكان أصله من قنسرين بين حلب ومعرّة النعمان، ومنها رحل إلى العراق. وقيل: ولد في البصرة. اتّصل بالمأمون، فلمّا قرب موته أوصى أخاه المعتصم به، فجعله قاضي قضاته، وجعل يستشيره في أمور الدولة كلّها، فلمّا مات المعتصم اعتمد الواثق على رأيه، ولمّا تولّى المتوكّل فلج. وقيل: مات سنة أربعين ومائتين. ينظر: **لسان الميزان** ١: ١٧١، **الأعلام** للزركلي ١: ١٢٤.

١- المائدة: ٦.

أن يكون من مفصل أصول الأصابع، فيترك الكف، قال: وما الحجّة في ذلك؟ قال: قول رسول الله صلى الله عليه وآله: السجود على سبعة أعضاء: الوجه، واليدين، والركبتين، والرجلين. فإذا قُطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ﴾[1] يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ وما كان لله لم يقطع. فأَعجب المعتصمَ ذلك وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكفّ. قال ابن أبي دؤاد: قامت قيامتي وتمنّيت أنّي لم أكُ حيّاً.

قال زرقان: قال ابن أبي دؤاد: صرت إلى المعتصم بعد ثالثة فقلت: إنّ نصيحة أمير المؤمنين عليّ واجبة وأنا أكلّمه بما أعلم أنّي أدخل به النار، قال: وما هو؟ قلت: إذا جمع أمير المؤمنين في مجلسه فقهاء رعيّته وعلماءهم لأمر واقع من أمور الدين، فسألهم عن الحكم فيه فأخبروه بما عندهم من الحكم في ذلك، وقد حضر المجلسَ أهل بيته وقوّاده ووزراؤه وكتّابه، وقد تسامع الناس بذلك من وراء بابه، ثمّ يترك أقاويلهم كلّهم لقول رجل يقول شطر هذه الأمّة بإمامته، ويدّعون أنّه أولى منه بمقامه، ثمّ يحكم بحكمه دون حكم الفقهاء! قال: فتغيّر لونه وانتبه لما نبّهتُه له، وقال: جزاك الله عن نصيحتك خيراً.

قال: فأمر يوم الرابع فلاناً من كتّاب وزرائه بأن يدعوه إلى منزله، فدعاه فأبى أن يجيبه وقال: قد علمتُ أنّي لا أحضر مجالسكم، فقال: إنّي إنّما أدعوك إلى الطعام، وأحبّ أن تطأ ثيابي، وتدخل منزلي فأتبرّك بذلك، وقد أحبّ فلان ابن فلان من وزراء الخليفة لقاءك. فصار إليه، فلمّا أُطعم منها أحسّ السمّ فدعا بدابّته فسأله ربّ المنزل أن يقيم، فقال: خروجي من دارك خير لك. فلم يزل يومه ذلك وليله في

---

١ - الجنّ: ١٨.

خلفة حتّى قُبض عليه السلام[١]. وذلك في سنة مائتين وعشرين كما ذكرها عامّة المؤرّخين، ومنهم ابن الوردي مشيراً إلى أحداث هذه السنة فقال: فيها توفّي محمّد بن علي الجواد وصلّى عليه الواثق وعمره خمس وعشرون سنة. وفي هذه السنة خرج المعتصم لبناء سامراء[٢] وكأن بغداد لم تعد تطيق أن ترى قاتلاً لواحد من أبناء محمّد صلى الله عليه وآله يعيش على أرضها ويأكل من بُرّها، وظلّت بغداد منكبّة على رفات الفتى العلويّ الذي رقد في ثراها شهيداً بالسمّ الذي صنعوه له، ترتّل تراتيل الحزن والشجى في أنشودة الموت العبّاسيّ التي تعزف لحن القتل و إيقاع الغدر فتزهق أرواح العلويين واحداً تلو الآخر.

وهناك رواية أخرى تكمل مؤامرة الغدر والسمّ العبّاسيّ فتنسبه هذه المرّة إلى واحدة من بنات هاشم التي لم تمنعها وشيجة الرحم والعلاقة الزوجية المقدّسة ـ التي ربطتها مع الفتى الهاشمي الطاهر الذي تشرّفت به بيوت بني العبّاس حين رضي بمصاهرتهم والدنوّ من بنت لا تحفظ حقّ البعولة ـ من إيقاع الغدر بهذه الطريقة، فتقول هذه الرواية بأنّ المعتصم أشار إلى ابنة المأمون زوجته بأن تسمّه، لأنّه وقف على انحرافها عن أبي جعفرعليه السلام وشدّة غَيرتها عليه، لتفضيله أمّ أبي الحسنعليه السلام ابنه عليها، ولأنّه لم يُرزق منها ولد، فأجابته إلى ذلك، وجعلت سمّاً في عنب رازقيّ ووضعته بين يديهعليه السلام، فلمّا أكل منه ندمت وجعلت تبكي، فقالعليه السلام: ما بكاؤك؟ والله، لَيضربنّك الله بفقر لا ينجبر، وبلاء لا ينستر! فماتت بعلّة في أغمض المواضع من جوارحها، صارت ناصوراً فأنفقت مالها وجميع ملكها على

١- **تفسير العيّاشيّ** ١: ٣١٩ / ح ١٩.

٢- **تاريخ ابن الورديّ**: ٣٠٣.

تلك العلّة حتّى احتاجت إلى الاسترفاد![1]

فكان لها هذا عقاباً دنيوياً عاجلاً، ورجماً ولعناً مستداماً لزوجة عاقّة شاقّة، لم تعرف حقّ صاحبها، ولم تحفظ حرمة حليلها الذي جلس معها يحدّثها بأحاديث الوفاء والأمانة، والتي لم تأخذ مكاناً وموقعاً في ذاكرتها، فأسلمته سراعاً إلى أيدي المنيّة التي كان لها من الأحرى أن تمتدّ وتخترم هذه المرأة العاقّة التي تحالفت مع السفّاحين الطغاة لتغتال سيّداً نقيّاً طاهراً يحاكي غضارة الورد ونعومته وطراوته وشذاه، وكأنّه كان ربيع الدنيا في زمانه، ونهر دهره المعطاء الذي كان يفيض بخيره وبرّه متفوّقاً في جوده على دجلة الخير الذي يمرّ متبختراً بتربته وتربة جدّه التي تفيض من عطائه وجوده الذي جلّل أرض بغداد وألبسها ثوب العزّ والفخر والبهاء!

الجواد عليه السلام في ثرى الكاظمية

تزيّنت بغداد وتشرّفت عبر عصور التاريخ بدرّتين مضيئتين من نسل الإمام عليّ عليه السلام شاءت الأقدار الإلهيّة أن تكون هاتان الدرّتان محفوظتين في روضة من رياض الجنان يجاورهما النهر المعطاء دجلة الذي يتطيّب ماؤه حين تتلاطم أمواجه بصخور مدينة الكاظمية وحصاها الدرّيّ الرائع الذي يتضاحك للملّاحين الذين يمخرون عبابه الهادئ كلّ يوم، ويصفو كدر ماء دجلة عندما تمتزج قطراته بتراب وطين الشاطئ المضمّخ بطين الجنّة والمعطّر بعبيق الزائرين، والذين ينسابون ويتدفّقون كلّ يوم وكلّ ساعة مع الزمن السائر في قافلته التي لاتتوقّف، ويثار نقع المدينة تحت أقدام الزائرين مع إطلالة كلّ صباح في تلاحين ونغمات

١- عيون المعجزات: ١٢٩.

الداعين والمتلفّعين بتراب الكاظمية الذهبيّ[١]، هذا التراب الذي يتلوّن بعقيان الشمس وأشعّة المنائر الذهبية المنتصبة بشموخ و إباء في ثرى الإمامين الطاهرين، وقد تأثّر الرحّالون والزائرون بالجمال الأخّاذ الذي يضفيه الفنّ الإسلاميّ على معالم هذه البقعة، وقد أضفَت المنارتان هالة من التقديس والبهاء، فامتزج أثر الفنّ بأثر ملائكيّ قدسيّ يشعّ في سماء بغداد فيزيدها جمالاً وبهاء.

وقد وصف المرقد الشريف الرحّالون مشيدين بجماله، منهم عبدالوهّاب عزّام حيث قال: قصدنا الكاظميّة وبلغنا المسجد المبارك، فلمّا دخلنا بُهرنا بما فيه من جمال وزينة، وقد لاحت فوق المسجد على جانبيه قبّة ومنارتانِ في حلّة من الذهب الوهّاج، وليس يوجد وصف لهذه المشاهد الجميلة[٢].

وبدا إعجاب وتأثّر الكاتب الأمريكي دوايت م. رونلدسن بالمنظر الخلّاب الذي تركته هذه الطلائع الذهبية الصاعدة في سماء بغداد، فظهر في التعبير عمّا

١- لترابِ الكاظمية عبيق وأثر خاصّ لايدركه إلّا من أُوتي الحظّ الكبير من العرفان والبصيرة الثاقبة التي ترى ما لا يُرى بالعين الباصرة المحجوبة عن رؤية أسرار الأشياء، ويصف أثر هذه التربة المباركة أبوالحسين محمّد بن بحر الشيباني، وهو من أعلام القرن الثالث الهجري، فيقول: وردت كربلاء سنة ست وثمانين ومائتين، وزرت قبر غريب رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمّ انكفأت إلى مدينة السلام متوجّهاً إلى مقابر قريش في وقت قد تضرّمت الهواجر، وتوقّدت السمائم، فلمّا وصلت منها إلى مشهد الكاظم عليه السلام واستنشقت نسيم تربته المغمورة من الرحمة، المحفوفة بحدائق الغفران، أكببت عليها بعبرات متقاطرة وزفرات متتابعة، وقد حجب الدمع طَرفَيّ عن النظر.. **كمال الدين وتمام النعمة**: ٣٨٤ ، و الرواية موجودة في **كمال الدين** : ٣٨٤ ـ الباب ٤١ ما روي في نرجس أم القائم عليه السلام و أسمها مليكة بنت يشوعا بن قيصر الملك ، منشورات ذوى القربى ، قم.

٢- محمّد حسين الحسينيّ الجلاليّ، **مزارات أهل البيت** عليهم السلام: ١١٩.

اعتمل في أعماق نفسه فقال: لابدّ للقادم إلى بغداد من الشمال أو الغرب أن يتأثّر بمنظر المآذن الذهبية الأربع فوق مشهد الكاظمَين: موسى بن جعفر ومحمّد التقي، وهما الإمامان السابع والتاسع من الأئمّة الاثني عشر، ويقصدهما الشيعة من المسلمين طلباً لدفع الأمراض عنهم، والاستشفاع بهما من الذنوب. وعلى كلّ باب من الأبواب المقدّسة لهذا المشهد سلسلة كبيرة تشير إلى حدود الحرم الذي لايسمح لغير المؤمنين باجتيازه. ويستطيع من لايجوز له الدخول أن ينظر من الأبواب، فسيرى النقوش الدقيقة التي تزيّن واجهة البناء، أو أن يصعد إلى سطح بيت قريب، كما فعل المؤلّف وزوجه ليفوزا بنظرة أشمل، وقد أصبح من الميسور في السنوات الأخيرة التقرّب جوّاً من المشهد، وهو سبيل مفتوح لأهل الأديان كافّة. وترى من التصوير الجوّيّ تخطيط المشهد بأجمعه.

ثمّ يتحدّث عن تاريخ عمارة مشهد الكاظمين فيقول: ويرجع عهد البناء الحالي إلى بداية القرن السادس عشر، وقد أجريت فيه الترميمات بصورة مستمرّة وبعناية تامّة، والبناء الحالي هو على ما جدّده الشاه إسماعيل الأوّل(١٥٠٢ـ ١٥٢٤م)، وقد بقي على حاله رغم استيلاء السلطان سليمان الكبير على بغداد وبقائه فيها مدّة أربعة أشهر في سنة ١٥٣٤ م، فزار مشاهد الشيعة المقدّسة، وأمر بإضافة نقوش وتزيينات أخرى إلى مشهد الكاظمين، أمّا تذهيب القبّتين فأمر به الشاه آغا محمّد أوّل الشاهات القاجاريين سنة ١٧٩٦ م، وأُصلحت إحدى القباب وكُسِيَت المنائر بالذهب بأمر ناصر الدين شاه، وتجد تاريخ كلّ ترميم أو إصلاح مكتوباً في وضوح على البناء نفسه[١].

ولدى قيام كوماندر جيمس فيلكس جونز بسياحات جغرافية للمسح

١- عقيدة الشيعة: ٢٠٤.

والاستسقاء العلميّ في المنطقة الواقعة غربيّ دجلة في شمال بغداد، وبالتحديد سنة ١٨٥٠ م، كتب مسجّلاً انطباعاته ومشاهداته التي تركت أثراً كبيراً في نفسه عن الكاظمية آنذاك فيقول: وبعد أن خرجنا من بغداد واجتزنا أسوارها المتهدّمة (في جانب الكرخ) سرنا في طريق لا بأس به مدّة خمسين دقيقة، فوصلنا إلى الكاظمية التي كانت قبابها المطليّة بالذهب، ومنائرها الرشيقة، تكوّن منظراً خلّاباً، وهي ترتفع في الأفق البعيد، وتتلألأ ما بين بساتين النخيل الخاشعة من حولها. على أنّ ذلك المنظر سرعان ما تتبيّن حقيقته حينما يدنو الناظر إليه من البلدة، فيجد ذلك المشهد الجميل محاطاً بمجموعة متراصّة من البيوت المتواضعة المتهدّمة المبنيّة بالطين والطابوق المفتّت، ويسكن البلدة سكّانها العرب مع عدد غير يسير من الإيرانيين، والهنود الشيعة المنفيين من بلادهم لأسباب سياسية، أو المقيمين للعبادة والتبرّك. ويزور الضريح المقدّس في هذه البلدة كلّ سنة عدد هائل من الزوّار الذين يتواردون عليه من أنحاء العالم الإسلاميّ كلّه، وحيثما يقدّس الإمام عليّ وذرّيته، ولذلك يجتمع هنا خليط عجيب غريب، يجمع بين مظاهر الثراء والأبّهة ومباذل الفقر والشحاذة، كما يجمع بين ملابس الحرير والأسمال أو الخرق البالية.

ومن المحظور على النصارى واليهود التقرّب من المشهد المقدّس، غير أننا استطعنا أن نشاهد ما يعجب من الأشياء، وما يجعل المرء يأسف على عدم مشاهدة الكثير من أمثال هذا المبنى الضخم في بلاد يمكن أن يبنى فيها على طرازه. وقد وجدنا الصحن المربّع المحيط بالحضرة مزداناً بزينة الموزائيك الغنيّة بالقيم الفنّية، والجدران مزوّقة بالآيات القرآنية والجمل الدينية المكتوبة بالأحرف العربية الجميلة. ولمّا كنّا ونحن نمرّ بالبلدة المقدّسة في عشيّة يوم النيروز، فقد كان من الممكن للمرء أن يشاهد في كلّ مكان أمارات الفرح والحبور ترتسم على

وجوه الناس، وتمتزج بتعابير العبادة والخشوع الظاهرة عليهم، وقد كان ذلك يبدو على شيء غير يسير من الروعة، حينما كانت الشمس المائلة إلى المغيب ترسل أشعّتها الأخيرة الباهتة على المنائر والقباب المذهّبة، فتلوح للرائي كالنجوم المتلألئة التي تجذب الزوّار إليها من بعيد.

هذا وقد مررنا في طريقنا بأناس قادمين من كلّ حدب وصوب، ومنتمين إلى كلّ عنصر و عرق، فمن سكّان التبت وكشمير والأفغان و إيران إلى المغول والعرب، وكانوا يغذون السير راكبين أو راجلين، ليصلوا إلى مبتغاهم فيستطيعوا أداء الزيارة في اليوم التالي من دون تأخير، كما مررنا بآخرين كانوا قد فرشوا سجّاداتهم أو عباءاتهم على قارعة الطريق، وأخذوا يؤدّون الصلاة بكلّ نشاط و إخلاص، وقد كانوا وهم يستقبلون القبلة للقيام بهذا الواجب الدينيّ المفروض تبدو في وجوههم شتّى المشاعر والأحاسيس ومختلف المخائل والسمات، ومن الممكن أن يقال أنّه لايوجد أيّ مكان آخر في العالم يجتمع فيه مثل هذا الخليط من الناس، وهذا الاختلاف في المشاعر والتعبير. على أنّ تقاسيم وجه العربيّ المعبّرة، إذا ما ضمّت إلى لباسه الجذّاب وحدّة نظره، واستقلال شخصيته، مع سلاحه المطروح إلى جانبه، لتدلّ كلّها على مخائل عرق ممتاز متفوّق حتّى عندما يلاحظ في حالات الانحناء والسجود.

وبعد أن يبتعد المرء قليلاً عن البلدة تبدأ منطقة التاجي التي تمتدّ البادية من حولها إلى جنب بساتين النخيل التي لاتمتدّ عن ساحل النهر إلى أبعد من ثلاثمائة ياردة، وتأتي بعد ذلك مستنقعات عقرقوف المتكوّنة من فيضان الفرات الذي يبعد عنها بمسافة خمسين ميلاً، ويتّصل بدجلة عن طريقها، فتحاط الكاظميّة وبساتينها على هذه الشاكلة بالماء من جميع الأطراف، وتصبح وكأنّها

جزيرة في وسط بحر متلاطم[1].

والكاظمية ـ من زمان العزّ والزهو الذي عُرفت به بغداد ـ بلدةٌ نُسبت وتشرّفت إلى عنوان ولقب السموّ والشرف العظيم، والعَلَم الهاشمي الكبير الإمام موسى بن جعفرعليه السلام الذي كان يلقّب به ويعرف، وهو اللقب المشهور بالكاظم، وكانت لهعليه السلام ألقاب أخرى متعدّدة، ومن مشاهيرها: الكاظم الذي به زهت البلدة الطيّبة المباركة، والصابر، والصالح، والأمين، والعالم، وأشهرها الأوّل.[2] وقال سبط ابن الجوزيّ: و يلقّب بالكاظم والمأمون، والطيّب، والسيّد. وكان موسىعليه السلام جواداً حليماً، و إنّما سُمّي الكاظم لأنّه كان إذا بلغه عن أحد شيء بعث إليه بمال[3]. وقال ابن طلحة الشافعيّ: لفرط حلمه وتجاوزه عن المعتدين عليه دُعيَ كاظماً. كان يجازي المسيء بإحسانه إليه، ويقابل الجاني بعفوه عنه[4]. هكذا كان يصفه الباحثون والمؤرّخون، وحتّى عدد من الباحثين في عصورنا الحديثة، من المسلمين وغيرهم، فقد قالوا فيهعليه السلام الشيء الكثير، و ممّا قالوا فيه أنّه كان أبرز ما فيه صبره واعتدال مزاجه حتّى سمّي الكاظم أو كاظم الغيظ[5].

و بهذا اللقب العظيم تشرّفت وتكرّمت مدينة العراق الخالدة بغداد، فكأنّه نسبت إليه بغداد كلّها، و إلّا لم تكن بغداد تعني للشيعة أو لغيرهم شيئاً لولا هذه البقعة المباركة التي حلّ فيها الإمام الكاظمعليه السلام وحفيده الإمام الجوادعليه السلام من

١- موسوعة العتبات المقدّسة، قسم الكاظمين: ٢٤٨

٢- التتمّة في أخبار الأئمّة: ١٠٥.

٣- تذكرة خواصّ الأمّة : ٣١٢.

٤- مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ٢٨٩.

٥- جعفر الخيّاط، موسوعة العتبات المقدّسة، قسم الكاظمين: ٢٢٣.

بعده، فرمقتها نحوها العيون واشرأبّت إليها الأعناق، وسيقت لها المطيّ. ولذا اشتهرت الكاظمية ـ كما هو معروف ـ من العقود الهجرية الأخيرة للمائة الثانية، لأنّها صارت مدفن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وحَلِيَت تربة بغداد وأينعت خضرتها في النصف الأوّل من القرن الثالث للهجريّ حين التحق حفيده الإمام محمّد الجواد بأصله الكاظميّ عليهما التحيّة والسلام، فاتّصلت روضة الحفيد بروضة الجدّ، ولحقت تربة الحفيد برياض الجنّة من ذلك الحين، وتلاحمت تربتان طاهرتان في بقعة لاتنفصل عن جنان الخلد ونعيمها أبد الدهر. وقد شملت صفة كظم الغيظ الحفيد فسُمِّيا بالكاظمين، كما شملت صفة الجواد الجدّ فسُمّيا بالجوادين، ولذلك يقول الشاعر:

ما خاب مَن أَمَّ جواداً فهل ... يَخيبُ مَن أَمَّ جَوادَينِ[1]

وتُعرف إلى اليوم بلدة الكاظميّة باسم الكاظمين أو الكاظميّة تغليباً، ولم تستعمل كلمة الجوادين رعاية للأدب[2]. وقد عرف الجغرافيون هذه المنطقة بهذا الاسم وأسماء أخرى أيضاً كانت تعرف بها، ولكنّها نزعت عنها هذه الأسماء ولم تقبل إلّا اسم الكاظمية أو الكاظمين، والتي ما زالت تحتفظ بهذه التسمية منذ قرون، لأنّها ضمّت بدن الإمام الطاهر بن الطاهرين موسى بن جعفرعليه السلام، يقول الشيخ محمّد حسن آل ياسين: واشتهر مدفن الإمام بعد ذلك باسم مشهد باب التبن، ومشهد موسى بن جعفر. وانفرد الطبريّ الإماميّ بتسميته في أثناء إحدى

١- ينظر: جعفر الخليليّ، **موسوعة العتبات المقدّسة**، قسم الكاظمين: ٣٧.

٢- محمّد حسين الحسينيّ الجلاليّ، **مزارات أهل البيت وتاريخها**: ١١٤.

رواياته بمسجد أبي إبراهيم موسى بن جعفر[١]. ولعلّ كلمة مسجد تصحيف لمشهد، كما يرجح في الظنّ، أو أنّ المقصود به مسجد باب التبن، وقد نسبه إلى الإمام لوقوع قبره الشريف بالقرب منه.

وليس لدينا من أحاديث المؤرّخين ما يصلح أن يكون وصفاً لقبر الإمام عليه السلام حين دفنه، وما أضيف إليه وأسبغ عليه من بناء وعمران بعد ذلك بسنوات، ولكنّنا قد نستفيد من الروايات الآتية ما يعطي لمحة مختصرة ممّا كان عليه القبر الشريف في تلك الفترة: ١ـ عن أحمد بن عبدوس عن أبيه قال: قلت للرضا عليه السلام: جعلت فداك، إنّ زيارة قبر أبي الحسن عليه السلام ببغداد علينا فيها مشقّة، و إنّما نأتيه ونسلّم عليه من وراء الحيطان. ٢ـ عن الحسين بن يسار الواسطيّ قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام: ما لِمَن زار قبر أبيك؟ قال: فقال: زوروه، قال: قلت: فأيّ شيء فيه من الفضل؟ قال: فقال: فيه من الفضل كفضل من زار والده، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله، قلت: فإن خفتُ ولم يمكن لي الدخول داخلاً، قال: سلّم من وراء الجدران. ٣ـ عن الرضا عليه السلام في إتيان قبر أبي الحسن عليه السلام أنّه قال: صلّوا في المساجد حوله[٢]. ولاتفيدنا

١- جاءت هذه الإشارة في سند رواية رواها الطبريّ في كتاب **دلائل الإمامة** باب مَن شاهد صاحب الزمان في حال الغَيبة وعرفه من أصحابنا، ص٢٩٦ فقال: وروى أبو عبد الله محمّد بن سهل الجلوديّ قال: حدّثنا أبو الخير أحمد بن محمّد بن جعفر الطائيّ الكوفيّ في مسجد أبي إبراهيم موسى بن جعفر قال: حدّثنا محمّد بن الحسن بن يحيى الحارثيّ، قال: حدّثنا عليّ بن إبراهيم بن مَهزيار الأهوازي قال: خرجت في بعض السنين حاجّاً إذ دخلت المدينة وأقمت بها أيّاماً أسأل وأستبحث عن صاحب الزمان، فما عرفت له خبراً ولا وقعَت لي عليه عين، فاغتممت غمّاً شديداً، وخَشِيتُ أن يفوتني ما أمّلته من طلب صاحب الزمان، فخرجت حتّى أتيت مكّة.. الخبر.

٢- وردت هذه الأخبار في كتاب **كامل الزيارات** لابن قولويه ـ الباب التاسع والتسعون: ٢٩٩.

هذه الروايات، وما كان على شاكلتها، أكثر من وجود حيطان تدور حول القبر الشريف، وجدار مختصّ به، ومساجد يصلّي فيها الناس، وليس لدينا من المعلومات ما يزيد على ذلك. وفي عام (٢٢٠) للهجرة في آخر ذي القعدة أو لخمس أو لستّ خلون من ذي الحجّة توفّي في بغداد أبو جعفر محمّد الجواد بن عليّ الرضا بن موسى بن جعفر عليهم السلام، ودفن في تربة جدّه أبي إبراهيم موسى بن جعفر عليه السلام[١]. وكأنّه كان بانتظار حفيده محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام عند قدومه من المدينة إلى بغداد ليرقد فيها شهيداً مسموماً بجوار جدّه الطاهر فيُنعتان بالكاظمين أو الجوادين، يقول الخطيب البغداديّ: قدم من مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى بغداد وافداً على أبي إسحاق المعتصم، ومعه امرأته أمّ الفضل بنت المأمون فتوفّي ببغداد، ودفن في مقابر قريش عند جدّه موسى بن جعفر[٢].

وفي رواية الشيخ المفيد: في ظهر جدّه موسى عليه السلام [٣]، والتي عرفت في مدوّنات أهل الجغرافية أو البلدانيين وأهل التاريخ والسيرة ببلدة الكاظم أو الكاظمين أو الكاظمية، من حينها أو من حين من الزمن اللاحق، على ما يبدو. وقد تمصّرت بحدودها الجديدة بعد أن تشرّفت بجسديهما الطاهرين، في المائة الثالثة للهجرة. يقول الشيخ محمّد حسن آل ياسين: ولم نعثر على وصف لما أصبح عليه المشهد بعد دفن الإمام الجواد عليه السلام مباشرة أو بعد ذلك بحين، ولكنّ المتيقّن أنّ القبرين الشريفين كانا في بنيّة خاصّة بهما، وكان يتردد لزيارتهما كثير من الناس في هذه البنيّة الخاصّة، ويستفاد من كلام بعض المؤرّخين من ذكر تربة أبي إبراهيم موسى. .

١- **تاريخ المشهد الكاظمي**: ١٩ -٢١.

٢- **تاريخ مدينة السلام** ٤: ٨٨.

٣- **المُقنعة**: ٤٨٢.

أنّ هناك قبّة خاصّة شملت القبرين[١]؛ لأنّ التربة لا تطلق إلّا على قبر مختصّ عليه قبّة، كما يستفاد من رواية مسكويه أثناء حديثه عن المحسّن ابن الوزير ابن الفرات وجود سكّان حول المشهد وبجانب مقابر قريش.

ولايخلو حديث أبي الحسين بن أبي البغل الكاتب عن كيفيّة استتاره وزيارته لمقابر قريش من بعض الفوائد المرتبطة بما نحن بصدده حيث قال: تقلّدت عملاً من أبي منصور بن الصالحان، وجرى بيني وبينه ما أوجب استتاري، فطلبني وأخافني، فمكثت مستتراً خائفاً، ثمّ قصدت مقابر قريش ليلة الجمعة، واعتمدت على المبيت هناك للدعاء والمسألة، وكانت ليلة ريح ومطر، فسألت ابن جعفر القيّم أن يغلق الأبواب. . ففعل وقفل الأبواب، وانتصف الليل، وورد من الريح والمطر ما قطع الناس عن الموضع، ومكثت أدعو وأزور وأصلّي، فبينما أنا كذلك إذ سمعت وطأة عند مولانا موسى عليه السلام وإذا رجل يزور. . ثمّ خرج، فخرجت لابن جعفر أسأله عن الرجل. . فرأيت الأبواب على حالها مغلقة. . فأنبهت ابن جعفر القيّم فخرج إليّ من بيت الزيت. . ويستفاد من هذا الحديث تعدّد البيوت، ويعني بها الحُجَر حول المشهد، وإذا كان لزيت الإنارة بيت فلابدّ من وجود أمثاله للفرش والأثاث وسائر الموقوفات التي تحتاج إلى الحفظ والعناية، ولعلّ تكرار كلمة

١- جاء في وصف الجانب الغربيّ لبغداد لابن بطّوطة ما يؤيّد هذا حين يقول في رحلته: وفي هذا الجانب الغربيّ من المشاهد قبر معروف الكرخيّ، وهو في محلّة باب البصرة. وبطريق باب البصرة مشهد حافل البناء في داخله قبر متّسع السنام، عليه مكتوب: هذا قبر عون من أولاد عليّ بن أبي طالب، وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد عليّ بن موسى الرضا، وإلى جانبه قبر الجواد، والقبران داخل الروضة عليهما دكانة ملبّسة بالخشب عليه ألواح الفضّة. **رحلة ابن بطّوطة**: ٢١٨.

الأبواب دليل صريح على سعة بناء المشهد وتعدّد البيوت المحيطة به[١].

ومن المحقّق في تاريخ بغداد أنّه قد صارت أرض المشهد الكاظميّ بقعة لها أهمّيتها آنذاك، وكأنّها غدت أرقى مكان وأرفعه في بغداد، فيروي المؤرّخون أنّ زبيدة - زوجة هارون الرشيد - وقد ماتت في سنة ٢١٦ وابنها الأمين دفنا في هذه المقبرة. ودفن فيها أيضاً الأميران البويهيان: معزّ الدولة، وقد توفّي سنة (٣٥٦)، وجلال الدولة المتوفّى(٤٥٣). وقد كان دفن فيها قبلاً القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم المتوفّى سنة (١٨٢). وقد احتوت هذه المقبرة على قبور كثير من الوزراء والأعيان والسادة والعلماء.

وصارت مسكناً للشيعة وغيرهم، شأن البلاد المقدّسة التي يرغب الشيعة في سكناها لجوار ضرائح الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، لأنّهم يرون أنّ في مجاورة وزيارة تلك المشاهد الكريمة فضلاً عند الله تعالى، وقد جاءت من طرقهم أحاديث جمّة تدلّ على ذلك الفضل، وسكنها الشيعة أيّام بني العبّاس، وتمصّرت من ذلك العهد، كما هو الشأن في غيرها من مراقد الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام. وما زالت ولم تزل ـ شأن غيرها من البلاد المقدّسة ـ مورداً من موارد العلم الجعفريّ. ونبغ فيها من العلماء الجمّ الغفير، فكانت منهلاً لعلوم أهل البيت، ومصدراً لأهل الفضل، ومقصداً لطلّاب العلم[٢].

ولعل من المناسب للبحث هنا أنّه كانت تعرف هذه البقعة المباركة فيما مضى من الزمان العبّاسيّ الأوّل بمقبرة قريش. وكانت أرض مقابر قريش من الأرضين القديمة المسكونة التابعة لدولة الكشّيين الذين جاؤوا في أواسط القرن

١- **تاريخ المشهد الكاظمي**: ٢٢.

٢- حسين علي محفوظ، **موسوعة العتبات المقدّسة**، قسم الكاظمين: ١٧٩ و١٩٤.

الخامس عشر قبل الميلاد قادمين من الجبال الشرقية من منطقة لرستان في إيران، يقودهم زعيم لهم اسمه كندش، فاحتلّوا مدينة بابل واتّخذوها مركزاً لتنظيم أمورهم وتركيز سيطرتهم وسلطانهم وتثبيت إداراتهم لأواسط ما يسمّى بعد ذلك العراق وجنوبه، وقد ذكرت الكتابات التاريخية المسمارية أنّ عدّة ملوكهم الذين حكموا في هذه البلاد ستّة وسبعون ملكاً، حكموا ٥٧٦ سنة قمرية. وقد تعلّم الكشّيون اللغة البابلية السامية مع أنّهم كانوا من الآريين، وكتبوا بها واستعملوا أيضاً اللغة السومرية الآرية، فضلاً عن لغتهم الكشّية في جملة من أخبارهم، واقتبسوا الحضارة البابلية واعتدّوا بها، وكانت لهم اتصالات دولية واسعة، فازدهرت التجارة في عصورهم، وعمّ الرخاء البلاد في عهود العظماء من ملوكهم. . ولم يقف الباحثون على اسم الكاظمية في عصر الكشّيين ولا في عصور ممّن حكموا قبلهم، كالأكديين الساميين والبابليين، ولا في عصور من حكموا بعدهم، كالكلدانيين والأخمينيين، وإنّما ذكروا اسماً لها يشبه الأسماء اليونانية، وهو قُطرُبُّل[١]، وهذا يدلّ على أنّ الاسم كان معروفاً في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، وهو القرن الذي أُنشئت فيه دولة السلوقيين اليونانيين بعد موت الإسكندر المقدونيّ.

وكانت المنطقة التي فيها مقابر قريش تعرف في أيّام الساسانيين بطسّوج قطربّل، أي كورة قطربّل، وكانت تروى من نهر يتفرّع من الجانب الأيمن من دجلة، ويعرف بنهر دجيل، ولاتزال مجاري شعبه وشاخاته ظاهرة بين البلدة المعروفة باسم بلد وبغداد، وكان نهر يفصل بين طسّوج قطربّل وطسّوج بادوريا في الجنوب

١- قُطرُبُّل، بضمّ أوّله وإسكان ثانيه وبعدها راء مهملة مضمومة وباء مضمومة مشدّدة، وقد روي أيضاً بفتح أوّله وطائه، وأمّا الباء المشدّدة فمضمومة في الروايتين، وهي طسّوج من طساسيج سواد العراق، وهي اسم كلمة أعجمية لاسم قرية بين بغداد وعكبرا. ينظر: **معجم البلدان** لياقوت ٤: ٣٧١ و**معجم ما استعجم** للبكري ٣: ٣٢٠.

يعرف بنهر الصراة يتخلّج من نهر عتيق يأخذ ماءه من الفرات، وعرف في أيّام الساسانيين باسم نهر رفيل، وفي أيّام العبّاسيين وبعدهم باسم نهر عيسى بن عليّ عمّ أبي جعفر المنصور.

وقد دلّت الاستكشافات القديمة على وجود نقود يونانيّة في تلك المنطقة مخلوطة مع نقود غيرها، وذلك يدلّ على أنّ أحد سكّان هذه المنطقة في العهود الإسلامية عثر عليها في أثناء حفر أسس لداره، أو لعمارة أخرى من العمارات، ففي سنة ٦٤٧ للهجرة أمر المستعصم بالله بعمارة مشهد الإمام موسى بن جعفر عليه السلام في مقابر قريش المذكورة. فلمّا شرع الفعلة والبناة في ذلك وجدوا برنيّة، أي بستوقة، فيها ألفا درهم قديمة، منها يونانية عليها صور، ومنها ضُرب بغداد سنة نيّف وثلاثين ومائة، ومنها ما هو ضرب واسط، فعرضت على المعتصم، فأمر أن تصرف في عمارة المشهد، فاشتراها الناس بأوفر الأثمان، وأهدي منها إلى الأكابر، فنفذوا إلى المشهد أضعاف ما كان حُمل إليهم منها[1]. وكلّ هذا جرى في مقبرة قريش، أي دارة الكاظميّة.

وكان السبب في تسميتها بهذا الاسم ـ أي مقابر قريش ـ هو أنّ أبا جعفر المنصور بعد أن أنشأ مدينته المعروفة بمدينة السلام تفاؤلاً بسلامة دولته من الخطر والضرر سنة ١٤٥، أصابه الزمان بموت ابنه جعفر الأكبر الذي حقّق باسمه كنيته، وكانت الوفاة سنة ١٥٠. فاتّخذ مقبرة جديدة في أرض دارة الكاظمية الحالية وسمّاها مقبرة قريش أو مقابر قريش. وهذا الاسم يدلّ على أنّ الموتى الذين كانوا يدفنون فيها كانوا من قريش خاصّة، كالعبّاسيين والعلويين، ولكنّ هذا الشرط لم يحافظ عليه بعد ذلك. فدفن فيها أبو يوسف القاضي الأنصاريّ سنة ١٨٢ ولم يكن

١- **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة** لابن الفوطيّ: ١٢٠.

قرشيّاً كما هو معلوم[١].

ومن المؤكّد للباحثين إنمّا كان من أهمّيةٍ لهذه البقعة المباركة، بوجود الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام وحفيده الإمام محمّد بن عليّ الجواد عليه السلام، وما حصل منها من آثار طيّبة شهدها أهل بغداد، فازدحمت المقبرة لاحقاً برفات جمع كثير من العلماء والزهّاد والأعيان، وصارت المنطقة من أبرز معالم بغداد الحضارية والدينية. قال الخطيب البغداديّ في باب ما ذُكر في مقابر بغداد المخصوصة بالعلماء والزهّاد: بالجانب الغربيّ في أعلى المدينة مقابر قريش، دفن بها موسى بن جعفر بن محمّد بن علي بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، وجماعة من الأفاضل معه. أخبرنا القاضي أبو محمّد الحسن بن الحسين بن محمّد بن رامين الأستراباديّ قال: أخبرنا أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعيّ قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا عليّ الخلّال يقول: ما همّني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسّلت به إلّا سهّل الله تعالى لي ما أحبّ.

أخبرنا محمّد بن عليّ الورّاق وأحمد بن عليّ المحتسب قالا: أخبرنا محمّد بن جعفر قال: حدّثنا السكوني قال: حدّثنا محمّد بن خلف قال: وكان أوّل مَن دُفن في مقابر قريش جعفر الأكبر ابن المنصور، وأوّل من دفن في مقابر باب الشام عبد الله بن عليّ سنة سبع وأربعين ومائة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة. ثمّ قال: ومقبرة باب الشام أقدم مقابر بغداد، ودفن بها جماعة من العلماء والمحدّثين والفقهاء. وكذلك بمقبرة باب التبن، وهي على الخندق بإزاء قطيعة أمّ جعفر. إلى أن ذكر مقبرة الشونيزيّ فقال: فيها قبر سريّ السقطيّ وغيره من الزهّاد، وهي وراء المحلّة المعروفة بالتوثة بالقرب من نهر عيسى بن عليّ الهاشمي. ثمّ قال: سمعت بعض شيوخنا يقول: مقابر قريش كانت قديماً تُعرف بمقبرة الشونيزيّ الصغير، والمقبرة التي وراء

١- ينظر: الدكتور مصطفى جواد، **موسوعة العتبات المقدّسة**، قسم الكاظمين: ٩ و٢٢.

التوثة تعرف بمقبرة الشونيزيّ الكبير. وكان أخوان يقال لكلّ واحد منهما الشونيزيّ، فدفن كلّ واحد منهما في إحدى هاتين المقبرتين ونسبت المقبرة إليه.[١]

وأمّا الدكتور مصطفى جواد فيذهب إلى رأي آخر فيقول:

أمّا الشونيزية الحقيقية فهي المعروفة اليوم بمقبرة الشيخ جنيد الصوفيّ غربيّ قبر معروف الكرخيّ. ولم يجد في قول الخطيب البغداديّ مستنداً تاريخيّاً يطمئنّ إليه. ثمّ قال: إنّ منطقة الكاظمية كانت قديماً من نواحي عقرقوف التي كانت تسمّى في عصور الدولة الكشية دوركاريكالزو. وقد سمّاها الآراميون عقرقوف..[٢]، وقد ذكر أهل السير أنّ هذه القرية سمّيت بعقرقوف بن طهمورث الملك[٣]. ولاتزال آثارها باقية حتّى اليوم في جوار الكاظمية على نحو ستّة أميال عنها من جهة الغرب، وهي تنطق بالمهارة الفائقة المبذولة في بناء هذه المدينة الكبيرة وصرحها الشاهق. وتدلّ ضخامة أبنية المدينة وجودة بنائها والإسراف فيه على أنّ المدينة ظلّت مأهولة حيناً من الدهر، ويرجّح كثيراً أنّها كانت عاصمة السلالة الكشّية. وبهذا تصبح عقرقوف ممثّلة لعهد من عهود العراق القديمة التي تعدّ مصادر معرفتنا بها قليلة جدّاً، بحيث يكاد يكون من هذه الناحية من العهود المظلمة المجهولة، على الرغم من كونه من العهود المهمّة في تاريخ العراق. ثمّ تظلّ

١- **تاريخ مدينة السلام** ١: ٤٤٢.

٢- قال البكريّ في عقرقوف: عقر مضاف إلى قوف، جعلا اسماً واحداً، وربّما أعربوه فقالوا: عقورقوف. و اسم جبل، واسم طائر. وقال ياقوت: مثل حضرموت وبعلبك. والقوف في اللغة الكلّ، فيقال: أخذه بقوف قفاه، إذا أخذه كلّه. وقال قوم: القوف القفا. وهي قرية من نواحي دجيل، بينها وبين بغداد أربعة فراسخ، و إلى جانبها تلّ عظيم من تراب يرى من خمسة فراسخ كأنّه قلعة عظيمة، لا يرى ما هو. إلّا أنّ ابن الفقيه ذكر أنّه مقبرة الملوك الكيانيين، وهم ملوك كانوا قبل آل ساسان من النبط. **معجم ما استعجم** ٣: ٢١٢، **معجم البلدان** ٤: ١٣٧.

٣- **موسوعة العتبات المقدّسة**، قسم الكاظمين: ٢٣و٢٥.

عقرقوف أيضاً هي الأثر الأوّل الذي وصل إليه علمنا في أصل الأرض التي سمّيت بعض جوانبها بالكاظمية بعد ذلك بعشرات القرون[١].

والكاظمية من زمانها في العصر العبّاسيّ الأوّل إلى اليوم هي أزهى وأرقى وأرفع وأبرز معلم حضاريّ وسياحيّ من معالم بغداد الحديثة، فهي الآن تزهو وتتألّق شامخة بالعَلَمين الطاهرين اللذَين يهفو القلب إليهما ويتشوّق للقائهما، ويتمنّى الزائرون من بقاع الأرض المختلفة لهما أن يتجدّد التوفيق لزيارتهما. ويعهد الزائر لهما الكمّ الهائل من المسلمين الذين يتزايدون مع تقادم الأيّام في التزاحم على أعتاب حضرتهما المنوّرة، فيتشوّقون ويتدافعون للثم الصفائح والقطع المزيّنة بألوان من الكتابات والنقوش الرائعة التي تناثرت حولهما، وربّما يتمنّى من لم يوفّق لزيارتهما أن يمنّ الله عليه بزورة تتيح له المقام بأفياء بغداد يتنسّم من نسيمها الطيّب المعطّر بعطر الإمامين الطاهرين، ولو إلى حين، لينعم بقربهما والدنوّ من مشهديهما، فتمتزج أدعيته ومناجاته بأسواء الداعين والمناجين الراجين أن يكسبوا من مغانم الدنيا والآخرة ببركات زيارتهما والدعاء في رحاب مرقديهما العظيمين، والذي يبصره ويدركه من خلصت نيّته وصفت سريرته، ونال حظّ السعادة بالدنوّ منهما، وربّما لمس كثير من الزائرين والداعين ـ ولعلّه يكون منهم ويتمنّى ذلك كاتب هذه السطور ـ ما لهما من أسرار وألطاف وطاقة عظيمة حباهما الله، قد يتزوّد منهما الزائر الصادق بحبّه لهما، والمتيقّن بقدرتهما في قضاء حاجته، ورفع همومه وتسلية فؤاده، فينال مبتغاه عند قربه أو دنوّه من مقامهما، عليهما آلاف التحيّة والسلام.

١- تاريخ المشهد الكاظمي: ١٠.

تاريخ موجز من سير العمارة في المشهد الكاظمي المقدّس

في عام (٣٣٦) للهجرة أمر معزّ الدولة السلطان أبو الحسين ابن بويه بتجديد العمارة الكاظمية، وتعتبر هذه العمارة من أوسع العمارات التي حصلت في بداية تاريخ المشهد والمدينة بصفة عامّة. وفي عام (٣٦٧) على أثر زيادة الهجرة قام أبو شجاع عضد الدولة ببناء دور للمشهد حول مرقد الإمام الكاظم عليه السلام، وفي عام (٣٦٩) للهجرة بنى عضد الدولة دُوراً حول المشهد المقدّس. وفي عام (٣٧٧) للهجرة أُوصل الماء إلى الكاظميّة، وكان ذلك بمسعى أبي طاهر الزعيم، وعلى ذلك كثرت الهجرة إلى الكاظميّة. وفي عام (٤٤٣) للهجرة احترقت الروضة الكاظميّة المقدّسة، وفي عام (٤٤٥) للهجرة جُدّدت العمارة بعد احتراقها، بواسطة الحارث أرسلان بن عبد الله المعروف بلقب البساسيريّ، وفي عام (٤٦٠) للهجرة عمر المشهد أبو الفضل الأسعد بن موسى القمّيّ أحد وزراء السلجوق. وفي عام (٥٧٥) للهجرة جدّد الروضة الكاظميّة الحاكم الناصر لدين الله، وذلك بمراقبة مؤيّد الدين محمّد بن العلقميّ. وفي عام (٦٠٤) للهجرة أمر الناصر العبّاسيّ ببناء دور للفقراء في الكاظميّة بعنوان دور الضيافة، وفي عام (٦٢٢) للهجرة التهمت النار المسجد وذلك في زمن حكومة الطائع بالله، فأسرع الحاكم العبّاسي إلى إعادة بناء المسجد، ولكن لم يتمّ البناء فأتمّه المنتصر. وفي عام (٦٢٣) وصف ياقوت الحمويّ الكاظميّة (مقابر قريش) بقوله: مقابر قريش، وهي مقبرة مشهورة، ومحلّها

فيه خلق كثير وعليها سور. وفي عام (٦٢٤) أمر المنتصر بالله العبّاسي بصنع صندوق على القبر الشريف.

قال الشيخ جعفر النقدي في كتابه (تاريخ الإمامين): الصندوق الساج المنتصريّ باق إلى يومنا هذا في المتحف العراقي، لأنّ الشاه الصفويّ بعد أن جاء بصندوقي الخام المرصّعين بالعاج ونصبهما على قبر الإمامين أرسل هذا الصندوق إلى المدائن، ونصب على قبر سلمان صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، وعند تأسيس دار الآثار العراقيّة نقل من المدائن إليها، وعلى هذا الصندوق كتابات لطيفة، وفيه من أحسن الفنّ ودقائقه ما لا يوصف في تزيينه، وفي كتابته اسم المستنصر بالله وتاريخه (٦٢٤) للهجرة. . وفي عام (٦٤٣) للهجرة في ليلة الجمعة الحادي عشر من شهر رمضان نُقل مؤيّد الدين أبو الحسن محمّد بن عبد الجليل القمّيّ الوزير من مدفنه بمقبرة الزرادين في المأمونية إلى تربة كان أنشأها في الكاظمية ووقف عليها وقوفاً، وفي العهد المغوليّ كان أمير قرطاي وصل إلى بغداد فعيّن عماد الدين محمّد[١] بن محمّد القزوينيّ نائباً عنه، وتقدّم إليه بعمارة جامع الخليفة ومشهد موسى الكاظم ومحمّد الجواد عليهما السلام، وفي عام (٧٦٩) للهجرة قام السلطان الجلائري بتعمير الكاظميّة وبنى قبّتين ومنارتين وأمر بوضع صندوقين.

وفي عام (٨٠٣) للهجرة دخل تيمور بغداد للمرّة الثانية بعد محاصرة دامت أربعين يوماً وخرج منها لزيارة الكاظميّة، وفي عام (٩١٤) للهجرة في الخامس والعشرين من جمادى الآخرة دخل الشاه إسماعيل الصفويّ بغداد وزار الكاظميّة وأنعم على خدمه، وأمر بأن تكون المنائر أربعاً، وأنشأ جامعاً لايزال عامراً يعرف بالجامع الصفوي. وفي عام (٩٤١) للهجرة في الرابع والعشرين من جمادى الأولى

١- جاء في **موسوعة العتبات المقدّسة**، قسم الكاظمين: ٢١٨ أنّ اسمه عمر، بدل محمّد.

دخل سليمان القانوني بغداد قائماً وزار الكاظميّة وأمر بإكمال ما لم يكمل من عمارتها، وفي عام (٩٧٨) للهجرة أكمل بناء المنارة على صحن الكاظميّة، وفي عام (١٠٣٣) للهجرة أمر الشاه عبّاس الكبير بعمل ضريح من الفولاذ لحفظ الصندوق في الخاتم.

وفي عام (١٠٤٢) للهجرة حدث غرق في بغداد والكاظميّة فتضعضعت جدران الحضرة، فأمر الشاه صفيّ بترميم ما اختلّ تعميره. وفي عام (١٠٤٧) للهجرة دخلها السلطان مراد الرابع بعد أن حاصرها أربعين يوماً، ونهب الجنود والعساكر بلدة الكاظميّة والمشهد بما فيه من قناديل الذهب والفضّة. وفي عام (١١١٥) للهجرة حجّ بيت الله الحرام التاجر محمود آغا ومعه شبّاك لحرم ضريحي الكاظمين. وفي عام (١٢١١) للهجرة أمر السلطان محمّد الشاه الأوّل مؤسّس الدولة القاجاريّة بإحداث بناء القبّتين ورؤوس المنائر وأضاف إليها ثلاث منائر أخرى على طراز المنارة السابقة التي كان قد بناها السلطان العثمانيّ. وفي عام (١٢٣١) للهجرة أمر السلطان فتح عليّ القاجاريّ بتعميرات وتحسينات أخرى. وفي عام (١٢٥٥) للهجرة اتّفق الوزير معتمد الدولة على تجديد إيوان الروضة المقدّسة. وفي عام (١٢٦٤) للهجرة عمر مرقد الكاظمين الفريق نجيب باشا. وفي عام (١٢٩٣) للهجرة جدّد بناء الصحن الشريف اعتماد الدولة فرهاد ميرزا ابن العبّاس القاجاريّ.

واستمرّت التعميرات الواسعة حتّى عام (١٣٠١) للهجرة، وفي عام (١٢٩٦) للهجرة في السابع عشر من ذي الحجّة عُمر السور كلّه بالحجر الكاشانيّ الملوّن وكُسيت الساحة بالمرمر. وفي عام (١٣٢٤) للهجرة بذلت الحاجّة المؤمنة بنت مشير الملك الشيرازيّ مقدار (٢٥٠) ألف مثقال من الفضّة في تكلفة الضريح المقدّس، وقد نُصب في اليوم الثالث من شهر جمادى الأولى سنة (١٣٢٤) للهجرة. وظلّت التعميرات والتجديدات تتوالى على المشهد الكاظميّ من

مختلف الوجوه، ومنها ما حصل في عام (١٣٨٧) لللهجرة في تجديد كثير من الأبواب والتزيينات.

وقد جاء على مصرع الباب الداخليّ للروضة أبيات ، منها ما يلي:

وجهـانِ للحـقّ غيـرَالله مـا عبـدا ... وجـهٌ منيـرووجـه يسـتطير هُـدى

همـا الجـواد وموسـى فاعتصـم بِهمـا ... ففيهمـا الفـوزُ دنيـا والنجـاة غـدا

همـا العمـاد لمـن طاحـت بـه عمـدٌ ... همـا السـناد لظهـر يبتغـي سـندا

فـلا غرابـة لـو أنّ النظـار وإن ... كـاد الربيـع علـى بابَيهمـا سـجدا

فـلا تَسَـلني حـديثاً عـن مقامهمـا ... همـا إمامـانِ إن قامـا وإن قعـدا

فـالزم لآل رسـول الله تـربتَهم ... واعطف على حبّهم أن تفلت العقدا

وللشيخ البهائي عند زيارته للكاظمين في عام (١٠٠٣) للهجرة هذه الأبيات:

ألا يـا قاصـداً زوراء عـرّج ... علـى الغربـيِّ مـن تلـك المغـاني

ونعلَيـك اخلَعَـن واسجد خضوعاً ... إذا لاحـت لـديك القبّتـان

فتحتهمـا لعَمْـرُكَ نـارُ موسـى ... ونـورُ محمّـدٍ متقارنـانِ[1]

١- يراجع : **مزارات أهل البيت وتاريخها** للجلالي: ١١٤ - ١٢٠.

شجون بغداد في الورقة الأخيرة

كان عهد الإمام الجواد ـ بالزمن الحزين الذي امتدّ إلى خمسة و عشرين عاماً ـ عهداً حافلاً بالأعاصير و العواصف العباسية التي أحرقت البلاد و مزّقت العباد، وكانت بغداد أكثر هذه البلدان حزناً و ألماً و تمزّقاً، فتساقطت دموعها حين امتدّت ذراعا الرشيد تتصارعان على أرضها، وتناثرت شظايا هذين الذراعين على ضفاف دجلة فالتهمت خضرتها، و أزهقت أرواح أهلها في معارك طاحنة بين جيشَي الأمين والمأمون. وكان حزن بغداد وألمها يعود إلى زمن المنصور العبّاسي الذي صنع من ربوعها سجوناً مظلمة لبني عمّ الجواد عليه السلام الذين لم يكن أحد يسمع أنينهم ويحسّ بآلامهم سوى بغداد نفسها التي تلقّت نصيبها من الفتيان القتلى المضمّخين بدمائهم الطاهرة والتي أراقها المنصور و الهادي والرشيد في عقود حزينة سوداء متلفعّة بمصائبها.

فلم تكن عقود بغداد الأولى تخلو من مسحة حزينة باكية، على الرغم ممّا يُرى من أثوابها الزاهية التي ألبسها الزمان في عنفوان بدوّ شبابها و عزّ موقعها، وقد تفجّرت دموع بغداد حين تقطّعت أحشاء الجواد عليه السلام بسمّ الغدر العبّاسي، وتدثّرت بجلباب أسود حالك و سماء سوداء داكنة و نجوم بكدرتها، معتمة منكدرة لا تكاد تضيء، فبين مرارة الدهر و حلاوته عاشت بغداد سنيّ عمرها، فمن مصيبة الكاظم عليه السلام إلى مصيبة الجواد عليه السلام تراكمت الأشجان و الأحزان في سكك بغداد

وساحاتها، فلم تعد البسمة المعهودة على ثغر بغداد تُرى، فكأنّها رقدت في مقابر قريش على استحياء من الزمن العابث الذي أضحك و أبكى بعد لهو و مجون الحكومة العباسيّة في لياليها وأيّامها التي تتناسخ مع الدهور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين، وعلى آله الأطهار الميامين.

مصادر ومراجع الكتاب

- **الأئمّة الاثنا عشر**، دراسة تحليلية، عادل الأديب، منشورات دار الأضواء قم .ط الأولى ١٣٩٩ هـ.
- **الإتحاف بحبّ الأشراف**، الشيخ عبد الله بن محمّد بن عامر الشبراويّ الشافعيّ. من أعلام القرن الثاني عشر الهجريّ، منشورات المطبعة الأدبية بمصر.
- **آثار البلاد وأخبار العباد**، زكريّا بن محمّد بن محمود القزوينيّ، منشورات دار صادر بيروت ١٣٨٩ هـ.
- **إثبات الوصيّة للإمام علي بن أبي طالب** عليه السلام، علي بن الحسين بن عليّ المسعوديّ الهذليّ المتوفّى ٣٤٦ هـ ، منشورات المكتبة المرتضوية ومطبعتها في النجف الأشرف. أفسيت الرضيّ ـ قم.
- **أثر التشيّع في الأدب العربيّ**، محمّد سيّد گيلانيّ، منشورات دار العرب للبستانيّ. القاهرة ، ط الثانية ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦م.
- **الاحتجاج**، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب الطبرسيّ، من علماء القرن السادس الهجري، تعليقات وملاحظات محمّد باقر الموسويّ الخرسان، مطبعة سعيد، مشهد، ١٤٠٣ للهجرة.
- **الأخبار الطوال**، أبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري المتوفّى ٢٨٢ هـ ، تحقيق عبد المنعم عامر، جمال الدين الشيال، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، القاهرة ، ط الأولى ١٩٦٠ م.
- **أخبار الصوفيّة والزهّاد من تاريخ بغداد**، جمعته بلسم بصريّ عزّت، راجعه: بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ ، بيروت، ط الأولى ٢٠٠٤.

• **أخبار القرامطة، الأحساء ـ الشام ـ العراق ـ اليمن**، جمع وتحقيق ودراسة الدكتور سهيل زكّار، نشروتوزيع عبد الهادي حرصونيّ دمشق، ط الأولى ١٩٨٠م.

• **الاختصاص**، محمّد بن محمّد بن النعمان العكبري البغداديّ الملقّب بالشيخ المفيد المتوفّى ٤١٣ هـ، تحقيق عليّ أكبر غفّاريّ، منشورات مكتبة الزهراء، قمّ، ١٤٠٢ هـ.

• **اختيار معرفة الرجال(رجال الكشّيّ)** أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى٤٦٠ هـ، تحقيق حسن المصطفويّ، منشورات كلّية الإلهيات بجامعة مشهد(دانشكدة إلهيات ومعارف إسلامي) ط الأولى ١٣٤٨ هجريّ شمسيّ.

• **الاختيار العلمانيّ وأسطورة النموذج**، سعيد ناشيد، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت، ط الأولى ٢٠١٠ م.

• **الأديان الكبرى قبل الإسلام**، حاتم إسماعيل، أمجاد للطباعة والنشروالتوزيع، بيروت، ط الأولى ١٤٣٠ هـ.

• **الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد** محمّد بن محمّد بن النعمان المعروف، بالشيخ المفيد، المتوفّى ٤١٣ هـ، منشورات بصيرتي قم.

• **أزمة الخلافة والإمامة وآثارها المعاصرة**، الدكتور أسعد القاسم، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، بيروت، ط الأولى ١٤١٨ هـ.

• **أسباب النزول**، أبو الحسن عليّ بن أحمد الواحديّ النيسابوريّ المتوفّى ٤٦٨ هـ، نشر دار الكتب العلمية، بيروت.

• **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**(مطبوع بهامش الإصابة)، أبو عمر يوسف بن عبد الله ابن محمّد بن عبد البرّ القرطبي المتوفّى ٤٦٣، دار إحياء التراث العربيّ، بيروت، ط الأولى ١٣٢٨هـ.

• **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، عزّ الدين أبو الحسن عليّ بن محمّد بن عبد الكريم الجزريّ المتوفّى ٦٣٠ للهجرة، منشورات دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

• **الإصابة في تمييز الصحابة**، أبو الفضل أحمد بن عليّ بن حجر العسقلانيّ المتوفّى ٨٥٢ هـ، دار إحياء التراث العربي، ط الأولى ١٣٢٨.

• **أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية**، الشيخ جعفر السبحاني، تحقيق مؤسسة

الإمام الصادق عليه السلام، طبع ونشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، ط الخامسة ١٤٢٠.

- **الأصول والفروع من الكافي**، محمّد بن يعقوب الكليني المتوفّى ٣٢٩ هـ، منشورات دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨٨هـ.
- **أعمار الأعيان**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن عليّ بن محمّد المتوفّى ٥٩٧ هـ، تحقيق محمود محمّد الطناحي، نشر مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط الأولى ١٤١٤هـ .
- **الأعلام**، خير الدين الزركلي المتوفّى ١٣٩٦ هـ، دار العلم للملايين ،بيروت، ط السابعة ١٩٨٦م.
- **أعلام الهداية، الإمام الحسن المجتبى** عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام ، قم، ط الثانية ١٤٢٥هـ.
- **أعلام الهداية، الإمام محمّد بن علي الجواد** عليه السلام، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام . قم، ط الثانية ١٤٢٥هـ.
- **إعلام الورى بأعلام الهدى**، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. من أعلام القرن السادس الهجريّ، صحّحه وعلّق عليه عليّ أكبر الغفّاريّ، دار المعرفة، بيروت ١٣٩٩هـ.
- **الأغاني**، أبو الفرج عليّ بن الحسين الأصفهاني المتوفّى ٣٥٦ هـ، منشورات دار صعب بيروت، روائع التراث العربي، مصوّرة عن طبعة بولاق الأصلية.
- **الاقتصاد فيما يتعلّق بالاعتقاد**، محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٤٦٠ هـ، دار الأضواء بيروت، ط الثانية ١٤٠٦هـ.
- **الإمام الرضا، تاريخ ودراسة**، محمّد جواد فضل الله، تحقيق محمّد صادق الغرّاوي، منشورات دار الكتاب الإسلامي قمّ، ط ، الأولى ٢٠٠٧م.
- **الإمام الصادق والمذاهب الأربعة**، أسد حيدر، دار الكتاب العربيّ، بيروت ط الثالثة ١٤٠٣هـ.
- **الإمام علي** عليه السلام **صوت العدالة الإنسانية، عليّ** عليه السلام **والقومية العربية**، جورج جرداق، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٧٠م.
- **الإمامة وأهل البيت** عليهم السلام النظرية و الاستدلال السيّد محمّد باقر الحكيم، المركز

الإسلامي ١٤٠٤ هـ.

• **الإمامة و أهل البيت** عليهم السلام محمّد بيوميّ مهران مركز الغدير للدراسات الاسلامية، ط الثانيّ ١٤١٥ هـ.

• **الإمامة والتبصرة من الحيرة**، أبو الحسن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي المتوفّى ٣٢٩ هـ، حققه وقدّم له السيّد محمّد رضا الحسيني، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث بيروت، ط الثانية ١٤١٢هـ.

• **الإمامة وأهل البيت** عليهم السلام النظرية و الاستدلال ، السيّد محمّد باقر الحكيم، المركز الإسلاميّ المعاصر، بيروت، ط الأولى ١٤٢٤هـ.

• **الإمامة وأهل البيت** عليهم السلام ، محمّد بيوميّ مهران، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط الثانية ١٤١٥هـ.

• **الإمامة والسياسة**، المعروف **بتاريخ الخلفاء**، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفّى ٢٧٦، تحقيق علي شيري، دار الأضواء ، بيروت.

• **الإمامة في الإسلام**، عارف تامر، دار الكاتب العربيّ ، بيروت ، مكتبة النهضة، بغداد.

• **الإمامة من أبكار الأفكار في أصول الدين**، أبو الحسن سيف الدين عليّ بن أبي عليّ بن محمّد بن سالم الآمديّ الحنبليّ الشافعيّ المتوفّى ٦٣١ هـ، دراسة وتحقيق محمّد الزبيديّ، الناشر دار الكتاب العربيّ بيروت، ط الأولى ١٤١٢هـ.

• **الإنباء بأنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الأمراء**، القاضي أبو عبد الله محمّد بن سلامة بن جعفر بن عليّ القضاعيّ المتوفّى٤٥٤ هـ، المعروف بتاريخ القضاعيّ، تحقيق عمر عبد السلام تدمريّ، المكتبة العصرية صيدا ، بيروت، ط الأولى ١٤١٨هـ.

• **الأنساب**، أبو سعد عبد الكريم بن محمّد بن منصور التميميّ السمعانيّ المتوفّى٥٦٢هـ تقديم وتعليق عبد الله عمر الباروديّ، دار الجنان ، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨هـ.

• **الأنوار البهيّة في تواريخ الحجج الإلهيّة**، عباس القميّ المتوفّى ١٣٥٩هـ، مؤسسة النشر بجماعة المدرسين بقم، ط الأولى، ١٤١٧هـ.

• **الأنوار الجلالية في شرح الفصول النصيرية**، جمال الدين مقداد بن عبد الله السيوري المتوفّى ٨٢٦هـ، تحقيق عليّ حاج آبادي وعبّاس جلالي نيا، مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد،

ط الأولى ١٤٢٠ هـ.

• **الأوراق**، أبو بكر محمّد بن يحيى بن عبد الله بن العبّاس الصولي المتوفى ٣٣٥ هـ. عني بنشره ج. هيورث. دن، نشر دار المسيرة، بيروت، ط الثانية والثالثة ١٤٠١ هـ.

• **إيران والعراق في العصر السلجوقي**، الدكتور عبد النعيم محمّد حسنين، منشورات دار الكتاب اللبنانيّ، بيروت، ط الأولى ١٩٨٢ م.

• **إيلاف قريش**، فكتور سحّاب، كمبيوتر و نشر المركز الثقافيّ العربيّ، بيروت ١٩٩٢م.

• **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، محمّد باقر المجلسيّ المتوفّى ١١١١ هـ، ط دار الوفاء، بيروت ، ودار الكتب الإسلامية، طهران.

• **بحوث حول بعثة رسول الله و إيمان آبائه ﷺ وما هي المعجزة**، المقالات والرسائل/المؤتمر العالميّ لألفية وفاة الشيخ المفيد، هاشم رسوليّ محلّاتيّ، نقله إلى العربية رحمان العلويّ، قمّ ١٤١٣.

• **البداية والنهاية**، الحافظ إسماعيل بن كثير الدمشقيّ المتوفّى ٧٧٤ هـ، تحقيق علي شيري، منشورات دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨ هـ.

• **البستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزمان**، المنسوب إلى أبي حامد محمّد بن محمّد الأصفهاني المتوفّى ٥٩٧ هـ، تحقيق عمر عبد السلام تدمريّ، المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت، ط الأولى ١٤٢٣ هـ.

• **بشارة المصطفى لشيعة المرتضى**، أبو جعفر عماد الدين الطبري المتوفّى ٥٧٣ هـ. منشورات المكتبة الحيدرية في النجف ١٣٨٣ هـ.

• **بغداد مدينة السلام**، ابن الفقيه أحمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمدانيّ، تحقيق صالح أحمد العليّ، وزارة الإعلام، بغداد، ط الأولى ١٩٧٧م.

• **بلدان الخلافة الشرقية**، كي لسترنج، نقله إلى العربية بشير فرنسيس وكوركيس عوّاد، مطبوعات المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٥٤م.

• **البيعة ونظام الحكم في الإسلام**، عليّ أمين جابر آل صفا، الدار الإسلامية بيروت ط الأولى ١٤٢٣ هـ.

• **تأويل مشكل القرآن**، أبو محمّد عبد الله بن مسلم بن قتيبة المتوفّى سنة ٢٧٦ هـ،

تحقيق السيّد أحمد صقر، ط دار التراث، القاهرة.

• **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمّد مرتضى الحسيني الزبيديّ المتوفّى ١٢٠٥ هـ، بتحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج وآخرين، ط مطبعة الحكومة، وزارة الإرشاد والأنباء في الكويت ١٩٦٥ م.

• **تاج المواليد في مواليد الأئمّة ووفياتهم**، العلّامة الطبرسيّ المتوفّى ٥٤٨ هـ، المطبوع ضمن مجموعة نفيسة في تاريخ الأئمّة، منشورات دار القارئ ، بيروت ، ط الأولى ١٤٢٢ هـ.

• **تاريخ الإسلام السياسيّ والدينيّ والثقافيّ والاجتماعيّ**، حسن إبراهيم حسن، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت، مصوّرة عن ط السابعة لمكتبة النهضة المصرية المطبوعة ١٩٦٥م.

• **تاريخ الأمم والملوك**، أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري المتوفّى ٣١٠ هـ، مطبعة الاستقامة القاهرة، أفسيت مكتبة أرومية، وط روائع التراث العربيّ بيروت ، بتخقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

• **تاريخ ابن الورديّ**، زين الدين عمر بن مظفّر الشهير بابن الورديّ المتوفّى٧٤٩ هـ، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف ١٣٨٩ هـ.

• **تاريخ البيهقيّ**، أبو الفضل محمّد بن حسين البيهقيّ المتوفّى ٤٧٠ هـ، ترجمة يحيى الخشّاب وصادق نشأت، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٨٢م.

• **تاريخ الخلفاء**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ المتوفّى ٩١١ من الهجرة، تحقيق محمّد محيي الدين عبد الحميد،، مطبعة السعادة بمصر، ط الأولى ١٣٧١ هـ.

• . **تاريخ الشعوب الإسلامية**، كارل بروكلمان، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس، منير بعلبكيّ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط السادسة ١٩٧٤م.

• **تاريخ مدينة السلام وأخبار محدّثيها وذكر قطّانها العلماء من غير أهلها وارديها**، أبو بكر أحمد بن عليّ بن ثابت الخطيب البغداديّ المتوفّى ٤٦٣ هـ، حقّقه وضبط نصّه وعلّق عليه بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط الأولى ١٤٢٢ هـ.

• **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، الإمام محمّد أبو زهرة، منشورات دار الفكر العربيّ.

• **تاريخ المشهد الكاظميّ، دراسات في تاريخ الكاظمية**، الشيخ محمّد حسين آل

ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، ط الأولى ١٣٨٧.

• **تحفة النظّار في غرائب الأمصار**(المشهور باسم **رحلة ابن بطّوطة**)، أبو عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الله الطنجي المتوفّى ٧٧٩ هـ، منشورات دار التراث بيروت ١٣٨٨ للهجرة.

• **التتمّة في تواريخ الأئمّة**، السيّد تاج الدين بن عليّ بن أحمد الحسينيّ العامليّ، من أعلام القرن الحادي عشر الهجريّ، قسم الدراسات الإسلامية ـ مؤسسة البعثة ـ قمّ، ط الأولى ١٤١٢ هـ.

• **تحفة الأبرار في مناقب الأئمّة الأطهار**عليهم السلام، عماد الدين حسن بن عليّ الطبريّ من أعلام القرن السابع الهجريّ، تعريب عبد الرحيم مبارك، مجمع البحوث الإسلامية ، مشهد، ط الثانية ١٤٢٧ هـ.

• **تحفة الأحوذيّ بشرح جامع الترمذيّ**، الحافظ أبو العلاء محمّد بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوديّ المتوفّى ١٣٥٣ هـ، توثيق صبري محمّد جميل العطّار، دار الفكر، بيروت ٢٠٠٣ م.

• **تذكرة الحفّاظ**، أبو عبد الله شمس الدين الذهبي المتوفّى ٧٤٨ هـ، منشورات دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

• **ترتيب جمهرة اللغة** محمّد بن الحسن بن دريد الأزديّ المتوفّى ٣٢١ هـ. تصحيح وترتيب عادل البدريّ، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد.

• **تذكرة الخواصّ**، شمس الدين أبو المظفّر يوسف بن فرغلي بن عبد الله، سبط أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزيّ المتوفّى٦٥٤ هـ، منشورات مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام ، بيروت ١٤٠١ هـ.

• **تفسير العيّاشي**، محمّد بن مسعود بن عيّاش السلمي المتوفّى ٣٢٠ هـ، تصحيح السيّد هاشم الرسولي المحلّاتيّ، المطبعة العلمية قمّ.

• **تفسير القمّي**، علي بن إبراهيم القمّي المتوفّى ٣٢٨ ، منشورات الأعلمي بيروت ط الأولى ١٩٩١.

• **التفسير الكبير**، الفخر الرازيّ محمّد فخر الدين المتوفّى٦٠٤ هـ، منشورات المكتبة العلمية، طهران، ط الثانية.

• **تفسير أبي القاسم الكعبيّ البلخيّ** المتوفّى٣١٩ هـ، جمع و إعداد وتحقيق خضر محمّد

نبها، تقديم رضوان السيّد، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط الأولى١٤٢٨ هـ.

• **التنبيه بالمعلوم، البرهان على تنزيه المعصوم عن السهو والنسيان**، محمّد بن الحسن الحرّ العاملي المتوفّى ١١٠٤ هـ، حققه محمود البدري، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلاميّ قم، ط الأولى ١٤١٨ هـ.

• **تنقيح المقال في علم الرجال**، الشيخ عبد الله بن محمّد حسن المامقانيّ المتوفّى١٣٥١ للهجرة. تحقيق واستدراك الشيخ محيي الدين المامقانيّ، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط الأولى ١٤٢٥، انتشارات جهان، طهران.

• **تهذيب الأحكام في شرح المقنعة**، محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٤٦٠ هـ، تصحيح السيّد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران.

• **تهذيب التهذيب**، أحمد بن عليّ بن عليّ بن حجر العسقلانيّ المتوفّى ٨٥٢ هـ، دار صادر بيروت ١٣٢٥ للهجرة، ط الأولى.

• **التوحيد**، محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّيّ المتوفّى ٣٨١ هـ، نشر جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقمّ المقدّسة.

• **الثورة العبّاسية**، محمّد عبد الحي شعبان، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسيّ، دار الدراسات الخليجية.

• **الجامع الصحيح(سنن الترمذيّ)** أبو عيسى محمّد بن عيسى المتوفّى ٢٧٩ للهجرة، منشورات دار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

• **جامع كرامات الأولياء**، يوسف بن إسماعيل النبهاني المتوفّى ١٣٥٠ هـ، المكتبة الشعبية، بيروت، ط الثالثة ١٣٩٨ هـ.

• **الجبال والأمكنة والمياه**، محمود بن عمر الزمخشريّ المتوفّى ٥٣٨ هـ، تحقيق السيّد محمّد صادق آل بحر العلوم، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف.

• **جهاد الشيعة في العصر العبّاسيّ الأوّل**، الدكتورة سميرة مختار الليثيّ، نسخة مصوّرة عن الطبعة المصرية.

• **الجوامع والفوارق بين السنّة والشيعة**، محمّد جواد مغنية، تحقيق عبد الحسين مغنية، مؤسّسة عزّ الدين للطباعة والنشر بيروت، ط الأولى ١٤١٤ هـ.

• **حركة التاريخ عند الإمام عليّ** عليه السلام، دراسة في نهج البلاغة. محمّد مهدي شمس الدين، المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط الأولى ١٤٠٥ هـ.

• **حركة الترجمة في المشرق الإسلاميّ في القرنين الثالث والرابع للهجرة**. رشيد الجميليّ، وزارة الثقافة والإعلام، دار الحرّية للطباعة، بغداد ١٩٨٦م.

• **حضارة العراق**، مجموعة من الكتّاب، دار الحرّية للطباعة، بغداد ١٩٨٠م.

• **حلية الأبرار في أحوال محمّد وآله الأطهار** عليهم السلام، السيّد هاشم البحرانيّ. مؤسّسة المعارف الإسلامية، ط الأولى ١٤١٤ هـ.

• **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة**. كمال الدين أبو الفضل عبد الرزّاق بن الفوطي البغدادي المتوفّى ٧٢٣ للهجرة، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٧ هـ.

• **الحور العين**، أبو سعيد نشوان بن سعيد بن نشوان الحميريّ المتوفّى ٥٧٣ للهجرة، حقّقه وضبطه ووضع فهارسه كمال مصطفى، طبع في طهران ١٩٧٢ للميلاد.

• **خطط بغداد في العهود العبّاسية الأولى**، الدكتور يعقوب لسنر، ترجمة الدكتور صالح أحمد العليّ، مطبعة المجمع العلميّ العراقي، بغداد ١٩٨٤م.

• **الخلاف**، أبو جعفر محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٤٦٠ هـ، نشر جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قمّ.

• **الخلافة العبّاسية في عصر الفوضى العسكرية**. فاروق عمر، منشورات مكتبة المثنّى، بغداد، ط الثانية ١٩٧٧م.

• **الخوارج عقيدة وفكراً وفلسفة**، عامر النجّار، سلسلة دراسات في علم الكلام، منشورات دار المعارف، القاهرة، ط الثانية ١٩٨٨م.

• **دراسات في مصطلح السياسة عند العرب**، أحمد عبد العلّام، نشر الشركة التونسية للتوزيع، تونس ١٩٧٨ م.

• **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطيّ المتوفّى ٩١١ هـ، منشورات دار المعرفة، بيروت.

• **الدرّ النظيم في مناقب الأئمّة اللهاميم**، جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي من

أعلام القرن السابع، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين بقم، ط الأولى ١٤٣١هـ.

• **الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، سير توماس. و. أرنولد، ترجمه إلى العربية وعلّق عليه حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط الثانية ١٩٥٧ م.

• **دلائل الإمامة**، أبو جعفر محمّد بن جرير بن رستم الطبريّ، من أعلام الإماميّة في المائة الرابعة، منشورات المطبعة الحيدرية ومكتبتها في النجف الأشرف ١٣٨٣ هـ.

• **دور الحجاز في الحياة السياسيّة العامّة في القرنين الأوّل والثاني للهجرة**، أحمد إبراهيم الشريف

• **الدولة العبّاسية، محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية**، الشيخ محمّد الخضريّ، منشورات دار المعرفة بيروت ، ط ، السابعة ١٤٢٦ هـ.

• **الدولة العبّاسية تكامل البناء الحضاريّ**، عيسى الحسن، الأهلية للنشر والتوزيع عمّان ـ الأردن، ط الأولى ٢٠٠٩م.

• **ديوان الحلّاج**(الحسين بن منصور المتوفّى ٣٠٩ هـ) وضع حواشيه وعلّق عليه محمّد باسل عيون السود، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثانية ١٤٢٣ هـ.

• **الرجال**، أبو جعفر أحمد بن أبي عبد الله البرقيّ المتوفّى ٢٨٠ هـ، منشورات جامعة طهران، ط الثانية.

• **الرجال**، تقي الدين الحسن بن عليّ بن داود الحلّيّ المتوفّى ٧٤٠ هـ، منشورات جامعة طهران، ط الثانية.

• **رجال حول أهل البيت** عليهم السلام، الموسوعة التاريخية الميسّرة، محمّد فوزيّ، دار الصفوة، بيروت، ط الأولى ١٤١٤ هـ.

• **الرجال**(المشهور **برجال الشيخ**)، الشيخ محمد بن الحسن الطوسي المتوفّى ٤٦٠ هـ، تحقيق السيّد محمّد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية بالنجف، ط الأولى ١٣٨١هـ.

• **رجال صحيح مسلم**، أحمد بن محمّد بن عليّ بن منجويه الأصفهاني المتوفّى ٤٢٨ هـ، تحقيق عبد الله الليثيّ، دار المعرفة، بيروت، ط الأولى ١٤٠٧هـ.

• **رجال الكشّي(اختيار معرفة الرجال)**.

• **رجال النجاشي**، أبو العبّاس أحمد بن علّي النجاشي المتوفّى ٤٥٠ هـ، تحقيق السيّد موسى الشبيري الزنجاني، نشر مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسّين في قم، ط الأولى ١٤٠٧م.

• **الرسالة البغداديّة**، أبو حيّان عليّ بن محمّد التوحيديّ المتوفّى٤١٤ هـ، تحقيق عبّود الشالجي، منشورات الجمل، ألمانيا، ط الأولى ١٩٩٧م.

• **رسوم دار الخلافة**، أبو الحسين هلال بن المحسّن الصابئ المتوفّى ٤٤٨ هـ، تحقيق ميخائيل عوّاد، منشورات دار الرائد العربي ، بيروت، ط الثانية ١٩٨٦م.

• **الرسالة القشيرية في علم التصوّف**، عبد الكريم بن هوازن القشيريّ المتوفّى ٤٦٥ هـ، دار الكتاب العربيّ بيروت.

• **روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات**، محمّد باقر الموسويّ الأصفهانيّ المتوفّى ١٣١٣هـ، عنيت بنشره مكتبة إسماعيليان، قمّ.

• **روضة الكافي**، محمّد بن يعقوب الكليني المتوفّى ٣٢٩ هـ، تحقيق الشيخ محمّد جواد الفقيه، دار الأضواء، بيروت، ط الأولى ١٤١٣هـ.

• **روضة الواعظين**، أبو عليّ محمّد بن الحسن بن علي الفتّال النيسابوريّ، من أعلام القرن الخامس والسادس الهجريّ، تحقيق غلام حسين المجيديّ ـ مجتبى الفرجيّ، منشورات دليل ما ، قمّ، ط الأولى ١٤٢٣ هـ.

• **زينب الكبرى**، الشيخ جعفر النقديّ، منشورات الشريف الرضيّ، قمّ، مصوّرة عن النسخة المطبوعة في المطبعة الحيدرية في النجف ، الطبعة الثالثة.

• **سفينة البحار ومدينة الحكم والآثار**، الشيخ عبّاس القمّيّ المتوفّى ١٣٥٩هـ، تحقيق مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ط الأولى ١٤١٦ هـ.

• **سيرة الأئمّة الاثني عشر**، هاشم معروف الحسنيّ، دار القلم ودار التعارف، بيروت ط الأولى والثالثة ١٩٨١م.

• **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحيّ بن العماد الحنبليّ المتوفّى ١٠٨٩ هـ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت.

• **شرح الزرقانيّ على موطّأ مالك**، محمّد بن عبد الباقي بن يوسف المتوفّى ١١٢٢ هـ، منشورات دار المعرفة، بيروت، ط الأولى ١٤٠٧ هـ.

• **الشيعة الإماميـة**، محمّد صادق الصدر، قدّم له حامد حفني داود، راجعه السيّد مرتضى الرضويّ، مطبوعات النجاح، القاهرة، ط الثانية ١٤٠٢ هـ.

• **الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة**، هاشم معروف الحسنيّ، دار القلم، بيروت، ط الأولى ١٩٧٨م.

• **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجّاج النيسابوريّ المتوفّى ٢٦١ هـ، منشورات دار الفكر ودار إحياء التراث العربيّ، بيروت.

• **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين أبو نصر عبد الوهّاب بن تقيّ الدين السبكيّ المتوفّى ٧٧١ هـ، منشورات دار المعرفة للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، ط الثانية وط دار الكتب العلمية، بيروت الأولى المنشورة ١٩٩٩م.

• **طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب**، تصنيف السلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف ابن رسول، من أعلام القرن السابع الهجري، حقّقه ك. و. سترستين، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط الأولى ١٤٢٢هـ.

• **العامّة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة ـ دراسة في التاريخ الاجتماعيّ**، الدكتور فهمي سعد، دار المنتخب العربيّ للدراسات والنشر والتوزيع ـ المؤسّسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط الأولى ١٤١٣هـ.

• **العبّاسيون في سنوات التأسيس**، عصام سخنيني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط العربية الأولى ١٩٩٨م.

• **العبر في خبر من غبر**، الحافظ أبو عبد الله محمّد بن أحمد الذهبي المتوفّى ٧٤٨ هـ، تحقيق أبو هاجر محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

• **العراق في العصر الأمويّ من الناحية السياسية والإدارية**، ثابت إسماعيل الراويّ، منشورات مكتبة النهضة، بغداد، ط الأولى ١٩٦٥ م.

• **العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي**، الدكتور إحسان النص، منشورات دار اليقظة العربية، بيروت.

• **عقلاء المجانين**، أبو القاسم الحسن بن محمّد النيسابوريّ المتوفّى سنة ٤٠٦ هـ، تحقيق محمّد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت.

• **العقيدة والسياسة**، لؤي صافي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، ط الثانية ١٩٩٦م.

• **عقيدة الشيعة**، دوايت م. رونلدسن، مؤسّسة المفيد، بيروت، ط الثانية ١٤١٠ هـ.

• **علل الشرائع**، محمّد بن عليّ بن بابويه القمّيّ المتوفيّ ٣٨١ هـ، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٥ هـ.

• **عليّ بن موسى الرضا عليه السلام والفلسفة الإلهيّة**، عبد الله الجواديّ الآمليّ، تحقيق محمّد حسن شفيعيان، نشر دار الإسراء للنشر قمّ، ط الثالثة ١٤٢٧ هـ.

• **العمارة العبّاسيّة في سامراء**، طاهر مظفّر العميد، منشورات وزارة الإعلام. بغداد ١٩٧٦م.

• **عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب**، عمدة النسّابين جمال الدين أحمد بن عليّ الحسينيّ المعروف بابن عنبة المتوفّى ٨٢٨ هـ، تحقيق السيّد مهدي الرجائي، نشر مكتب آية الله المرعشيّ النجفي ـ الخزانة العالمية للمخطوطات الإسلامية، قمّ، ط الأولى ١٤٢٥ هـ.

• **عيون الأخبار وفنون الآثار**، الداعي المطلق إدريس عماد الدين القرشيّ المتوفّى ٨٧٢ هـ، تحقيق وتقديم الدكتور مصطفى غالب، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط الثانية ١٤٠٦ هـ.

• **عيون المعجزات**، الشيخ حسين بن عبد الوهّاب، من علماء القرن الخامس الهجري، منشورات مكتبة الداوريّ، قمّ.

• **فائق المقال في الحديث والرجال**، أحمد بن عبد الرضا البصري المتوفّى ١٠٨٥ هـ، تحقيق غلام حسين قيصريه ها، مؤسّسة دار الحديث الثقافية، قمّ، ط الأولى ١٤٢٢.

• **الفتوح**، أبو محمّد أحمد بن أعثم الكوفيّ المتوفّى ٣١٤ للهجرة، دار الندوة الجديدة، بيروت.

• **فرق الشيعة**، الحسين بن موسى النوبختيّ، من أعلام القرن الثالث للهجرة، صحّحه وعلّق عليه السيّد محمّد صادق آل بحر العلوم، المطبعة الحيدرية، النجف ١٣٥٥ هـ.

• **الفكر الإماميّ من النصّ حتّى المرجعية**، محمّد حسين الصغير، دار المؤرّخ، بيروت، ط الأولى ٢٠٠٠م.

• **فلسفة الولاية**، محمّد جواد مغنية، دار الجواد ـ دار التيّار الجديد، بيروت، ط الرابعة ١٤٠٤ هـ.

• **الفهرست**، محمّد بن الحسن الطوسيّ المتوفّى ٤٦٠، تحقيق السيّد محمّد صادق آل بحر العلوم، نشر المكتبة المرتضوية، النجف.

• **قصور العراق العربية والإسلاميّة حتّى نهاية العصر العبّاسيّ ٦٥٦ هـ**، طالب عليّ الشرقيّ، وزارة الثقافة، دارالشؤون الثقافية العامّة، بغداد، ط الأولى ٢٠٠١م.

• **الكافي في الفقه**، أبو الصلاح تقي الدين بن نجم الدين بن عبيد الله بن محمّد الحلبيّ المتوفّى٤٤٧ هـ، تحقيق رضا أستادي، منشورات مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّعليه السلام ،أصفهان.

• **الكتاب في الحضارة الإسلامية**، يحيى وهيب الجبوريّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط الأولى ١٩٩٨ م.

• **الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل في وجوه التأويل**، جار الله محمود بن عمر الزمخشريّ المتوفّى ٥٢٨ هـ، نشر دار الكتاب العربيّ، بيروت.

• **كشف الغمّة في معرفة الأئمّة**، أبوالحسن عليّ بن عيسى بن أبي الفتح الإربليّ المتوفّى ٦٩٣ هـ، علّق عليه السيّد هاشم الرسوليّ، منشورات مكتبة بني هاشميّ، تبريز١٣٨١.

• **الكامل في التاريخ**، أبوعلي بن أبي الكرم محمّد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير الجزري المتوفّى ٦٣٠ هـ، تصحيح محمّد يوسف الدقّاق، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الثالثة ١٩٩٨م.

• **كامل الزيارات**، أبو القاسم جعفربن محمّد بن قولويه المتوفّى ٣٦٧ هـ، صححه وعلّق عليه عبد الحسين الأمينيّ التبريزيّ، طبع في المطبعة المرتضوية في النجف الأشرف ١٣٥٦ هـ.

• **كمال الدين وإتمام النعمة**، محمّد بن عليّ بن بابويه القمّيّ المتوفّى٣٨١ هـ، منشورات ذوي القربى، قم، ط الأولى ١٤٢٨هـ.

• **لسان الميزان**، أحمد بن عليّ بن حجر العسقلاني المتوفّى ٨٥٢ هـ، منشورات مؤسّسة الأعلمي، بيروت، ط الثانية ١٣٩٠هـ.

• **اللمع في تاريخ التصوّف الإسلاميّ**، أبو نصر عبد الله بن عليّ السرّاج الطوسيّ المتوفّى ٣٧٨ هـ، ضبطه وصحّحه كامل مصطفى الهنداويّ، منشورات محمّد عليّ بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٢١هـ.

• **مآثر الإنافة في معالم الخلافة**، أحمد بن عبد الله القلقشنديّ المتوفّى ٨٢١ هـ، تحقيق عبد الستّار أحمد فرّاج، عالم الكتب بيروت.

• **مجمع البيان في تفسير القرآن**، الشيخ أبو عليّ الفضل بن الحسن الطبرسيّ المتوفّى ٥٤٨ هـ، ط مطبعة العرفان صيدا، أفسيت منشورات مكتبة آية الله المرعشيّ النجفيّ، قم ١٤٠٣هـ بخمسة مجلّدات.

• **المجموع شرح المهذّب**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النوويّ المتوفّى ٦٧٦ هـ، منشورات دار الفكر، بيروت.

• **مجموعة وفيّات الأئمّة** عليهم السلام، مجموعة من العلماء، دار البلاغة بيروت، ط الأولى ١٩٩١م.

• **محمّد الجواد** عليه السلام **- الإمام المعجزة**، كامل سليمان، دار التعارف للمطبوعات، بيروت.

• **المختصر في أخبار البشر**، عماد الدين إسماعيل أبو الفداء صاحب حماة ابن السلطان نور الدين أبي الحسن عليّ المتوفّى ٧٣٢ هـ، منشورات المطبعة الحسينية المصرية، ط الأولى.

• **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، الحسين بن عليّ المسعوديّ المتوفّى ٣٤٦ هـ، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، طبعة بربيه دي مينار وبافيه دي كرتاي، عني بتحقيقها وتصحيحها شارل بلاّ، بيروت ١٩٧٣م.

• **مزارات أهل البيت** عليهم السلام **وتاريخها**، محمّد حسين الحسينيّ الجلاليّ، مؤسّسة الأعلمي، بيروت، ط الثالثة ١٤١٥هـ.

• **مسند أحمد** بن محمّد بن حنبل المتوفّى ٢٤١ هـ، منشورات دار صادر، بيروت.

• **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، أحمد بن عليّ الفيّوميّ المتوفّى سنة ٧٧٠ هـ، المكتبة العلمية، بيروت ومطبوعة دار الهجرة، قم.

• **مطالب السؤول في مناقب آل الرسول**، كمال الدين محمّد بن طلحة بن محمّد بن الحسن القرشيّ العدوي الشافعيّ المتوفّى٦٥٢ هـ، طبع بإشراف السيّد عبد العزيز الطباطبائيّ، مؤسّسة البلاغ، بيروت، ط الأولى ١٤١٩هـ.

• **المعارف**، ابن قتيبة أبو محمّد عبد الله بن مسلم المتوفّى ٢٧٦ هـ، حقّقه وقدّم له ثروت عكاشة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القوميّ في مصر، أفسيت منشورات الرضيّ، قمّ ١٤١٥ هـ.

• **معاني الأخبار**، محمّد بن عليّ بن بابويه القمّيّ المتوفّى ٣٨١ هـ، تحقيق عليّ أكبر غفّاريّ، نشر جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية، قمّ المقدسة.

• **المعتزلة بين القديم والحديث**، دراسات في الفرق، محمّد العبده، طارق عبد الحليم، دار الأرقم برمنجهام، ط الأولى ١٤٠٨ هـ.

• **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحمويّ الروميّ المتوفّى ٦٢٦ هـ، منشورات دار صادر، بيروت، ط الثانية ١٩٩٥ م.

• **معجم رجال الحديث**، السيّد أبو القاسم الموسويّ الخوئيّ المتوفّى ١٤١٣ هـ، منشورات مطبعة الآداب، النجف، ط الأولى.

• **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكريّ الأندلسيّ المتوفّى٤٨٧ هـ، حقّقه جمال طلبة، دار الكتب العلمية بيروت، محمّد عليّ بيضون، ط الأولى ١٩٩٨م.

• **معراج الهداية**، دراسة حول الإمام عليّعليه السلام ومنهج الإمامة، الدكتور سعيد يعقوب، سلسلة الرحلة إلى الثقلين الرقم ١١، مركز الأبحاث العقائدية، قمّ، ط الأولى ١٤٢٤ هـ.

• **المقالات والرسائل**، مجموعة مقالات ورسائل لمجموعة من المؤلّفين، نشرت بمناسبة الذكرى الألفية لوفاة الشيخ المفيد سنة ١٤١٤ هـ. في قمّ بتسلسل ٦ و١١.

• **المقالات والفرق**، سعد بن عبد الله الأشعري القمّي المتوفّى ٢٩٩ أو٣٠١ هـ، تحقيق محمّد جواد مشكور، مجموعة ميراث إيران و إسلام، وزارة الثقافة الإسلامية في إيران.

• **مقاتل الطالبيين**، أبو الفرج علي بن الحسين الأصفهاني المتوفّى ٣٥٦ هـ، قدّم له وأشرف على طبعه كاظم المظفّر، منشورات المكتبة الحيدرية في النجف، ط الثانية ١٣٨٥ هـ، أفسيت دار الكتاب، قمّ.

• **المقنع في الإمامة**، الشيخ عبيد الله بن عبد الله السدآباديّ من أعلام القرن الخامس الهجريّ، تحقيق شاكر شبع، مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقمّ، ط الأولى ١٤١٤ هـ.

• **المقنعة**، محمّد بن محمّد بن النعمان المعروف بالشيخ المفيد المتوفّى ٤١٣ هـ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلمية بقم، ط الرابعة.

• **الملل والنحل**، أبو الفتح محمّد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستانيّ المتوفّى ٥٤٨ هـ، تحقيق محمّد سيّد كيلانيّ، منشورات دار صعب، بيروت ١٤٠٦ هـ.

• **مناقب آل أبي طالب**، أبو جعفر رشيد الدين محمّد بن عليّ بن شهراشوب المازندرانيّ المتوفّى ٥٨٨ هـ، عني بتصحيحه والتعليق عليه السيّد هاشم الرسولي المحلّاتيّ، المطبعة العلمية، قمّ.

• **المناقب والمثالب**، القاضي أبو حنيفة النعمان بن محمّد التميميّ المغربيّ المتوفّى ٣٦٣ هـ، تحقيق ماجد بن أحمد العطيّة، منشورات مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات بيروت. ط الأولى ١٤٢٣ هـ.

• **منتهى المقال في أحوال الرجال**، أبو عليّ الحائريّ الشيخ محمّد بن إسماعيل المازندرانيّ المتوفّى ١٢١٦ هـ، تحقيق و نشر مؤسّسة آل البيت لإحياء التراث، بيروت ١٤١٩ هـ.

• **من حياة أهل البيت** عليهم السلام، محمّد علي التسخيري، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، ط الثانية ١٤١٩ هـ.

• **مهج الدعوات ومنهج العبادات**، أبو القاسم رضي الدين علي بن موسى بن طاوس المتوفّي ٦٦٤ هـ، منشورات كتابخانه سنائي.

• **المؤتلف من المختلف بين أئمّة السلف**، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسيّ المتوفّى ٥٤٨ هـ، تحقيق قسم الفقه في مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ط الثانية ١٤٣٠ هـ.

• **موجز سيرة الرسول** صلّى الله عليه وآله **وأهل البيت** عليهم السلام، تأليف ونشر لجنة التأليف ـ مؤسّسة البلاغ طهران، ط الأولى ١٤١٤ هـ.

• **موسوعة التاريخ الإسلامي**، العصر العبّاسيّ، خالد عزّام، دار أسامة للنشر والتوزيع الأردن ـ عمّان، ط الأولى ٢٠٠٦ م.

• **موسوعة العتبات المقدّسة**، مجموعة من الباحثين، أعدّها وجمعها جعفر الخليليّ، منشورات مؤسّسة الأعلميّ ، بيروت، ط الثانية ١٤٠٧ هـ.

• **موسوعة الفرق الإسلامية**، محمّد جواد مشكور، ترجمة علي هاشم، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، ط الأولى ١٤١٥هـ.

• **ميزان الاعتدال**، أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبيّ المتوفّى٧٤٨ هـ، تحقيق عليّ محمّد البجّاويّ، دار المعرفة، بيروت.

• **الميزان في تفسير القرآن**، محمّد حسين الطباطبائيّ، منشورات الأعلميّ، بيروت، ط الثانية.

• **النزاع والتخاصم فيما بين أميّة وبني هاشم**، أحمد بن عليّ بن عبد القادر بن محمّد بن إبراهيم بن تميم المقريزيّ الشافعيّ المتوفّى ٨٤٥، تصحيح الشيخ محمود عرنوس، منشورات مكتبة الأهرام بمصر١٩٣٧م.

• **نضد القواعد الفقهية على مذهب الإمامية**، مقداد بن عبد الله السيوريّ الحلّيّ المتوفّى ٨٣٦ هـ، تحقيق عبد اللطيف الكوهكمري، منشورات مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النجفيّ، مطبعة الخيام، قمّ ١٤٠٣هـ.

• **نظام الإسلام، الحكم والدولة**، محمّد المبارك، منظمة الإعلام الإسلاميّ ، طهران ١٤٠٤هـ.

• **نظرات في التقيّة**، جعفر البيّاتي، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ط الأولى ١٤٣١هـ.

• **نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار**صلى الله عليه وآله، الشيخ المؤمن بن حسن مؤمن الشبلنجيّ من علماء القرن الثالث عشر الهجريّ، دار الجيل، بيروت ١٤٠٩هـ.

• **نهج البلاغة**، مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليّعليه السلام، تصحيح صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة قم، ط الأولى ١٤٠٧.

• **الهداية**، محمّد بن عليّ بن بابويه القمّيّ المعروف بالصدوق المتوفّى ٣٨١، منشورات دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٧٧هـ.

• **الهداية الكبرى**، أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبيّ المتوفّى ٣٣٤ هجرية، مؤسسة البلاغ للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٤١٩ هـ.

- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أبو العبّاس أحمد بن محمّد بن إبراهيم بن أبي خلّكان المتوفّى ٦٨١ هـ، حقّق أصوله وكتب هوامشه يوسف عليّ طويل ومريم قاسم طويل، منشورات محمّد علي بيضون ـ دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٩ هـ.
- **هوية التشيّع**، الشيخ أحمد الوائليّ، دار الكتاب الإسلاميّ، قمّ، الثانية ١٣٦٢ هجريّ شمسي.
- **ينابيع المودّة**، الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزيّ الحنفيّ المتوفّى ١٢٩٤ هـ، منشورات دار الكتب العراقية، محمّد اعتماد الكتبيّ، بغداد ١٩٦٦، ط الثامنة.

فهرست موضوعات الكتاب